

أسرار التوحيد

في مقامات الشيخ أبي سعيد

- ♦ المؤلف: محمد بن المنور بن أبي سعيد بن أبي طاهر
- ♦ العنوان: أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد
- ♦ تقديم وترجمة: د. إسعاد عبد الهادي قنديل
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2018
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٧ / ١٧٦٧٩

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 124 - 0

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

أسرار التوحيد

في مقامات الشيخ أبي سعيد

تأليف

محمد بن المنور بن أبي سعيد بن أبي طاهر بن أبي سعيد بن أبي الخير

تقديم وترجمة

د. سعاد عبد الهادي قنديل

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

أبي سعيد، محمد بن المنور .
أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد -
تقديم وترجمة / د. سعاد عبد الهادي قنديل
ط1 القاهرة - آفاق للنشر والتوزيع - 2018
400 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 17679 / 2017
الترقيم الدولي 0 - 124 - 765 - 977 - 978
1 - تراث
أ - أبي سعيد ، محمد بن المنور
ب - العنوان

مقدمة الطبعة الثانية

ترجمة كتاب «أسرار التوحيد» طبعت للمرة الأولى في عام ١٩٦٦، وكنت قد قمت بها في الفترة ما بين عامي ١٩٦١م - ١٩٦٣م، حين كنت أعد لكتابة بحث عن أبي سعيد ابن أبي الخير للحصول على درجة الماجستير. وقد اعتمدت حين ذاك على النص الفارسي للكتاب الذي نشره ذبيح الله صفا في طهران عام ١٣٣٢هـ.ش.

وبعد الانتهاء من البحث أشار بعض أساتذتي بنشر الترجمة، نظراً لأهمية الكتاب، بعد أن أظهروا رضاهم عن تلك الترجمة على أساس أنها تصلح للنشر، فقدمتها إلى الدار المصرية للتأليف والترجمة التي قامت مشكورة بنشرها في عام ١٩٦٦م.

وخلال تلك الأعوام التي انقضت بعد نشر الكتاب، كنت أتوق دائماً إلى إعادة النظر فيه وإخراجه على صورة أكمل، بإضافة بعض الحواشي والشروح التي تثري الترجمة من ناحية، ومن ناحية أخرى مراجعة بعض ما ورد في الترجمة الأولى، وبخاصة بعد ما تيسر لي الحصول على نسخة أخرى للنص الفارسي للكتاب، والذي سبق إلى نشرها المستشرق الروسي زوكوفسكي، وتتميز هذه النسخة بخلوها من كثير من الزيادات المتكررة التي أضافها ذبيح الله صفا إلى نسخته.

أضف إلى هذا أن عملي في مجال التصوف خلال تلك الأعوام المنصرمة ربما يكون قد أضاف -إلى خبرتي المتواضعة التي استندت إليها عند ترجمة الكتاب- شيئاً من وضوح الرؤية أو الخبرة فيما يتعلق بترجمة بعض النصوص الصوفية.

وظل هذا الأمل يراودني، وتحول دون تحقيقه ظروف انشغالي بكتب أخرى. ولما كانت الحاجة تدعو إلى إعادة طبع الكتاب، نظرًا لنفاذ الطبعة الأولى من سنوات وكثرة الطلب للكتاب، وعملاً بالقول: ما لم يدرك كله لا يترك كله؛ فقد قمت بمراجعة الترجمة على النص الفارسي لنسختي صفا وزوكوفسكي معاً، وأجريت بعض التعديلات المهمة، مع وعد بإضافة الحواشي والشروح إلى الطبعة الثالثة بمشيئة الله تعالى، وهو عز وجل الموفق للصواب.

والله ولي التوفيق،

د. إسعاد عبد الهادي قنديل

تقديم

كتاب «أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد»

تعريف بالكتاب:

كتاب «أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد» واحد من الآثار القيمة في النثر الفارسي التي أُلِّفت في القرن السادس الهجري. وهو - كما يستفاد من اسمه - في شرح أحوال ومقامات وأقوال الصوفي الشهير الشيخ أبي سعيد فضل الله بن أبي الخير الميهني. ويعتبر كتاب «أسرار التوحيد» أول كتاب مفصل أُلِّف باللغة الفارسية في شرح حال واحد من شيوخ الصوفية الكبار، وأقدم مؤلَّف من هذا النوع أبقت عليه الأيام فوصل إلينا.

مؤلفه:

مؤلف هذا الكتاب هو واحد من أحفاد الشيخ أبي سعيد يدعى محمد بن المنور بن أبي سعيد بن أبي طاهر سعيد بن أبي سعيد بن أبي الخير، والذي يتصل نسبه بالشيخ أبي سعيد بثلاثة أجداد.

ولا يُعرف شيء عن أحوال هذا المؤلف، إلا ما ذكره عن نفسه في بعض مواضع من كتابه.

ويستخلص مما كتبه عن نفسه أنه كان مثل جده من أهل «ميهنة»، وأنه كان في سنة ٥٥١ هـ - وهي السنة التي تخلص فيها السلطان سنجر السلجوقي من أسر الغز - شخصاً محترماً، وصاحب مكانة تجعله جديراً بالمثول بين يدي السلطان.

كما يستفاد مما كتبه في مقدمة كتابه أنه كان يهوى منذ طفولته جمع حكم جده الشيخ أبي سعيد وأقواله، وأنه قصر همته منذ بداية شبابه على استقصاء أخبار الشيخ من أبنائه وأحفاده والشيوخ الآخرين، وأخذ يتحقق من السجلات والتقاليد التي ورثتها عائلته أبا عن جد، ويجتهد في تصحيح أسانيدها، باذلاً في ذلك أقصى ما يمكنه من جهد.

ويحدثنا ابن المنور عن السبب الذي حدا به إلى تأليف هذا الكتاب، فيقول: إنه بعد الفترة العصيبة التي اكتسحت فيها قبيلة الغز التركمانية حدود خراسان؛ وأعملت النار والسلاح في هذه المقاطعة، وارتكبت المذابح ضد السكان في كل مكان، بحيث قتل في «ميهنة» وحدها خمسة عشر ومائة شخص من أبناء الشيخ وأحفاده، علاوة على الكثير من المريدين الصادقين وكبار رجال الدين وشیوخ الصوفية، حتى لقد تم القضاء تماماً على الدين، وتوقف البحث عن الحقيقة، وقنع المسلمون من الإسلام بالاسم، ومن الصوفية بالشكل؛ قد وفقته العناية الإلهية للاستجابة لمطلب بعض المريدين في أن يكتب تاريخ التجارب الروحية والحكم التي قالها الشيخ أبو سعيد لتشجيع الراغبين في سلوك الطريق، ولتكون نجماً هادياً ومرشداً لتلك الطريقة، فأقدم على تأليف هذا الكتاب معتمداً على كل المعلومات التي تسنى له أن يجمعها.

وقد أهدى المؤلف كتابه إلى ملك الغور «غياث الدين أبي الفتح محمد بن سام» (٥٥٨ - ٥٥٩هـ)، كما يتضح من مقدمة الكتاب.

تاريخ تأليف الكتاب:

لم يعين المؤلف تاريخ تأليف الكتاب في مقدمته، كما لم يشر إلى ذلك صراحة في أي موضع من كتابه.

غير أن المستشرق الروسي «زوكوفسكي» الذي قام بنشر هذا الكتاب، حدد تاريخنا لتأليفه على وجه التقريب معتمداً في ذلك على بعض ما ورد فيه، فقد ذكر ابن المنور في موضع من كتابه أنه حظي بمقابلة السلطان سنجر السلجوقي (٥١١ - ٥٥٢هـ) في «مرو» بعد أن تخلص من أسر الغز، وهو يروي قصة هذا اللقاء مشيراً إلى السلطان باعتباره

متوفياً إذا يقول:

في ذلك الوقت الذي تخلص فيه السلطان السعيد سنجر بن ملكشاه برّء الله مضجعه،
من يد الغز، وجاء إلى العاصمة مرو.

واستناداً إلى هذه العبارة، وإلى ما ورد في مقدمة الكتاب من أن المؤلف أهدى كتابه
إلى الملك غياث الدين محمد بن سام، حدد زوكوفسكي تاريخاً لتأليف الكتاب هو الفترة
ما بين «سنة ٥٥٢هـ وسنة ٥٩٩هـ». وأول التاريخين هو تاريخ وفاة السلطان سنجر،
وثانيهما تاريخ وفاة الملك غياث الدين.

وقد تابع الكثيرون زوكوفسكي في تحديد هذه الفترة لتأليف أسرار التوحيد، وخالفه
بعض المتأخرين؛ فحددوا تاريخ تأليف الكتاب بالفترة ما بين سنة ٥٧٠هـ، ٥٨٠هـ، كما
ذكر بعضهم تاريخاً سابقاً على هذه الفترة وهو سنة ٥٦٠هـ، وذكر آخرون تاريخاً تالياً
لهذه الفترة هو سنة ٥٧٤هـ.

وقد عثرت أثناء ترجمة كتاب «أسرار التوحيد» على عبارة وردت فيه يمكن استناداً
إليها أن نرجح التاريخ الأخير.

وقد وردت هذه العبارة على لسان ابن المنور عندما أخذ يعقب على بعض ما ذكره
الشيخ أبو سعيد عند وفاته من أن نفحات ولايته ستظل بين الناس مائة عام بعد وفاته،
تكون خلالها عوناً لهم وتدرأ عنهم البلايا والمحن، وبعد هذه الفترة يندثر كل شيء، فلا
يتبقى منه الرائحة ولا الأثر، فقال:

«وقد حدث هذا في الوقت الذي تمت فيه المائة عام، بحيث لم يبق في الشهر التالي
شيء من هذا كله، ولم يبق على قبره إلا نفر قليل من أبنائه ومريديه، واستشهد الباقي
جميعهم على يد الغز، واغترب بعضهم في أنحاء الدنيا، وانتقلوا جميعاً إلى رحمة الله
في غربتهم، وقد مضت الآن أربعة وثلاثون عاماً لم يظهر خلالها على قبره المقدس أي
ترتيب».

ونحن إذا استرجعنا في أذهاننا تاريخ وفاة الشيخ أبي سعيد وهو عام ٤٤٠هـ، وراعي

المائة عام التي أشار الشيخ إلى أن نفحات ولايته ستبقى خلالها، وأضفنا إلى ذلك الأربعة والثلاثين عامًا التي ذكر ابن المنور - كما يبدو من عبارته - أنها مرت عندما كان يؤلف كتابه، أمكننا أن نرجح أن كتاب أسرار التوحيد أُلِفَّ حوالي عام ٥٧٤هـ.

مصادر الكتاب:

المصادر التي اعتمد عليها المؤلف ثلاثة:

المصدر الأول:

نص لمؤلف عن أبي سعيد، لا يعرف اسمه، كتبه حفيد آخر من أحفاد الشيخ أبي سعيد قبل تأليف أسرار التوحيد. وقد قرر ابن المنور في مقدمة كتابه أنه أفاد من هذا المؤلف كما ذكر اسم مؤلفه.

وبناء على الأوصاف التي وردت في كتاب أسرار التوحيد استطاع زوكوفسكي أن يلحظ الشبه الكبير بين هذا المؤلف الذي أشار إليه ابن المنور، وبين مخطوطة وحيدة في المتحف البريطاني، مجهولة الاسم والمؤلف؛ أشار إليها ريو في فهرست المخطوطات الفارسية ص ٣٤٢.

وبمقارنة ما ذكره ابن المنور عن مضمون الكتاب الذي اعتمد عليه، وبمضمون المخطوطة، وأقوال مؤلفها التي ذكرها في بداية الفصل الأول لشرح منهجه العام في كتابه، أمكن لزوكوفسكي أن يستنتج أن نص ما ورد في هذه المخطوطة هو نفسه نص الكتاب الذي أشار ابن المنور إلى أنه أفاد منه.

غير أن زوكوفسكي لم يعثر على الاسم الحقيقي لهذا النص؛ لأن مؤلفه لم يشر إلى ذلك، كما أن ابن المنور لم يذكر ذلك الاسم في كتابه أيضًا.

وعلى هذا وضع زوكوفسكي لهذا المؤلف اسمًا ينطبق على موضوعه، فنشره تحت عنوان «حالات وسحنات شيخ أبو سعيد فضل الله بن أبي الخير الميهني».

وقد اعتمد مؤلف أسرار التوحيد على هذا الكتاب اعتمادًا كبيرًا. ونقل عنه كثيرًا حتى

أنه ليكون سدس المادة التي عرضها في كتابه، وإن كان لا يشير إلى ذلك في المواضع التي ينقل عنه فيها. كما أنه لم ينقله بأكمله. ولعل السبب في ذلك أنه لا يحوي المعلومات الثابتة التي يجزم بصحتها جميعها.

المصدر الثاني:

المصدر الثاني الذي اعتمد عليه مؤلف أسرار التوحيد، هو مجموعة من الروايات الشفوية التي جمعها المؤلف؛ والتي تأكد من صحتها. وهو يمنح السند أكبر عناية في كل قصة. ولكي يزود الملل عن القارئ بذكر سلسلة الرواة الطويلة يكتفي بذكر الحلقة الأولى فقط فيذكر شخصاً واحداً هو الأقرب إلى زمن أبي سعيد أو يكون معاصراً له. وفي هؤلاء الأشخاص نصادف أقرباء الشيخ وتلاميذه وخدامه وقراءه والشيخ.

ويقول المؤلف إنه لا يذكر من هذه الروايات إلا التي يعتقد اعتقاداً جازماً بما جاء فيها، أما التي يشك فيها فإنه يستبعدا لأنه لا يجد وجهاً لقبولها.

المصدر الثالث:

المصدر الثالث الذي اعتمد عليه ابن المنور هو بعض الكتابات التي يصدقها ويثق في صحتها، فقد ذكر في كتابه خمس مرات عبارة: رأيت مكتوباً بخط (فلان).

أقسام الكتاب:

قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أبواب:

الباب الأول:

في بداية حياة الشيخ أبي سعيد.

ويشتمل على ذكر بعض أحوال الشيخ في طفولته وشبابه، ونوع العلوم التي حصلها، والرياضات التي قام بها، وذكر أساتذته وشيوخه، وتاريخ حياته حتى بلوغه سن الأربعين.

الباب الثاني:

في أواسط حياة الشيخ، وهو على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في الحكايات المشهورة عن كرامات الشيخ والتي ثبت للمؤلف صدقها: ويبلغ عدد حكايات هذا الفصل مائة وعشر حكاية. ولكن نوع الكرامات فيها واحد، فهي تحكي - باستثناء عدد قليل منها - اطلاع أبي سعيد وإشرافه على الخواطر، وسيطرته على أفكار الآخرين.

الفصل الثاني: في الحكايات المتضمنة للفوائد، وبعض ما نقله عن المشايخ من الحكايات والأقوال.

وهذا الفصل قسمان:

الأول - يشتمل على حكايات عن الشيخ، ويبلغ عددها ثمانين حكاية.
والثاني - في أقوال الشيخ وبعض الحكايات والفوائد التي ذكرت متفرقة على لسانه.
الفصل الثالث: في بعض فوائد أنفاس الشيخ، وبعض الرسائل والأشعار التي جرت على لسانه بالقدر الذي تحقق للمؤلف صدقه.

الباب الثالث: في انتهاء حياة الشيخ، ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول في وصاياه عند وفاته.

الفصل الثاني في وفاته وكيفيتها.

الفصل الثالث في كراماته التي جرى بعضها على لسانه أثناء حياته وظهرت بعد وفاته، وبعض ما أشار إليه ورآه الناس بعد وفاته على سبيل الكرامة.

أسلوب الكتاب:

النثر الفارسي حافل بكثير من الآثار القيمة التي تخلقت فيه على مر العصور، ولعل أشهر الكُتَّاب الذين أنشأوا روائع النثر الفارسي جماعة من الأدباء والكتّاب الذين عاشوا في الفترة ما بين القرن الرابع والقرن السابع الهجري، فهذه القرون تعتبر أزهى عصور النهضة العلمية والأدبية في إيران.

وكتاب أسرار التوحيد واحد من الكتب التي ألفت في هذه الفترة، وقد كتب بالنثر

البسيط السلس الخالي من كل نوع من التكلف اللفظي والجامع لشروط البلاغة والفصاحة.

وقد أدرك مؤلف الكتاب - الذي يدل مؤلفه على حسن ذوقه ومهارته الكاملة في فنون الأدب - أن الوضوح والصدق واستقامة المعنى من أكبر شروط البلاغة، فرجح جانب المعنى على جانب اللفظ، واستعمل المفردات البسيطة السهلة الفهم في تركيب الجمل، وتخير دائماً من الألفاظ ما هو أكثر مطابقة للمعنى وأقوى دلالة عليه.

وقد التزم مؤلف أسرار التوحيد قواعد النحو الفارسي بدقة كاملة، وحرص على توضيح معنى ما يقول، فكان يتحرز دائماً من التقديم والتأخير، والحذف والزيادة. كما كان يتجنب العبارات والكلمات المتنافرة، ويتجنب التكرار الممل. وكان أيضاً يلجأ إلى الإيجاز إذا اقتضى الأمر ذلك.

وبالنسبة لرواية القصص، نجد مؤلف أسرار التوحيد يختلف عن أولئك الكتاب الذين يركزون اهتمامهم على سرد الوقائع وذكر الأحوال، فهو يهتم بوصف جزئيات كل واقعة، ويشرح كل حال ملتزماً في ذلك الدقة الشديدة.

كذلك كان المؤلف دقيقاً في إثبات بعض الحقائق والأحكام وشرح الآداب والرسوم ومصطلحات الصوفية والشروط المناسبة لكل حال ومقام، وترجمة العبارات العربية وتفسيرها.

على أننا نلاحظ ظاهرة الاستطراد التي كانت تبدو طبيعية في كتابات ذلك العصر سواء العربية منها أو الفارسية، فهذه الظاهرة تتضح في بعض المواضع من الكتاب، لا سيما في الباب الأول الذي يكتب فيه المؤلف تاريخ حياة أبي سعيد حتى بلوغه سن الأربعين، فهو عندما تعترضه شخصية أو مدينة أو ذكر مذهب يترك الموضوع الأصلي أو الحكاية التي كان يرويها ويتحدث عن هذه الشخصية أو المدينة، أو يعقد فصلاً في شرح هذا المذهب، ثم يعود إلى تكملة الموضوع الذي كان يتحدث فيه أو القصة التي كان يرويها، وفي بعض المواضع يمتد هذا الاستطراد لبضعة أسطر، ولكنه في مواضع أخرى يستغرق صفحات.

قيمة الكتاب:

كتاب «أسرار التوحيد» من أقدم وأوسع المصادر الصوفية، فهو يعتبر أول مثل بالفارسية لمؤلف قائم بذاته موضوعه حياة أحد الصوفية. وقد أعطيت فيه صورة لأبي سعيد وسط دائرة الصوفية وال دراويش الذين عاش معهم في تفاصيل واسعة. وهو من هذه الناحية يعتبر من أوضح الكتب التي صورت لنا حياة الدراويش في القرن الخامس الهجري.

والكتاب يشتمل على معلومات قيمة عن رسوم وعادات واجتماعات وتشكيلات الصوفية، والكثير من المفاهيم الحقيقية لبعض مصطلحات هذه الفئة مثل الخلوة والزاوية والرياضة والمراقبة والسماع والرقص والخرقة والمرقع والوجد والحال والقبض والبسط. كما يمدنا بوصف شامل لأنواع الرياضات والمجاهدات وآداب السلوك ومقاماته. والشروط التي ينبغي توافرها في الشيخ والمريد، وطريقة تأديب الشيخ لمريديه، ونوع العلاقة بينهما، ونظام الحياة في الخانقاهات.

ويضم الكتاب إلى جانب هذا كثيراً من التعريفات والأقوال الصوفية التي أثرت عن أبي سعيد وعن الكثير من أعلام الصوفية الذين سبقوه.

ولا يخلو الكتاب أيضاً من الفائدة في الناحية التاريخية والاجتماعية، ففيه ذكر لبعض الوقائع التاريخية والأوضاع الاجتماعية في القرنين الرابع والخامس الهجريين، فضلاً عن الكثير من أخبار شيوخ الصوفية وكبار رجال الدين والأئمة المعاصرين لأبي سعيد.

ويعتبر كتاب «أسرار التوحيد» من المصادر الأصلية التي اعتمد عليها فريد الدين العطار. ويقول زوكوفسكي إنه ينقل عنه كثيراً في تذكرته دون أن يشير إلى ذلك، وقد استفاد منه إلى أبعد حد، كما تأثر به في سرد القصص المنفصلة في كثير من الأحيان.

وقد أفاد الجامي أيضاً من «أسرار التوحيد» على نطاق واسع، وكان أساسه الذي اعتمد عليه، لا في كتابته عن أبي سعيد فحسب، وإنما في كتابته عن كثير من الشيوخ الآخرين.

وقد طبع كتاب أسرار التوحيد ثلاث مرات:

الطبعة الأولى: قام بها المستشرق الروسي «زوكوفسكي»، عندما نشر هذا الكتاب لأول مرة فطبعه في بطرسبرج عام ١٨٩٩م / ١٣١٧هـ.

الطبعة الثانية: قام بها «بهمنيار»، فطبع «أسرار التوحيد» في طهران عام ١٣١٣هـ. ش.
الطبعة الثالثة: وهي الطبعة التي قام بها ذبيح الله صفا فطبع «أسرار التوحيد» في طهران عام ١٣٣٢هـ. ش، واعتمد في ذلك على مخطوطة لمكتبة استانبول يرجع تدوينها إلى سنة ٧٠٠هـ، ويظن ذبيح الله صفا أن هذه المخطوطة أو المخطوطة التي نسخت عنها هي المتن الأصلي لأسرار التوحيد.

وقد اعتمدتُ في ترجمة هذا الكتاب على نسختي ذبيح الله صفا وزوكوفسكي، مع اختصار بعض الزيادات.

* * *

أما عن أبي سعيد؛ فهو أبو سعيد فضل الله بن أبي الخير محمد بن أحمد الميهني: شاعر فارسي، وشيخ من شيوخ الصوفية عاش في إيران في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس؛ فقد كان مولده في مدينة «ميهنة» من أعمال خاوران بإقليم «خراسان» في أول محرم لعام سبع وخمسين وثلاثمائة بعد الهجرة.

وقد تلقى أبو سعيد علومه الأولى في «ميهنة» فقرأ القرآن وتعلم النحو والصرف، ثم انتقل إلى مدينة «مرو» لدراسة الفقه فقرأ على أبي عبد الله الله الخضري خمس سنوات، وبعد وفاته تحول إلى أبي بكر القفال فقرأ عليه خمس سنوات أخرى.

وبعد ذلك توجه أبو سعيد إلى مدينة «سرخس» لدراسة علوم الدين على أبي علي زاهر بن أحمد، فكان يقرأ عليه التفسير في الفجر، وعلم الأصول في الظهر، وأخبار الرسول في العصر.

وفي «سرخس» التقى أبو سعيد يوماً بدرويش مجذوب يدعى لقمان، فقدمه إلى أبي

الفضل حسن من شيوخ الصوفية في هذه المدينة، وكان هذا اللقاء بين أبي سعيد وأبي الفضل، التحول في حياة أبي سعيد، إذ ترك بعده دراسة علوم الدين واعتنق الصوفية، واتخذ أبا الفضل مرشداً له.

وأمره أبو الفضل بالعودة إلى «ميهنة» والبحث عن مكان يختلي به ويعرض فيه عن نفسه وعن الناس، فرجع أبو سعيد إلى بلده واختار زاوية داره مكاناً لا عتكافه، وأمضى بها سبع سنوات قضاها في التأمل. ثم رجع إلى «سرخس» حيث مارس الرياضة عاماً آخر تحت إشراف أبي الفضل. وفي نهاية هذا العام أكد له أبو الفضل أن كل شيء قد انتهى، وأمره بالعودة إلى «ميهنة» ودعوة الناس.

وعاد أبو سعيد إلى «ميهنة»، ولكنه بدلاً من أن يرضي نفسه بما أكده له شيخه، زاد من رياضاته. وفي هذا الوقت توفي والداه، فاتجه إلى صحراء خاوران، وأمضى بها فترة أخرى من الرياضة امتدت لسبع سنوات قضاها متجولاً في هذه الصحراء. ولم يكن يُرى خلال هذه الفترة إلا نادراً، ويظن أنه كان يقتات بنباتات الصحراء.

وظل أبو سعيد على اتصال بأبي الفضل حسن في بداية هذه الفترة، وبعد وفاة أبي الفضل اتصل أبو سعيد بأبي عبد الرحمن السلمي في «نيسابور»، ونال على يديه الخرقه الأولى.

وفي نهاية هذه الفترة اتصل أبو سعيد بأبي العباس القصاب في آمل، ونال على يديه الخرقه الثانية.

ورجع أبو سعيد من آمل إلى «ميهنة»، وجاءت عودته مع الحدث الكبير في حياته وهو بلوغه مرحلة الكشف الكامل. ويبدو أن السلوك الطويل للطريق قاده في النهاية إلى الكشف الكامل المستمر، فانقشع عنه الحجاب الذي كان حتى ذلك الوقت يرتفع ليعود مرة أخرى، وكانت سنُّه عندئذ أربعين عاماً.

وفي «ميهنة» بدأ أبو سعيد يمارس نشاطه كولي من أولياء الله وشيخ يشرف على تربية المريدين، وكانت الخطوة الأولى هي أن حول منزله إلى خانقاه للدراويش، فتجمع حوله

المريدون، وذاعت شهرته في المناطق المجاورة.

ثم رأى أبو سعيد أن ينقل نشاطه إلى ميدان أوسع، فانتقل إلى «نيسابور»، وأخذ يعقد المجالس بها، ويقوم بوعظ الناس وإرشادهم.

ولم يكن أبو سعيد يقتصر في مجالسه على تفسير القرآن والأحاديث، بل كان يتعدى ذلك إلى قول الشعر وإقامة حلقات الرقص والسماع، الأمر الذي أثار عليه أئمة «نيسابور» ورؤساء الفرق الدينية، فشكوه إلى السلطان في غزنة. ورد السلطان على هذه الشكوى بأن يعقدوا مجلساً من أئمة المذهبين الشافعي والحنفي وأن يطبقوا عليه ما تقتضيه الشريعة، غير أن أبا سعيد استطاع أن يواجه أعداءه، وأن يجبرهم على عدم التعرض له.

وظل أبو سعيد في «نيسابور» فترة طويلة، سلك خلالها مسلكاً لفت إليه النظر، ونسبت إليه كثير من الكرامات.

ثم عاد أبو سعيد من «نيسابور» إلى «ميهنة» للمرة الأخيرة، وظل بها إلى أن توفي في الرابع من شعبان لعام أربعين وأربعمائة بعد الهجرة، بالغاً من العمر ثلاثة وثمانين عاماً وأربعة أشهر، فمن المعروف أنه عمّر ألف شهر.

* * *

ولقد كان من أهم الموضوعات التي أثير حولها الجدل بالنسبة لأبي سعيد موضوع صحة نسبة الرباعيات إليه. وقد اختلف الدارسون لأبي سعيد بشأن هذه المسألة، فاعتمد بعض المستشرقين عن حكاية وردت في كتاب «أسرار التوحيد» ذكر المؤلف فيها أن أبا سعيد كان مستغرقاً في الله بحيث لم يكن لديه القدرة على قول الشعر باستثناء بيت من الشعر ورباعية واحدة، وقالوا إن أبا سعيد لم ينظم شعراً قط، بينما أكد البعض الآخر أنه كان شاعراً، بل ووصفه البعض بأنه أول من أبدع الشعر الصوفي من شعراء إيران. ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن أبا سعيد كان يقول الشعر، وخصوصاً من لون الرباعي؛ وإن كان هذا لا يتنافي مع ما ذكرته بعض المصادر من أن الأشعار التي كان يقولها في بعض

المجالس والمناسبات، والتي كان القوالون ينشدونها بين يديه في السماع لم تكن كلها من نظمه، وإنما كانت أيضًا من نظم بعض شيوخه. وقد نص أبو سعيد بنفسه على هذا في كثير من الأحيان، كما يتضح من بعض المواضع في كتاب «أسرار التوحيد».

أما بالنسبة لمذهب أبي سعيد، فقد كان من أوائل المروجين لوحدة الوجود، ورغم أن مذهبه الذي يقوم على الفناء ووحدة الوجود لم يكن جديدًا؛ فقد سبقه إليه الصوفي الفارسي بايزيد البسطامي ومعاصره أبو الحسن الخرقاني، إلا أن عبقرية شكلته في صورة جديدة.

ويعتبر أبو سعيد من ناحية التطور التاريخي للصوفية مشرعًا مبرزًا، فقد حدد معالم الطريق، ووضع الشروط التي ينبغي توافرها في الشيخ والمريد، كما شرع القواعد والرسوم لحياة أهل الخانقاه، حتى إنه ليعد بحق المؤسس الأول لنظام الخانقاهات في الإسلام.

وأبو سعيد من أوائل شيوخ الصوفية في إيران الذين صاغوا عقائدهم وآراءهم نظامًا بالفارسية، وفي هذا الصدد يجدر اعتباره رائدًا لصوفية إيران الكبار «السنائي» و«الطار» و«جلال الدين الرومي».

ورغم أنه لم تنسب إلى أبي سعيد طريقة خاصة؛ ولم يخلفه في طريقته أتباع؛ إلا أنه أرسى أساس طريقة في التصوف تختلف عن الطرق الأخرى، فقد خالف أبو سعيد كثيرًا من الصوفية الذين سبقوه في معالجهته لبعض الأمور التي تتعلق بالتصوف، وكان يميل دائمًا إلى التخفيف من صرامة النظم الصوفية، ويترك تلاميذه يعيشون في بحبوحة وحرية.

إسعاد عبد الهادي قنديل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي نور قلوب أوليائه بلطائف أنواره، وجعل سراير أجبائه وبواطنهم كنوز أسرارهم، وكشف عن عقول أصفياه حجب الطغيان وأستاره، والصلاة والسلام على محمد عبده ونبيه وخيرته من أخياره، وعلى آله وأصحابه وأعوانه وأنصاره وسلم تسليمًا كثيرًا.

الشكر والثناء بلا حد، والحمد بلا نهاية، والمدح بلا غاية؛ لخالق الكائنات وصانع المخلوقات تعالى وتقدس صفاته، الخالق الذي خلق العالم من غير ما غرض ولا علة ولا طلب فائدة ولا خير، بل بمحض كرمه، وكمال عنايته ولطفه، وإظهارًا لقدرته غير المتناهية، وخصه بأنواع الغرائب والبدائع؛ من جملة ما أنه خلق آدم الصفي والد البشر، وموئل أهل العالم من حفنة من تراب، وترك قلبه الذي صنعه من حجر مسنون بين «مكة» والطائف أعوامًا طويلة؛ حتى إذا ما تحقق له استعداد الروح واستكمال النفس الإنسانية من عالم المشيئة، زين قلبه بحلية ﴿وَفَقَّحْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص: ٧٢]، وأطلق عليه اسم الإنسان. ولما كانت كلمة إنسان وأنس ومؤانسة كلمات مركبة من حروف متناسبة؛ اقتضت الحكمة البالغة أن يحتاج إلى مؤنس لكي يدفع عنه وحشة الوحدة بمؤانسة ذلك المؤنس، فخلق حواء أم البشر من ضلعه الأيسر على وجه الإبداع وسبيل الاختراع، وجعل الشهوة وهي من عوارض النفس الحيوانية في طويتهم؛ حتى استحكمت بينهما

صلة التوالد والتناسل بذلك؛ فظهر وانتشر في أرجاء الأرض وعلى ظهر البسيطة آلاف وآلاف من الآدميين. وقد خص كل صنف منهم بخاصية، ووصف كل طائفة منهم بصفة، وجعل لكل قوم لساناً ولغة مباينة للآخرى، أصلها واحد، وفروعها وشعبها غير متناهية، حتى رحبت أرجاء الأرض وأقل ظهرها من العالمين من لا يحصون كثرة، ليتهيأ بذلك الدليل الدال والبرهان الباهر على كمال قدرة الخالق.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

واعتبر الأنبياء والرسل خيرة أبناء آدم الصفي. ولما كانت تلك الطائفة هي الواسطة بين المعبود والعباد وبين الخالق والمخلوقات، فقد جعل نفوسهم في كمال التجرد وعلى درجة كبيرة من الترافع، ليكونوا بالصورة مع الخلق؛ وبالصفة مع الحق جل جلاله، فيقبسوا ما هو من حقيقة الحق، وينظروا بخاصية نور النبوة، ويجعلوا من واجبه إرشاد الناس وهدايتهم بذلك النور، ويلزموا أنفسهم بتحذيرهم من الغي والضلالة، حتى يوصلهم من غمرات الجهل وتيه الحيرة إلى ساحل النجاة وشاطئ الرشد، ويتحولوا من درجة الحيوانية إلى حد النطق والصفات الإنسانية. وجعل بعد طبقة الأنبياء الأولياء أصحاب الكرامات وأرباب المناجاة والمقامات، وهم من حيث المعنى قريبون من الرسل والأنبياء. والفرق بين تلك الطائفة وطبقة الأنبياء ليس أكثر من أن النبي يستطيع في حال واحد أن يكون مع الحق بالصفة، ومع الخلق بالصورة، أما الولي فيكون انشغاله بالحق مانعاً له عن الانشغال بالخلق. ومن ناحية أخرى أن النبي مأمور بالدعوة والإرشاد، أما الولي فهو معافى من ذلك كله؛ فقد أوجبه بكمال كرمه وتناهي حكمته، لأنه يتعذر في كل وقت وقرن بعث الرسل وتحقيق الرسالات، ولكن وجود أصحاب الكرامات وأرباب المقامات يمكن أن يكون ميسوراً في كل وقت، حتى إذا ما وقف الخلق على أحوالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم اتجهوا من عالم الصورة إلى عالم المعنى فيعرفون أنه يوجد خارج هذا العالم المبين للصورة- والذي لا معنى له- عالم آخر خلق الإنسان من أجله حتى يهيئ لنفسه في هذه الدنيا زاد الآخرة، ويتهيأ له استعداد الاتصال به، وإذا

لم يستطع أن يسمو إلى درجة الملائكة فإنه يرتفع عن طبقة البهائم والحيوانات. وبعد المزيد من الحمد والشكر للمعبود عزت كبريائه، لتتصل من أعماق الروح جارية على عذبة اللسان الكثير الجهم من الصلوات والتحيات والسلام والثناء على الروح المقدسة والتربة المطهرة والروضة المعطرة لسيد الأنبياء وقدوة الأصفياء محمد المصطفى ﷺ، اتصلاً لا ينقطع إلا بسكون الأجرام السماوية وأوتاد الأرض عن حركاتها. وبعد السلام على سيد العالم عليه السلام لتتصل وتتصل على مرور الأيام وتعاقب الشهور والأعوام؛ آلاف التحيات والمدح والثناء على الأرواح الطاهرة للصحابة الطيبين وأهل بيت النبي الذين كانوا نجوم سماء الهداية وشموع جماعة الرشد والعناية آمين يا رب العالمين، يقول مؤلف هذا الكتاب العبد المذنب محمد بن المنور بن أبي سعيد بن أبي طاهر بن الشيخ الكبير سلطان الطريقة وبرهان الحقيقة أبي سعيد فضل الله بن أبي طاهر بن الشيخ الكبير سلطان الطريقة وبرهان الحقيقة أبي سعيد فضل الله بن أبي الخير الميهني قدس الله روحه العزيز ونور مضاجعهم، إنه قصر همته منذ بداية الطفولة وعنفوان الشباب على طلب فوائد الأنفاس الميمونة والآثار والمقامات المباركة لجده سلطان الطريقة وبرهان الحقيقة أبي سعيد فضل الله بن أبي الخير الميهني قدس الله روحه العزيز. وكان يتنسم الأخبار من المشايخ من أبنائه والأكابر والأحفاد نور الله مضاجعهم، وكان يبذل غاية وسعه في تصحيح أسانيد تلك الأخبار. ولما كان ذاك العهد دولة الدين، وكان ذلك العصر عصر ازدهار الطريقة والشرعة، وكان العالم قد تزين بالأئمة الكبار الذين كانوا شمس سماء الدين ونجوم فلك اليقين، وكانت الأرض مزدانة بالمشايخ العظام الذين كانوا أوتاداً لأرض الطريقة وأقطاباً لعالم الحقيقة، والمريدين الصادقين والمحبين المشفقين الذين قصرُوا همتهم على طلب الشرعة ووقفوا قوتهم على السير في الطريقة، فإن الجميع - لبركة ويمن عصرهم ولكي يكون لهم دليل ومعين في سلوك نهج الحقيقة، يتذرعون به إلى تلمس الطريق لحضرة الحق ويغرقون بين الخواطر النفسانية والإلهامات الرحمانية بهدى منه، كانوا يذكرون كثيراً أحوال ومقامات شيخنا وفوائد أنفاسه وآثاره قدس الله روحه العزيز، ويقضون أيامهم في تذاكر ذلك. ولهذا السبب لم يخص مشايخنا

نور الله مضاجعهم في جمعه. ولما كانت جميع الخواطر مستتيرة بتلك الفوائد، وجميع الأسماع مشنفة بسماعها وجميع الألسنة معطرة بذكرها؛ لم تكن جماعة المنبئين في حاجة إلى إجمال هذا ولا إلى تفصيله، لأن تلك المقامات والمقالات كانت معروفة بين الخاص والعام، وكانوا في غنى عن جمعها. وظل الأمر كذلك حتى ظهرت حادثة الغز وفتنة «خراسان»، وجرى ما جرى في «خراسان» على وجه العموم، ورأينا ما رأينا وقاسينا ما قاسينا في «ميهنة» على وجه الخصوص. والحق أن بلدًا من بلاد «خراسان» لم يتبل بمثل ما ابتليت به «ميهنة» وأهلها من المحن والمشقة، ومصدق ذلك الخبر الذي يقول «أشد البلايا للأنبياء ثم للأولياء ثم للأمثل فالأمثل». قد تحقق لنا ولأهل «خراسان» جميعًا وشوهد عيانًا بيانًا فيما ابتليت به «ميهنة»، وإذا أجمالنا القول قلنا إنه هلك في «ميهنة» وحدها بأنواع التعذيب من نار وتراب وغير ذلك مائة وخمسة عشر من أبناء الشيخ أبي سعيد الصغار والكبار واستشهدوا بحد السيف، كما استشهد آخرون خارج المدن بسبب القحط والوباء الذي تخلف عن هذه الحادثة رحمة الله عليهم أجمعين. وينبغي أن نقيس على هذه الحال المريدين الصادقين والمحبين العاشقين وعظماء الدين وشيوخ الطريقة الذين احتجبوا بنقاب التراب، فظهر قحط في الإسلام وانمحت عزته، وفسد أمر الدين واختل اختلالًا عظيمًا، وحل زمن انقراض أئمة الدين وانقطاع مشايخ الطريقة، وأنجز الله سبحانه وتعالى وعده ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]. وظهر البرهان القاطع على حقيقة القول المأثور: «إن الله تعالى لا ينتزع العلم انتزاعًا ولكن يقبض العلم بقبض العلماء» وتوقف الطلب وفسدت العقائد فسادًا تامًا، وقنع أكثر أهل الإسلام من الإسلام بالاسم ومن الطريقة والحقيقة بالرسم المجرد، ومن ثم بدت في دخيلة هذا المسكن جذبة من جذبات الفضل الرباني مبعثها الاستجابة لمطلب بعض المريدين في أن يكتب كتابًا في مقامات وأحوال وآثار جده سلطان الطريقة وبرهان الحقيقة الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير قدس الله روحه العزيز، ليزيد في رغبات الراغبين في دخول الطريق، وليكون مرشدًا وقدوة للسالكين في سلوك طريق الحقيقة

كما جاء في قوله تعالى ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ عَثَرِهِمْ مُّهُتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] وعلى نحو ما قال في موضع آخر في ذكر جماعة الأصفياء الذين خصهم بنظر عنايته الإلهية: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَّ لَهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولما كانت أحوال «ميهنة» قد أصبحت بسبب تعاقب الأيام ووقوع الغارات والسلب مرة بعد مرة وكرة بعد أخرى، بحيث لم يبق من آثار شيخنا قدس الله روحه العزيز سوى قبره وضريحه؛ فقد توفر بالكثير من الجهد القليل من المطلوب، وأشياء متفرقة من كل جانب. أما ما كان مستقرًا في الخواطر فقد طواه النسيان بسبب البلاء والمشقة، وبقي في حجاب (شغلني الشعر عن الشعر).

وقد كانت مدة عمر شيخنا قدس الله روحه العزيز ألف شهر بلغت ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر، على نحو ما جرى على لفظه المبارك في مجلس الوداع إذ قال: لقد تم لنا ألف شهر وليس بعد الألف عدد. وكيف يمكن ضبط هذه المدة ومراقبتها وهذا نفسه محال، ومن جملة ما ليس في إمكان القدرة على نقل جميع أقوال وأفعال وحركات وسكنات شخص طيلة مدة عمره. أما ما كان في إمكان هذا الداعي وفي مجال قدرته فقد نفذه وبذل قصارى جهده فيه، واجتهد بأقصى الإمكان في تصحيح أسانيده، وحذف ما كان في روايته خلل أو في إسناده شبهة وتحاشي إيراده.

وكان ابن عمي الإمام العالم الأجل جمال الدين أبو روح لطف الله بن أبي سعيد قد ألف في عهد الاستقرار كتيبًا قبل هذا؛ تلبية لطلب أحد المريدين، وجعله على خمسة أبواب، وروى في كل باب خبرًا بإسناد، وأورد فصلًا في معنى ذلك الخبر على نحو يليق بكمال فضله وفصاحته، وجعل موضوعه أحوال وأقوال الشيخ قدس الله روحه العزيز، ولكنه سلك فيه سبيل الاختصار والإيجاز. ولا يريد الداعي أن يعرض مع هذا الجوهر النفيس معدنه الخسيس، أو أن يضع هذه البضاعة المزجاة في مقابل ذلك النصاب من الفضل والبلاغة؛ لأنه لا يرى نفسه أهلاً لذلك، فكيف يتأتى له أن يقبض بيده على زمام عظمته، وكيف يستطيع أن يصل في أي فن من فنون فضله إلى غبار دابته... ولكنهم قالوا

إنهم يسلكون المعادن الخسيسة مع الجوهر في سمط. وكان المأمول أن ما أتى به هذا العظيم وما انتهى إليه ذلك الداعي وصح من آثاره وكلماته يجري على شبات القلم حتى يبقى بين الناس طويلاً. أما ما اندرس بسبب الفتن والقلقل فيعاوده رونقه وجدته ويبقى ذكرًا لنا من بعدنا، فمن المعلوم على وجه اليقين أنه كلما تباعد الزمان بالناس ازداد القصور في همتهم، وقل سالكو الطريق، ولا يعين العلم كل شخص. والمعاملة نفسها كبرت أحمر في الندرة فلا أقل من أن يشنف أسماع المعتقدين بكلام عظيم الدين وأوحد العهد هذا، ويستروح قلوب وأرواح مدعي الطريقة على ما قيل: (شعر)

إذا لم أستطع أن أشتري حمل سكر، فلاذذ عنه الذئاب مرة!

ومن قول العظماء (عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة).

ولما كانت أحوال جملة الناس ومراتب أعمالهم لا تخرج عن ثلاث هي البداية والوسط والنهاية فقد جعلت هذا الكتاب على ثلاثة أبواب:

الباب الأول:

في بداية حال الشيخ قدس الله روحه منذ أيام طفولته حتى بلوغه سن الأربعين، وما وصل إلينا من تعليمه ورياضاته ومجاهداته في هذه المدة. وذكر مرشديه ومشايخه ونسبة علمه وخرقته حتى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

الباب الثاني:

في أواسط حياة الشيخ قدس الله روحه العزيز، وهذا الباب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في الحكايات التي ظهرت عن كراماته، والتي ثبت لنا صدقها من الرواة والثقة.

الفصل الثاني: في الحكايات المتضمنة للفوائد، وبعض الحكايات وأقوال المشايخ التي جرت على لفظه المبارك من أجل الفائدة.

الفصل الثالث: في بعض الفوائد والنكات المتفرقة من الأقوال، وبعض الدعوات

والأبيات المتفرقة التي جرت على لفظه العزيز، وعدد من رسائله التي وصلت إلينا.

الباب الثالث:

في انتهاء حياة شيخنا قدس الله روحه العزيز، وهو على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في وصاياه عند وفاته.

الفصل الثاني: في كيفية وفاته.

الفصل الثالث: في الكرامات التي ظهرت بعد وفاته، وبعض ما أخبر به في حياته ورآه

الناس بعد وفاته.

وقد سميت هذا المجموع باسم «أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد»، وسألت الحق سبحانه وتعالى التوفيق في إتمامه، وسلوك جادة الاستقامة وطريق الرشd. وقد حذفت منه الأسانيد طلباً للإيجاز والاختصار؛ أسأل الحق سبحانه وتعالى أن يجعل بكمال فضله وكرمه ولطفه التوفيق رفيقاً، وأن ييسر ما يرجوه المعتقدون من حقوق الطريقة، وأن يحفظه في ضمان الأمان من التراجع والنقصان، (ونعوذ بالله من الحور بعد الكور فإنه خير موفق ومعين).

وبعد، فإن هذا الداعي بالخير يأمل في أن يسدي إلى حضرة ملك الإسلام السلطان المعظم وملك الملوك الأعظم -مالك رقاب الأمم، ومولى ملوك العرب والعجم، مغيث العباد، ظل الله في البلاد، ناصر أولياء الله، قاهر أعداء الله، معين خليفة الله، غياث الدنيا والدين، معز الإسلام والمسلمين، عضد الدولة القاهرة، تاج الملة الزاهرة، جلال الأمة الباهرة، نظام العالم، أبي الفتح محمد بن سام قسيم أمير المؤمنين أعلى الله كلمته، وعقد بالخلود دولته- أن يسدي إليه خدمة، ويقدم إليه تحفة، حتى لا يكف هذا الداعي بالخير في أي حال عن الدعاء لدولته وأداء شكر نعمة ذلك الملك العالم العادل، وحتى لا تخلو حضرة جلاله وبساط رفعتة، وهما موضع سجود الملوك ومقبل سلاطين العالم من تحفة وهدية هذا الداعي المخلص. وفي كل وقت تعرض فيه لطيفة من تلك الفرائد، ودقيقة

من تلك الفوائد الدينية على المسامع الشريفة، أسمعها الله المسار والبشارات، وتحظى بمطالعة الملك الميمونة والنظر السلطاني؛ فإن ذكرها هذا الداعي بالخير يتجدد على وجه التشريف وسبيل التعريف في الحضرة العليا والمجلس الأشرف وهما كعبة الآمال وقبلة الإقبال. وعلى ذلك فمهما مددت يد الطلب إلى زوايا القلب فإن كل ما خططته على رقعة هذه الهدية ولو كانت بساط الربع المسكون قد أصبح ناقصاً وصغر كالديدان إزاء هذا البساط الملكي، بل كان في حقيقته مثل حمل ساق الجرادة أمام سليمان. وبحكم تلك المقدمة فإن هذا الداعي المخلص رأى أن الدوران حول تلك الهدية والتحف التي لا نظير لها في العالم أقرب إلى الأدب، فمن المحقق أن التحف الدنيوية فانية فناء الدنيا ولا يمكن أن تبقى السعادة من مطالعتها. ورغم أنه ليس في الدنيا بأسرها تحفة أكبر ولا أعز عند هذا الداعي بالخير من هذه التحفة فإنه قد أرسلها على سبيل الهدية إلى تلك الحضرة وهي أكبر حضرة.

ولما كانت جوامع همة السلطان الأعظم أظهر الله برهانه وأعظم شأنه قد اقتصرت على إحراز الفوائد الدينية، فإن هذا الداعي المخلص يعتقد أن هذه التحفة ستقع في محل القبول؛ لأن كل ما يمكن إعداده من زاد طريق الدار الباقية هو متابعة سنة المصطفى صلوات الله عليه ومشايعة سيرة الأولياء، وهذه المتابعة تحصل بعد العلم التام على كيفية سلوكهم والوقوف على دقائق آدابهم وسننهم الظاهرة والباطنة.

ولما كان الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز هو شيخ ووالد ورائد ومقتدي هذا الداعي، فإن الخادم الداعي قد كرس أوقاته طوال عمره لطلب فوائد أنفاسه ومقالاته ومقاماته في طريق الشريعة والطريقة، وكان قد أعد بقدر وسعه وإمكانه مجموعاً من تلك الفوائد لأجل مرتادي هذه الأعتاب ومريدي تلك الحضرة، لم يعد أي مريد قبل هذا الخادم مجموعاً أجمع وأكثر فائدة منه في بيان مسلك وجمع فوائد مقالات شيخه؛ فإنه أراد أن يبعث بهذه التحفة وهي أكمل التحف إلى حضرة الملك وهي أفضل وأعظم رحاب ملوك الدنيا؛ لأن الأمل الواثق في فضل وكرم الحق سبحانه وتعالى، بل اليقين الصادق

بأن هذا الملك العادل كما أنه في الدنيا أعظم ملك من ملوك الدهر وأفضل سلطان من سلاطين العصر، سوف يكون بالعدل والاعتقاد، وأيضاً بالمذهب والسيرة أعظم ملك في دار البقاء وجنة عدن بالدرجة والقربى في حضرة العزة. وسوف يكون أكثر سلطان من سلاطين الأرض نصيباً في عرصة ملك الجنة، بحكم خبر صاحب الشريعة -صلوات الله وسلامه عليه- حيث قال: «عدل ساعة من ملك عادل أفضل من عبادة العابد المتقي لسنوات عديدة». ولما كان المصطفى ﷺ قد قال: «الدنيا مزرعة الآخرة»، وهذا الملك لم يزرع في الدنيا غير بذور العدل والإنصاف مع الرعايا والإحسان مع الضعفاء والأتباع والسخاء والمروءة مع أهل الدين والخير؛ فإنه لا يمكن أن يكون ريع هذا البذر في الغد سوى مثل هذه الثمرة، ثمرة ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥]. وأمل هذا الداعي أن يلاحظه وأن يشرفه بشرف القبول في الحضرة العلية، أعلاها الله، وأن يعتبر هذا المسكين في كل حال وفي كل مقام الداعي الخاص لتلك الدولة، وأن يعده الشاكر والذاكر لأنعام تلك الحضرة التي هي ملجأ وملاذ كافة الخلائق. وإذا ما حدثت من هذا الخادم الداعي عثرة وهفوة من قبيل النسيان الإنساني واطلع عليها ملك العالم العادل خلد الله سلطانه بإصابة رأيه المزين للعالم فإنه يعفو ويتجاوز عن تلك الهفوة بكمال كرمه الملكي، ويسترها ويكور سترها بفضله الملكي الذي لا نهاية له. أسأل الخالق تعالى وتقدس أن يجعل شمس ظل الحق مشرقة إلى قيام الساعة، وأن يصونها ويحرسها من الكسوف والزوال، وأن يجعل ظل عدل وإنصاف شمس سلاطين الدهر وذكاء ملوك العصر مضيئاً وباقياً أبد الدهر على رؤوس الرعية وكافة الأتباع، وأن يقرن ملك هذه الدار الفانية بسلطنة ومملكة الدار الباقية، وأن ييسر ويحصل بفضله وكرمه كل ما فيه صلاح دين ودنيا هذا السلطان العادل بفضله وكرمه (والحمد لله رب العالمين، والصلاة على نبيه محمد وآله أجمعين، وحسبنا الله وحده، وهو نعم المولى ونعم المعين).

الباب الأول

في بداية حال شيخنا أبي سعيد بن أبي الخير

قدس الله روحه العزيز

اعلم أن شيخنا قدس الله روحه لم يشر إلى نفسه قط بلفظ «أنا» أو «نحن»، وحيثما ذكر نفسه قال «هم قالوا هذا» أو «هم فعلوا هذا». وإذا ذكرت أقوال الشيخ في هذا الكتاب على المنوال الذي جرى به لفظه المبارك واحتفظت بسياق الكلام تبركاً فإنه يكون بعيداً عن فهم العوام. بل إن بعض القراء إن لم يكن أكثرهم قد يخطئون في نظم الكلام وترتيب المعاني، ولا يستطيعون أن يذكروا دائماً هذا الأمر، وهو أن الشيخ قد أراد بلفظ «هم» نفسه، ويكون ذلك صعباً عليهم، وخصوصاً على من لم يقرأ مقدمة الكتاب ولم يعرف هذا الأمر. وعلى هذا فإنني بحكم هذا العذر حيثما ذكر الشيخ لفظ «هم» سأذكر لفظ «نحن» لأن هذا اللفظ معروف ومتداول بين الناس، وهو أقرب إلى فهم القراء. ولكن ينبغي إدراك هذا الأمر، وهو أنه حيثما ذكرنا لفظ «نحن» على لسان الشيخ، فإن الذي جرى على لفظه المبارك هو لفظ «هم» والعامل تكفيه الإشارة.

اعلم أن والد شيخنا قدس الله روحه العزيز كان يُدعى «أبو الخير» وكانوا في «ميهنة» يسمونه «بابو بو الخير». وكان عطاراً، ورعاً متديناً، على علم بالشرعية والطريقة، يجلس دائماً مع أهل الصفة وأصحاب الطريقة.

وقد كانت ولادة الشيخ أبي سعيد قدس الله روحه العزيز في يوم الأحد غرة شهر محرم لسنة سبع وخمسين وثلاثمائة (٩٦٧). وكان والد شيخنا يجلس دائماً مع جماعة الصوفية في «ميهنة» حيث كانوا يجتمعون كل ليلة من الأسبوع في منزل واحد من هذه الجماعة. وإذا ما وفد على المدينة متصوف أو غريب تجمعوا، وبعد أن يتناولوا قليلاً من الطعام، ويفرغوا من الصلاة والأوراد كانوا يقيمون السماع. وذات ليلة كان بابو بو الخير ذاهباً إلى اجتماع للدرأيش فالتصفت والد الشيخ رحمه الله عليها من أبيه أن يأخذه

معه لكي ينال بركة الدراويش والصوفية، فأخذ بابو بو الخير الشيخ معه. وعندما انشغلوا بالسماع أنشد القوال هذا الشعر:

هذا العشق الأزلي هبة للدراويش
وولايتهم في قتلهم النفس!
فليس الدرهم والدينار زينة الرجال
إنما التضحية بالروح عمل الرجال!

وعندما أنشد القوال هذا الشعر اعترت الدراويش حال من الوجد، وأخذوا يرقصون ويؤدون الذكر على هذا الشعر طوال الليل حتى مطلع الفجر. ولكثرة ما ردد القوال هذا الشعر حفظه أبو سعيد عن ظهر قلب، وعندما عادا إلى المنزل سأل والده عن معنى ما كان يردده القوال وانتشى الدراويش من الاستماع إليه. فقال له والده: صه، إنك لا تستطيع إدراك معناه، ثم ما شأنك به؟ وعندما بلغ أبو سعيد تلك الدرجة التي وصل إليها فيما بعد، وكان والده قد توفي، كثيرًا ما كان يذكر هذا الشعر في أحاديثه قائلاً:

من لي بأبي الخير اليوم لأقول له أنه هو نفسه لم يكن يعرف معنى ما سمعه في ذلك الوقت!

وقيل إن والد شيخنا كان يجب السلطان «محمود» حبًا جمًّا، فبنى في «ميهنة» بيتًا -يعرف الآن ببيت الشيخ- ونقش على جدران اسم السلطان وذكر خدمه وحشمه وأفياله ومراكبه، وكان الشيخ صغيرًا في ذلك الوقت، فقال لوالده: ابن لي مكانًا في هذا البيت يكون خاصًا بي. فبنى له والده حجرة فوق البيت -وهي صومعة الشيخ- ولما تم بناؤها وطلبت جدرانها، أمر الشيخ بأن يكتبوا على جدرانها وسقفها كلمة: الله، الله، الله. فقال له والده: ما هذا يا بني؟ فأجاب الشيخ: كل شخص يكتب على جدران منزله اسم أميره. فسر والده، وأصدر أمره بإزالة كل ما كان قد كتب على جدران البيت. ومنذ تلك الساعة أخذ ينظر إلى ولده نظرة أخرى، ويهتم بأمره.

وقد تعلم شيخنا أبو سعيد قدس الله روحه العزيز القرآن على أبي محمد العنازي،

وكان إمامًا يتصف بالورع والتقوى، من مشاهير قراء «خراسان»، وقبره رحمة الله عليه في نسا.

قال الشيخ: عندما كنت أتعلم القرآن في طفولتي، اصطحبني والدي بابو بو الخير إلى صلاة الجمعة. وفي الطريق إلى المسجد التقينا بالشيخ أبي القاسم بشر ياسين، وكان من مشاهير علماء عصره وكبار مشايخ دهره، يقيم في «ميهنة».

وعندما رآني قال: يا أبا الخير، ابن من هذا الصبي؟ فقال والدي: إنه ابني. فاقترب مني وجلس القرفصاء أمامي ونظر في وجهي واغرورقت عيناه بالدمع، ثم قال: يا أبا الخير، إنني لم أكن أستطيع الرحيل عن هذه الدنيا لأنني كنت أرى مقام الولاية خاليًا، والدراويش ضائعين. والآن وقد رأيت ولدك اطمأنتت إلى أنه سوف يكون للولاية شأن على يد هذا الصبي.

ثم قال لوالدي: عندما تنتهي من الصلاة أحضره إلي.

ولما فرغنا من الصلاة أخذني والدي إلى أبي القاسم بشر ياسين. وعندما ذهبنا إلى صومعته وجلسنا أمامه، كانت هناك كوة مرتفعة جدًا في تلك الصومعة، فقال أبو القاسم بشر لوالدي: احمل أبا سعيد على كتفك لينزل رغيًا من فوق تلك الكوة. فحملني والدي، ومددت يدي وأنزلت ذلك الرغي، وكان رغيًا من الشعر ساخنًا شعرت يدي بسخونته، فأخذ أبو القاسم الرغي من يدي وبكى وقسمه إلى نصفين وأعطاني نصفًا، وقال لي: كله، وأكل هو النصف الآخر، ولم يعط والدي شيئًا. فقال له والدي: أيها الشيخ، ما السبب في أنك لم تعطني نصيبًا من هذه البركة؟ فقال أبو القاسم بشر: يا أبا الخير، لقد وضعنا هذا الرغي فوق تلك الكوة منذ ثلاثين عامًا. وقد وعدنا بأن من يصير هذا الرغي ساخنًا في يده سوف تزهو به الدنيا ويختم به التصوف. والآن تحققت هذه البشرية وسوف يكون ابنك ذلك الرجل. ثم قال لي أبو القاسم بشر: يا أبا سعيد احفظ هذه الكلمات وقل دائمًا: «سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك، سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك» فحفظت هذه الكلمات وجعلت أرددها دائمًا.

قال الشيخ: وخرجنا من عند أبي القاسم ولم أكن أفهم ماذا كان يقول في ذلك اليوم. ثم امتد عمر الشيخ أبي القاسم حتى كبر شيخنا وأفاد منه كثيراً.

قال شيخنا: عندما أتممت حفظ القرآن، قال لي والدي: يجب أن تذهب غداً إلى المؤدّب. فأخبرت أستاذي بذلك، فقال لي: على بركة الله. ودعا لي، ثم قال: اذكر عني هذا القول: «لأنّ ترد همتك على الله طرفة عين خير لك مما طلعت عليه الشمس» فحفظت هذا القول. وقال لي الأستاذ أعفني! فقلت: أعفيناك. فقال: بارك الله تعالى علمك. وفي اليوم التالي أخذني والدي إلى أبي سعيد العياري، وكان إماماً وأديباً ومفتياً، ومكثت لديه مدة كنت خلالها أتردد على الشيخ أبي القاسم بشر ياسين وأتعلم منه علوم الإسلام.

قال الشيخ قدس الله روحه العزيز: قال لي أبو القاسم بشر ياسين يوماً: يا أبا سعيد اجتهد في أن تطرح الطمع من معاملاتك؛ لأن الإخلاص لا يتأتى مع الطمع. والعمل مع الطمع هدفه الحصول على الأجر، وهو من الإخلاص عبادة. ثم قال: عليك أن تحفظ ما قاله الرسول عليه السلام، قال عليه الصلاة والسلام: «قال الله لي ليلة المعراج: يا محمد ما يتقرب المتقربون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم، ولا يزال يتقرب إليّ العبد بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً، فبي يسمع وبي يبصر وبي يأخذ».

ثم قال أبو القاسم: إن أداء الفريضة إظهار للعبودية، وأداء النوافل إظهار لحب الله. ثم أنشد هذا الشعر:

كمال المحبة ما يأتي من الحبيب بلا طمع،
وأي قيمة لما يقدر بالثمن.
يقيناً أن المعطي خير لك من العطاء،
وما للعطاء حين تكون عين الكيمياء

وقال شيخنا قدس الله روحه العزيز: كنت يوماً عند أبي القاسم بشر ياسين فقال لي: يا بني هل ترغب في التحديث إلى الله؟ فقلت: نعم، وكيف لا؟ فقال: كلما خلوت

بنفسك قل : (رباعية)

يا حبيبي إنني لا قرار لي من دونك
ولست بقادر على أن أحصي إحسانك عليّ
لو كانت كل شعرة في جسدي لساناً
ما استطعت أن أفي بواحد على الألف مما تستحق من شكر

فكنت أردد هذا باستمرار حتى فتح لي الطريق إلى الله في طفولتي. وقد توفي أبو القاسم بشر ياسين في «ميهنة» سنة ثمانين وثلاثمائة (٩٩٠). وكلما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز يذهب إلى مقابر «ميهنة» كان يبدأ بزيارة قبره.

وقال الشيخ أثناء حديثه يوماً: كان هناك شيخ كفيف مؤمن يأتي إلى هذا المسجد - وأشار إلى المسجد الذي يقع على باب ضريحه - وكان يجلس ويضع عصاه خلف ظهره. وفي يوم كنت عائداً من عند المؤدب ومعني كتيبي، فاقتربت منه وألقيت عليه التحية. فرد علي قائلاً: أنت ولد «بابو بو الخير»؟ قلت: نعم. قال: ماذا تقرأ؟ قلت كتاب كذا، فقال: لقد قال المشايخ «حقيقة العلم ما كشف على السرائر»، ولم أكن أعرف في ذلك الوقت ما معنى الحقيقة وماذا يكون الكشف، حتى أطلعني الحق سبحانه وتعالى على حقيقة ذلك الكلام وأظهرني عليه.

وعندما فرغ شيخنا أبو سعيد قدس الله روحه العزيز من تعلم اللغة ورغب في تعلم الفقه، قصد مدينة مرو. قال الشيخ يوماً أثناء حديثه: عندما ذهبت من «ميهنة» إلى «مرو» كنت قد حفظت ثلاثين ألف بيت من الشعر. وبعد ذلك ذهب الشيخ إلى «مرو» عند الإمام أبي عبد الله الخضري، وكان إمام الوقت ومفتي العصر، مطلعاً اطلاعاً تاماً على علم الطريقة؛ ومن جملة الأئمة الكبار. وكان الخضري تلميذاً لابن سريج، وكان ابن سريج تلميذاً للمزني؛ والمزني تلميذاً للإمام الشافعي المطلبي رضي الله عنه.

وكان شيخنا قدس الله روحه العزيز شافعي المذهب، وكذلك جميع المشايخ الذين

عاشوا بعد الشافعي كانوا يعتنقون هذا المذهب. وكل من اعتنق مذهباً آخر قبل السير في الطريق إذا أراد الله سبحانه وتعالى بكمال فضله وعنايته الأزلية أن يمنحه يوماً محبته، ويختصه بالقربى لي لهذه الطائفة في حضرة عزته، وجهه إلى المذهب الشافعي، مثل الشيخ الخضري الذي كان يقيم في بغداد وغيره من المشايخ الذين إذا ذكروا وذكرت أحوالهم انتهى الأمر بنا إلى التطويل وليس هدفنا ذكر هذه الأمور.

أما المشايخ الذين عاشوا قبل الشافعي فقد كانوا على مذهب السلف أو على مذهب شيوخهم.

وتعتقد جماعة أن الشيخ الكبير بايزيد البسطامي قدس الله روحه العزيز كان يعتنق مذهب الإمام العظيم أبي حنيفة الكوفي رضي الله عنه، ولكن الأمر ليس كذلك؛ لأن بايزيد قدس الله روحه كان مريداً وسقاً لجعفر الصادق رضي الله عنه، وكان جعفر رضي الله عنه يدعوه بايزيد السقاء. وقد اعتنق بايزيد مذهب جعفر الصادق؛ لأنه كان شيخه، وإمام أسرة المصطفى المبارك، صلوات الله وسلامه عليه. ولا يجوز، بأي صفة، في الطريق أن يكون المريد إلا على مذهب شيخه، ولا يجوز له مخالفته في أي شيء من الاعتقاد أو الحركات أو السكنات.

ولكيلا يظن أحد، بهذه الكلمات التي جرى بها القلم، أن المشايخ كانوا يعتنقون مذهب الإمام العظيم الشافعي لأن هناك نقصاً في مذهب الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه؛ نقول كلا وحاشا ولا يجوز مطلقاً أن يتخيل أحد هذا، ونعوذ بالله أن يخطر هذا على خاطر أحد؛ لأن عظمته وزهده أكثر مما يصل إليه علمي وشرحي؛ فقد كان سراج الأمة، وقدوة ملة النبي صلوات الله وسلامه عليه. والمذهبان متساويان في الحقيقة، وكل ما صدر عن الإمامين من أقوال كانا فيها متابعين لكلام الحق المجيد سبحانه وتعالى، ومطابقين لنص حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. والحق أن كل من ينظر في المذهبين دون تعصب يعرف أن كلا الإمامين في الحقيقة واحد. وإذا وجد اختلافًا في الفروع وجب عليه أن ينظر إلى ذلك بعين «اختلاف أمتي رحمة». وإذا كان أحد الإمامين

قد تساهل في مذهبه، فينبغي أن يراه بعين ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وينظر إليه ينظر «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة»، لا عن طريق التعصب الذي ابتلي به أكثر الناس. ويجب أن يعلم علم اليقين أن كل ما قال الإمامان لا يمكن أن يكون إلا حقاً. وهؤلاء الأئمة الكبار معصومون ومعاфون من مثل هذا التعصب الذي في طبيعتنا، كما ورد بإسناد عن أبي الدراوردي فقد قال: «رأيت مالك بن أنس وأبا حنيفة رضي الله عنهما في مسجد رسول الله ﷺ بعد صلاة العشاء الأخيرة، وهما يتذاكران ويتدارسان، حتى إذا وقف أحدهما على القول الذي قال به وعمل عليه، أمسك أحدهما عن صاحبه من غير تعنت ولا تعسف ولا تخطئة لواحد منهما، حتى صليا الغداة في مجلسهما ذلك». ولكن لما كان طريق هذه الطائفة هو الاحتياط، وكان المشايخ قد أوجبوا على أنفسهم في بداية المجاهدة أشياء من أجل الرياضة بعضها سنة وبعضها نافلة، على نحو ما ذكر أبو عمرو البشخواني، فإنه وفقاً للخبر الذي يقول إن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قال: «اليد اليمنى لأعالي البدن واليد اليسرى لأسافل البدن» لم تصل يدي اليمنى منذ ثلاثين عاماً تحت سرتي، ولم تصل يدي اليسرى فوق سرتي إلا لسنة.

وبشر الحافي قدس الله روحه العزيز الذي لم يتعل حذاء في قدمه قط، وقال إن الحق سبحانه وتعالى يقول ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩] فالأرض بساط الحق سبحانه وتعالى، فلا يليق بي أن أسير عليها بحذاء ونعل. وسار عاري القدمين طيلة عمره، ولهذا السبب لقب بالحافي.

وقد قال الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز: لقد فعلت كل ما قرأت ورأيت في الكتب وسمعت أن المصطفى صلوات الله عليه قد فعله، وكل ما سمعت وطالعت في الكتب أن الملائكة تفعله، فعلته كله في بداية تصوفي. وسوف يأتي شرح ذلك في مكانه. وكانت سيرة المشايخ جميعاً على هذا النحو، فساروا طوال حياتهم على سنن المصطفى وأوجبوا على أنفسهم النوافل والأوراد. وجملة القول أن كل ما يتعلق بإذلال النفس والاحتياط في طريق الدين كان موضع اختيارهم. ولما كان في مذهب الإمام

الشافعي رضي الله عنه ضيق، فقد اختارته هذه الطائفة لإذلال أنفسهم لا لأن هناك فرقاً بين المذهبين في حقيقتهم، أو أن أحد الإمامين يفضل الآخر؛ وفي رأينا أنهم مثل الخلفاء الراشدين الذين نعرف أنهم جميعاً على حق ونحبهم جميعاً من أعماق قلوبنا ونقر بفضائلهم، ونعتقد فيهم، ونقيم الدليل على أحقية كل منهم للخلافة، ونعترف بهم ولا ننكرهم، ندعو الجميع ألا يطعنوا بسبب هوى النفس والعناد والتعصب في صحابة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وأئمة السلف والمشايخ الكبار رضي الله عنهم أجمعين، وألا يجيزوا الواقعة وأن يعرفوا حقهم جميعاً.

وقصارى القول إن اعتراف الإنسان بأن كل شخص أفضل منه طريق طيب جداً. والقول بترك الاعتراض في جميع الأحوال طريق محمود جداً، وإنه لمن الأقرب للصواب لمن يتتبع عثرات الآخرين أن يشتغل بإصلاح نفسه. نسأل الحق سبحانه وتعالى أن يقرب الجميع إلى طريق رضاه بفضل منّه وجوده.

وقد قرأ شيخنا قدس الله روحه العزيز على الإمام عبد الله الخضري خمس سنوات، وعندما أتم دروسه انتقل هذا الإمام إلى رحمة الله تعالى، وقبره بمرو.

ولما توفي الخضري اختلف الشيخ على الإمام أبي بكر القفال، وقرأ عليه الفقه خمس سنوات أخرى. وكان زملاؤه في درس القفال الشيخ ناصر المروزي والشيخ أبو محمد الجويني والشيخ أبو على سنجي، وكان كل منهم قدوة الدنيا. وفي هذه المدة أتم شيخنا على القفال درسين، ثم ترك «مرو» قاصداً «سرخس». وعندما جاء إلى «سرخس» ذهب إلى الإمام أبي على زاهر بن أحمد الذي كان مفسراً ومحدثاً وفقياً، وقد قام بنشر المذهب الشافعي في «سرخس»، ومنه ظهر هذا المذهب.

وكان الأئمة الذين تخلص أهل هذه الولاية من بدعة الاعتزال ببركة أنفاسهم ورجعوا بفضلهم إلى المذهب الشافعي هم: حميدر محويه في «شهر ستانة» و«فراوة» و«نسا»، وأبو عمرو الفراهي في «استو» و«خوجان»؛ وأبو لبابة الميهني في «أبيورد» و«خاوران» وأبو علي الفقيه في «سرخس» رحمة الله عليهم أجمعين.

وكان شيخنا قدس الله روحه العزيز يقرأ التفسير على أبي الفقيه في الفجر، وعلم الأصول في الظهيرة، وأخبار الرسول ﷺ في العصر. وتلمذ علي أبي علي الفقيه في هذه العلوم الثلاثة. وقبر هذا الإمام بسرخس.

وبعد أن قضى شيخنا زمنًا يطلب العلم على أبي علي، رأى يوماً لقمان السرخسي. قال الشيخ قدس الله روحه العزيز: عندما كنت أطلب العلم على أبي علي الفقيه في «سرخس»، كنت أسير يوماً في المدينة، فرأيت لقمان السرخسي جالساً على تل يخطط رقعة على ثوبه، [وكان لقمان (مجدوباً) من عقلاء المجانين، وكانت له في بداية أمره مجاهدات كثيرة واحتياط في المعاملة، وفجأة حدث له كشف أودى بعقله، كما ذكر الشيخ أن لقمان كان في بداية أمره رجلاً مجتهداً، ورعاً، وبعد ذلك ظهر فيه جنون وخرج عن الترتيب. قيل له: يا لقمان، ماذا حل بك؟ قال: وجدت أنني مهما أكثر من العبودية وجب أكثر منه، فعجزت، وقلت يا إلهي! عندما يصبح العبد شيخاً فإن الملوك يعتقونه، وأنت ملك عزيز، وقد أصبحت شيخاً في عبوديتك فأعتقني. فسمعت نداء يقول: «يا لقمان، لقد أعتقناك»، والدليل على هذا أن (الله) أخذ منه عقله. وكثيراً ما كان شيخنا قدس الله روحه العزيز يقول: إن لقمان معتوق الله حرره من أمره ونهيه^(١). فاقتربت منه وأنا أنظر إليه - وكان الشيخ قد وقف بحيث وقع ظله على ثوب لقمان - وعندما خاط الرقعة قال لي: يا أبا سعيد، لقد خطتك مع هذه الرقعة على هذا الثوب. ثم نهض وأمسك بيدي وقادني إلي حي توجد به خانقاه الشيخ أبي الفضل حسن، ونادى على باب الخانقاه، فخرج الشيخ أبو الفضل، وكان لقمان قد أمسك بيدي، فوضعها في يد الشيخ أبي الفضل حسن وقال له: يا أبا الفضل، ارع هذا الشاب لأنه منكم.

وكان الشيخ أبو الفضل حسن رجلاً عظيماً. وقد سئل الشيخ قدس الله روحه العزيز عندما اكتمل حاله وتوفي الشيخ أبو الفضل حسن: ممّ ظهر حالك؟ فقال: من نظرة من الشيخ أبي الفضل. فعندما كنت أطلب العلم على أبي علي الفقيه في «سرخس»، كنت

(١) العبارات المكتوبة بين الخاصرتين في هذه الصفحة والصفحات التالية تبين استطراد المؤلف.

أسير يوماً على شاطئ النهر، وكان الشيخ أبو الفضل يسير على الشاطئ الآخر، فنظر إلي نظرة من جانب عينه، وكل ما أدركته منذ ذلك اليوم أدركته بتلك النظرة.

قال الشيخ قدس الله روحه العزيز: فأخذ الشيخ أبو الفضل بيدي وقادني إلى الخانقاه. وعندما جلسنا في الصفة أخذ الشيخ أبو الفضل كتاباً وجعل ينظر فيه، فجال بخاطري كما هي عادة طلاب العلم: في أي فن هذا الكتاب؟ فأدرك الشيخ أبو الفضل ذلك وقال لي: يا أبا سعيد، إن المائة والأربعة وعشرين ألف نبي الذين جاءوا الخلق كان المقصود منهم كلمة واحدة، لقد أمرو أن قولوا للخلق قولوا «الله»، واستغرقوا فيها. فالذين استمعوا إلى هذه الكلمة كانوا يقولونها حتى صاروا بكلهم هذه الكلمة، فلما صاروا بكليتهم لها استغرقوا فيها وعندئذ تطهروا، فظهرت الكلمة في قلوبهم فأصبحوا في غنى عن قولها. قال الشيخ أبو سعيد: لقد صادني هذا الكلام ولم يتركني للنوم تلك الليلة. ولما فرغت من الصلاة والأوراد، استأذنت الشيخ قبل طلوع الشمس، وذهبت إلى درس التفسير عند أبي علي الفقيه؛ فلما جلست كان أول درس ذلك اليوم هذه الآية ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

قال الشيخ: عندما سمعت هذه الكلمة فتح باب في صدري وغبت عن نفسي. ورأى الإمام أبو علي ما طرأ علي من التغير، فسألني أين كنت ليلة أمس؟ قلت عند الشيخ أبي الفضل حسن. فقال لي: انهض وعد حيث كنت، فحرام مجيئك من ذلك المعنى إلى هذا الكلام. فعدت إلى الشيخ -أبي الفضل- والهأ ومتحيراً، (وأشعر) بأن كلي قد صار هذه الكلمة. وعندما رأني الشيخ أبو الفضل قال لي: يا أبا سعيد، مستك شدة فلا تعرف رأسك من رجلك. قلت: أيها الشيخ، بم تأمر؟ قال: ادخل واجلس وكن هذه الكلمة، فإن لهذه الكلمة معك أموراً.

قال الشيخ: ومكثت عنده مدة مؤدياً حق هذه الكلمة. وذات يوم قال: يا أبا سعيد لقد انفتحت لك أبواب حروف هذه الكلمة. والآن تغزو الجيوش صدرك، وترى الأودية المختلفة ثم قال: لقد سلبت، سلبت، سلبت! فانهض واطلب خلوة، وأعرض عن نفسك

وعن الخلق، وانظر في الأمر، واستسلم.

قال الشيخ: فتركت كل هذه العلوم، وعدت إلى «ميهنة»، واعتكفت في محراب تلك الزاوية -وأشار إلى داره- ومكثت سبع سنوات مردداً: الله، الله، الله. وكلما غلبت عليّ حال من النعاس أو الغفلة نتيجة لضعف الطبيعة البشرية ظهر لي من أمام المحراب شبح مخيف مفرع للغاية، في يده حربة من نار، وكان يصرخ فيّ قائلاً: يا أبا سعيد قل: الله. وكنت من هول وفزع ذلك تتنابني الحمى والرجفة طول اليوم واللييلة، حتى لم تعد تأخذني سنة من النوم أو الغفلة.

وفي النهاية أخذ كل عضو من أعضائي يصرخ قائلاً: الله، الله، الله. وبعد ذلك عدت إلى الشيخ أبي الفضل حسن.

وكان الشيخ أبو الفضل حسن شيخ الشيخ أبي سعيد، ومريداً للشيخ أبي نصر السراج الملقب بطاووس الفقراء، وله مصنفات في علم الطريقة والحقيقة، وكان يقيم بطوس، وقبره هناك.

وكان أبو نصر السراج مريداً لأبي محمد عبد الله بن محمد المرتعش، الذي كان رجلاً عظيماً، فريداً في عصره، وقد توفي ببغداد.

وكان المرتعش مريداً للجنيّد، والجنيّد مريداً لسري السقطي، وسري مريداً لمعروف الكرخي، وكان هذا مريداً لداود الطائي، الذي كان مريداً لحبيب العجمي. وكان العجمي مريداً للحسن البصري، والبصري مريداً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان علي مريداً للمصطفى صلوات الله وسلامه عليه وابن عمه. وقد كان هؤلاء هم شيوخ شيخنا قدس الله روحه العزيز حتى المصطفى عليه السلام.

وحين ذهب شيخنا قدس الله روحه العزيز إلى الشيخ أبي الفضل حسن، أعطاه صومعة في مواجهة صومعته، وكان يراقب أحواله دائماً، ويأمره بما يلزم من شروط تهذيب الأخلاق والرياضة.

قال الشيخ: ذات ليلة كان المريدون قد ناموا وأغلقوا باب الخانقاه وباب الرباط.

وجلس مع الشيخ أبي الفضل على الصفة، ودار الحديث في المعرفة، وعرضت مسألة مشكلة، فرأيت لقمان السرخسي وقد طار فوق الخانقاه، ثم جلس أمامنا وأجاب على تلك المسألة بحيث اتضحت لنا، وزال ذلك الإشكال، ثم قام وطار ثانية وخرج من النافذة، فقال الشيخ أبو الفضل: يا أبا سعيد. هل ترى مكانة هذا الرجل في هذه الحضرة؟ قلت: أجل. قال: إنه لا يصلح قدوة. قلت: لماذا؟ قال: لأنه لا علم له.

وعندما مارس الشيخ الرياضة مدة في تلك الخانقاه، أمره الشيخ أبو الفضل بأن ينقل زاويته إلى صومعته. وظل معه مدة في صومعة واحدة، وكان يراقب أحواله ليلاً ونهاراً، ويأمره بالرياضات المختلفة. ثم أرسل الشيخ أبو الفضل الشيخ أبا سعيد إلى «ميهنة»، وقال له: اذهب للعناية بوالدتك. فتوجه الشيخ إلى «ميهنة»، واعتكف في تلك الصومعة التي كانت مقرّاً له، وأخذ يمارس قواعد الزهد، واعتراه وسواس عظيم؛ حتى أنه كان يغسل باب الصومعة وجدرانها، ويصب عدة أباريق في الوضوء. ويغتسل كل صلاة. ولم يكن يتكئ على باب أو جدار قط، أو يضع جنبه على فراش. وكان في هذه المدة يملك ثوباً واحداً، وكلما تمزق خاط عليه رقعة حتى صار وزنه في النهاية عشرين مثناً. ولم يخاصم أحداً قط، ولم يتحدث إلى أحد إلا في وقت الضرورة، ولم يتناول في هذه الفترة طعاماً قط في النهار، وكان يفطر على كسرة من الخبز، ويستيقظ الليل. وأحدث في جدار صومعته فتحة بمقدار طوله وعرضه وصنع لها باباً، كان حين يذهب إليها يغلق بابها وباب المنزل والصومعة جميعاً ويشغل بالذكر، بعد أن يسد أذنيه بالقطن حتى لا يسمع صوتاً يشغل خاطره. وكان يرعي سره دائماً حتى لا يطوف بقلبه شيء سوى ذكر الحق سبحانه وتعالى، وأعرض عن الخلق تماماً. ولما مضت مدة على هذا لم تعد له طاقة على صحبة الخلق، وصارت رؤية الخلق مشقة طريقه، وكان يذهب دائماً إلى الصحاري ويتجول في الجبال والفيافي، ويأكل من نباتات الصحراء. وكان يختفي في الصحراء لشهر أو أقل بحيث كان والده يبحث عنه ليلاً نهار فلا يجده، حتى إذا ما رآه أحد من أهل «ميهنة» في بركة أو مزرعة، أو رآته قافلة في مكان من الصحراء أخبروا والده فيذهب ويعيده.

وكان الشيخ يعود إرضاء لوالده، وبعد أن يقيم عدة أيام كان لا يطيق مشقة الخلق فيفر ويعود إلى الجبال والصحاري. وكثيراً ما كان أهل «ميهنة» يرونه مع شيخ مهيب يرتدي ثوباً أبيض، وعندما بلغت حاله تلك الدرجة سألوه قائلين: أيها الشيخ، كنا نراك في ذلك الوقت مع شيخ مهيب، فمن كان ذلك الشيخ؟ قال: إنه الخضر عليه السلام.

وقد رأيت مكتوباً بخط الشيخ أبي القاسم الجنيد بن علي الشرمقاني جاء فيه: كنت أسير مع الشيخ أبي سعيد قدس الله روحه العزيز في طريق «ميهنة»، فقال لي بجوار جبل: يا أبا القاسم، هذا هو الجبل الذي رفع منه الله عز وجل إدريس إلى السماء إذ يقول: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، وأشار إلى جبل يعرف بصومعة إدريس عليه السلام على بعد فرسخين من «حرو» و«تياران».

ثم قال: إن الناس يأتون من الشرق والغرب ويجتمعون في هذا الجبل ويمضون الليل هنا ويصلون كثيراً. وكثيراً ما حضرت أنا أيضاً إلى هنا، وذات ليلة كنت في هذا الجبل وكان هناك تل بارز منه يفقد من يرقاه الوعي رعباً إذا نظر إلى أسفل؛ وفي ذلك الوقت فرشت السجادة على التل وفكرت، في أن أختم القرآن في ركعتين بتوفيق الله، وقلت لنفسني إنه إذا غلبني النوم سقطت وتمزقت إرباً. وعندما قرأت جزءاً من القرآن وسجدت غلبني النوم واستسلمت له فسقطت في الحال. ولما استيقظت رأيت نفسي في الهواء فطلبت الأمان، فرفعني الله تعالى بفضله من الهواء إلى قمة الجبل.

وكان أكثر مقام الشيخ في الرباط القديم، وهو رباط بجوار «ميهنة»، على طريق أبيورد. وقد قام الشيخ فيه بكثير من الرياضات والمجاهدات؛ وكانت هناك هضبة على طريق «مرو» بالقرب من بوابة «ميهنة» يقال لها «زعقل»، ورباط آخر في طريق «طوس» على بعد فرسخين من «ميهنة» ويقع في سفح الجبل، وكانوا يسمونه رباط «سركله»، ورباط آخر على بوابة «ميهنة» يؤدي إلى المقابر.

قال الشيخ: ذات يوم كان هناك وحل كثير، وكنت ضيق الصدر، فجلت وجلست على باب المنزل. فخرجت والدتي إلى الباب وأخذ تقول لي: ادخل، ادخل، فأجبتهما

بلطف. ولما عرفت أنها ذهبت، قمت وأمسكت حذائي في يدي وأخذت أسير حتى رباط المقابر. وعندما بلغته كان هناك ماء جار فغسلت أقدامي وانتعلت حذائي، وطرقت الباب. فأقبل حارس الرباط وفتح الباب وأخذ ينظر إلى حذائي وهو يقول: حذاؤه جاف في مثل هذا اليوم ومع كل هذا الوحل! وأخذ يتعجب. ودخلت وأغلقت الباب وقلت: يا ربي! يا إلهي! إنني أستحلفك بحقك وبحق ألوهيتك وبحق ربوبيتك وبعظمتك وجلالك وكبريائك وبسلطانك وسبحانك وتوفيقك ألا تخفي عني كل ما طلبته منك ومنحته لي، وما لم أطلبه منك ولم يصل فهمي إليه وخصصتني به، وكل ما هو مخزون ومكنون في علمك وليس لأحد علم به ولا سبيل لأحد إليه ولا يعرفه أحد ولا يدركه إلا أنت؛ أن تحقق أربي. وعندما دعوت هذا الدعاء خرجت ثانية وعدت إلى المنزل.

كانت هذه الأمكنة المذكورة كلها أماكن عبادة الشيخ، إذ إنه كثيراً ما كان يقيم فيها عندما يكون في «ميهنة». وهناك أماكن أخرى كثيرة يطول الأمر لو ذكرت، وليس في ذكرها فائدة أكثر من هذا. ولو وفق الله أحداً وذهب إلى هذه الأماكن وزارها لعرف أنها كانت مقراً لعظيم الدهر وأوحد الدنيا.

ودأب الشيخ على أن يهرب من الناس ويشغل بالعبادة والمجاهدة والرياضة وحيداً في هذه الأماكن. وكان والد الشيخ يبحث عنه دائماً ويعيده إلى المنزل في لطف بعد شهر أو أكثر أو أقل ويراقبه حتى لا يهرب.

وقد حكى والد الشيخ (هذه القصة) فقال: عندما كنت أنتهي من الصلاة كل ليلة وأعود إلى المنزل، كنت أغلق الباب بالسلاسل وأنصت حتى ينام أبو سعيد، وعندما يأوي إلى فراشه وأظن أنه استسلم للنوم، أنام أنا أيضاً.

وذا ليلة استيقظت من النوم في منتصف الليل ونظرت فلم أر أبا سعيد في الحجرة فقممت وبحثت عنه في المنزل فلم أجده. وذهبت إلى باب المنزل فلم أجد السلاسل في مكانها فعدت ونمت وأنا أصغي.

وعند الفجر دخل أبو سعيد من باب الدار في هدوء، وأغلق الباب بالسلاسل، وارتدى

ثياب النوم ونام. وجعلت أرقبه عدة ليال فكان يفعل هذا، ولم أطلع على هذا الأمر وتظاهرت بأني غافل عنه، ولكنني كنت أرقبه كل ليلة. ولما تكرر هذا أخذتني عليه شفقة الأبوة وانتابتنى الهواجس المختلفة «فالصديق مولع بسوء الظن»، وأخذت أقول لنفسي إنه شاب ولا يبعد وفقاً لحكمة «الشباب شعبة من الجنون» أن يقطع عليه الطريق إنس أو جن. واستقر رأيي على أن أراقبه ليلة لأرى إلى أين يذهب وماذا يفعل.

و ذات ليلة عندما نهض وخرج، قمت أنا أيضاً وسرت في أثره، وأخذت أتبعه حيثما ذهب وأنا أرقبه من بعيد بحيث لا يشعر بي. وجعل أبو سعيد يسير حتى الرباط القديم، وهناك دخل وأغلق على نفسه الباب، فصعدت على سطح الرباط، فرأيت أنه قد دخل إلى المسجد الذي به وأغلق الباب ووضع خشبة خلفه. وأخذت أراقبه من طاقة المسجد، وكان بالمسجد عمود من خشب ربط به حبل، فأمسك العمود، وكان في ركن المسجد بئر، فسار إليها وربط الحبل في قدميه ووضع العمود على فوهة البئر وعلق نفسه بالحبل وتدلّى في البئر ورأسه إلى أسفل؛ وأخذ يقرأ القرآن وأنا أنصت إليه، وكان قد ختمه في وقت السحر، ثم سحب نفسه من البئر ووضع العمود مكانه وفتح الباب وخرج، وأخذ يتوضأ في وسط الرباط. فنزلت من سطح الرباط، وعدت مسرعاً إلى المنزل، ونمت مطمئناً، حتى جاء أبو سعيد ونام كما يفعل كل ليلة. وعندما حان الوقت الذي تنهض فيه كل ليلة قمت وأيقظته كالمعتاد وذهبنا مع الجماعة، وجعلت أراقبه عدة ليال، فكان يفعل هذا، وظل يواظب على هذه الرياضة زمناً.

وكان يأخذ المكنسة، ويكنس المساجد، ويساعد الضعفاء. كما كان يذهب أكثر الليالي إلى تلك الشجرة القائمة على باب روضته المقدسة، ويتعلق بغصن من أغصانها ويشغل بالذكر؛ وكان يغتسل في جميع الأوقات حتى في البرد القارس بالماء البارد؛ ويقوم بخدمة الدراويش بنفسه.

وقد ورد على لسان شيخنا يوماً أثناء الحديث قوله: في يوم من الأيام قلت لنفسي إنني أملك العلم والعمل والمراقبة جميعاً، ويلزم الآن الغيبة عنها. وتفكرت فوجدت أن هذا

الأمر لا يتحقق إلا في خدمة الدراويش؛ لأنه «إذا أراد الله بعبد خيراً دله على ذل نفسه». وعلى هذا اشتغلت بخدمتهم، وكنت أنظف صوامعهم ودورات مياههم، وأخذ زنبيلاً(*) وأقوم بهذه المهمات، وأخرج به فضلاتهم. ولما وازبغت على هذا العمل وأصبح عادة اشتغلت بالسؤال من أجل الدراويش، لأنني لم أر شيئاً أقسى على النفس من هذا، وفي البداية كان كل من يراني يعطيني ديناراً، ويمضي الزمن تناقص هذا العطاء حتى بلغ دانقاً واحداً. ثم ظل ينقص شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى حبة من الزبيب أو جوزة. وانتهى الأمر إلى الكف عن إعطائي حتى هذا.

وذات يوم كانت هناك جماعة من الدراويش ولم يكن هناك فتوح، فبعت عمامتي التي على رأسي، ثم بعت نعلي، ثم بطانة الجبة، ثم الجبة نفسها. وقد رأني والدي يوماً عاري الرأس والجسد فلم يحتمل هذا، وقال لي: يا ولدي ماذا يقال عن هذه الحال؟! فقلت له: لا تهتم بما يقول أهل «ميهة».

وكان شيخنا يكنس المساجد دائماً، ويبدل ماله وجاهه على الدراويش وغيرهم من الخلق حتى ولو كان كسرة خبز. وكان إذا ما أشكل عليه أمر ذهب إلى الشيخ أبي الفضل في «سرخس» حافي القدمين، فيحل المشكل ثم يعود.

وقد جاء في رواية صادقة عن الشيخ عبد الصمد، أحد مريدي الشيخ، أنه في أكثر الأوقات التي كان الشيخ يذهب فيها إلى «سرخس» على هذا النحو، كان يذهب معلقاً في الهواء، فيما بين الأرض والسماء، دون أن يراه سوى أرباب التصوف. وكان للشيخ أبي الفضل مريد يُدعى «أحمد». وذات يوم رأى الشيخ آتياً في الهواء فذهب إلى الشيخ أبي الفضل وقال له: إن أبا سعيد الميهني قادم، وهو يسير معلقاً في الهواء، فيما بين الأرض والسماء. فسأله الشيخ أبو الفضل: أرأيت ذلك؟ فأجاب: أجل رأيت. فقال له أبو الفضل: إنك لن تموت حتى يكف بصرك؟ وقال الشيخ عبد الصمد: إن «أحمد» كف بصره في أواخر عمره كما قال الشيخ أبو الفضل.

(*) الزنبيل هو القُفَّة. (المحرر).

وعندما أمضى الشيخ مدة في المجاهدة على هذا النحو، رجع إلى أبي الفضل حسن في «سرخس»، ولبت معه عامًا. وأمره أبو الفضل بالرياضات أخرى، ثم ألبسه الخرقة، وهذه رواية ضعيفة.

أما الرواية الصحيحة فهي أن الشيخ قدس الله روحه العزيز اشتغل أثناء حياة الشيخ أبي الفضل حسن بالرياضة والمجاهدة ولم يتقلد الخرقة. وعندما توفي الشيخ أبو الفضل ذهب شيخنا إلى أبي عبد الرحمن السلمي وتقلد منه الخرقة. وكان الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قد تقلدها من يد أبي القاسم النصر آبادي، والنصر آبادي من يد الشبلي، والشبلي من يد الجنيد، والجنيد من يد سري السقطي، والسقطي من يد معروف الكرخي، والكرخي من يد جعفر الصادق، والصادق من يد أبيه محمد الباقر، والباقر من يد أبيه علي زين العابدين، وعلي زين العابدين من يد أبيه أمير المؤمنين الحسين، والحسين من يد أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم، وعلي بن أبي طالب من يد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

وعندما تقلد شيخنا الخرقة -وفقًا لتلك الرواية الضعيفة- قال له أبو الفضل: لقد تم كل شيء الآن، وعليك أن تتوجه إلى «ميهنة»، وتدعو الخلق إلى عبادة الله، وتعظهم. وجاء الشيخ أبو سعيد إلى «ميهنة» عملاً بإشارة الشيخ أبي الفضل، وأكثر من الرياضات والمجاهدات، ولم يكتف بما أشار به الشيخ، وأخذ يزيد من العبادة والرياضة كل يوم. وفي هذه المرة ظهر قبول الخلق للشيخ على نحو ما جرى على لفظه المبارك في أحد المجالس، فقد سئل قدس الله روحه العزيز عن هذه الآية: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ [الأنعام: ٦٢]، فقال شيخنا قدس الله روحه العزيز: إن هذه الآية صحيحة عن أحوال الصوفية، فذلك هو المقام الأخير الذي يظهر بعد كل هذه الجهود والعبادات والأسفار والإقامات والآلام والامتهانات والتحقيرات والمذلات كلها واحدة واحدة، ويسمح لهم بالعبور إليه.

ففي البداية يدلونه على باب التوبة ليتوب ويسترضي خصمه، ثم يعمل على إذلال

النفس، ويتقبل جميع الآلام، ويسعى لراحة الخلق بقدر ما يستطيع. ثم يشتغل بأنواع الطاعات فيقوم الليل، ويجوع النهار، ويؤدي الفرائض، ويزيد كل يوم في جهوده، ويوجب على نفسه أشياء جديدة. وقد فعلت هذا كله فأوجبت على نفسي في البداية ثمانية عشر شيئاً، وفتحت لنفسي بهذه الأشياء ثمانية عشر ألف عالم، فداومت على الصوم، وامتنعت عن اللقمة الحرام، وواظبت على تلاوة الذكر، وقمت الليل، ولم أضطجع على الأرض، ولم أنم وأنا جالس وكنت أجلس مولياً وجهي إلى القبلة، ولم أتكئ على شيء، ولم أنظر إلى شاب أمرد نظرة سوء، ولم أنظر إلى المحرمات، ولم أستعبد لأحد، ولم أسأل أحداً شيئاً. وكنت قانعاً مستسلماً لإرادة الله. كما كنت أجلس في المسجد دائماً ولا أذهب إلى السوق لأن الرسول ﷺ قال: «إن أسوأ الأماكن الأسواق، وأفضلها المساجد».

وكنت متابعاً للرسول ﷺ في كل ما أفعل، وكنت أختم القرآن كل يوم وليلة، وكنت أعمي فيما يبصر وأصم فيما يُسمع وأبكم فيما يقال، وظللت عاماً لا أتحدث مع أحد فأسماني الناس مجنوناً، وأجزت لهم ذلك بحكم هذا الخبر الذي يقول: «لا يكمل إيمان العبد حتى يظن الناس أنه مجنون».

وقمت بعمل كل شيء قرأت أو سمعت أن المصطفى ﷺ قام به أو أمر به حتى أنني سمعت أن المصطفى ﷺ جرح في قدمه في غزوة أحد فلم يستطع الوقوف عليها فكان يصلي على أطراف أصابعه، فوقفت بحكم متابعته على أطراف أصابعي وصليت أربعمائة ركعة، وجعلت حركاتي الظاهرة والباطنة وفقاً للسنة بحيث صارت العادة طبيعة. وكل ما سمعت وقرأت أن الملائكة تفعله فعلته وقمت به، حتى أنني سمعت وقرأت أن الملائكة تعبد الله على رؤوسها، فوقفت على رأسي فوق الأرض وأمرت أم أبي طاهر الموقفة أن تربط أصبع قدمي بحبل وتربطه في مسمار وتغلق عليّ الباب. ولما فعلت قلت: يا إلهي إنني لا أريد نفسي فنجني منها. وبدأت أقرأ القرآن، وعندما بلغت هذه الآية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] تدفق الدم من عيني وغبت عن الوعي. وبعد ذلك تبدلت الأمور.

وقد مرت بي رياضات من النوع الذي لا تصوره العبارات، وقد أعانني الحق عليها ووفقني فيها. وكان يخيل إليّ أنني أقوم بكل هذه الأعمال بنفسي؛ ولكن ظهر فضل (ربي) وأوضح لي أن الأمر لم يكن كذلك، وأن هذه الأعمال كلها كانت بتوفيق الحق وفضله، فتبت عن هذا الظن، وتبينت أن ذلك كله كان محض وهم وغرور. فإذا قلت أنت الآن: إنني لن أسلك هذا الطريق لأنه وهم. نقول لك: إن امتناعك عن عمل هذا وهم، فما لم يمر عليك هذا كله لا يظهر لك هذا الوهم، لأنك إذا لم تتجاوز الشرع لا يظهر هذا الوهم، والوهم كان موجوداً في الدين، وعدم ممارسته كفر في الشرع، وفي الممارسة والرؤية (عدم الفناء عن النفس) شرك، فإذا كنت أنت موجوداً وهو موجود، فإنه يكون هناك اثنان وهذا شرك. ولذلك يجب أن تغنى نفسك.

وكانت لي صومعة كنت مغرماً بإفناء نفسي فيها، فظهر لي نور بدد ظلمة وجودي، وكشف لي الله عز وجل عن أنني لم أكن هذا ولا ذاك، وإنما هو توفيق الله وفضله، ورحمته وعنايته حتى أنني أخذت أردد: «رباعية»

عندما أفتح عيني أشاهد جمالك كله
وعندما أحدثك بسري يصبح جسدي كله قلباً
وأشعر أنه حرام علي أن أتحدث إلى سواك
وعندما أتحدث إليك أطيل الحديث

ثم بدأ الناس ينظرون إلي بكثير من التبجيل والرضا، وأخذ المريدون يتجمعون حولي ويتوبون على يدي. وامتنع جيراني عن شرب الخمر احتراماً لي حتى بلغ بهم الأمر أن اشتروا قشرة بطيخ وقعت من يدي بمبلغ عشرين ديناراً. وفي يوم كنت أمتطي جواداً فأسقط هذا الجواد بعض الروث فأقبل الناس ومسحوا به رؤوسهم ووجوههم. وبعد ذلك كشف لي أن ذلك -الاحترام- لم يكن من أجلي. وجاءت صيحة من جانب المسجد تقول «أو لم يكفك ربك» فظهر نور في صدري، وارتفعت أكثر الحجب حتى رفضني كل من كان قد تقبلني من الناس، إلى حد أنهم ذهبوا إلى القاضي وشهدوا بكفري، وقالوا إن

كل أرض مررت فيها لا ينبت فيها نبات بسبب ما أجلبه لها من الشؤم. وكنت قد جلست في المسجد يوماً فأقبلت بعض النسوة وألقين القاذورات على رأسي. وكان ذلك الصوت يصيح «أو لم يكفك ربك». وكف حشود ذلك المسجد عن الصلاة، وأخذوا يقولون إننا لن نصلي جماعة ما دام هذا المجنون في المسجد. فجعلت أردد: «رباعية»

كنت أسداً وكان النمر صيدي

وكنت مظفراً أينما توجهت

ولكن منذ تملكني عشقك

طرمني الثعلب الأعرج من عربي!

ومع هذا كله انتابني حال من القبض، وفتحت المصحف على تلك النية، ف وقعت عيني على هذه الآية: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] كما لو كان الله تعالى قال لي: كل ما أضع في طريقك من البلايا إن يكن خيراً فهو بلاء، وإن يكن شراً فهو بلاء، فلا تهبط إلى الخير والشر وعد إليّ. ثم فنيت عن هذا أيضاً وأصبحت رحمته كل شيء.

«بيت»

بغداد اليوم بخاري في كل حال،

فحيثما يكون أمير «خراسان» يكون الظفر هناك.

وقد جرى هذا الحديث على لسان شيخنا قدس الله روحه العزيز أثناء مجلس من المجالس.

وفي خلال تلك الأحوال توفي والد الشيخ وأمه فارتفع بذلك قيد كان يقيد من أجل إرضائهما. فتوجه إلى الصحراء الواقعة بين «باورد» و«سرخس»، وقضى سبع سنوات مشغلاً بالرياضة والمجاهدة بحيث لم يكن أحد يراه إلا نادراً. ولا يُعرف مما كان يفتات خلال هذه السنوات السبع. ولقد سمعنا من شيوخنا ومما هو متداول على أفواه الناس،

سواء منهم العامة والخاصة، أن شيخنا قدس الله روحه العزيز كان يقتات خلال هذه الأعوام بنباتات الصحراء.

وروي أنه عندما بلغ حال الشيخ تلك الدرجة التي بلغها وأصبح مشهوراً، كان قد جلس يوماً على باب روضته المقدسة، عمرها الله، وكان أحد مريديه يقطع بطيخة حلوة بالسكين، وكان يقلبها في السكر ليأكل منها الشيخ، ومر أحد المنكرين على هذا المكان، فقال له: أيها الشيخ، ما طعم ذلك الذي تأكله الآن، وماذا كان طعم ما كنت تأكله طيلة الأعوام السبعة، وأيهما أطيب؟ فقال الشيخ: إن لكل منهما طعم الوقت، فإذا كان للوقت صفة البسط يكون ذلك العشب والشوك أطيب من هذا -وأشار إلى البطيخ، وإذا كان هناك قبض «لأن الله يقبض ويبسط»، والمطلوب في الحجاب، فإن هذا السكر ليس أطيب من ذلك الشوك. ولهذا قال الشيخ قدس الله روحه العزيز: كل من رآنا في أول الأمر صار صديقاً، وكل من رآنا في النهاية صار زنديقاً.

يعني أنه في أول الحال تكون الرياضة والمجاهدة، ولما كان الناس كثيراً ما يرون الصورة ويعبدون الظاهر، فإنهم حين كانوا يرون ذلك الحياة ويشاهدون تلك المجاهدات في طريق الحق كان صدقهم يزداد في هذا الطريق فينالون درجة الصديقين. وفي آخر الحال تكون المشاهدة ويكون الوقت قد حان لظهور ثمرة تلك المجاهدات، فلا بد أن يكون التمتع والرفاهية، وتكون الحال الأولى على عكس هذه فينكرون ما هو حق، وكل من ينكر الحق يكون زنديقاً. وهناك أدلة كثيرة على هذا منها أنه إذا أراد شخص أن يتقرب إلى ملك ليكون صاحب سره؛ فإنه ينبغي عليه أن يواجه كثيراً من الآلام والبلايا، وأن يتذوق أنواع المشقات وأن يحتمل الطيب والوضيع، وأن يستمع إلى الأقوال الغليظة، ويجب عليه أن يصبر على هذا كله، وأن يتقبل كل هذه الآلام بوجه باش وطبع سمح، ويؤدي في مقابل كل جفوة خدمة، ويقول في مقابل كل سب ثناء ودعاء حتى يصل إلى مرتبة صاحب سر الملك. ومع كل ألف يستطيع فرد واحد أن ينفذ هذا. وإذا نفذه فقد يصل إلى هذه المرتبة أو لا يصل. وعندما يشرف برضاء الملك ويحصل على شرف

القرب منه يجب عليه أن يؤدي كثيرًا من الخدمات الحسنة حتى يعتمد الملك عليه. وعندما يعتمد عليه ويصبح أهلًا لمنزلة صاحب السر، وتكون جميع المشقات قد ذهبت وحلت محلها الكرامة والقرب والمنزلة والنعمة والراحة، فإنه عندئذ تبدو وجوه اللذة والراحة، ولا يبقى أي عمل لهذا الشخص سوى ملازمة الملك. وهو لا يستطيع أن يغيب عن بلاط الملك طرفة عين في أي وقت من الأوقات سواء في الليل أو النهار حتى إذا ما طلبه الملك في أي وقت، أو أراد أن يفضي إليه بسر، أو يمنحه شرف مناقشته؛ وجده بين يديه. وهذه الدرجات واضحة، والقياس عليها ظاهر.

قال الشيخ قدس الله روحه العزيز: كنت كلما اعترضتني مشكلة، أذهب إلى الشيخ أبي الفضل ليلاً، فيحل ما أشكل عليّ، ثم أعود في الليل.

وبعد أن أقام الشيخ سبع سنوات في الصحراء على هذا النحو عاد إلى «ميهنة»، قال الشيخ قدس الله روحه العزيز: ثم أخذت أستشير الشيخ أبا العباس القصاب قدس الله روحه العزيز إذ كان آخر من تبقى من المشايخ. ذلك أنه بعد وفاة الشيخ أبي الفضل، والذي كنت ألجأ إليه في كل إشكال يعترضني، لم يكن هناك من ألجأ إليه لحل مشاكلي غير الشيخ أبي العباس القصاب. ولم يكن شيخنا أبو سعيد قدس الله روحه العزيز يدعو أحداً بكلمة «شيخ» سوى أبي العباس القصاب، وكان يدعو الشيخ أبا الفضل بالمرشد (پير)؛ لأنه كان مرشده في الصحبة. قال الشيخ: بعد ذلك ذهبت إلى «آمل» بجوار «باورد» و«نسا» قاصداً زيارة قبور المشايخ، وكان معي أحمد النجار ومحمد بن الفضل.

وكان محمد بن الفضل مريداً ورفيقاً للشيخ منذ البداية حتى النهاية، وقبره بجوار قبر الشيخ أبي الفضل حسن في «سرخس».

قال الشيخ: وذهب ثلاثتنا إلى باورد. ثم قصدنا «شاه ميهنة» عن طريق وادي الكز. وقرية «شاه ميهنة» قرية من أعمال وادي الكز، وكانت تسمى قبل ذلك «شامينة». وعندما بلغ الشيخ قدس الله روحه العزيز ذلك المكان سأل: ماذا يسمون هذه القرية؟ فقالوا «شامينة»، فقال الشيخ قدس الله روحه العزيز: ينبغي أن تسمى هذه القرية «شاه

ميهنة». ومنذ ذلك الوقت وهم يسمونها بهذا الاسم تيمناً بقول الشيخ، وعملاً بإشارته الشريفة.

قال الشيخ: ذهبنا لزيارة قبر الشيخ أبي علي وكان هذا هدفنا. وعندما اقتربنا من القبر كان هناك جدول ماء وحجر على شاطئه، فتوضأنا عليه وصلينا ركعتين. ورأينا صبيًا يقود ثورًا ويقوم بحراثة الأرض. وكان على حاشية الحقل شيخ ينثر البذور، وقد بدا مذهولاً؛ لأنه كان ينظر إلى القبر كل لحظة ويصيح، فتملكني الاضطراب. وتقدم الشيخ وسلم علينا وقال: هل يمكنك أن ترفع عبئاً عن كاهلي؟ قلت: إن شاء الله. فقال: كنت أفكر الآن أنه إذا كان الله تعالى عندما خلق هذه الدنيا لم يخلق فيها أي كائنات، وملاًها بالحب من الشرق إلى الغرب ومن الأرض إلى السماء، وجعل فيها طائراً واحداً وقال له: رزقك كل ألف سنة هو حبة واحدة من هذا الحب، وخلق إنساناً واحداً وأودع قلبه هذا المعنى وخاطبه قائلاً: لن تصل إلى مقصودك حتى يُخلي هذا الطائر العالم من هذا الحب، وستظل تكابد هذا العناء من ألم ووجد، فإن هذا الأمر سرعان ما ينتهي. قال الشيخ أبو سعيد: فحل ذلك الشيخ ما أشكل علي وأصبح الأمر واضحاً أمامي.

وعندما بلغنا قبر أبي علي، فتح الله علينا، وحظينا بالنقحات، ثم قصدنا نسا.

ولما بلغ شيخنا قدس الله روحه العزيز مدينة نسا، كانت هناك قرية بجوار المدينة يسمونها «أندرمان» فأراد أن ينزل بها وسأل عن اسمها فقالوا: «أندرمان» (ابق فيها) فقال: لن ننزل فيها حتى لا نبقي، ولم ينزل بها، وكذلك لم يدخل مدينة نسا وسار خارجها. وممر بقرى نزل في واحدة منها تسمى «ردان»، ثم توجه إلى «ييسمة». وفي ذلك الوقت كان الشيخ أحمد بن نصر من كبار المشايخ مقيماً في مدينة «نسا»، وينزل في خانقاه سرواي التي تقع في أعالي المدينة بالقرب من الجبل حيث قبور المشايخ والعظماء.

[وقد بنى الأستاذ أبو علي الدقاق قدس الله روحه العزيز خانقاه وفق إشارة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه؛ لأنه عندما جاء الدقاق إلى نسا لزيارة قبور المشايخ لم يكن للصوفية مكان، فنام تلك الليلة، ورأى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في النوم،

فأمره بأن يبني للصوفية مكاناً في هذه البقعة، وأشار إلى المكان الذي توجد به هذه الخانقاه الآن، ورسم خطأً حوله لتبني فيه. وفي فجر الغداة نهض الأستاذ أبو علي، وجاء إلى ذلك المكان، فوجد الخط الذي رسمه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه واضحاً على الأرض، وكذلك رآه الجميع. فبنى الأستاذ أبو علي تلك الخانقاه على الخط. وبعد ذلك جاء كثير من الصوفية والمشايخ إلى تلك البقعة. ولا يزال أساس هذه الخانقاه باقياً وظاهراً حتى اليوم. ويوجد في المقبرة التي على طريق الجبل بجوار الخانقاه قبور أربعمائة شيخ من كبار المشايخ ومشاهير الأولياء؛ ولهذا يسمى الصوفية مدينة «نسا» بالشام الصغرى، فكما توجد قبور الأنبياء في الشام، توجد قبور الأولياء في نسا.

ومدينة نسا أرض كريمة جداً ازدانت دائماً بوجود المشايخ الكبار وأرباب الكرامات وأصحاب المقامات. وقد ذكر المشايخ أن البلايا والفتن التي كانت تظهر في «خراسان» ما تلبث حتى تتبدد حين تتجه إلى نسا. وقد شاهدنا هذا الأمر بأنفسنا، ففي خلال الثلاثين سنة أو أكثر التي اشتعلت فيها الفتن والغارات والنهب والحرق والقتل في «خراسان» دفع الله سبحانه وتعالى بفضل رحمته ولطفه وبركة المشايخ كل كارثة وفتنة اتجهت إلى نسا.

والآن وفي هذا العهد، عهد قحط الدين واختفاء الإسلام، وبخاصة في «خراسان»، حيث لم يبق من التصوف لا الاسم ولا الرسم، ولا الحال ولا القول، قد بقي هناك كثير من المشايخ ذوي العهد، والمرشدين أصحاب الأوقات والأحوال أطال الله بقاءهم، فلا جرم أن الأثر «بهم يرزقون وبهم يمطرون» مع أنه ظاهر يتضح أكثر.

ويقوم في هذه الولاية كثير من الصوفية أصحاب الخرق ممن لا مثيل لأحدهم في كثير من الولايات. ورغم أن أكثر الأولياء قد اختفوا عن أبصار العامة خلف ستار «تحت قبابي لا يعرفهم غيري»، إلا أن آثار عهودهم وبركات أنفاسهم كثيرة جداً.

وقد اتخذ الشيخ أحمد بن نصر الذي كان مقيماً في خانقاه سرواي صومعة في هذه الخانقاه التي يسمونها الآن زاوية الشيخ.

وأخرج -الشيخ أحمد بن نصر- رأسه من الصومعة، وقال للجماعة الذين جلسوا معه على صفتها: ها هو صقر الطريقة -يقصد أبا سعيد- يمر الآن، وعلى كل من يريد أن يراه أن يذهب إلى «ييسمة» ليراه هناك.

قال الشيخ قدس الله روحه العزيز: عندما ذهبنا إلى «نسا» قصدنا «ييسمة» إذا كان في نيتنا زيارة قبر أحمد بن علي.

و«ييسمة» هذه قرية على بعد فرسخين من «نسا»، وبها قبر الشيخ أحمد بن علي النسوي، وكان من مشاهير مشايخ «خراسان» ومريداً للشيخ عثمان الحيري. ويذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه «طبقات أئمة الصوفية» اسمه على أنه «محمد بن عليان النسوي»، ولكنه معروف في ولاية «نسا» بأحمد بن علي. وكانت له أحوال شريفة وكرامات ظاهرة منها: أنه عندما رجع الشيخ قدس الله روحه العزيز من ذلك السفر وظهر شأنه في التصوف، أرسل ابنه الأكبر أبا طاهر لأمر في مدينة «نسا». وعندما بلغها أبو طاهر أصيبت قدمه بحيث لم يكن يستطيع الحركة. وفي أثناء غيابه ولد للشيخ في «ميهنة» ابن. وعرف الشيخ بفراسته وكرامته مرض السيد أبي طاهر، فدعا أحد الدراويش وقال له: ينبغي أن تذهب إلى أبي طاهر في «نسا»، فقد بلغنا أنه أصيب في قدمه، ويجب أن يذهب إلى قبر أحمد بن علي في «ييسمة» ليشفى من مرضه إن شاء الله تعالى. وكتب الشيخ رسالة إلى أبي طاهر جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، سنشد عضدك بأخيك». وعندما وصلت الرسالة إلى أبي طاهر خرج للزيارة، فحملوه على محفة إلى «ييسمة»، وأقام ليلة على قبر أحمد بن علي. وفي اليوم التالي شفاه الله سبحانه وتعالى وزالت آلامه.

قال الشيخ: وزرنا قبر أحمد بن علي، وصادفتنا واقعة، فقد دخلنا القرية لنخرج من طريق آخر، وكان هناك قصاب شيخ جالساً على باب حانوته، فتقدم إلينا، وحيانا، وأرسل صبيه خلفنا ليرى أين نزل. وكان هناك مسجد بجوار النهر، فنزلنا فيه، وتوضأنا، وصلينا ركعتين. وأقبل ذلك الشيخ وأحضر طعاماً فأكلنا، وعندما انتهينا قال القصاب للشيخ: هل بينكم من يجيب على مسألة؟ فأشاروا إليّ، فسألني: ما شروط العبودية وما شروط الأجر؟

فأجبتة بنصوص من علم الشريعة، فقال: أليس هناك شيء آخر؟ فنظرت إليه في صمت، فالتفت الشيخ إليّ قائلاً في غضب: لا تتحدث عما طلقته؛ يعني: أنت طلقت علم الظاهر، ولما سألتك أجبت من الشريعة، فما دمت قد طلقت ذلك العلم فلا تعد إليه.

[وقد حدث ذلك على هذا النحو؛ فعندما قاد الشيخ لقمان شيخنا إلى أبي الفضل حسن في «سرخس»، وأمره بتلك الرياضات والمجاهدات، وتحول الشيخ من علم القول إلى علم الحال، جمع الكتب التي قرأها والمذكرات التي كتبها ودفنها وشيد فوقها دكاناً وزرع غصناً امتدت فروعه فوق ذلك الدكان، ونما واخضر في أمد قصير وصار شجرة كبيرة. وقد اعتاد أهل بلدنا عند ولادة الأطفال أو غسل الموتى وتكفينهم أن يستعملوا بعض أغصانها أملاً في الحصول على البركة. وكانوا يحملونها إلى الولايات البعيدة. وظلت خضراء يانعة حتى عهدنا، وعندما وقعت حادثة الغز في «خراسان»، وكانت الأحوال تسوء كل يوم على مدى أكثر من ثلاثين عاماً، لم تبق هي أيضاً واندرست مثل الآثار المباركة الأخرى.

وقد تحدث الشيخ قدس الله روحه العزيز عن هذا الأمر في أحد المجالس، فقال: في بداية تصوفي عندما فتح الله عليّ، كانت لدي كتب كثيرة وأجزاء عديدة تصفحتها واحداً واحداً وقرأتها جميعاً، ولكنني لم أحصل على كل ما كنت أصبو إليه من الراحة والاستقرار النفسي، فدعوت الله عز وجل قائلاً: يا إلهي إن الأمر لم يتكشف لي بقراءة هذه الكتب، ولا أزال عاجزاً عن الوصول إليك رغم قراءتها، فاجعلني اللهم مستغنياً بشيء أجذك فيه. ففضل الله عليّ، وأخذت أشعر بشيء من الراحة وأنا أمسك بهذه الكتب واحداً واحداً حتى وصلت إلى تفسير الحقائق، وأخذت أقرأ القرآن فقرأت الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام حتى وصلت إلى هذه الآية ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ - وكنت قد حفظت من قبل - وهنا وضعت الكتاب، وكلما حاولت أن أتقدم في القراءة لم أستطع. وعندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز يدفن كتبه ويضع فوقها التراب ويصب عليه الماء، أخبروا والده بذلك فأقبل والد الشيخ وقال له: يا أبا

سعيد، ما هذا الذي تفعله؟ فقال له الشيخ: هل تذكر ماذا صنعت يوم جئت إلى حانوتك وسألتك: ماذا في هذه الخرائط وماذا صنعت في هذه الأجرة؟ لقد قلت لي حينئذ: ألا تعرف -اللهجة- البلخية؟ قلت أعرفها. فقلت: لا تكن من أهل مهنة.

وفي الوقت الذي كان فيه الشيخ يدفن الكتب، نظر إليها، وقال: «نعم الدليل أنت والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال».

وقد جرى على لسان الشيخ أثناء حديثه هذا القول: «بدا من هذا الأمر كسر المحابر وخرق الدفاتر ونسيان العلوم».

وعندما دفن شيخنا تلك الكتب وغرس الغصن ورواه، قال له جمع من الكبار: أيها الشيخ، أما كان الأفضل أن تعطي هذه الكتب لمن يمكن أن يفيد منها؟ فقال الشيخ: «أردنا فراغة القلب بالكلية من رؤية المنة وذكر الهبة عند الرؤية».

وقال الشيخ أيضاً: كنت أقرأ يوماً في أحد كتب السيد الإمام حمدان ف قيل لي: ألا تزال تقرأ الكتب؟.. أتريد أن نردك إليها؟ فبتت واستغفرت كثيراً حتى عفوا عني.

وروى أحد أصحاب الشيخ هذه القصة فقال: في إحدى الليالي ظل الشيخ قدس الله روحه العزيز يئن في صومعته حتى الفجر، فبت منهكاً متألماً من التفكير في هذا ولم أنم حتى الفجر. وفي الغداة خرج الشيخ فسأله: أيها الشيخ، ماذا ألم بك بالأمس مما جعلك تتأوه هكذا؟ فقال الشيخ: رأيت بالأمس كتاباً في يد أحد العلماء، فأخذته منه وقرأت فيه، وقد عوقبت طوال ليلة الأمس بألم في أسناني، وقيل لي لماذا تعود إلى ما طلقت؟^(١).

قال الشيخ: قال لي ذلك القصاب الشيخ: لن تصير عبداً ما لم تحرر نفسك، ولن تجد الجنة ما لم تصلح وتنصح الأجير: قوله عز وجل ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْسَبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢]. قال الشيخ. لقد حلت واقعتنا بقول ذلك الشيخ.

وبعد ذلك رحل الشيخ عن «نسا» وقصد «آمل» عند أبي العباس القصاب، ولبث معه

(١) ما بين القوسين استطرد يستكمل بعده القصة ص ٥٦

عاماً. (جاء هذا في رواية وهي أكثر صحة، وفي رواية أخرى أنه أقام هناك عامين ونصفاً، وهذه الرواية أضعف). وكان للشيخ أبي العباس القصاب زاوية في خانقاه على شاكلة الحظيرة اعتكف فيها واحداً وأربعين عاماً بين الجماعة، وكان إذا ما أكثر أحد الدراويش من الصلاة في الليل قال له: «نم يا بني فإن ما يفعله شيخك إنما يفعله من أجلك فلا فائدة له فيه ولا حاجة له إليه». غير أنه لم يقل هذا قط للشيخ أبي سعيد خلال المدة التي قضاها عنده. وكان الشيخ يصلي طوال الليل حتى الصباح ويصوم دائماً. وقد أعطى الشيخ أبو العباس شيخنا زاوية في مواجهة حظيرته، وكان أبو سعيد يقيم فيها، ويمارس أنواع المجاهدات والرياضة، ويثبت عينيه دائماً على ثقب الباب، ويراقب أحوال الشيخ أبي العباس. وفي يوم من الأيام كان الشيخ أبو العباس قد احتجم، وفي تلك الليلة انزلق الرباط عن يده، فانفتح العرق وأدمى ولوث يده ووثوبه، فخرج من الحظيرة. ولما كان الشيخ أبو سعيد يراقب أحواله دائماً فقد خرج مسرعاً من زاويته، وغسل له يده وربطها، وأخذ ثوب القصاب وأعطاه ثوبه وارتدى ثوباً قديماً، وغسل ثوب أبي العباس وجففه في الليل وحمله إليه. فقال له الشيخ أبو العباس: هو لك فألبسه. فقال له شيخنا: فليلبسني الشيخ إياه بيده المباركة. فالبسه الشيخ أبو العباس الخرقه بيده، وكانت هذه هي الخرقه الثانية التي أخذها شيخنا.

[وحتى لا يذهبن أحد إلى القول بأن من يرتدي خرقه من شيخ لا يجوز له أن يلبس خرقه من شيخ آخر؛ نقول إن الأصل في ارتداء الخرق هو أنه حينما يستحق شيخ من شيوخ الطريقة الخرقه بمعنى أنه أصبح أهلاً للاقتداء به بعد أن عرف علوم الشريعة والطريقة والحقيقة وأداها على وجه الكمال، ورأى وعرف وجرب المقامات والسير في منازل هذا الطريق ومراحلها، وتطهر من الصفات البشرية فلم يبق له من نفسه شيء على نحو ما ذكر الشيخ أبو الحسن الخرقاني في حق شيخنا؛ فقد قال: في الوقت الذي بلغ فيه الشيخ أبو سعيد ما بلغ من التصوف قال: لم تبق هنا بشرية ولا نفس، الكل هنا حق، الكل هنا حق. (وسوف يأتي هذا في مكانه وإنما غرضنا هنا هو الاستشهاد). فعندما يقف

مثل ذلك المرشد على أحوال مريد أو محب، ويعلم سره وعلايته عن طريق التجربة، ويرى لياقة ذلك الرجل بعين البصيرة والبصر، ويعرف أنه قد ظهر استحقاقه وتقدمه في مقام الخدمة حتى أنه يستطيع أن يجلس بين هذه الطائفة، ويرى أنه قد تم له الاستعداد لأن يتقدم في الرياضة والمجاهدة حتى يكون واحدًا من هذه الجماعة، وأنه صار أهلاً لهذا بفضل تربية هذا الشيخ أو تربية وإرشاد وهداية شيخ آخر جدير بتربية المريدين؛ فإنه يلبسه الخرقة اعترافاً منه بأن هذا المريد لائق للجلوس مع هذه الطائفة. وحين يكون هذا الشيخ مقبول القول بين القوم مرموقاً، فإن الجميع يعتمدون على كلمته. ولهذا فإن الصوفية إذا ما جهلوا درويشاً حين يدخل عليهم الخانقاه، أو يريد مصاحبته، سألوه عن شيخه، وعمن ألبسه الخرقة. وهذا الانتساب محل اعتبار كبير بين أفراد هذه الطائفة، وليس لديهم في الطريقة نسب أعظم من هذين النسبين. وكل من لا تصح نسبته في ذلك إلى شيخ جدير بالقيادة، أبعده، ولم يمكنوه من صحبتهم.

ولمراتب الشيوخ والمريدين والخرقة والصحبة شرح كثير، وليس من غرض هذا الكتاب. وإذا وصل شخص عن طريق التجربة والرياضة إلى درجة عالية ولم يكن له مرشد أو قدوة، أنكرته الطائفة. قال شيخنا: «من لم يتأدب بأستاذ فهو بطل؛ ولم أن رجلاً بلغ أعلى المراتب والمقامات حتى تكشف له من الغيب أشياء ولا يكون له مقدم ولا أستاذ، فإنه لا يجيء منه شيء».

ومدار الطريقة على الشيخ؛ لأن «الشيخ في قومه كالنبي في أمته». ومن المحقق أنه لا يمكن لأي شخص الوصول إلى شيء بنفسه. وللمشايع أقوال كثيرة في هذا الأمر، وفي هذه الأقوال فوائد لا حصر لها، وخصوصاً شيخنا أبو سعيد قدس الله روحه العزيز وسوف يرد بعضها في مكانه. ولو بدت لشخص تلك الكرامة وتملكه العشق؛ فإن تلك الآلام تجبره على ملازمة الشيوخ، والاعتكاف في خلواتهم ليكتسب الفائدة؛ لأن هذا العلم لا يتأتى إلا عن طريق العشق. «ليس الدين بالتمني، ولا بالتجلي، ولكن بشيء وقر في القلب، وصدقه العمل».

يا من لا دراية لك بالمحترق والاحترق،

إن العشق هبة وليس تعلمًا

وحتى لا يتخذ أحد لنفسه العذر بسبب هذا القول، ويتعلل بأنه لا يوجد في هذا العهد مثل هذا الشيخ الذي يشترط وجوده، وأنه لا يوجد الآن واحد من الشيوخ والأئمة كالذين كانوا من قبل، لأن هذا الكلام تشويش في نفس وعذر للتكاسل؛ نقول إن كل من وجد في نفسه القدرة على هذا الأمر، وعشق هذا الطريق، وجب عليه أن يكون كما قال الشيخ أبو الحسن الخرقاني قدس الله روحه العزيز: يلزم في البداية عمل شيئين؛ أحدهما السفر، والآخر الأستاذ. وقد تجولت كثيرًا بسبب هذا، وصعب عليّ الأمر. وشاء الله تعالى أنه كلما اعترضتني مشكلة وعجزت أمامها، أقبل عالم من المذهب الشافعي وناقش معنى هذه المشكلة. وعشت ثلاثة وثمانين عامًا مع الحق، فلم أسجد سجدة مخالفة للشرع، ولم أتنفس نفسًا واحدًا موافقًا للنفس. وفي السفر هيأوا لنا بخطوة واحدة كل ما بين العرش والثرى. وعندما يكون العشق صادقًا وتكون الإرادة خالصة، تكون ثمرة الحياة طيبة هكذا.

وهناك أصل عظيم متعارف عليه بين هذه الطائفة وهو أن الكل واحد والواحد كل، ولا يوجد تضاد وثنائية بين صوفية العالم جملة، ولا يدخل في هذا من كان زيفًا مظهره كالصوفية. وإذا كانت ألفاظ الشيوخ تختلف من حيث العبارة، فإن المعاني كلها واحدة. وما دام الأمر كذلك فإنه إذا لبس شخص الخرقة من شيخ فإنهم يسمونها الخرقة الأصلية، ويسمون الخرق الأخرى خرقة التبرك. وإذا تأملت هذا الأمر من حيث معناه فإنه ما دام الكل واحدًا فإن جميع الأيدي تكون واحدة، وجميع الأنظار واحدة، ويكون للخرق نفس الحكم. وكل من يصبح مقبولًا عند شيخ يكون مقبولًا لدى الجميع، ومن يكون مردودًا لدى واحد يكون هكذا عند الجميع والعياذ بالله. وكل من يلبس خرقتين، يكون كأنه حصل على دليلين صادقين على أهليته، هما خرقة المشايخ والتبرك على أيديهم.

واستمع إلى تحقيق طيب في هذا المعنى، وعندما تدركه تمامًا لا تبقى أي شبهة في أن جميع الشيوخ والصوفية الحقيقيين واحد، وليس لهم ثنائية بأي صفة. اعلم أن اتفاق جميع الأديان والمذاهب، والمحقق لدى العقلاء، أن المعبود والمقصود جل جلاله واحد، والحق جل جلاله وتقدس أسماؤه واحد من كل وجه، وقطعاً ليس هناك مجال للثنائية. وإذا كان هناك اختلاف في السالكين أو الطريق فإنهم عندما يصلون إلى الهدف يرتفع الخلاف ويتبدل كله بالوحدة؛ لأنه طالما بقي في السالك شيء من صفات البشرية فهو لم يصل بعد إلى المقصود، ويظهر على حاله التلون في الطريق، فإذا وصل إلى المطلوب والمقصود لا يبقى فيه من هذا كله شيء ويصير كله وحدة مجردة، ومن هنا يقول واحد من المشايخ «أنا الحق»، ويقول آخر: «سبحاني»، ويقول شيخنا: «ليس في جبتي سوى الله».

المحقق إذن أنه إذا لم يصل السالك إلى المقصد؛ فإنه يصبح غير لائق لأن يصير شيخاً، بل إنه يكون عندئذ محتاجاً إلى مرشد ليدله على الطريق. وكل من يصل إلى مقصده يصبح جديراً بأن يصير شيخاً. إذن فأقوال المشايخ أصبحت صادقة بالبرهان؛ لأن ما ذكره من أن الكل واحد، والواحد كل، قد أخبروا به عن الوصول إلى المقصد، ولا تبقى شبهة في هذا بعد ذلك؛ لأنه ما دام الكل واحداً والواحد كلاً؛ فإن أيديهم وخرقهم تكون كلها واحدة. وكل من يقول إنه لا يجوز أخذ خرقة من شيخين؛ فإنه يخبر عن نفسه بأنه ما زال في عالم الثنائية وأنه يراهم اثنين، ويعتبرهم اثنين، ولا يعرف شيئاً عن أحوال المشايخ، وعندما تتفتح عيناه ويقع نظره على هذا العالم فإنه عندئذ يتحقق.

وربما يريد شخص من القول بأنه لا يجب أخذ خرقة ثانية، نية بطلان الخرقة الأولى. وهذا القول صحيح؛ فإن الخرقة الثانية بهذه النية لا يكون أخذها صحيحاً. وكل من يفعل مثل هذا يبطل الخرقة الأولى التي ارتداها، ويصبح ارتداء الخرقة الثانية حراماً عليه، ويحرم بين الجميع من الخرقتين والعياذ بالله.

ولقد لبس الشيخ أبو العباس القصاب الخرقة من يد محمد بن عبد الله الطبري، والطبري من يد أبي محمد الجريري، والجريري من الجنيد، والجنيد من سري السقطي، والسقطي من معروف الكرخي، والكرخي من داود الطائي، والطائي من حبيب العجمي، والعجمي من الحسن البصري، والبصري من أمير المؤمنين علي رضي الله عنهم أجمعين، وعلي من يد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

ثم ذهب شيخنا أبو سعيد إلى زاويته. وعندما فرغوا من صلاة الفجر نظر جماعة المريدين، فرأوا الشيخ أبا العباس يرتدي ثوب الشيخ أبي سعيد، والشيخ أبا سعيد يرتدي ثوب الشيخ أبي العباس، فتعجب الجميع، وسألوا أنفسهم كيف حدث هذا. وأدرك الشيخ أبو العباس بفراسته ما يجول بخواطهم، فقال: حقاً لقد كانت كل الهبات بالأمس من نصيب هذا الشاب الميهني باركه الله. ثم التفت الشيخ أبو العباس إلى شيخنا، وقال له: ارجع إلى «ميهنة» فسوف يرفعون هذا العلم على دارك بعد مدة قصيرة.

قال الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز: فرجعت إلى «ميهنة» وفقاً لأوامر الشيخ، مع مائة ألف مكرمة وفتح. والتف حولي المريدون، وظهرت أمور.

وعندما وصل أبو سعيد إلى «ميهنة» توفي الشيخ أبو العباس في «آمل».

قال شيخنا قدس الله روحه العزيز: عندما كنت في «آمل»، كنت جالساً ذات يوم بين يدي الشيخ أبي العباس القصاب، فدخل رجلان وجلسا أمامه وقالوا: أيها الشيخ لقد جرى بيننا حديث فقال أحدهما إن هموم الأزل والأبد أتم، وقال الآخر إن سرور الأزل والأبد أتم. فماذا يقول الشيخ؟ فمسح الشيخ أبو العباس وجهه بيديه وقال: الحمد لله أن مقام ابن القصاب ليس ألماً ولا سروراً «ليس عند ربكم صباح ولا مساء»، فالألم والسرور صفاتك، وكل ما هو صفاتك يكون محدثاً، وليس للمحدث طريق إلى القديم. ثم قال: إن ابن القصاب يطيع الله في الأمر والنهي ويتابع طريق المصطفى في السنة. وإذا ادعى أحد أنه يسلك طريق الرجال فدليله هو هذا الذي قلت، وليس سبيل العجائز من النساء بل منازل الأبطال. وعندما خرجا سألت من يكونان؟ فقال: أحدهما أبو الحسن الخرقاني،

والآخر أبو عبد الله الداستاني.

قال الشيخ: كنت في خدمة الشيخ أبي العباس القصاب يوماً فقال في أثناء حديثه: نصيبك من التوحيد الإشارة والعبارة، وليس لوجود الحق تعالى إشارة وعبرة. ثم التفت إليّ وقال: يا أبا سعيد، إذا سُئِلت أتعرف الله تعالى، فلا تقل أعرفه؛ لأن هذا شرك، ولا تقل لا أعرفه؛ لأن هذا كفر، ولكن قل: «عرفنا الله ذاته وألوهيته بفضلته».

وقال الشيخ: في يوم من الأيام قال الشيخ أبو العباس للجماعة أثناء حديثه: إن أبا سعيد محبوب الملائكة.

وقد ذكر جدي - جد المؤلف - شيخ الإسلام أبو سعيد أنه قد تم للشيخ الكشف في سن الأربعين. ولم يكن في الإمكان سوى هذا؛ لأن الأولياء الذين هم نواب الأنبياء لا يبلغون درجة الولاية قبل سن الأربعين. وهكذا كان المائة والعشرون ألف نبي، فقد بلغوا النبوة في سن الأربعين ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥]، ما عدا يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليهما فقد جاءتهم النبوة والوحي قبل سن الأربعين كما قال سبحانه وتعالى في حق يحيى: ﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَّءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. وقال عن عيسى ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]. وقد مارس الشيخ قدس الله روحه العزيز الرياضة والمجاهدة أربعين عاماً. ورغم أن الحال والكشف كان قد ظهر قبل ذلك؛ إلا أنه قام بها من أجل تمام تلك الحال ودوامها، كما جرى على لسانه المبارك في مجلس من المجالس عندما سئل عن هذه الآية: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] فقال: إن قالب آدم طرح فيما بين «مكة» والطائف أربعين عاماً، ووضعت فيه أخلاط كثيرة ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، وملأنا صدره بهذا الشرك والغرور والكبر والإنكار والخصومة والوحشة والغيبة والحديث عن النفس والغير «حين من الدهر» أي لمدة أربعين عاماً، والآن ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾. وفي هذه السن نخرج من صدور الأحبة ما وضعناه في أربعين سنة لنظهرهم، وتتم هذه المعاملات في

أربعين سنة. وكل بيان يخالف ما ذكرت باطل، كما أن كل من يمارس المجاهدة أقل من أربعين سنة لا يتم له الكشف ويعود إلى الحجاب، وكل من يعود إلى الحجاب لا يتم له الكشف. وأنا أقول هذا الكلام لا عن سمع ورؤية، وإنما أقوله عن تجربة.

وقد صدق هذا في حكايات الشيخ؛ ففي الوقت الذي رأى فيه الشيخ أبو سعيد الأستاذ أبا علي الدقاق قدس الله روحهما العزیزة، كانا جالسين معاً يوماً، فسأل الشيخ الأستاذ: كلا. فأحنى الشيخ رأسه فترة ثم رفعها، وقال مرة أخرى: أيها الأستاذ، هل يكون هذا الكشف على الدوام؟ فقال الأستاذ أبو علي: إذا كان دائماً فإن هذا يكون أمراً نادراً جداً. فأخذ الشيخ يصفق وهو يقول: هذه من تلك الحالات النادرة، هذه من تلك النواذر!

وكانت تعترني شيخنا بعد هذا حالات من القبض في بعض الأحيان ليس بسبب الحجاب؛ ولكن بسبب القبض البشري، فكان يطلب من كل شخص، ويسأل كل فرد حتى يظهر البسط.

وقد روي أن الشيخ قدس الله روحه العزيز اعترته يوماً حال من القبض، فأخذ يطلب من كل شخص، ويسأل كل فرد فلم يحدث البسط. فأمر الخادم بأن يخرج من الدار ويحضر كل من يراه. فخرج الخادم، فرأى شخصاً يمر، فقال له: إن الشيخ يدعوك. فدخل الرجل وحيا الشيخ. فقال له الشيخ: تحدث إليّ. فقال الرجل: أيها الشيخ، إن كلامي لا يليق لسمعك المبارك، ولست أعرف كلاماً يمكن أن أقوله لك. فقال له الشيخ: قل ما يتأني لك. فقال الرجل: سأقولك لك حكاية عن حالي، ثم قال: في وقت من الأوقات قلت لنفسي إن الشيخ أبا سعيد إنسان مثلنا، وهذا الكشف الذي ظهر له هو نتيجة للمجاهدة والعبادة. فلأتبجه الآن أنا أيضاً إلى العبادة والرياضة حتى تظهر لي تلك الحال. وأخذت أقوم بالعبادة وأنواع الرياضة والمجاهدة. ووقر في نفسي أنني وصلت إلى مقام تجاب فيه دعواتي في كل وقت، ولا ترد بأي حال من الأحوال. وفكرت في نفسي أن أسأل الحق تعالى أن يحيل الحجر ذهباً من أجلي لأقضي بقية عمري في رفاهية وأتمم مرادي. وذهبت وأحضرت عدداً من الأحجار ووضعتها في ركن الزاوية التي أتعبد فيها. واخترت

ليلة عظيمة، واغتسلت، وأخذت في عقيدة ويقين صادق: يا إلهي، اجعل هذه الأحجار ذهباً...! وعندما قلت هذا عدة مرات سمعت صوتاً من ركن الزاوية يقول: ما أغزر شاربه! وعندما قال الرجل هذه العبارة ظهر البسط للشيخ، وسر كثيراً، ونهض على قدميه، وأخذ يهز أكمامه وهو يقول: ما أغزر شاربه! وظهرت حال طيبة وتحول ذلك القبض بسطاً.

وكان الشيخ كلما تزايد القبض ذهب إلى قبر الشيخ أبي الفضل حسن في «سرخس». وقال السيد أبو طاهر الابن الأكبر للشيخ قدس الله روحه العزيز: في يوم من الأيام كان الشيخ يعظ في مجلس، وكان يعتريه قبض في ذلك اليوم. وبكى الشيخ في وسط المجلس وبكى جميع الحاضرين. وقال الشيخ: عندما يعتريني قبض أذهب إلى قبر الشيخ أبي الفضل ليتبدل القبض بسطاً. فأعدوا الجواد. ثم ذهب الشيخ والناس في صحبته. وما إن دخلوا الصحراء حتى استولى السرور على الشيخ وتبدل القبض بسطاً، وأخذ الشيخ يتحدث بينما الجميع يصيحون ويصرخون، وعندما وصلوا إلى «سرخس» تحول الشيخ عن الطريق الرئيس، وذهب إلى قبر الشيخ أبي الفضل حسن، وطلب من القوال أن ينشد هذا البيت:

معدن الجود والكرم هذا معدن السرور

قبلة الناس الحرم، وقبلتنا وجه الحبيب

فأخذ القوالون ينشدون هذا البيت، وأمسكوا بيد الشيخ، وأخذ يطوف حول قبر الشيخ أبي الفضل وهو يصرخ. وكان الدراويش يطوفون عراة الرؤوس والأقدام، وكانت أرجلهم تغوص في التراب. وعندما لاحت السكينة، قال الشيخ: سجلوا تاريخ هذا اليوم لأنكم لن تروا يوماً مثله مرة أخرى. وبعد ذلك كان كل مريد يعتزم الحج، يرسله الشيخ إلى قبر الشيخ أبي الفضل، ويقول له: يجب عليك أن تزور هذا القبر وتطوف حوله سبع مرات حتى يتحقق مقصودك.

وبعد أن فرغ الشيخ من هذه الرياضات، تم له الكشف الكامل، وكان تلاميذه يقولون إنه لم يترك أي سنة ولا أدب من آداب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه دون أن

يؤديها سواء في السفر أو الإقامة. واشتغل بالعبادة تمامًا، بحيث كان إذا نام انبعث من حقله صوت يردد «الله، الله، الله». ولم يكن أحد يعلم بما يقوم به الشيخ قدس الله روحه العزيز من الرياضة والمجاهدة، وكان يخفي هذا الأمر عن الناس ولا يتحدث به، ويجتهد في إخفائه إلا ما كان يستشهد به أثناء وعظه، ويقول من أجل هداية المريدين وترغيبهم.

قال الشيخ يومًا في مجلس من المجالس: كل ما يجب قوله قد فعلته. وكان جميع الأولياء قدس الله أرواحهم هكذا يخفون حالاتهم وكراماتهم عن الناس إلا ما ظهر منها دون تعمد. وقد حدث أن واحدًا منهم ظهر شيء من كراماته دون قصد، فدعا الله سبحانه وتعالى قائلاً: يا إلهي، لقد اطلع الناس على ما بيني وبينك، فانزع اللهم روحي فليس لي قدرة على تحمل الناس؛ لأنهم سوف يشغلونني عنك. ومات في الحال. ومثل هذه الطائفة لا تصلح أن تكون قدوة للناس؛ إذ إن من يصلح للقدوة لا يهتم بإظهار الكرامات. غير أنها إذا ظهرت منهم دون تعمد فإن هذا لا يؤثر فيهم، وربما يظهرون كراماتهم في وقت من الأوقات بقصد المصلحة، دون أن تكون مشقة الناس حجابًا لهم. فهم مأمورون بوعظ الناس وهداية المريدين وإرشادهم وتهذيب أخلاقهم. وهذه الطائفة أكثر نضجًا.

ولهذه الطريق مقامات كثيرة. وقد بين شيوخ الصوفية ألفًا وواحدًا من هذه المقامات التي يطول شرحها. وهدفنا هو القول بأن المشايخ لا يجتهدون في إظهار الكرامات، بل أنهم يسعون لإخفائها.

وهناك فرق بين الولي والنبى، وهو أن الأنبياء أمروا بإظهار المعجزات، أما الأولياء فقد أمروا بكتمان الكرامات. وقد كان -أبو سعيد- لهذا السبب كثيرًا ما يخفي مجاهداته ورياضاته وكراماته، ولم يكن يطلع أحدًا عليها. وقد بالغت في تصحيح ما وصلني من الثقة وذوي العدل، أما ما كان بينه وبين الله فلا يمكن التحدث فيه.

وقد عاش الشيخ ألف شهر؛ لأنه عمّر ثلاثة وثمانين عامًا وأربعة أشهر. وتوفي في

مساء يوم الخميس الرابع من شعبان سنة أربعين وأربعمائة في مدينة «ميھنة» في صومعة داره، ودفن في ضحى يوم الجمعة في الروضة المقدسة التي تواجه داره على نحو ما أشار به. أسأل الحق سبحانه وتعالى ألا يقطع بركات همته وأنفاسه عن كافة الخلق، وأن يثبت قدمي وأقدام الجميع في متابعتة بحق محمد وآله أجمعين.



الباب الثاني

في أواسط حال شيخنا قدس الله روحه العزيز

وهو ثلاثة فصول

الفصل الأول

في الحكايات المشهورة عن كرامات شيخنا

قدس الله روحه العزيز وثبتت صحتها

حكاية :

عندما فرغ الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز من الرياضة والمجاهدة، وعاد إلى «ميانة»، ووصل هذا الحال والكشف إلى الكمال، توجه إلى «نيسابور». وعندما وصل إلى مدينة «طوس» أرسل قبله أحد الدراويش من قرية «باز» التي تقع على بعد فرسخين من المدينة، وقال له: ينبغي أن تذهب إلى المدينة وتساءل المعشوق هل يأذن لنا في النزول بولايته؟ ولم يكن الشيخ يقول لأحد قط «افعل هذا» أو «لا تفعل ذلك»، بل كان يقول «ينبغي عمل هذا» أو: «لا ينبغي عمل ذلك».

وكان المعشوق من عقلاء المجانين، وصاحب حال كامل، يقيم في «طوس» وقبره موجود بها.

وعندما ذهب ذلك الدراويش، أمر الشيخ بإعداد جواده، وذهب خلفه وفي رفقته جماعة الصوفية. وحين وصل إلي بعد فرسخ من المدينة في موضع يقال له «دو برادران» به هضبتان يمكن منهما رؤية المدينة، توقف جواد الشيخ وتوقف الجميع معه. ولما وصل ذلك الدراويش عند المعشوق وذكر له قول الشيخ، ابتسم المعشوق وقال: اذهب وقل له يحضر. وعندما تلفظ المعشوق بهذا القول في المدينة، ساق الشيخ جواده من ذلك المكان، وسار معه الجميع حتى التقى الدراويش به في الطريق، وأبلغه قول المعشوق.

وجاء الشيخ إلى المعشوق فاستقبله وعانقه قائلاً: اطمئن فإن هذه الطبول التي يدقونها هنا وهناك سوف يدقونها جميعاً على بابك أياماً عديدة.

وبعد ذلك رجع الشيخ من هناك ونزل في خانقاه الأستاذ أبي أحمد التي كانت مقرراً لأبي نصر السراج. واحتفى الأستاذ أبو أحمد بشيخنا وقام على خدمته، واستبقاه في «طوس» عدة أيام، وعقد له مجلساً في خانقائه. وعندما سمع أهل «طوس» أقوال الشيخ ورأوا كراماته الظاهرة، أصبحوا من مريديه، ووجد الشيخ قبولاً كبيراً.

وقد سمعت من الأمير الإمام عز الدين الإيلباشي - طول الله عمره - قوله: سمعت الأمير أبا علي يقول: عندما جاء الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز إلى «طوس» وكان يعظ في المجالس في دار الأستاذ أبي أحمد، كنت لا أزال شاباً صغيراً. فذهبت مع والدي إلى المجلس، وكان قد تجمع به خلق كثير بحيث لم يعد هناك مكان على الباب أو السطح. وبينما كان الشيخ يتحدث في المجلس، وقد أجهش الناس بالبكاء دفعة واحدة، سقط طفل صغير من حجر أمه بسبب تزامم النساء على السطح. ولما رآه الشيخ قال: اللهم احفظه. فظهرت يدان في الهواء وأمسكتا بالطفل ووضعتاه على الأرض دون أن يصاب بأذى. ورأى جميع أهل المجلس ذلك، وانبعث الصياح من الخلق. وقد أقسم أبو علي على أنه رأى هذا بعينه.

حكاية:

قال عمي كمال الدين بن أبي سعيد: ذهبت إلى «سرخس» مع والدي السيد أبي سعيد وجدي السيد أبي طاهر رحمة الله عليهما لتحية نظام الملك فقال لنا: عندما جاء الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز إلى «طوس» كنت صغيراً، أقف مع جماعة من الصبية على رأس حي المسيحيين. وأقبل الشيخ مع الجماعة، ولما اقترب منا التفت إلى الصوفية وقال: قل لمن يريد رؤية سيد الدنيا انظر فيها هو قد وقف هناك. وأشار إلينا: فأخذ كل منا ينظر إلى الآخر في تعجب لكي نتبين من المقصود بهذا القول، فقد كنا جميعاً صغاراً لا نعرف شيئاً. واليوم مر على هذا الحادث أربعون عاماً، وقد عرفت

الآن أنه كان يشير إليّ.

حكاية:

حكى السيد أبو القاسم الهاشمي هذه الحكاية فقال: كنت في السابعة عشر من عمري عندما جاء الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز إلى «طوس»، وكان والدي رئيسًا لها ومريدًا للشيخ، يذهب إلى مجلسه في خانقاه الأستاذ أبي أحمد كل ليلة ويأخذني معه. ولم أكن أجلس في حضرة والدي قط. وكانت لي معشوقة في الخفاء كعادة الشبان. وذات ليلة أرسلت إليّ تلك المرأة تقول: سوف أذهب إلى عرس فلا تنم حتى أراك عند عودتي. فجلست على السطح، ومضى الليل في بطاء، واستولى علي النعاس، فأخذت أقول لنفسي هذه الرباعية حتى لا أنام.

«رباعية»

في عيني بدل النوم دمع!

ذلك أنني أتعجل رؤيتك

يقولون لي نم حتى تراه في النوم!

فيا أيها الحمقى من أين لي النوم؟

وأخذت أردد هذا الشعر، ولكن النوم غلبني، وبقيت نائمًا حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر، فصحوت من نومي ولم أر أحدًا.

وفي اليوم التالي ذهبت مع والدي إلى مجلس الشيخ، فسألوه عن المحبة في طريق الحق، فأخذ يقول كلامًا في هذا المعنى ثم قال: انظر طريق البحث عن آدمي تحبه لترى أية متاعب تكابدها، وأية حيلة تصنعها لكي تصل إلى مقصودك أو لا تصل، لتعرف كيف يمكن للسالك في طريق الحق أن يصل إلى مقصوده. فهناك محبوب وعد هذا الشاب بالأمس، وأشار إليّ، فظل دون نوم نصف الليل، وأخذ يقول: في عيني بدل النوم دمع! ما هي الشطرة الثانية أيها الشاب؟

قال السيد أبو القاسم: فلم أقل شيئاً من الخجل. فقالها الشيخ مرة ثانية ف وقعت مغشياً علي. ولما أفقت قال لي الشيخ: ما دامت عيونك قد امتلأت بالدمع بدلاً من النوم، فلماذا نمت حتى عجزت عن بلوغ مقصودك؟ ثم قال الرباعية كلها، فصاح الخلق جميعاً، وغبت عن الوعي، وأسقط في يدي. وقال لي الشيخ: يكفيك هذا القدر. وتملكت الجميع الأحوال فألقوا بالخرق واشترى لهم والدي غيرها.

وعندما جاء الشيخ إلى دارنا بعد ذلك، رجاء والدي قائلاً: إذا أردت أن تشرب فاشرب من يدي أبي القاسم. ووقفت بجوار الشيخ وفي يدي الكوز، فشرب الشيخ من يدي مرتين، وقال لي: سوف تكون رجلاً طيباً، ولم أقترف حراماً قط واحداً وثمانين عاماً، فترة عمري، ولم أشرب الخمر قط احتراماً لقول الشيخ، ولم أقم بخدمة مخلوق، ولم أسئ إلى أحد قط. وكنت صاحب هاتين الكرامتين من كرامات الشيخ.

حكاية:

روى أن الشيخ أبا سعيد والشيخ أبا القاسم الجرجاني قدس الله أروحهما كانا قد جلسا معاً على منصة واحدة في مدينة «طوس»، ووقفت جماعة من الدراويش أمامهما. فتساءل درويش بينه وبين نفسه ما منزلة هذين العظيمين؟ فالتفت الشيخ أبو سعيد إلى ذلك الدراويش في الحال وقال: «كل من أراد أن يرى ملكين يجلسان معاً على عرش واحد وهما متآلفان، قل له انظر» فلما سمع الدراويش هذا الكلام، رأى في الحال هذين الملكين، فقد رفع الحق سبحانه وتعالى الحجاب عن عينه حتى ينكشف أمام قلبه صدق كلام الشيخ ويعرف قدره. وجال بخاطره خاطر يقول: هل لله تبارك وتعالى في الأرض اليوم أعظم من هذين الرجلين؟ فالتفت الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز إلى ذلك الدراويش وقال: قليل من الملوك في هذا الملك اليوم مثل أبي سعيد وأبي القاسم. سبعون ألفاً لا يدانون هذه المنزلة، وسبعون ألفاً لا يبلغونها. كان يقول هذا ويعين.

حكاية:

بعد أن أقام الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز عدة أيام في «طوس» قصد «نيسابور»، وكان السيد محمود المريد يقيم بها، وقد بلغ من عظمته أن الشيخ أبا سعيد كان يرسل إليه المريدين، ويقول إنه سالك طيب. وفي يوم من الأيام قال محمود هذا: رأيت في نومي أن جبل «طوس» الذي يقع ناحية «نيسابور» ينشق، ويخرج القمر من وسطه، وينزل في خانقاه محلة «عدني كويان». وفي هذه اللحظة كان الشيخ يصل إلى المدينة، فاستقبلوه وأنزلوه في خانقاه «عدني كويان». وقال السيد محمود: سيمضي وقت طويل قبل أن نعد طعاماً، فعلينا أن نحضر سريعاً رأساً مشوياً من السوق. وأعدت المائدة وقدموا الرأس المشوي فقال الشيخ: لقد شرعنا في الأكل فليبارك الله لنا فيه. وعندما فرغوا من الطعام قال السيد محمود المريد: أيها الشيخ، ما رأيك في الحمام؟ فقال الشيخ: ينبغي أن نذهب إليه. وذهب الشيخ مع الجماعة إلى الحمام. وعندما فرشوا سجادة الشيخ أحضروا له إزاراً نظيفاً. ورفع السيد محمود العمامة عن رأس الشيخ وقبلها ووضعها أمامه، فقال له الشيخ: بارك الله فيك. ولما أظهر محمود الطاعة لم تعد هناك أهمية للآخرين.

وأخذ الشيخ الإزار، والتف به، وذهب إلى الحمام. وأخلدوا إلى الراحة بقية يومهم. وفي اليوم التالي أعدوا للشيخ مجلساً في محلة «عدني كويان». وحين بدأ المجلس قالوا للشيخ: هنا رجل عظيم يُدعى «أبو القاسم القشيري» يقول إن العبد يصل إلى الله بقدميه فماذا يقول الشيخ؟ فقال الشيخ: كلا، إنهم يقولون إن العبد يصل إلى الله بقدم واحدة. وذهب مريدو الأستاذ الإمام إليه وأبلغوه هذا القول، فقال لهم: ألم تسألوه كيف يكون ذلك؟ وفي اليوم التالي سألوا الشيخ: لقد قلت بالأمس إنهم يصلون إلى الله بقدم واحدة فقال الشيخ: نعم، واليوم أقول هذا نفسه. فسألوه: كيف أيها الشيخ؟ قال بين العبد والحق قدم واحدة، فلا تكاد تخرج عن نفسك قدماً واحدة حتى تصل إلى الحق. وعندما قال الشيخ هذا صاح طواف بباب الخانقاه قائلاً: «دوننا وكل النعم» فقال الشيخ: استمعوا إلى قول ذلك العاقل واعملوا به، فاخرجوا قليلاً ليكون الكل أنتم. ثم قال:

«لييت»

بالوفاق والخلق الحسن وعدم الغضب،

يبقى العشق بيننا بلا التواء

وحكى مريدو الأستاذ الإمام له هذه للحكاية فقال الأستاذ: هو كذلك كما يقول الشيخ. وكلما خطر لأحد الاستفسار عن أمر كان الشيخ يوضحه له حتى يتبينه، ثم يتابع الشيخ الحديث. وأقبل أهل «نيسابور» على الشيخ واتجهوا إليه. وكان الشيخ يقول الشعر في وسط الحديث، وقيم الولائم الفاخرة. كما كانوا يقيمون السماع بين يديه؛ ومن ذلك أنكره جميع أئمة الفرق.

حكاية:

يقول السيد حسن بن المؤدب رحمة الله عليه: حينما تردد في «نيسابور» أن شيخ الصوفية قد أقبل من «ميمنة»، وأنه يقوم بالحديث في المجالس ويخبر الناس بأسرارهم، وكنت أحتقر الصوفية؛ فقلت إن الصوفي لا يعرف العلم فكيف يتحدث في المجلس؟ ولم يعط الله علم الغيب لأحد، ولن يعطيه، فكيف له أن يخبر بأسرار عباد الحق تعالى؟ وذات يوم ذهبت إلى مجلس الشيخ على سبيل الاختبار، وجلست أمام منصته وقد ارتديت ملابس فاخرة، وعقدت شالاً طبرياً على عمامتي. وجلست بقلب مملوء بالإنكار والخلاف. وأخذ الشيخ يتحدث في المجلس. وعندما أنهى الحديث طلب ثوباً لواحد من الدراويش. فقدم الحاضرون له بعض الثياب. وحدثت نفسي أن أعطيه عمامتي، ولكنني عدت وقلت لقد جاءني هذه العمامة هدية من «آمل» وقيمتها عشرة دنانير ذهبية فلن أعطيها. ثم طلب الشيخ عمامة. ففكرت أن أعطيه العمامة، ولكنني عدلت عن هذه الفكرة مرة أخرى، وعاودني نفس الخاطر الأول. وكان يجلس إلى جانبي أحد الشيوخ، فسأل الشيخ: هل يقول الله سبحانه وتعالى كلاماً للعبد؟ فأجاب الشيخ: إنه يقول، ولكنه لا يقول أكثر من مرتين من أجل عمامة طبرية، فقد قال لذلك الرجل الذي

جلس إلى جوارك مرتين أن أعط هذه العمامة التي على رأسك لذلك الدراويش وهو يقول لن أعطيها لأن قيمتها عشرة دنانير وقد أحضروها لي هدية من «آمل». قال حسن ابن المؤدب: عندما سمعت هذا الكلام ارتعدت ونهضت، وتقدمت إلى الشيخ وقبلت أقدامه، وأعطيت العمامة والملابس جميعها إلى ذلك الدراويش، وتخلت عن الإنكار والخلاف، وأسلمت من جديد، وبذلت كل ما أمتلك من مال ومتاع في سبيل الشيخ، ووقفت نفسي على خدمته.

وهكذا أصبح -حسن بن المؤدب- خادمًا لشيخنا، وظل في خدمته بقية عمره. وقبره بميمنة.

حكاية:

سمعت من الشيخ محمد الشوكاني خادم الشيخ، ومن أخيه زين الطائفة عمر الشوكاني قولهما: سمعنا والدنا يقول: كنت شابًا عندما أرسلني أبناء الشيخ أبي سعيد، قدس الله أرواحهم العزيزة ورحمهم رحمة واسعة، من «ميمنة» للخدمة في خانقاه الشيخ في «نيسابور»، فاشتغلت بخدمة الدراويش. وفي يوم من الأيام ذهبت إلى الحمام المجاور للخانقاه، وكان الشيخ يذهب إليه كثيرًا، وعندما دخلت الحمام وحلقت شعري وجلست، جاء شيخ وأراد أن يدلكني، فمنعته من ذلك، وقلت له: أنت شيخ، وأنا شاب، ومن الواجب علي أن أقوم بخدمتك. فقال لي: دعني أدلكك، وأروي لك حكاية. فتركته. وبدأ يحكي، فقال: كنت شابًا أملك حانوتًا على مفترق الطرق في هذه المدينة، أقوم فيه بصناعة الحلوى. وعندما اشتغلت بهذا العمل فترة وتوفر لي رأس مال، استهوتني التجارة، فنهضت من حانوتي، وأعددت للسفر. ولم أكد أخرج من المدينة حتى رأيت قافلة كبيرة متجهة إلى «بخارى». فاستأجرت أنا أيضًا جملًا وسرت في صحبتهم. وعندما وصلنا «سرخس» وأقمنا بها يومين توجهنا إلى «مرو» كعادة القوافل. فتقدمتُ القافلة، وقطعت جزءًا من الطريق، ونمت حتى تصل القافلة. فلما لحقت بي، نهضت وسرت معهم، ومكثت أسير على هذا النظام حتى جاء يوم أقبل فيه الليل على غرة، وكنت منهوكة

مُتَّعِبًا وقد غلبني النوم، فسرت في اتجاه من الطريق وتقدمت مسافة طيبة ونمت. وبقيت نائمًا حتى جاءت القافلة وارتحلت وأنا لا أزال نائمًا إلى أن أيقظتني حرارة الشمس. فصحوت من نومي، ونهضت، فلم أر أثرًا للقافلة في أي مكان. وكانت الرمال من حولي، ولم أتبين الطريق. فأسرعت مسافة، ثم ضللت الطريق، ووقعت في حيرة. وفكرت في نفسي أنني إذا سرت مسافة في هذا الطريق، أو ذلك الاتجاه فلن أصل إلى أي مكان. والصواب يقتضي أن أجتهد مع نفسي، وأستحضر قلبي، حتى يستقر رأيي على اتجاه أسير فيه. فأجمعت أمري، واجتهدت، وتخيرت اتجاهًا أخذت أسير فيه حتى جاء الليل. وكان الحر شديدًا، فأجهدني العطش والجوع. ولما اعتدل الجو تماكنت نفسي قليلًا، وقلت: من الأفضل أن أسير ليلاً. وفي تلك الليلة سرت حتى مطلع الفجر. وعندما أقبل الصباح نظرت من حولي، فرأيت الصحراء كلها رمالًا وأشواكًا. ولم أر أثرًا للعمران في أي مكان، فتحطمت. وأخذت أسير على هذا النحو من العطش والجوع والعجز، حتى اشتدت حرارة الشمس وتجاوز العطش مده، فسقطت، واستسلمت للموت. ثم قلت لنفسي: لا ينفع في مثل هذه الحال غير بذل الجهود، ثم يكون الاستسلام للموت بعد نفاذ جميع هذه الجهود. ولم تبق لي سوى حيلة واحدة؛ وهي أن أبحث بين هذه الكثبان الرملية عن كثيب يكون أكثر ارتفاعًا، وأتحايل على أن أرقاه، وأنظر في أرجاء هذه الصحراء؛ لعلني أرى مكانًا عامرًا، أو نبع ماء، أو مأوى للبدو، فإذا كان ذلك فهو المراد، وإلا حفرت قبري فوقها، واستسلمت للموت. ثم نظرت فرأيت مرتفعًا كبيرًا، فرفعت نفسي فوقه، ونظرت إلى تلك الصحراء، فرأيت سوادًا من بعيد، وأمعنت النظر فوجدته عشبًا. فقوي قلبي، وقلت لنفسي: حيثما يوجد العشب يكون الماء، وحيثما يكون الماء يمكن أن يوجد آدمي. وبذلك انبعثت فيَّ القوة، ونزلت وتوجهت إلى ذلك العشب. وعندما بلغت ذلك المكان وجدته أرضًا صلبة تمتد خلال الرمال على مسافة مرمى سهم، بها عين يتدفق منها الماء الصافي، ويغمر مساحة من الأرض حولها، حتى نما فيها العشب واخضر. فرفعت رأسي، وشربت جزءًا من ذلك الماء، وتوضأت، وصليت ركعتين، وسجدت شكرًا لله على أنه أحياني من جديد. وقلت لنفسي: ينبغي أن أقيم هنا ولا أرحل

عن هذا المكان، فربما يأتي إليه أحد في طلب الماء، وإلا فلا أقل من أن أستريح هنا بجوار الماء يوماً وليلة. ثم أكلت بعض العشب، وابتعدت عن تلك العين، وصعدت فوق الكثبان، ووضعت رأسي على الرمال كالثور، وأحطت نفسي بالأشواك لئلا يراني أحد. وجعلت أنظر من خلال الأشواك خشية أن يفترسني حيوان، أو يظهر آدمي لا يخشى الله فيهلكني، وما زلت مختفياً بين الأشواك وأنا أنظر إلى أطراف الصحراء، ولما حل وقت الظهر، ظهر سوادٌ من بعيد، واتجه إلى هذه العين، وحين اقترب كان رجلاً. فقلت لنفسي «الله أكبر!!» لقد فتح باب لخلاصي. ولما صار على مقربة، وجدته رجلاً، طويلاً، أبيض اللون، ضخيم الجسم، واسع العينين، تصل لحيته إلى وسطه، وقد ارتدى مرقع الصوفية، وحمل عصاً وإبريقاً في يده وطرح سجادة على كتفه، ووضع قلنسوة الصوفية على رأسه، وانتعل خفًا. وكان النور يشع من وجهه. وجاء إلى حافة الماء، وألقى السجادة على نحو ما يفعل الصوفية، وسحب إبريق الماء، وذهب خلف مرتفع واستنجد. وعاد وجلس على حافة العين، وتوضأ، وصلى ركعتين، ورفع يديه ودعا دعاء. وأدى السنة، ثم أقام الصلاة وأدى الفريضة. ومشط لحيته. ثم نهض وألقى السجادة على كتفه، وحمل العصا والإبريق، واتجه إلى الصحراء. وكنت لا أشعر بنفسي طيلة وجوده أمامي، لشدة هيئته، وانشغالي بطلعته، وحسن طاعته. وعندما غاب عن عيني، وعدت إلى وعيي لمْتُ نفسي كثيراً وقلت: ما هذا الذي فعلته! لقد كنت أتمنى من الدنيا جميعها آدمياً ليخلصني من هذه الصحراء المهلكة؛ فوجدت رجلاً له مثل هذا النور ومع ذلك لم أطلب منه أن يدلني على الطريق. ثم قلت: ليس هناك حل الآن سوى الصبر فربما يعود. وأخذتُ أنتظر حتى حل وقت صلاة العصر. فظهر نفس ذلك السواد من بعيد، فعرفت أنه نفس الشخص؛ ولما اقترب كان هو فعلاً. فأدى صلاة العصر في هذه المرة أيضاً.

وكنت قد صرت أكثر جرأة هذه المرة، فخرجت من بين الأشواك في ببطء، ونزلت من ذلك المرتفع. وعندما فرغ من الصلاة، ورفع يديه بالدعاء، هم بالذهاب. فأمسكت بذيله وقلت له: أيها الشيخ، أعني بحق الله... أنا رجل من «نيسابور»، وكنت قادماً إلى

«بخارى» مع قافلة، وقد مضى علي الآن يومان وأنا ضال، وقد ذهبت القافلة وبقيت وحدي في هذه الصحراء، ولست أعرف لي طريقاً. فأحني رأسه، ثم رفعها بعد لحظة، وأمسك بيدي ونظرت، فرأيت أسداً آتياً من تلك الصحراء. وجاء الأسد أمامه، وحياءه، ووقف. فوضع فمه على أذن الأسد، وهمس فيها شيئاً، ثم أركبني عليه، ووضع شعر رقبته في يدي، وقال لي: أحكم قدميك تحت بطنه، فإذا ما وقف فانزل عنه وسر في الاتجاه الذي يوجه وجهه إليه. فأغمضت عيني، وسار الأسد. ومضت ساعة ثم توقف عن السير. فنزلت عنه، وفتحت عيني فوجدت طريقاً. ولم أكد أسير خطوات حتى وجدت القافلة قد نزلت بذلك المكان. فذهبت معهم إلى «بخارى»، وحصلت على ربح طيب من المتاع الذي حملته معي إلى «بخارى»، واشترت أمتعة تناسب «نيسابور»، وعدت إلى حانوتي أصنع الحلوى مرة أخرى. ومضت عدة سنوات. وذات يوم ذهبت إلى محلة «عدني كويان» لعمل ما، فرأيت جمعاً على باب الخانقاه. فسألت عما حدث. فقيل لي: لقد جاء رجل من «ميهنة» يُقال له الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير. وهو شيخ، وزعيم للصوفية، وله كرامات ظاهرة. وقد نزل بهذه الخانقاه، وسيتحدث اليوم في هذا المجلس، وهؤلاء الناس يرغبون في حضور مجلسه. وهذا هو سبب الازدحام. فقلت لنفسي فلا أدخل أنا أيضاً لأرى ماذا يقول. وحين دخلت من باب الخانقاه كان هناك عمود على طرف الرواق، فوقفتُ بجواره. وكان الشيخ قد جلس على المنصة وأخذ يتحدث. ونظرت إليه، فرأيت فيه ذلك الرجل الذي أركبني على الأسد في الصحراء. وكان يتحدث وهو يتجه إلى ناحية أخرى. وعندما سمعت صوته، عرفته للمرة الثانية. وأردت أن أقول ذلك، فالتفت إليّ في الحال وقال: إياك.. إياك.. ألم تسمع بأن ما يرى في الصحراء لا يقال في العمران؟ ولما قال هذا انطلقت مني صرخة، ولم أشعر بنفسي، ووقعت مغشياً علي. وكان الشيخ قد عاد إلى الحديث وأتم المجلس. وعندما عدت إلى وعيي كان الشيخ قد أنهى المجلس، وذهب الناس وتفرقوا. وكان أحد الدراويش قد جلس ووضع رأسي على رجليه، فلما أفقت ونهضت قال لي: لقد أمر الشيخ بأن تدخل عليه. فتقدمت وانكبت على قدمي الشيخ، فلاطفني كثير، ومنحني بركاته، وأمر حسن بن المؤدب أن يحضر لي ملابس

جديدة، فخلع عني ملابس الحلوى، وألبسني تلك الملابس، ووضع في كمي طبقاً من السكر، وقال لي: احمل هذا إلى صغارك، وعاهدني على ألا تقول هذا الكلام لأحد ما دمت حياً، وألا تفشى السر. فوافقته، وعاهدته على ذلك. ولم أقل هذه الحكاية لأحد طيلة حياة الشيخ، فلما حل إلى دار البقاء قتلها لك.

حكاية:

حكى السيد حسن بن المؤدب خادم الشيخ الخاص هذه الحكاية فقال: عندما جاء الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز إلى «نيسابور» في بداية حاله؛ كان يتحدث في المجلس، واتجه نحوه الناس، وأصبح له كثير من المريدين. وكان زعيم الكرامية في «نيسابور» في ذلك الوقت الأستاذ أبو إسحاق الكرّامي، ورئيس أصحاب الرأي والرافضة القاضي صاعد. وكان لهما أتباع كثيرون. وكانا ينكران الشيخ إنكاراً شديداً، ويظهران العداء لجميع الصوفية. وكان الشيخ يقول الشعر فوق المنبر، وقيم الولائم الفاخرة بحيث كان ينفق على الوليمة الواحدة الواحدة ألف دينار. كما كان يقيم السماع دائماً. وكان هؤلاء ينكرون ذلك على الشيخ إنكاراً شديداً؛ بيد أن الشيخ لم يهتم بذلك واستمر في عمله. وقد اجتمع هؤلاء، وكتبوا عريضة شهد عليها أصحاب الرأي. وجاء فيها أنه «قد جاء إلى هنا رجل من «ميهنة»، يدعو إلى الصوفية، ويتحدث في المجالس، ويقول الشعر على المنبر، ولا يتحدث في التفسير والأخبار، ويأمر بالسماع، ويرقص، ويأمر الشباب بالرقص، ويأكل الجوز واللوز والطيور المشوية وألوان الفاكهة، ويطعمها للآخرين، ويزعم بعد ذلك أنه زاهد. وليس هذا شعار الزهاد ولا الصوفية. وقد التف حوله الخلق، وضلوا الطريق، ووقع أكثر العامة في الفتنة. فإذا لم يتدارك السلطان هذا الأمر سريعاً؛ ظهرت الفتنة». وأرسلوا تلك العريضة إلى السلطان محمود في «غزنین». فكتب لهم خطاباً على ظهرها؛ بأن يجتمع أئمة الفريقين الشافعية والحنفية لينظروا في أمره؛ ويطبقوا عليه ما تقتضيه الشريعة. ووصل ذلك الأمر يوم الخميس. فسر أولئك المنكرون، وقالوا: غداً الجمعة، وفي يوم السبت نعقد مجلساً ونشئ الشيخ مع جميع الصوفية على

مفترق الطرق. وقرروا هذا جميعاً. وانتشر الخبر في المدينة، وغضب لذلك أتباع الشيخ وتألّموا. ولم يجرؤ أحد على أن يخبر بهذه الحال؛ إذ إنه لم يكن من الضروري أن يحاط علماً بشيء؛ لأنه كان يرى ويدرك كل ما يجري بفراسته وكرامته.

قال السيد حسن بن المؤدب: وحين فرغنا من صلاة العصر في ذلك اليوم، دعاني الشيخ، وقال لي: يا حسن، كم عدد الصوفية؟ فقلت: مائة وعشرون، ثمانون منهم مسافرون، والأربعون مقيمون. فقال: أقم لهم غداً مأدبة، ماذا ستعد لهم؟ قلت: ما يشير به شيخنا. فقال: غداً يجب أن تضع أمام كل واحد رأس حمل مشوية مع كثير مع السكر المسحوق، لينثروه على منح ذلك الحمل، وأن تضع أمام كل واحد رطلاً من الحلوى، وتحضر ماء الورد والبخور لكي نحرق العود، ونصب عليهم ماء الورد. وتحضر حباً لا قوية الفتل، وتضع المائدة في المسجد الجامع، ليرى أولئك الذين يغتابوننا في الخفاء ماذا يطعم الحق سبحانه وتعالى أعزاء حضرة عزته من حجب الغيب. قال حسن: ولما أشار الشيخ بهذا، كان معروفاً أنه لم يكن في الخزانة رغيف واحد. ولم أكن أعرف في «نيسابور» جميعها من أجترئ عليه بطلب درهم واحد؛ إذ إن الجميع كانوا قد تغيروا بسبب هذه الشائعات. ولم أجرؤ أن أقول للشيخ من أين أهيئ هذا. فخرجت من عنده، وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب، ووقفت متحيراً على رأس محلة «عدني كوبان» لا أدري ماذا أصنع حتى انقضى النهار، واصفرت الشمس وغربت. وكان الناس يغلقون حوانيتهم، ويتوجهون إلى منازلهم. وحانت صلاة العشاء وعم الظلام، ورأيت رجلاً في نهاية السوق يسرع عائداً إلى منزله، فرآني واقفاً، فقال لي: يا حسن، ماذا دهاك حتى جعلك تقف حائراً هكذا؟ مرني بحاجة أو خدمة. فأخبرته بالقصة، وبما أمر به الشيخ، وقلت له إنني لا أعرف لهذا الأمر مخرجاً، وسأظل واقفاً هكذا حتى الفجر، إذا دعا الأمر، إذ لا سبيل أمامي لعودة. ففتح ذلك الشاب كفه في الحال وقال لي: أدخل يدك في كمي وخذ ما يلزمك، وأنفقه على نحو ما أشار الشيخ. فوضعت يدي في كفه، وأخذت حفنة من الذهب الأحمر. وارتاح قلبي وأثنت عليه واتجهت للعمل وأعددت كل ما أمر به

الشيخ. وكان يدي كانت ميزاناً لما قاله الشيخ، فقد أعددت هذا كله بحيث لم ينقص درهم، ولم يزد درهم وأتممت ذلك كله في تلك الليلة، وذهبت في الوقت المعين، وأخذت الحبال ومددت المائدة في المسجد الجامع على النحو الذي أشار به الشيخ. وحضر الشيخ مع الصوفية. واشتغل كثير من الناس بالنظر إلى هذا، وحملوا الخبر إلى القاضي صاعد والأستاذ أبي بكر أن الشيخ قد أعد وليمة للصوفية في المسجد الجامع. فقال القاضي صاعد: اتركوهم لينعموا اليوم ويأكلوا الرؤوس المشوية، فغداً سوف تأكل الغربان رؤوسهم. وقال أبو بكر إسحاق: اتركوهم يشحمون اليوم بطونهم؛ لأنهم سوف يشحمون المشنقة غداً. ووصل هذا الخبر إلى آذان الصوفية، فاغتم الجميع وتألموا. وعندما ما فرغوا من الطعام قال الشيخ: يا حسن، ينبغي أن تحمل سجاجيد الصوفية إلى مقصورة القاضي صاعد؛ لأننا سوف نصلي خلفه. وكان القاضي صاعد خطيب المدينة. قال حسن: فحملت سجاجيد الصوفية إلى المقصورة، وأنزلت خلف القاضي صاعد مائة وعشرين سجادة وصففتها صفين بحيث لم يعد هناك مكان لأحد. ودخل القاضي صاعد وذهب إلى المنبر وخطب خطبة إنكار ونزل. ولما قضيت الصلاة، نهض الشيخ ولم ينتظر السنة. وحين سار نظر القاضي صاعد خلفه، وأراد أن يقول كلاماً. فنظر إليه الشيخ باحتقار، فأحنى رأسه في الحال. وذهب الشيخ، وذهب الجميع في خدمته. وعندما عاد الشيخ إلى الخانقاه قال لي: اذهب إلى سوق الكرمانيين تجد هناك بائع حلوى وضع كعكاً نظيفاً محشواً بالفسق، فخذ منه عشرة أمان من الكعك، ثم دعه وسر حتى تجد بائع عنب، فخذ منه عشرة أمان من العنب، وضعهما في فوطتين طبريتين، واذهب بهما إلى الأستاذ أبي بكر إسحاق، وقل له: ينبغي أن تفطر عليهما الليلة. قال حسن: فنهضت وذهبت إلى السوق الكرمانيين، ونفذت أمر الشيخ، وذهبت إلى بيت أبي بكر إسحاق، واستأذنت ودخلت وسلمت عليه، وأبلغته سلام الشيخ، وقلت له: إن الشيخ يرجو أن تفطر الليلة على هذا الطعام. وعندما رآه تغير لون وجهه، وعض أصابعه. وأظهر تعجبه، وأجلسني. ونادى حاجبه أبو القسمك وقال له: اذهب إلى القاضي صاعد، وقل له إنني قد عدلت عن الموعد الذي كان بيننا غداً لنذهب ونناظر هذا الشيخ والصوفية ونؤذيه،

وأنت أعلم بهم. وإذا قال لك لماذا؟ فقال له إنني نويت الصيام بالأسس، واليوم حين وصلت إلى سوق الكرمانيين في طريقي إلى المسجد، رأيت كعكاً نظيفاً على باب أحد حوانيت الحلوى، فرغبت فيه، وفكرت في أنني بعد الصلاة سوف أبعث من يشتري لي كعكاً من ذلك الحانوت لأفطر عليه الليلة. وحيثما تجاوزته، رأيت بائع عنب فقلت إن العنب لطيف مع الكعك لأفطر عليهما. وحين عدت إلى المنزل كنت قد نسيت كل شيء عن هذا الأمر، ولم أتحدث به لمخلوق. بل كان مجرد خاطر. والآن أرسل الشيخ إليّ هذين الشيئين من نفس الموضعين قائلاً أفطر عليهما الليلة والشخص الذي يكون له مثل الاطلاع على ضمائر الناس، لا يسعني إلا أن أتجنب مناظرته. وذهب الحاجب أبو القسمك، وعاد برسالة -من القاضي صاعد- يقول فيها: لقد كنت أنا أيضاً على وشك أن أبعث إليك بمن يخبرك بمثل ما أخبرني به، فقد صلى -الشيخ- خلفي اليوم، وعندما أنهى الفريضة نهض ولم ينتظر السنة وسار. فأتبعته بنظري راغباً في الإساءة إليه، وأسأله ماذا يكون يكون شعار الصوفية هذا الذي لا يؤدي السنة في يوم الجمعة؟ فنظر إليّ الشيخ في احتقار، وذابت جرأتي، وتخيلت أنه صقر وأنني عصفور صغير، وأنه سيفترسني في هذه الساعة. وبذلت جهداً كبيراً لأتكلم، ولكنني لم أستطع أن أقول شيئاً. وقد أظهر لي اليوم هيئته وعظمته، فلا شأن لي معه. ولقد كنت أنت صاحب الرأي في مخاطبة السلطان في أمره، والمسئول عن هذا، والأصل في ذلك، وكنا نحن أتباعاً لك. وعندما انتهى الحاجب أبو القسمك من هذه الرسالة التفت أبو بكر إسحاق إليّ وقال لي: اذهب وقل للشيخ إن القاضي صاعد ومعه ثلاثة آلاف رجل من أتباعه، وأبا بكر إسحاق ومعه عشرون ألف رجل، والسلطان ومعه مائة ألف رجل وسبعمئة فيل محارب، قد اعتزموا جميعاً محاربتك اليوم، وأعدوا القلب واليمينه والميسرة والجناح، وأرادوا أن يقهروك، فهزمتهم بعشرة أمان من الكعك، وعشرة أمان من العنب، وضربت اليمينه والميسرة والجناح بعضها ببعض. والآن أنت أعلم بدينك، ونحن أعلم بديننا ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

قال حسن: فعدت إلى الشيخ، وأخبرته بما حدث. فالتفت إلى المريدين وقال لهم: منذ الأمس وأنتم ترتعدون خوفاً، وظننتم أنهم سيشحمون المشانق بدمائكم، كلا... إنهم يشحمون المشانق بدماء الأبطال؛ مثل الحسين بن منصور، الذي لم يكن له في عهده نظير في المشرق والمغرب في علوم التصوف، لا بدماء الجبناء من أمثالكم. ثم التفت إلى القوال وقال له: تعال، أنشد هذه الرباعية:

تعال إلى الميدان والبس الدرع والكنانة

ولا تُباهِ بنفسك وباهِ بي

وعش سعيداً سواء كان المصير

بارداً كالثلج أو حاراً كالنار!

فردد القوال هذه الرباعية، وصرخ الصوفية، وظهرت الأحوال، وأحرم ثمانية عشر شخصاً ولبوا، وارتدوا الخرق. وفي اليوم التالي أقبل القاضي صاعد للسلام على الشيخ. واعتذر له قائلاً: أيها الشيخ، لقد تبت ورجعت عن ذلك.

وكان يسمون القاضي صاعد «قمر نيسابور» لجمال وجهه، فقال الشيخ هذه الرباعية:

قلت إنني قمر نيسابور

فيا قمر «نيسابور»، إن «نيسابور» لك

لك ما تملك وما تملكه نحن أيضاً

فهلا قلت لنا فيم العداوة بيننا؟!

وعندما جرت هذه الرباعية على لسان الشيخ، وقع القاضي على أقدامه، وبكى، واستغفره، وصفا الجميع من البغضاء والتشاحن، ونهضوا مسرورين. وبعد ذلك لم يجرؤ أحد في «نيسابور» على أن ينتقص من قدر الصوفية.

حكاية:

كان في «نيسابور» سيدة يقال لها ايشي نيلي، وكانت زاهدة عابدة، ومن أسرة كبيرة.

وكان أهل «نيسابور» يتقربون إليها. وظلت لا تغادر دارها طيلة أربعين عامًا. وكان لها مربية تقوم على خدمتها. ولما ذاعت شهرة الشيخ قدس الله روحه العزيز في «نيسابور»، قالت ايشي لمربيتها يومًا: انهضي واذهبي إلى مجلس الشيخ واحفظي ما يقول لتحديثني به حين تعودين. وذهبت المربية إلى مجلس الشيخ وكان الشيخ يقول كلامًا لم تستطع المربية أن تحفظه، ثم قال هذه الرباعية:

كان معي دافق ونصف دافق إلا حبة!

وقد اشتريت قدحين من النبيذ إلا قطرة.

لم يبق على بربطنا لا «زير» ولا «بم»،

فحتام تقول القلندرية والغم والغم؟!!

وعندما عادت المربية سألتها ايشي عما قاله الشيخ، وكانت لم تحفظ مما قاله سوى الرباعية، فروتها لها، فقالت ايشي: أكون هذا كلام العلماء والزهاد! انهضي واغسلي فمك. فغسلت المربية فمها. وكان من عادة ايشي أن تصنع للناس مرهمًا للعين. ونامت في تلك الليلة فرأت في نومها شيئًا مخيفًا، فاستيقظت وقد رمدت عينها. وعالجتها كثيرًا، ولجأت لجميع الأطباء دون جدوى. وظلت تصرخ وتتألم عشرين يومًا وليلة. وذات ليلة نامت فرأت هاتفًا يقول لها: إذا كنت تريد أن تُشفى عينك، فاذهبي واسترضي الشيخ. وفي اليوم التالي وضعت ايشي ألف درهم في كيس، وأعطته للمربية وقالت لها: احمليه إلى الشيخ، وعندما ينتهي من المجلس ضعيه أمامه، ولا تقولي شيئًا، ثم عودي. وذهبت المربية إلى مجلس الشيخ. ولما فرغ من المجلس سلمت عليه، ووضعت كيس النقود أمامه. وكان من عادة الشيخ عندما ينتهي من المجلس أن يضع أحد المريدين أمامه رغيفًا جافًا، وأعوادًا من الخلال، فكان الشيخ يأكل الخبز، ويخلل أسنانه. ولما اقتربت المربية من الشيخ، كان يخلل أسنانه، فوضعت النقود أمامه، وأرادت أن تعود. فقال لها الشيخ: تعالي، واحملي هذا الخلال إلى سيدتك، وقولي لها: اغسلي هذا الخلال في الماء وضعيه في عينك حتى تجددين الشفاء، وأخرجني من قلبك الإنكار والشك في هذه الطائفة حتى

تُشفَى بصيرتك أيضًا. فقالت المربية هذا الكلام لايشي. ففعلت ما أمر به الشيخ، وغسلت الخلال في الماء، ووضعت في عينيها، فشفيت بقدرة الله في الحال. وقامت في اليوم التالي، وأخذت كل ما تملك من الذهب والجواهر والملابس، وأحضرتة إلى الشيخ، وقالت له: أيها الشيخ، لقد تبت وأخرجت الإنكار والشك من صدري. فقال لها الشيخ: باركك الله. ثم قال: قودوها إلى أم أبي طاهر لتلبسها الخرقة. وأمرها أن تختار خدمة هذه الطائفة. فنهضت ايشي، ولبست الخرقة، وقامت بخدمة الدراويش، وأنفقت كل ما تملك في سبيلهم.

حكاية:

رُوي أن الشيخ أبا سعيد قدس الله روحه العزيز ذهب إلى «نيسابور» وأقام بها عامًا كان يعقد المجالس خلاله ويتحدث إلى الناس. وكان الأستاذ أبو القاسم القشيري لم يعرف الشيخ بعد، وكان ينكره. وفي خلال هذا العام كان سبعون رجلًا من مريدي الأستاذ الإمام قد ذهبوا إلى مجلس الشيخ، ومن بينهم «أبو نصر الحرصي» الذي كان يلح على الأستاذ الإمام دائمًا في أن يحضر مجلس الشيخ ولو مرة واحدة ويستمع إلى حديثه، حتى أجابه الأستاذ الإمام إلى طلبه بعد عام وقال له: سأحضر غدًا. وفي تلك الليلة ذهب الأستاذ الإمام إلى دورة المياه كعادته، وأخذ في الاستبراء من خارج الملابس.

[وهذه ليست سنة؛ فالسنة أن تكون اليد من داخل الثوب لكيلا تكشف عن العورة حتى ولو كنت بمفردك. وذلك وفق ما ورد في الخبر عن الرسول ﷺ «واستحيوا من الذين يرونكم وأنتم لا ترونهم». ولم يكن الأستاذ الإمام من أولئك الذين تفوتهم هذه السنة سهوًا].

ثم صعد وأيقظ الجارية وقال لها: نظفي اللجام وأطراف السرج، ثم شرع في الوضوء، وفي الفجر ذهب إلى مجلس الشيخ. وأخذ الشيخ في الحديث كعادته، وكان الأستاذ الإمام ينظر إليه، ويرى تلك السيطرة والإشراف على الخواطر، فقال لنفسه: إن هذا الرجل ليس أكثر مني فضلًا، ونحن متساويان في المعاملة، فمن أين وجد تلك المنزلة؟

فالتفت إليه الشيخ في الحال وقال له: أيها الأستاذ، إنهم يتساءلون الآن عما حدث في ذلك الوقت؛ فليس من السنة أن يدخل السيد الحجرة وهو يستبرئ، ويوقظ الجارية قائلاً لها انهضي ونظفي اللجام وأطراف السرج. وعندما سمع الأستاذ الإمام ذلك القول، غشي عليه وغاب عن الوعي. ولما نزل الشيخ عن المنبر تقدم إلى الأستاذ الإمام وعانق كل منهما الآخر وتخلص الأستاذ الإمام من الإنكار والتخاصم، وسارت الأمور بينهما.

حكاية:

رُوي أنه عندما زال الإنكار عن باطن الأستاذ الإمام، كان لا يزال ينكر السماع الذي يقيمه الشيخ؛ ذلك أنه كان ينكر السماع في البداية. ومر يوماً على باب خانقاه الشيخ، وكانوا عندئذ يقيمون السماع في الخانقاه، وقد غمرت النشوة الصوفية، وظهرت الأحوال؛ فكانوا يرقصون والشيخ يوافقهم ونظر الأستاذ الإمام في الخانقاه، وجال بخاطره أنه في المذهب لا تُسمع شهادة الشخص الذي يرقص ويدور حول نفسه، لأن ذلك يبطل العدالة. وفي اليوم التالي كانوا يرافقون الشيخ إلى وليمة، وكان الأستاذ الإمام ذاهباً إلى مكان ما فتقابلا على مفترق الطرق، وتبادلا التحية، فقال الشيخ: يا أستاذ، متى رأيتنا في صف الشهود؟ فأدرك الأستاذ الإمام أن هذا جواب على ذلك الخاطر الذي خطر له بالأمس، فتخلى عن ذلك أيضاً. وفي يوم آخر مر الأستاذ الإمام على باب الخانقاه وكان الشيخ قد أمر بالسماع، وقد تملكه حال من الوجد، وطاب الوقت للجميع، وأخذ القوال ينشد هذا البيت:

لا عار عليك إذا أصبحت مجوسياً من أجل صنم،

لأنك إذا لم تصبح مجوسياً لا يكون الصنم حبيبك

فأنكر الأستاذ الإمام ذلك البيت وقال لنفسه: لو أمكن تأويل جميع الأبيات على وجه من الوجوه؛ فإن هذا البيت يكون من الأبيات لتي لا يمكن تأويلها، ومع هذا فالشيخ على هذا القدر من السرور. وقد جال هذا الخاطر في نفس الأستاذ الإمام ولم يُظهر عليه أحداً وسار. وبعد ذلك دخل الأستاذ الإمام على الشيخ يوماً ولما جلس التفت الشيخ إليه وقال: يا أستاذ!

«بيت»

ألا يلحق بك العار إذا أصبحت مجوسياً من أجل صنم؟

وإذا لم تكن مجوسياً هل يكون الصنم حبيبك؟

قال الشيخ البيت هكذا على وجه الاستفهام. وعندما سمع الأستاذ الإمام طريقة تفسير هذا البيت الذي لم يستطع أن يفسره برغم ما له من علم ودراية في التصوف، وأنه كان قد فكر فيه كثيراً؛ أقر بأن السماع مباح للشيخ، ومسلم به، وتاب وعزم ألا ينكر على الشيخ أي حركة. وبعد ذلك ظل يذهب إليه كل يوم، أو يذهب الشيخ لديه.

حكاية:

كان الشيخ أبو أحمد صاحب سر الأستاذ الإمام، قدس الله روحيهما العزيزتين، رجلاً عظيماً جداً، وقد روي أنه ولد للأستاذ الإمام ذات ليلة ولد، فأبلغوه الخبر سرّاً، ولم يكن أحد من الدراويش قد علم بذلك، ولم يكن الأستاذ الإمام قد اختار له اسم بعد. وأمسك شخص بحلقة باب الخانقاه، فقال الأستاذ الإمام: إنه الشيخ أبو سعيد. وفتحوا الباب فكان هو. فدخل وقال للأستاذ الإمام: لقد علمنا أن الله وهبكم غلاماً، وبقي لنا أن نسقيه، وآثرناه باسمنا، وسماه «أبو سعيد». وأقام الأستاذ الإمام ثلاث ولائم تعبيراً عن شكره لهذا الحادث، كما أقام صهره السيد أبو عمر، وكان رجلاً عظيماً ميسور الحال، أربعين وليمة أيضاً شكراً لله.

حكاية:

قال السيد أبو بكر المؤدّب إن الشيخ أبا سعيد كان يعظ في المجلس يوماً، وفي أثناء الحديث قال: لقد تأخر الأستاذ الإمام، ثم عاد وقال: عجباً، عجباً. ثم تحدث مرة أخرى وقال: إن قلبي مشغول على الأستاذ الإمام؛ لأنه كان مريضاً بالأمس. وعندما قال الشيخ هذا دخل الأستاذ الإمام من الباب، فصاح الخلق، والتفت الشيخ إليه وقال: يا أستاذ، إننا لم نغفل عنك بالأمس، وسوف أقول حكاية أثبت بها عيادتي لك. ثم روى الشيخ هذه الحكاية:

كان أحد القرويين جالسًا ذات يوم، فأحضر له أحد مزارعيه خيارًا ظهر حديثًا. فأحصى القروي أهل بيته وأعطى كل واحد خياره. وأعطى واحدة لخدمه ولم يبق له شيء. وأخذ الغلام يأكل الخياره. ومالت نفس السيد إليها فقال لغلامه: أعطني جزءًا من هذه الخياره، فأعطاه الغلام قطعة منها. وعندما ذاقها السيد وجدها مرة فقال له: أيها الغلام، أتناكل خيارًا على هذا القدر من المرارة بكل هذه اللذة؟ فأجاب الغلام: أي عذر لي حين أرد شيئًا واحدًا مرًا وأنا أكل من يد الله أشياء حلوة سنين عديدة. ثم قال الشيخ: أيها الأستاذ:

«قطعة من الشعر»

كيف تألم من الحبيب لشيء من الأشياء،
والحب هكذا، تارة سرور وتارة ألم وعناء.
وإذا أذلك العظيم فليس ذلك الذل عيبًا،
فإنه حين يعود ويلطفك يبرد كي الجفاء
وسيئة واحدة لا يمكن أن تنسيك مائة حسنة،
وإذا خفت من الشوك فلن تستطيع أكل البلح.
ومن شأن الحبيب أن يغضب فعليك مداومة الاعتذار،
فليس من الممكن أن تجد حبيبًا جديدًا بين ليل ونهار.

وحين سمع الأستاذ الإمام هذا القول صرخ وغاب عن الوعي. ولما أنهى الشيخ المجلس وتفرق الناس ودخل المنزل، اقترب مشايخ الصوفية من الأستاذ الإمام وسألوه عما حدث بالأمس فقال: حدث أمر عجيب؛ فبالأمس تكاسلت عن أداء الورد الذي تعودت أدائه؛ وكنت مضطرًا لذلك، فقلت لنفسي: سوف أذهب إلى المسجد الجامع، وأغتسل في الحوض، وأذهب إلى قبور المشايخ وأؤدي هذا الورد. وعندما وصلت إلى المسجد الجامع، نزلت إلى الحوض، ووضعت السجادة والملابس على الطاقة، وأخذت أصب الماء على رأسي، فدخل رجل وسرق ثوبي ونعلي، فتألمت وحزنت، وأخذت

في الشكوى والاعتراض، وخرجت من الماء، وذهبت عاريًا إلى الخانقاه، ولبست ثوبًا آخر، وقلت يجب إتمام الأمر. وخرجت قاصدًا الزيارة، وعندما وصلت إلى باب المسجد الجامع، عثرت قدمي بحجر وجرحت، ووقعت عمامتي عن رأسي، وأقبل رجل واختطفها. وبقيت حائرًا، رفعت رأسي إلى السماء وقلت: يا إلهي! إذا كنت لا تريد أبا القاسم فإنه لا قبل له بصفعاتك وجراحك، فالورد والزيارة كانا من أجلك؛ فإذا كانا غير لازمين لك، أبقيتهما! ولم يعرف أحد في الدنيا جميعها شيئًا عن حالي. واليوم يقول الشيخ: لقد كنت معك بالأمس؛ فإذا كان قد اطلع على هذا السر فما أشد عاري لو أنه عرف عني ما حدث.

حكاية:

سمعت من السيد أبي الفتوح الغضائري قوله: كان في محلة «عدني كويان» دكان بجوار زاوية الشيخ، فكانوا يذهبون إليه كل يوم عند العنصر؛ ويرشون الماء، ويعدون المكان. وقد اعتاد الشيخ أن يجلس هناك، ويجلس الشيوخ بين يديه، ويقف الشبان من خلفهم. وكان المكان بهيجًا طلقًا طيبًا. وذات يوم كان الشيخ قد جلس كعادته فقال: هل تريدون أن تروا جاسوسًا من جواسيس الله تعالى؟ إذا كنتم ترغبون في ذلك، فانظروا إلى هذا الرجل. فنظر الجميع ولم يروا أحدًا. وفي الحال ظهر الأستاذ الإمام أبو القاسم القشيري من نهاية الطريق، فلما اقترب، ألقى عليهم بالتحية، ثم مضى. فنظر الشيخ خلفه وقال: إنه أستاذ، إنه أستاذ حقًا.

حكاية:

رؤي أن الشيخ أبا القاسم القشيري فكر ذات ليلة وقال لنفسه: غدًا أذهب إلى مجلس الشيخ أبي سعيد، وأسأله ما الشريعة، وما الطريقة؟ وأرى بماذا يجيب. وفي اليوم التالي ذهب إلى مجلس الشيخ وجلس، وبدأ الشيخ الحديث، وقبل أن يسأل الأستاذ الإمام سؤاله قال الشيخ: أيها الرجل الذي تريد أن تسأل عن الشريعة والطريقة، اعلم أننا جمعنا العلوم كافة في هذا الشعر:

جاءت رسالة من الحبيب أن أحسن العمل، وهذه هي الشريعة.

وقدم الحب من قلبك وتجنب الفضول، وتلك هي الطريقة.

وقد قال إمام الحرمين أبو المعالي قدس الله روحه العزيز: إن كل ما أثبتناه في الكتب، وصنفناه، قد بينه سلطان الشريعة والطريقة الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز في هذا الشعر.

حكاية:

روى السيد أبو الفتوح الغضائري رحمة الله عليه هذه الحكاية، فقال: طلبت السيدة فاطمة ابنة الأستاذ أبي علي الدقاق، زوج الأستاذ الإمام أبي القاسم القشيري، من الأستاذ الإمام الإذن في الذهاب إلى مجلس الشيخ أبي سعيد، فلم يمنحها الأستاذ الإمام هذا الإذن. ولما كررت الطلب، قال لها: قد أذنت لك، ولكن تنكري وتخفي، وألقي قناعاً على رأسك بحيث لا يعرف أحد من أنت. ففعلت فاطمة ما أشار به الأستاذ، وجاءت إلى مجلس الشيخ، وجلست بين النساء على السطح. وعندما بدأ الشيخ الحديث استهله بحكاية عن الأستاذ أبي علي الدقاق وقال: هاكم جزءاً من أجزاءه هنا، وشطبية من شطائبه حاضرة. وعندما سمعت السيدة فاطمة هذا القول تملكها حال، وغابت عن الوعي، ووقعت من السطح. فقال الشيخ: يا إلهي! لا تكشف سترها. فظلت معلقة في الهواء حتى مدت النسوة أيديهم ورفعنها إلى السطح. ولما عادت إلى المنزل، أطلعت الأستاذ الإمام على ما حدث.

حكاية:

سمعت من زين الطائفة الشيخ عمر الشوكاني قوله: سمعت من الإمام أحمد بن مالك قوله: ذهب الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز يوماً إلى سوق «نيسابور» ومعه الأستاذ الإمام وجماعة من كبار المتصوفة. وكان هناك حانوت وضع على بابه لفت مسلوق. فوقع نظر أحد الدراويش عليه، وهفت نفسه إليه. وأدرك الشيخ بفراسته ذلك، فاستدار وقال لحسن بن المؤدب: اذهب إلى حانوت بائع اللفت، واشتر كل ما

لديه منه، وأحضره. وكان هناك مسجد، فدخل الشيخ هذا المسجد ومعه الأستاذ الإمام وجماعة الصوفية. وذهب حسن إلى حانوت الرجل، وأحضر اللفت، ودُعي إلى الأكل، فأخذ الدراويش يأكلون والشيخ يوافقهم. وامتنع الأستاذ الإمام، وكان ينكر ذلك في نفسه لأن المسجد كان في وسط السوق ومفتوحاً من الإمام. وبعد ذلك بأيام قليلة دُعي الشيخ والأستاذ الإمام إلى وليمة فاخرة. وكانت المائدة مجهزة بألوان كثيرة من الأطعمة؛ إلا ذلك الطعام الذي كان يشتهيهِ الأستاذ الإمام، فقد كان بعيداً عنه، وكان الخجل يمنعه من أن يمد يده إليه. فالتفت الشيخ إليه وقال: يا أستاذ عندما يعطونك إياه ترفضه، وعندما لا يعطونه تريده! فاستغفر الأستاذ على ما كان قد جال بخاطره، وتنبه.

حكاية:

روى الشيخ أبو نصر عن حسن بن المؤدب أنه قال: حدث يوماً في «نيسابور»، أن نزع الأستاذ الإمام عن أحد الدراويش خرقة، وأساء إليه، وطرده من المدينة؛ لأن ذلك الدراويش كان ينظر إلى السيد إسماعيل الدقاق نظرة سيئة، وكان إسماعيل هذا من أقارب الأستاذ الإمام. وكان الدراويش قد قال لأحد أصدقائه: ينبغي أن تقيم لنا وليمة الليلة، وتدعو إليها إسماعيل، حتى يقضي الليل في صحبتنا، لنستمتع بجماله، ونضج وجداً، فقد احترقنا شوقاً إليه. فنفذ ذلك الصديق رغبة الدراويش، وأعد الوليمة، ودعا القوالين والسيد إسماعيل. وفي اليوم التالي بلغ الخبر الأستاذ الإمام، فنزع عن الدراويش خرقة، وسبه، وطرده من المدينة. وحملوا هذا الخبر إلى زاوية الشيخ، فغضب الدراويش. وقال الشيخ لحسن بن المؤدب: ينبغي أن تعد لنا الليلة وليمة فاخرة، وتدعو إليها جميع أهل المدينة، والأستاذ الإمام، وأن تشعل شموعاً كثيرة. قال حسن: فذهبت وهيأت كل ما أمر به الشيخ، ودعوت الأستاذ الإمام. وأحضرت أهل المدينة. وجاء الأستاذ الإمام، فأجلسه الشيخ معه على المنصة، وجلس الصوفية في ثلاثة صفوف أمام منصة الشيخ، في كل صف مائة رجل. ومددنا المائدة، وكان السيد أبو طاهر يقوم بالخدمة عليها. وكان عندئذ لا يزال شاباً آمرد، بارع الجمال، يرتدي سترة موشاة، ويروح ويغدو على المائدة كالشمعة

المضيئة. وعندما حل ميعاد الحلوى، وضعت شراب اللوز أمام الشيخ والأستاذ الإمام، وبعد أن شربا عدة كؤوس، كفا أيديهما. وقال الشيخ: يا أبا طاهر تعال، واحمل هذه الكأس، واذهب بها إلى ذلك الدرويش - مشيرًا إلى أبي علي الترشيزي - واشرب نصفها، واسقه النصف الآخر. فحمل السيد أبو طاهر كأس شراب اللوز، وذهب أمام ذلك الدرويش، وركع على ركبتيه في احترام شديد، وشرب نصف الكأس، وسقاه النصف الآخر. وفعل أبو طاهر هذا مرة أخرى، فصرخ ذلك الدرويش، ومزق ثوبه، وخرج من زاوية الشيخ ملبئًا وهو يجري ويصرخ.

وقال الشيخ للسيد أبي طاهر: يا أبا طاهر، قد وقفتك على خدمة ذلك الدرويش، فاذهب إليه، واحمل عصاه وإبريقه، وسر خلفه، وقم بخدمته، واتبعه حيثما ذهب حتى يصل إلى الكعبة. فحمل السيد أبو طاهر عصا الدرويش وإبريقه، وسار خلفه. ونظر أبو علي فرأى السيد أبا طاهر يتبعه، ولما وصل إليه سأله: إلى أين تذهب؟ فأجاب أبو طاهر: لقد أرسلني والدي لخدمتك، وحدثه بالأمر. فرجع أبو علي إلى الشيخ وقال له: أيها الشيخ! بحق الله أرجع أبا طاهر من خلفي. فدعا الشيخ أبا طاهر، فأدى التحية لذلك الدرويش وذهب. وعندما انصرف أبو علي التفت الشيخ إلى الأستاذ الإمام وقال له: أيها الأستاذ.. الدرويش الذي يمكن إخراجه من المدينة، وإرساله إلى «الحجاز» بنصف كأس من شراب اللوز، فيم الغضب عليه، وانتزاع خرقة، والإساءة إليه. لقد فعلنا هذا من أجلك، فقد كان هذا الدرويش مصابًا بحب ولدنا أبي طاهر منذ أربع سنوات، ولم نكن نظهر ذلك، ولو لم يكن الأمر متعلقًا بك لما قلته لأحد. فنهض الأستاذ واستغفر، وطاب الوقت، وظهرت الأحوال للصوفية.

حكاية:

روى أنه عندما زال إنكار الأستاذ الإمام لشيخنا، رجاء قائلًا: ينبغي أن تعقد مجلسًا في خانقاهي مرة كل أسبوع. فأجابه الشيخ، وكان يعقد المجلس هناك يومًا في الأسبوع. وحل ميعاد مجلس الشيخ يومًا، وكانوا قد صفوا المقاعد، وأخذ الناس في الحضور

والجلوس. ودخل الشيخ عبد الله باكو للسلام على الأستاذ الإمام. وبعد السؤال قال الشيخ عبد الله: ما هذا؟ فقال الأستاذ الإمام إنه من أجل الشيخ أبي سعيد، سيتحدث في المجلس فاجلس لتستمع إليه. فقال عبد الله إنني أنكره، أي لا أعتقد فيه، فقال الأستاذ الإمام: لقد قلت أنا أيضًا ما تقول الآن، ولكن عندما عرفت الحقيقة أصبحت مريرًا له، ثم قال له: انتبه فإن هذا الرجل مشرف على الخواطر، فلا تكاد تصنع حركة أو تفكر في شيء إلا ويظهره في الحال. ثم دخل الشيخ أبو سعيد، وارتقى المقعد، وقرأ المقرئون القرآن، وقام الشيخ بالدعاء، وبدأ في الحديث. فنفع الشيخ عبد الله بفمه في الخفاء، وقال لنفسه في صوت منخفض: كثير من الأنفاس في الريح. ولم يكذّب كلامه حتى التفت الشيخ إليه وقال: في الريح معدن الأنفاس، قال هذه الكلمة وعاد إلى الحديث. فقال الأستاذ الإمام للشيخ عبد الله: ماذا فعلت؟ قال: قلت هكذا. فقال له الأستاذ: ألم أقل لك لا تقل شيئًا لأن هذا الرجل مطلع على كل ما تصنع وتفكر فيه؟

وعندما حمي الشيخ في الكلام، وظهر عليه الانفعال، قال الشيخ أبو عبد الله لنفسه لما شاهد حال الشيخ: لقد وقفت متجرّدًا في كثير من المواقف، ورأيت كثيرًا من المشايخ، وقمت بخدمتهم، وأمضيت أكثر من تسعين عامًا في خدمة المشايخ؛ فما السبب في أن يظهر كل هذا على هذا الرجل ولا يظهر علي؟ فالتفت إليه الشيخ في الحال وقال له: أيها السيد،

«بيت»

أنت هكذا وحظك هكذا،

وأنا كذلك وحظي كذلك.

وصلّى الله على محمد وآله أجمعين. ثم مسح وجهه بيديه، ونزل عن المقعد، وتقدم إلى الأستاذ الإمام وعبد الله باكو. ولما جلسوا قال الشيخ للأستاذ: قل لهذا السيد اجعل قلبك سعيدًا. فقال الشيخ عبد الله: سأكون سعيدًا عندما تأتي إلى خانقاهي كل خميس. فقال الشيخ: لقد وقعت عليك أنظار كثير من العظماء والمشايخ، وسوف آتى من أجل

هذه الأنظار، لا من أجلك أنت. وحين قال الشيخ هذا القول، بكى الناس وصاحوا، وتخلّى الشيخ أبو عبد الله عن إنكاره، وعم الصفاء الجميع.

وكانت حالهم هكذا، فساروا على جادة الصدق، ولم تكن هذه الرعاية بينهم رياء ولا نفاقاً، فلا جرم أن ظهر الصفاء والسرور من تلك الكلمة الغليظة التي صدرت عن صدق، بعيدة عن المداينة في طريق الدين. وفي عهدنا هذا لا تظهر ذرة من الصفاء من ألف كلمة نقولها في لطف ورعاية، لأنها ممزوجة بالرياء والنفاق والمداينة. أسأل الحق تعالى أن يوقظنا من نوم الغفلة قبل الموت، وأن يكرمنا بمتابعة الصدق؛ شروط المشايخ المتقدمين.

حكاية:

رُوي أنه عندما زال ذلك الإنكار والتحكم عن الشيخ عبد الله، كان يذهب كل وقت للسلام على الشيخ، ويتحدث معه، ولكنه كان ينكر السماع والرقص على الشيخ أبي سعيد، ويجهز بذلك أحياناً، حتى رأى في منامه ذات ليلة أن هاتفاً يصيح به قائلاً: «قوموا وارقصوا لله سبحانه وتعالى» فاستيقظ وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد أظهر الشيطان لي هذه الرؤيا السيئة. ونام مرة أخرى فرأى الهاتف يقول: «قوموا وارقصوا لله» فاستيقظ وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله. ثم ردد الذكر، وقرأ سورتين أو ثلاثاً من القرآن ونام. ورأى الرؤيا نفسها؛ فأدرك أن هذا لا يمكن أن يكون سوى هاتف من عند الله. واستيقظ عند الفجر، وذهب إلى الخانقاه لزيارة الشيخ، فرآه يقول من داخل المنزل «قوموا وارقصوا لله». فنزع الشيخ عبد الله الإنكار من قلبه.

وحدث في الوقت نفسه أن ذهب الشيخ عبد الله باكو إلى الشيخ أبي سعيد، وكان الشيخ يجلس متكئاً على أربع وسائد، فأنكر عليه ذلك، فقال له الشيخ: لا تنظر إلى الخلق بالأربع وسائد؛ بل بالخلق والطبع. وعندما وضع الشيخ هذه المسألة بهذه العبارة الموجزة؛ زال الإنكار عن الشيخ عبد الله وتاب قائلاً: لن أعترض على الشيخ مرة أخرى.

حكاية:

قال إمام الحرمين أبو المعالي الجويني قدس الله روحه العزيز: عندما جاء الشيخ أبو سعيد إلى «نيسابور»، كان والدي ينكره إنكارًا شديدًا؛ بحيث لم يكن أحد يستطيع أن يتحدث عنه في حضرته، وذات يوم قال لي والدي، بعد أن فرغ من صلاة الفجر: البس ملابسك لكي نذهب لزيارة الشيخ أبي سعيد؛ فعجبت لذلك كثيرًا. ثم ذهبنا إلى خانقاه الشيخ. ولما دخلنا من باب الخانقاه قال الشيخ: ادخل يا خليل الله عند حبيب الله؛ فعجبت لهذا الكلام أيضًا. ودخل والدي، وكان الشيخ وحيدًا في الصومعة، فنادى المريدين قائلاً: تعالوا وارفعوني.

وكان الشيخ في أواخر عمره ينهض بصعوبة، بسبب كثرة الرياضة التي قام بها في أوائل عهده، وتعليقه نفسه من أقدامه. وكثيرًا ما كان يجلس على المنصة ويدلي قدميه، ويعتمد بيديه عليها، حتى ينهض دون معونة أحد.

وأسرع اثنان من المريدين، وأمسكا به، فعانق الشيخ والدي، وجلسا يتحدثان برهة. ولما مضى بعض الوقت؛ دخل الأستاذ الإمام. وتحدثوا بعض الوقت، ثم نهض الأستاذ الإمام وانصرف. وأتبع والدي الأستاذ الإمام بنظره، فوضع الشيخ فمه على أذن والدي وأسر له شيئًا، فقبل والدي فخذ الشيخ؛ فازدت تعجبًا من هذه الحركة. ثم نهض والدي وخرجنا.

ولما وصلنا إلى المنزل قلت لوالدي: لقد عجبت اليوم ثلاث مرات: الأولى - أنك كنت تنكر الشيخ أبا سعيد، وفي الفجر أمرتني أن أنهض لنذهب لزيارته. والثانية - أننا عندما ذهبنا إلى الشيخ قال: ادخل يا خليل الله عند حبيب الله. والثالثة - أنه حين انصرف الأستاذ الإمام نظرت خلفه، فهمس الشيخ في أذنك، فقبلت فخذه. فقال والدي: رأيت بالأمس في نومي أنني أذهب إلى مكان عزيز مبارك، وموضع طيب، فنظرت الشيخ أبا سعيد يتحدث في مجلس في ذلك المكان، وكان هناك خلق كثيرون يستمعون إليه. ولشدة ما كنت عليه من الإنكار للشيخ، حولت وجهي عن ذلك المكان، فسمعت هاتفًا

يقول لي: أتحول وجهك عن شخص في منزلة حبيب الله في الأرض؟ فلما سمعت هذا أحسست بالغيرة، وقلت لنفسي: إذا كان هو في منزلة حبيب الله، فماذا تكون منزلتي؟ فسمعت الهاتف يقول: أنت بمنزلة خليل الله. فاستيقظت ولم يبق في قلبي شيء قط من الإنكار للشيخ، وظهر في قلبي في مقابل كل شك ألف محبة. واليوم ذهبنا لزيارة الشيخ فقال: ادخل يا خليل الله عند حبيب الله؛ فأوضح أنه بفراسته وكرامته مطلع على ما رأيت في نومي أمس. ولما نهض الأستاذ الإمام أخذت أنظر خلفه وأنا أقول لنفسي: إذا كان الشيخ في منزلة حبيب الله، وأنا في منزلة خليل الله، فماذا تكون منزلة الأستاذ الإمام؟ فوضع الشيخ فمه على أذني وقال: إنه في منزلة كليم الله. فتعجبت من قول الشيخ، ومن أشرف خاطره على ضمائر عباد الله سبحانه وتعالى، وأحيت رأسي وقبلت فخذ الشيخ. فقلت لوالدي: كيف يمكن معرفة حال هذه المنازل؟ فروى لي لوالدي هذا الحديث الذي ورد بإسناد صادق عن الرسول ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل». وبعد ذلك كنت أذهب دائماً مع والدي للسلام على الشيخ.

حكاية:

رُوي عن عميد «خراسان» أنه قال: إن سبب حبي للشيخ أبي سعيد وأبنائه مبعثه أنني عندما ما جئت إلى «نيسابور» لأول مرة، كنت فارساً أدعى محمد الحاجب. وكنت كلما مررت بباب زاوية الشيخ عند الفجر، ورأيت الشيخ بها أصبح ذلك اليوم مباركاً. وذات ليلة قلت لنفسي: غداً أذهب للسلام على الشيخ، وأحمل له معي شيئاً. وأعددت ألف درهم من الدراهم التي كان الواحد منها في ذلك الوقت يساوي تسعة عشر؛ أي أن الثلاثين مها تساوي ديناراً. ولففت الألف درهم في لفافة من الورق، حتى إذا ما جاء الصباح، ذهبت لتحية الشيخ، وضعت النقود أمامه. وكنت عندئذ وحيداً بالمنزل، ولم أطلع أحداً على ذلك. ثم عدت وفكرت في نفسي أن هذا المبلغ كثير وتكفي خمسمائة درهم. فقسمت النقود إلى نصفين، ووضعت خمسمائة درهم خلف الوسادة، وحملت الخمسمائة الأخرى إلى الشيخ، وسلمت عليه، وأعطيتها لحسن بن المؤدب. فقال حسن

للشيخ بصوت منخفض: لقد أحضر الحادب محمد بعض النقود. فقال الشيخ: باركه الله، ولكنه لم يحضر المبلغ تامًّا؛ فقد ترك النصف خلف الوسادة. إن حسن مدين بألف درهم؛ فليعطها له حتى يطمئن. قال العميد: عندما سمعت هذا دهشت، وأرسلت خادمًا فأحضر بقية النقود، وأعطاهما لحسن. ثم قلت للشيخ: أيها الشيخ، تقبلني. فأخذ الشيخ بيدي وقال: لقد تقبلناك، فاذهب مصحوبًا بالسلامة. قال العميد: بعد ذلك لم أتعرض لأذى، وسلمت من كل مكروه، وكنت إذا بذلت شيئًا بذلته عن طيب خاطر. ولم أمس بسوء بعد ذلك، وكان شأني في ارتفاع دائمًا. وحين غادرت الشيخ أتبعتني بنظرة قائلاً: ما أكثر المهام التي تقع على عاتق هذا الرجل.

حكاية:

قال أبو سعيد الخشاب الذي كان خادم الشيخ الخاص: إن الشيخ قدس الله روحه العزيز خرج يومًا من خانقاه محلة «عدني كويان» ليذهب إلى الحمام. وكان عبيد «خراسان» يسير ممتطيًا جواده، ولم يكن قد أصبح عميدًا بعد؛ بل كان حاجبًا يُدعى محمد الحاجب. ولما وقعت عينه على الشيخ، ترجل عن جواده وسلم وقال للشيخ: هل تأذن لي في أن أقول شيئًا؟ فقال له الشيخ: تكلم. فقال العميد: أريد أن يمنحني الشيخ مكانًا من قلبه. فقال الشيخ: قد منحناك. فعظمه العميد ومضى. وذهب الشيخ إلى الحمام وهو يقص عليّ هذا الحديث. ولم أستطع أن أمنع نفسي فقلت: أيها الشيخ، كيف تحدث إليك ذلك الرجل هكذا وأجبتني إلى طلبه، وأي مكان يكون له؟ فقال: إن له مع الله سرًّا؛ فلا عجب أن يجد ما يريد. ومنذ ذلك الوقت أخذ شأنه يرتفع حتى أصبح بعد أمد قصير عميدًا لخرسان. وقال السيد الشيخ أبو الفتح: كنت أقف يومًا بين يدي الشيخ، وكان عميد «خراسان» في ذلك الوقت أحمد الدهستاني، وكان له حاجب يُدعى محمدًا. فحضرا يومًا لزيارة الشيخ. وتقدم الحاجب محمد، وكان شابًا جميلًا، ودخل وأدى التحية؛ فقال له الشيخ: ادخل يا عميد «خراسان». فقال الحاجب محمد: هاك عميد «خراسان» يدخل، وكان أحمد الدهستاني يسير خلفه، فقال الشيخ: إنه ليس عميد «خراسان»، بل أنت. إنه

كلب وستمزقه الكلاب، ولم يحفل الشيخ بالعميد أحمد الدهستاني. وما هي إلا أيام حتى قتل أحمد الدهستاني، ومزق إربًا، وأصبح الحاجب محمد عميدًا لخراسان. وظل ستين عامًا يأخذ خراج «خراسان»، ويدير أمورها بكفاءة، وكان يباهي بذلك دائمًا ويقول: لقد نصبني الشيخ أبو سعيد عميدًا لخراسان.

حكاية:

قال السيد أبو الفتح بن عباس: ذهبت مع والدي إلى «أصفهان» عند نظام الملك، رحمة الله عليه، وعندما دخلنا عليه دعا له والدي، فقال نظم الملك: أيها السيد الإمام، لقد وجدت ما وجدت بفضل الشيخ أبي سعيد. فقال له والدي: كيف؟ فقال: ذات يوم كنت أركب جوادي في «نيسابور» ذاهبًا إلى محلة «عدني كويان»، فلحق بي رجل وقال لي: إنهم ينادونك. فقلت: من الذي يناديني؟ فقال: هم ينادونك هنا. فسرت ودخلت إلى الخانقاه فرأيت الشيخ أبا السعيد فسألني عن حالي ورحب بي، وكنت قد ذهبت عند الشيخ قبل ذلك - كما في الحكاية التي ورد ذكرها في موضعها - وأمسك بيدي وقال لي: سوف تكون رجلًا عظيمًا. فأديت له التحية ورجعت. وفي اليوم التالي ذهبت إلى مجلس الشيخ، وكان هناك حجر متوار عند الباب فجلست عليه بحيث لم يكن الشيخ يراني، وأخذ الشيخ يتحدث، وعندما أنهى المجلس قال: إن علي حسن دينًا. وكنت ألبس حزامًا كعادة الشباب الأرعن، فحللت الحزام وأعطيته له. فقال الشيخ لحسن: أحضر هذا الحزام. فقدم حسن الحزام للشيخ، فأخذه ووضع إصبعه في حلقة وأداره عدة مرات وقال: لن يمضي وقت طويل حتى يعقدوا أمامك أربعة آلاف حزام من الذهب. واليوم استعرضت أربعة آلاف رجل في خدمتي يرتدون أحزمة ذهبية؛ فكل ما أدركته إنما هو من بركات الشيخ أبي سعيد.

حكاية:

كان في «مرو» شيخ يقال له محمد الختني، وكان واحدًا من شيوخ ما وراء النهر، وعندما اعتزم بغراخان قتل صوفية ما وراء النهر، جاءت جماعة من شيوخهم واختفوا

في «مرو» وكان محمد الختني هذا من بين هؤلاء. ولم يكن قد رأى شيخنا؛ إذ إنه كان في «نيسابور» حين جاء الختني إلى «مرو». وكان في «مرو» إمام يدعى أبا بكر الخطيب من تلاميذ الإمام القفال؛ وكان قد رأى الشيخ عنده. وفي يوم اعتزم أبو بكر الذهاب إلى «نيسابور» في مهمة، فجاءه محمد الختني هذا وقال له: سمعت أنك تقصد «نيسابور»، ولي حاجة هناك. فقال له أبو بكر: ما هي؟ قال: أريد أن تسأل الشيخ أبا سعيد هذا السؤال دون أن يعلم أنني طلبت إليك ذلك أو تحدثه عني. وهو: هل تمحي الآثار؟ قال أبو بكر: فقلت له لا أستطيع أن أتذكره فكتبته لي على ورقة، فكتبه وأعطاني الورقة. وذهبت إلى «نيسابور»، ونزلت في رباط القوافل، فرأيت اثنين من الصوفية يدخلان من الباب في الحال ويسألان: من السيد أبو بكر الخطيب؟ قلت: أنا. فاقتربا مني وقالوا: إن الشيخ أبا سعيد يقرئك السلام ويقول لك إننا غير مطمئنين لنزولك في رباط القوافل وينبغي أن تحضر إلينا. فقلت لهما: انتظرا حتى أذهب إلى الحمام وأغتسل ثم أحضر. وتحيرت من ذلك السلام وتلك الرسالة؛ إذ إنني كنت أعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يكون أحد قط قد أخبره بمقدمي بهذه السرعة، وإنما أدرك ذلك بفراسسته وكرامته. وذهبت إلى الحمام سريعا واغتسلت. وعندما خرجت من الحمام رأيت الدرويشين يقفان على بابه ومعهما العود وماء الورد. وذهبت في صحبتهما إلى الشيخ، ولما وقع نظره على قال:

بيت من الشعر العربي

أهلاً بسعدى والرسول وحبذا

وجه الرسول لحب وجه المرسل

فسلمت عليه، فرد السلام وقال: إذا كانت رسالة شيخك خفيفة عليك فإن كلامه عزيز لدينا، ومنذ غادرت «مرو» ونحن نعد المنازل واحداً واحداً. قال أبو بكر الخطيب: فشعرت بالانهيار، ثم قال الشيخ: هات ما عندك لنرى ماذا قال ذلك الشيخ. قال أبو بكر الخطيب: لقد نسيت كل العلوم في تلك اللحظة لهيبة الشيخ، وقلت له: إنني لا أذكره، وقد كتبته على ورقة، وهي في الثوب الذي كنت أرتديه في السفر. فقال الشيخ: أنت

الذي حفظت المؤتلف والمختلف لم تستطع أن تحفظ سؤال الشيخ؟ فانهرت أكثر، وقال الشيخ: إذا قلته لك، هل تذكره؟ قلت: الأمر للشيخ. قال إنه: هل يمكن أن تمحي الآثار؟ قلت: هو كذلك. فقال الشيخ: إذا أجبتك الآن عن هذا السؤال وجب عليك أن تعود في الحال، فاذهب واقض شغلك، وعندما تحين عودتك سأنبئك بالجواب. قال أبو بكر الخطيب: وكنت أختلف إلى الشيخ كل ليلة طوال إقامتي في «نيسابور»، وكان الشيخ يحتفي بي كثيرًا ويكرمني. وعند العودة ذهبت إلى الشيخ وقلت له: أجبني عن سؤال الشيخ. فقال: قل له: ﴿لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرٌ﴾ [المدر: ٢٨] إن العين تبقى فكيف يبقى الأثر؟ قال أبو بكر الخطيب: فأحيت رأسي وقلت: فليفضل الشيخ بإيضاح ذلك. فقال الشيخ: إنه لا يتأتى في بيان عالم. فاحفظ هذا الشعر:

«رباعية»

لقد بكت عيناى وأصبح جسدى كله دموعاً
وفي عشقك ينبغى أن تكون الحياة بغير جسد
لم يبق منى أثر! فماذا يكون عشقك هذا؟
وما دمت قد صرت أنا كل المعشوق، فمن العاشق؟

فقلت فليفضل الشيخ بكتابة هذا. فأمر حسن بن المؤدب فكتبه وأعطاه لي. وعندما وصلت إلى «مرو» حضر محمد الختني فقلت له: لقد أرسلتني إلى سلطان وضعت جميع أسرار العالم أمامه على طبق. وحدثته بكل ما جرى، وأعطيته الورقة، وعندما قرأها صرخ وسقط مغشياً عليه، فحملناه من ذلك المكان إلى منزله بمعونة رجلين، ثم توفي رحمة الله عليه بعد أسبوع من ذلك.

حكاية:

رُوي أنه عندما كان الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز في «نيسابور»، كان هناك إمام من أصحاب أبي عبد الله الكرام يُدعى أبا الحسين التوني، ينكر شيخنا، وبلغ من

إنكاره له أنه كان يلعنه إذا ذكر أمامه، ولم يذهب إلى محلة «عدني كويان» حيث توجد زاوية الشيخ طوال إقامة الشيخ في «نيسابور». وذات يوم قال الشيخ: أعدوا الجواد لنذهب لزيارة أبي الحسين التونسي. فاعترض الصوفية والمريدون اعتراضاً شديداً وقالوا: أیذهب لزيارة رجل لا يمكن الحديث عنه أمامه، وإذا سمع اسمه لعنه؟ وركب الشيخ، وذهب المريدون في صحبته. وفي الطريق خرج رافضي من منزله ورأى الشيخ مع الصوفية فأخذ يلعنه. وأراد الصوفية أن يسيئوا إليه، فقال لهم الشيخ: هونوا عليكم فربما رحمه الله بسبب هذه اللعنة. فقال الجميع: كيف يرحم الله شخصاً يلعن مثلك؟ فقال الشيخ: معاذ الله، إنه لا يلعني؛ وإنما يظن أنني على باطل وهو على حق؛ فهو يلعن ذلك الباطل من أجل الله. وكان الرجل واقفاً يسمع كلام الشيخ، فسقط في الحال على أقدام الشيخ وقال له: أيها الشيخ، لقد تبت وأنت على حق وأنا على باطل، فاعرض على الإسلام لأسلم من جديد. فقال الشيخ للمريدين: أرأيتم أي أثر يكون للعنة تلعنونها من أجل الله؟ وعندما اقتربوا أرسل حسن بن المؤدب درويشاً قبلهم ليخبر الإمام أبا الحسين أن الشيخ قادم لتحيته. فأبلغ الدرويش أبا الحسن ذلك، فلعن الشيخ وقال: ماذا يريد منا؟ ينبغي أن يذهب إلى كنيسة المسيحيين. فلما سمع الدرويش ذلك عاد إلى حسن وأخبره بما قال. وتصادف أن كان اليوم يوم أحد، وكان الشيخ قد علم بما حدث بنفسه، وسأل حسن: ماذا حدث؟ فأعاد عليه حسن ما سمعه. فقال الشيخ: لننفذ الآن ما أمر به الشيخ. واتجه إلى كنيسة المسيحيين وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، لننفذ الآن ما يأمر به الشيخ. وعندما وصل إلى الكنيسة كان المسيحيون قد اجتمعوا وأخذوا في الصلاة. ولما رأوا الشيخ تجمعوا حوله، وأخذوا ينظرون إليه ليرى لأي أمر أتى. وكانوا قد اصطفوا أمام المحراب، وعلقوا صورة عيسى ومريم على الحائط، واتجهوا إليهما وأخذوا يسجدون لهما. فنظر الشيخ إلى تلك الصور وقال: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَحْيِ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، إذا كان محمد ودين محمد حقاً فاسجدوا لله في هذه اللحظة. ولما قال الشيخ هذا وقعت الصورتان على الأرض في الحال بحيث كان وجهاهما إلى

الكعبة. وعندما رأى المسيحيون ذلك صرخوا، وخلع أربعون منهم الزنار، وأسلموا، واغتسلوا، ولبسوا المرقعات. فالتفت الشيخ إلى جماعة الصوفية وقال: كل من يسير وفق إشارة الشيوخ يكون هكذا، وهذا كله ببركة إشارة ذلك الشيخ. وأبلغوا أبا الحسين التوني بما حدث للشيخ وما قاله، فتملكه حال وقال: أحضروا المحفة وضعوني فيها، واحملوني إلى خانقاه الشيخ أبي سعيد. فأجلسوه في المحفة: ولما وصل إلى خانقاه الشيخ قال: أخرجوني من المحفة، فأخرجوه منها، ودخل من باب الخانقاه متكئاً على الأكتاف وهو يمسح ويصرخ حتى وصل إلى منصة الشيخ، وسقط أمام الشيخ. وظهرت الأحوال للجميع، ومزق أبو الحسين ثوبه، ووافقه الشيخ والصوفية، واستغفر عما كان قد فعله، وأصبح من مريدي الشيخ.

حكاية:

رُوي أنه عندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز في «نيسابور»، كانت جماعة من الدراويش يمرون بالسوق يوماً، وكان القوالون قد حضروا من «طوس» وأقاموا السماع هناك، فلما عاد الدراويش إلى الخانقاه قالوا للشيخ: لقد وصل القوالون من «طوس»، وهم يقيمون السماع في السوق، ونريد الاستماع إليهم. فقال الشيخ لحسن بن المؤدب: اذهب إلى سوق «نيسابور»، وانظر من أجمل وجهًا هناك، وقل له: لقد وصل المقرئون من «طوس»، ويريد الصوفية أن يستمعوا إليهم، فهبّ لهم أسباب الطعام ليستريح الجميع الليلة. فخرج حسن وطاف بسوق «نيسابور»، ثم رجع إلى الشيخ وقال له: لقد طفت جميع «نيسابور» فلم أر من هو أجمل وجهًا من الشيخ. ولما سمع الشيخ هذا القول، رفع عباءة عن ظهره وقال له: احمل هذه إلى حانوت أبي جعفرنا وقل له: يقول الشيخ أعطنا خمسين دينارًا لنهبي بها طعامًا الليلة حتى يستريح مقرئو «طوس»، ويتفرغوا للمجاهدة، ويطمئن قلبك من أجلهم. قال حسن: ذهبت إلى حانوت أبي جعفر وفق إشارة الشيخ وحدثته بالأمر. فقال أبو جعفر: هل تعطي دليلًا على أنه جرى على لسان الشيخ قوله «أبو جعفرنا»؟ فقلت له: سوف أكون مسئولاً على ذلك يوم القيامة. فأخرج خمسين دينارًا

ولفها في ورقة وعطاها لي. ثم أعطاني عباءة الشيخ قائلاً: ردها له. ولما ذهبت ووضعت ما أعطاه لي أمام الشيخ، دخل أبو جعفر في أثري وأحضر خمسين ديناراً أخرى، ومن خلفه غلام يحمل طعماً مغطى، ووضعها أمام الشيخ وقال: إن مع بعثته مع حسن كان حسب ما أشرت به، وما أحضرته الآن تعبير عن شكري لقولك، «أبو جعفرنا»؛ فسوف تكون هذه الكلمة معيني يوم القيامة.

حكاية:

وأيضاً عندما كان الشيخ أبو سعيد في «نيسابور»، كان حسن بن المؤدب خادم الشيخ الخاص قد اقترض مالا وأنفق على الدراويش، وأخذ يؤجل قضاءه، والغرماء يطالبون به. وفي يوم حضر الجميع إلى باب خانقاه الشيخ، فقال الشيخ لحسن: قل لهم ليدخلوا. فأدخلهم حسن. وعندما دخلوا، حيوا الشيخ. ومر صبي على باب الخانقاه وهو ينادي على «ناطف» فقال الشيخ: أحضر ذلك البائع. فأحضره حسن. وقال له الشيخ: زن كل ما لديك. فوزنه، ووضعه أمام الدراويش؛ فأكلوه. وقال الصبي: أريد النقود، فقال الشيخ: سوف تأتي. ومرت ساعة، وطالب الصبي بالثمن مرة أخرى، فأجابه الشيخ بنفس الجواب. فقال الصبي: إن أستاذي يضربني من أجله، قال هذا وأجهش بالبكاء. وفي الحال دخل رجل من باب الخانقاه، ووضع صرة من الذهب أمام الشيخ، وقال له: لقد أرسلني فلان إليك، وهو يرجو أن تذكره بدعائك. فقال الشيخ لحسن: خذه، وقسمه على الدائنين. فأخذ حسن الذهب، وأعطى الجميع نقودهم، كما أعطى لذلك الغلام ثمن الناطف، دون أن يبقى شيء أو يلزم شيء. وقال الشيخ: لقد كان هذا المال مقيداً بدموع ذلك الغلام.

حكاية:

قال حسن بن المؤدب: كان للشيخ محب في «نيسابور» اسمه عمرو حسكو، وكان رجلاً موسراً، يعمل بالتجارة في «نيسابور». وذات يوم دعاني وقال لي: لقد أصبحت مريداً للشيخ بكل كياني، وإنني أرجو منك أن ترجع إليّ في كل ما يلزم الشيخ، ولا تخش مهما كان كثيراً. قال حسن: وفي يوم من الأيام أرسلني الشيخ إليه سبع مرات لقضاء أمور

مختلفة، فأدأها جميعها. وفي المرة الثامنة، وكانت الشمس تميل إلى الغروب. قال لي الشيخ: يا حسن، اذهب إلى أبي عمرو، وأحضِر ماء ورد وكافورًا وعودًا. فذهبت وأنا خجل من الذهاب إليه مرة أخرى؛ لأنه كان على وشك أن يغلق حانوته. ووقعت عينه علي من بعيد فقال: يا حسن، ماذا حل بك حتى وقفت مترددًا هكذا؟ فقلت له: أيها الأستاذ، أنا خجل لكثرة ما جئت إليك اليوم. فقال: ماذا يريد الشيخ؟ إنني في خدمته. فقلت إنه يريد ماء ورد وكافورًا وعودًا. ففتح الحانوت، وأعطاني ما طلبت وقال لي: ما دمت تخجل من الرجوع إلي في مثل هذه الأشياء الحقيمة، فإنني سأهبك غداً رباطاً وحماماً بألف دينار، حتى تستطيع أن تنفق من ريعهما، وترجع إلي فيما هو أعظم من ذلك. قال حسن: فسررت، وقلت لنفسِي: لقد تخلصت من ذل السؤال، وعدت إلى الشيخ في سرور بالغ وقد أحضرت العود وماء الورد. فنظر الشيخ إليّ مستنكراً وقال: يا حسن، اخرج وطهر باطنك من حب الدنيا حتى أتركك تجالس الصوفية. قال حسن: فخرجت ووقفت على باب الخانقاه حاسر الرأس، عاري القدمين، وبكيت كثيراً، ومرغت وجهي في التراب، ورجعت. ولم يقل الشيخ لي شيئاً في تلك الليلة. وفي اليوم التالي خرج إلى المجلس، وكان قد تعود أن يلتفت كل يوم أثناء الحديث إلى أبي عمرو حسكو، فلم ينظر إليه في هذا اليوم.

ولما فرغ الشيخ من المجلس جاء أبو عمرو حسكو إليّ وقال: يا حسن ماذا حدث حتى أن الشيخ لم ينظر إلي اليوم؟ قلت لا أعلم، وحدثته بما جرى بالأمس. فذهب أبو عمرو إلى منصة الشيخ وقبلها وقال له: يا عزيز الدهر... إن حياتي رهن لفظة منك، وأنت لم تنظر إلي اليوم قط! ماذا حدث مني لأستغفر وأطلب المعذرة عنه؟ فقال له الشيخ: لقد أنزلت صقر عزتنا من أعلى عليين إلى أسفل سافلين وقيدته بألف دينار. وإذا كنت تريد أن يصفو قلبنا لك فادفع الألف دينار لترى كما تساوي في ميزان همتنا. فذهب أبو عمرو، وأحضِر صرتين في كل واحدة خمسمائة دينار نيسابوري، ووضعها أمام الشيخ. فقال الشيخ: يا حسن، ارفع هذه، واشتر بقرًا وخرافًا، وأفرق البقر، وزعفر الخراف وعطرها،

وأحضر كثيرًا من شراب اللوز، وأشعل الشمع في النهار، وأحضر كثيرًا من العود وماء الورد، وهبى المائدة غداً في «بوشنك»، وهي قرية جميلة جداً بجوار «نيسابور»، وناد في المدينة أن كل من يريد طعاماً دون منة في الدنيا، أو أذى في الآخرة فليأت. قال حسن: فأعددت هذا كله، وبعثت منادياً في المدينة، فجاء أكثر من ألفي شخص إلى «بوشنك».. وجاء الشيخ ومعه جماعة الصوفية، وأجلس الخواص والعوام على المائدة، وأخذ يرش عليهم ماء الورد بيده المباركة، ويحرق العود والناس يتناولون الطعام. وحدث أحد منكري الشيخ نفسه قائلاً: ما هذا الإسراف الذي يفعله هذا الرجل؟ وإشعال ألف شمعة في النهار إسراف ولا شك، فمر الشيخ من بين الناس جميعاً، ووقف أمام ذلك الرجل وقال له: أيها الرجل، انزع الإنكار والتحكم من صدرك، فإن كل ما تفعله من أجل الله لا يكون إسرافاً؛ أما إذا أنفقت درهماً واحداً من أجل نفسك؛ فإن هذا هو الإسراف. فسقط الرجل على أقدام الشيخ، وأصبح من مريديه، وجعل كل أمواله تحت تصرف الشيخ. قال حسن: وعندما فرغوا من الطعام، ونفدت الأموال، رفعت الموائد، وعدت إلى المدينة. ولما جاء الليل وآوى الشيخ إلى فراشه، ناداني قائلاً: يا حسن، انظر ماذا بقي بالخزانة فأنا لا أستطيع النوم. فبحثت في الخزانة فلم أجد شيئاً، فعدت إليه وقلت: لا أجد شيئاً قط. فقال: ابحث جيداً. فبحثت مرة ثانية فلم أجد شيئاً، وقلت: أيها الشيخ، إنني لا أجد شيئاً، ثم بحثت مرة أخرى، فوجدت رغيفاً، فحملته إليه. فقال لي: اذهب وأخرجه لكي ننام. فأخرجته ونام الشيخ.

وهكذا كان شأن الشيوخ جميعاً يخرجون كل ما يأتيهم من رزق في نفس اليوم، دون أن يبقوا منه قليلاً أو كثيراً للغد، وفقاً لسنة المصطفى ﷺ الذي ذهب إلى زاوية بلال الحبشي رضي الله عنه، فرأى نصف رغيف جاف على كوز مكسور، فقال له: يا بلال، ما هذا؟ فقال: يا رسول الله، لقد كان رغيفاً جافاً أفطرت بنصفه أمس، وأبقيت النصف الآخر لهذه الليلة. فقال رسول الله ﷺ: «أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقللاً».

حكاية:

وأيضاً عندما كان الشيخ في «نيسابور» كان كثير من المريدين يجيئون إليه ومنهم المذهب وغير المذهب. وكان أحد القرويين قد تاب وأخذ يختلف إلى الخانقاه دائماً. وكان له حذاء دق فيه قضباناً من الحديد؛ بحيث إنه كلما دخل إلى الخانقاه، أحدث الحذاء صوتاً يتألم منه الدراويش. فدعا الشيخ ذلك الدراويش وقال له: ينبغي أن تذهب إلى «درمون» (وهو واد يقع بين جبلي «طوس» و«نيسابور» وعلى الطريق بينهما، وهناك نهر ينبع من هذا الوادي ويصب في نهر نيسابور)، وعندما تصل إلى ذلك الوادي وتسير قليلاً تجد حجرًا، فينبغي أن تصلي عليه ركعتين، وتنتظر هناك حتى يأتي إليك صديق من أصدقائنا فتبلغه سلامنا. وذكر الشيخ لذلك الدراويش كلاماً كثيراً قائلاً: قله له لأنه صديق عزيز علينا، وقد عاشرنا سبع سنوات. فسار ذلك الدراويش بشوق كبير، وأخذ يفكر طوال الطريق قائلاً لنفسه: أنا ذاهب لزيارة ولي من أولياء الحق، إلى واحد من الرجال الأربعين الذين هم مدار العالم، وقوام أمر بني آدم، وقد يقع نظره المبارك علي، فتتصلح أمور ديني ودنياي ببركته. وعندما وصل إلى ذلك المكان الذي مر ذكره، توقف برهة، ثم ظهرت أصوات طرقات شديدة اهتز لها الجبل. ونظر الدراويش مرة أخرى، فرأى حية سوداء هائلة، لا مثيل لها في الضخامة، حتى لقد امتلأ بها الفراغ بين الجبلين. فلما وقع عليها نظر ذلك الدراويش، لم يبق فيه روح، ووهنت أطرافه؛ بحيث لم يعد يستطيع الحركة مهما حاول. وجاءت الحية، واقتربت من ذلك الحجر، ووضعت رأسها عليه، وتوقفت. وعندما تمالك الدراويش نفسه، ورأى الحية قد وضعت رأسها على الحجر في تواضع ولم تتحرك، قال لفرط ذهوله وخوفه: لقد بعث لك الشيخ بسلامه. فمرغت الحية وجهها في التراب، وأظهرت تواضعها. ولما رأى الدراويش ذلك، أدرك أن الشيخ كان يقصدها برسالته فأبلغها ما قاله الشيخ، فازداد تواضعها وعندما أتم الدراويش كلامه، تراجعت الحية. ولما غابت عن نظره، نزل من الجبل وسار قليلاً، ثم جلس، وأخذ حجرًا وانتزع القضبان الحديدية من حذائه، وسار في هدوء حتى وصل إلى الخانقاه. ولما دخلها لم

يشعر به أحد، وألقى التحية في صوت خافت سمعه الدرويش بصعوبة. وعندما رأى الصوفية تغير حاله أرادوا أن يعرفوا أي شيخ هذا الذي تركت صحبته لنصف يوم في نفس ذلك الدرويش من الأثر ما لم يتحقق له بالرياضة والمجاهدة سنين طويلة، فسأله: من ذلك الذي بعثك الشيخ إليه؟ فذكر لهم القصة. فتعجب الجميع، وسألوا الشيخ عن ذلك. فقال الشيخ: لقد رافقتنا هذه الحية سبع سنوات، وكان كل منا يرتاح إلى الآخر.

وقصارى القول أنه لم ير أحد من ذلك الدرويش حركة غليظة بعد ذلك اليوم ولم يسمع منه صوتاً عالياً، ولم يبق فيه شيء من هذا، وأصبح مؤدباً مهذباً بلفتة واحدة من الشيخ.

حكاية:

قال الأستاذ عبد الرحمن مقرئ شيخنا إن الشيخ كان يتحدث يوماً في مجلس في «نيسابور»، وكان في المجلس رجل علوي، فقال لنفسه: نحن نملك النسبة وهذا الشيخ يملك العزة والدولة. فالتفت الشيخ إلى ذلك العلوي في الحال، وقال له: أيها السيد، يلزم أفضل من هذا وذاك. ثم التفت إلى الجمع وقال: أتعلمون ماذا يقول هذا السيد؟ إنه يقول: نحن نملك النسب، وهنا توجد الدولة والعزة. اعلّموا أن كل ما أدركه محمد عليه السلام إنما أدركه بالنسبة لا بالنسب؛ لأن أبا جهل وأبا لهب كانا أيضاً من ذلك النسب. وأنتم قد قنعتُم من ذلك العظيم بالنسب، أما نحن فقد أسلمنا إليه أنفسنا في النسبة، والآن لا تقع بذلك، فلا جرم أن جعل الله لنا نصيباً من تلك الدولة والعزة التي كانت لذلك العظيم، وأوضح أن الطريق إلى حضرتنا يكون بالنسبة لا بالنسب.

حكاية:

قال جدي شيخ الإسلام أبو سعيد رحمة الله عليه إن الشيخ أبا سعيد كان يتحدث يوماً في مجلس في «نيسابور»، وكان في ذلك المجلس عالم فاضل، فأخذ يفكر في نفسه قائلاً: إن هذا الكلام الذي يقوله الشيخ لا يوجد في أسباع القرآن السبعة. فالتفت الشيخ إلى ذلك العالم في الحال وقال له: أيها العالم، إن هذا الكلام الذي تقوله في السبع الثامن. فقال

العالم: أي سبع ثامن أيها الشيخ؟ فقال الشيخ: السبع الثامن هو: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، والسبع الثامن هو: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].
أتظنون أن كلام الله عز وجل محدود ومعدود؟ إن كلام الله ليس له نهاية؛ لأن المنزل منه على محمد هو هذه الأسباع السبعة، أما الذي يوصله إلى قلوب عباده؛ فإنه لا يدركه عد ولا حصر، كما أنه لا ينقطع أبداً، ففي كل لحظة يصل منه رسول إلى قلوب العباد، كقول الرسول ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، ثم قال الشيخ:

«بيت»

أنت لي راحة روحي معاينة لا خبراً،

ومتى كانت المعاينة، فبم يفيد الخبر؟

ثم قال: ورد في الخبر أن اللوح المحفوظ من الاتساع بحيث لا يستطيع الجواد العربي أن يصل من أحد أطرافه إلى الآخر في أربعة آلاف عام، وأدق من شعرة الشارب، وفيه نبأ جميع الخلق من لدن آدم إلى يوم القيامة.

حكاية:

وأيضاً عندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز في «نيسابور»، كان له كثير من المنكرين أحدهم القاضي صاعد الذي مر ذكره. وبرغم أنه لم يكن ينكر الشيخ علانية؛ فقد كان بينه وبين نفسه لا يخرج عن أصحاب الرأي الذين ينكرون كرامة الأولياء، بل إنه كان زعيمهم في هذا. وذات يوم قالوا للقاضي صاعد إن أبا سعيد يقول إذا أحل لجميع الناس الدماء؛ فإننا لا نأكل إلا الحلال. فقال القاضي صاعد: سوف أختبر هذا الرجل اليوم. وأمر بإحضار حملين ممتلئين متشابهين، ودفعوا ثمن أحدهما من مال حلال، وثمر الآخر من مال حرام. وزينوهما على صورة واحدة، وقاموا بشيهما حتى صارا في لون واحد، ووضعوهما على طبقين متشابهين. وقال القاضي لخدمته: سأذهب لتحية الشيخ، وبعد ساعة من وصولي أحضروا هذين الحملين خلفي، وضعوهما أمام الشيخ أبي سعيد لأرى هل يفرق بكرامته بين الحلال والحرام أم لا. وحمل الخدم الحملين

وساروا بهما، وعندما وصلوا إلى مفترق الطريق، خرج عليهم غلمان سكارى من الأتراك، وضربوا خدم القاضي، وسلبوا الحمل الحرام. وبعد ذلك دخل غلمان القاضي من باب الخانقاه، وأحضروا حملاً واحداً، ووضعوه أمام الشيخ. فنظر القاضي إليهم غاضباً. وعندئذ التفت إليه الشيخ وقال: أيها القاضي، الميتة للكلاب والكلاب للميتة، والطعام الحرام للحرام، والحلال للحلال، فلا تغضب. فتخلى القاضي عن إنكاره للشيخ، وانتزع الإنكار من قلبه، وأخذ يعتذر، وعاد إلى الاعتقاد في الشيخ.

حكاية:

رُوي أن تاجرًا في «نيسابور» أحضر للشيخ حزمة من العود وألف دينار نيسابوري. فأمر الشيخ حسن بن المؤدب أن يعد وليمة، وأن ينفق عليها الألف دينار كعادته. ثم وضعوا موقدًا وقال لهم الشيخ ضعوا العود فيه حتى يكون لجيراننا نصيب من رائحته الطيبة. وأمرهم أن يوقدوا كثيرًا من الشموع في النهار. وكان هناك محتسب جبار متشدد في ذلك العهد، ينكر الشيخ والصوفية. فدخل من باب الخانقاه وقال للشيخ: ما هذا الذي تفعله؟ ليس من الصواب إيقاد الشموع في النهار وإطلاق البخور. إن أحدًا لم يفعل هذا من قبل. فقال الشيخ: لم نكن نعرف أن هذا خطأ، فاذهب وأطفئ الشموع. فتقدم المحتسب نحوها ليطفئها، ونفخ فيها، فهبت النار في وجهه وشعره وملابسه، وكاد يحترق. فقال الشيخ:

«بيت»

كل من يطفئ الشمع الذي يوقده الله، يحترق شاربه!

فندم المحتسب على قوله وتاب.

حكاية:

كان في «نيسابور» درويش يحب الدنيا، ويفرط في جمع المال والادخار. وذات ليلة دخل لص منزله، وسرق كل ما فيه، ما عدا المرقع الذي كانت فيه نقوده. وفي اليوم التالي

ذهب الدرويش إلى مجلس الشيوخ حزينًا منهارًا، ولم يكن قد أخبر أحدًا بذلك، فالتفت إليه الشيخ أثناء حديثه وقال له:

«بيت»

أجل يا حبيبي، لقد كنت ليلة أمس فوق سطحك،

قلت «لص»، لم يكن «لصًا»، بل كنت أنا

فصرخ الدرويش، وتقدم إلى الشيخ، ووضع أمامه ما تبقى من النقود، فقال له الشيخ: هكذا ينبغي أن يكون كل شيء للجميع.

حكاية:

كان الشيخ أبو القاسم الروباهي من كبار الصوفية في «نيسابور»، وزعيمًا لعشرة مع مشاهير الصوفية من مريدي الأستاذ الإمام أبي القاسم القشيري. وعندما وصل الشيخ إلى «نيسابور»، حضر هؤلاء العشرة إلى مجلسه، وانخرطوا في خدمته وأصبحوا من مريديه. قال أبو القاسم الروباهي: لقد ظللت أمدًا طويلًا أطلب من الله سبحانه وتعالى أن يبين لي درجة الشيخ أبي سعيد، وأخذت أتضرع من أجل هذا ليالي عديدة، حتى رأيت الرسول ﷺ في نومي ذات ليلة، وفي أصبعه خاتم به فص من الفيروز، وقال لي: أتريد أن تعرف درجة الشيخ أبي سعيد؟ قلت: نعم يا رسول الله. فأراني أصبعه وقال: إنه كالفص من الخاتم. فارتعدت واستيقظت من النوم. وفي اليوم التالي جلست في مجلس الشيخ، فالتفت إلي وقال: كيف كان الحديث عن ذلك الخاتم؟ ولما سمعت قوله، سقطت على أقدامه قدس الله روحه العزيز.

حكاية:

رأيت بخط السيد أبي البركات مكتوبًا جاء فيه: سمعت عن السيد إسماعيل بن عباس أنه قال: كان أبو عثمان الحيري من مشايخ «نيسابور» يقيم في محلة «ملقاباد»، وكان مريدًا لشيخنا، فأعد للشيخ مجلسًا في زاويته بملقاباد، وطلب إليه أن يتحدث فيه مرة

كل أسبوع، فأجابه الشيخ إلى طلبه. وقال أبو عثمان الحيري رأيت في منامي ذات ليلة أن الشيخ يتحدث في زاويتي، وكان صاحب الشرع المصطفى صلوات الله وسلامه عليه جالساً على الجانب الآخر من المنبر، ولم يكن الشيخ يلتفت إليه. وجال بخاطري إنه لأمر عجيب ألا ينظر الشيخ إلى صاحب الشرع، فالتفت إلى الشيخ في الحال وقال لي: «ليس هذا وقت النظر إلى الأغيار، هذا وقت الكشف والمكاشفة».

ولما اختتم الشيخ المجلس التفت إلى صاحب الشرع وقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وصلى الله على محمد وآله أجمعين. ثم مسح وجهه بيديه ونزل عن المنبر. فاستيقظت وبقيت حائراً.

حكاية:

قال أبو بكر محمد بن أحمد الواعظ السرخسي: بعد وفاة الشيخ أبي سعيد قدس الله روحه العزيز، نظمت قصيدة في تلك الحادثة الكبيرة، وقلت فيها هذين البيتين:

مَنْ قَالَ بَأْنَ لِلْحَقِّ مَكَائًا،
التبس عليه الأمر، لأنك في مكان مكين.
ومن أجل الناس أظهرك الحق في مكان،
لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا ما وراء إدراكهم.

وعندما أنشدت هذه القصيدة على ضريحه المقدس في حفل من أبنائه ومريديه، قال الشيخ عبد الصمد بن الحسين الصوفي السرخسي، وكان من خاصة مريدي الشيخ وأصحابه العشرة: هذان البيتان صدق. فاستمع إلى هذه الحكاية. ثم قال على قبره الطاهر في حضور الجميع: كنت في خدمة الشيخ في «نيسابور»، وذات ليلة رأيت الشيخ في نومي جالساً في مكان لم يكن من عاداته الجلوس فيه. وعندما قلت له: ما هذا أيها الشيخ، لماذا لم تجلس في مكانك؟ قال لي: أنا في مكاني، فقلت مرة أخرى: لماذا لم تجلس في مكانك أيها الشيخ، لعله خير؟ فقال الشيخ: ليس لي مكان. لا تحت ولا فوق، ولا عن

يمين أو شمال، ولا في أي جهة من الجهات، ولكننا نتخذ مكاناً لتقضى حوائج الخلق بنا وتنصلح أمورهم بسببنا. فاستيقظت من نومي مشغولاً بذلك. وفي الفجر كنت في مجلس الشيخ، وعندما خرج من صومعته وجلس على المنبر كعادته، أطارق لحظة، ثم رفع رأسه وقال: تعال يا عبد الصمد وقص الرؤيا التي رأيتنا فيها بالأمس. فعجبت لأنني لم أكن قد ذكرت هذه الرؤيا لأحد. وأدريت فمي من أذن الشيخ وأخذت أقصها، وأنا أحاول ألا يسمعي أحد. ولم أكد أبدأ حتى صاح الشيخ: ارفع صوتك ليسمع الناس أننا نجلس هنا من أجلهم وإلا لما كان لنا مكان. وظهرت على الجميع أحوال. والآن ورد هذان البتان على لسانك بعد وفاته.

حكاية:

قال حسن بن المؤدب: وقفت يوماً بين يدي الشيخ في «نيسابور»، بعد أن فرغ من المجلس وتفرق الناس، وكانت قد تجمعت عليّ قروض كثيرة، فكنت لذلك مهموماً؛ إذ كانوا يطالبونني بها، ولم يكن هناك معلوم. وكان يلزم لي أن يتكلم الشيخ في هذا الأمر، ولكنه لم يفعل. وأشار الشيخ إليّ قائلاً: انظر خلفك، فلما نظرت رأيت سيدة عجوزاً تدخل من باب الخانقاه. وتقدمت إليها، فأعطتني صرة من الذهب وقالت لي: احمل هذه المائة دينار إلى الشيخ، واطلب إليه أن يذكرنا بدعائه. فأخذتها مسروراً، وقلت لنفسي الآن أوفي الدين. وحملتها ووضعتها أمام الشيخ، فقال لي: لا تضعها هنا، بل احملها واذهب بها إلى مقابر الحيرة، وهناك تجد أربع قباب نصف محطمة، وشيخاً نائماً في ذلك المكان، فأبلغه سلامنا، وأعطه صرة الذهب، وقل له عندما تصلك هذه تعال إلينا لنعطيك غيرها.

قال حسن: وذهبت فرأيت شيخنا ضعيفاً نائماً، وقد توسد طنبوراً. فأيقظته وأبلغته سلام الشيخ. وأعطيته الذهب. فصرخ الرجل قائلاً: قدني إلى الشيخ. فسألته عن حاله فقال: أنا رجل مهنتي كما ترى نفخ الطنبور. وفي شبابي كنت محبوباً من الناس جميعاً،

ولم يكن يجتمع في هذه المدينة اثنان إلا وكنت ثالثهما. وكان لي تلاميذ كثيرون، وعندما تقدمت بي السن انفضوا من حولي، ولم يعد هناك من يدعوني. والآن وبعد أن ضاقت في وجهي سبل العيش، طردني زوجي وأبنائي قائلين إننا لا نستطيع الاحتفاظ بك، فدعنا لله. ولم أعرف لي مكاناً، فجنّت إلى هذه المقبر، وجعلت أبكي في ألم، وناجيت الله تعالى قائلاً: يا إلهي! إنني لا أجيد حرفة، ولا أملك شاباً ولا قوة، وقد طردني الجميع، واليوم طردني زوجي وأبنائي أيضاً، والآن بقيت أنا وأنت، وسوف أطربك ليلاً لتمنحني القوت في الصباح. وأخذت أنفخ في الطنبور وأنا أبكي، حتى عجزت عند الفجر، فاستسلمت للنوم حتى هذه الساعة التي أيقظتني فيها.

قال حسن: فقدته إلى الشيخ، وكان لا يزال جالساً في المكان الذي تركته فيه، فسقط ذلك الرجل على أقدام الشيخ، وتاب. وقال له الشيخ: أيها الرجل، إن تأوهاتك في المقبرة لم تذهب سدى، فامص وغن لله أيضاً، وكل من هذه النقود، ثم التفت إلي وقال: يا حسن، إن كل من لم يخطئ في حق الله يتحقق له ما يطلب، وسوف يتحقق طلبك أنت أيضاً.

قال حسن: وعندما فرغ الشيخ من المجلس في اليوم التالي، جاء رجل وأعطاني مائتي دينار لأحملها إلى الشيخ. ولما قدمتها له، قال لي: اقض بها دينك، فأنفقتها في هذا الأمر.

حكاية:

وأيضاً قال حسن بن المؤدب: في وقت من الأوقات؛ تراكمت عليّ ديون كثيرة في «نيسابور»، كنت قد استدنتها من أجل الصوفية. وأخذت أصبر لأرى ما يأمر به الشيخ. وذات يوم أدى الشيخ صلاة الفجر وقال لي: يا حسن، أحضر لي دواة وقطعة من الورق. قلت: الله أكبر، وأحضرت الدواة والورقة، ووضعتهما أمام الشيخ فكتب:

«بيت»

تريد أن تذهب إلى «مرو» وإلى «هراة»،

وحيثما تذهب ستجد بقرتين وحماراً.

وقال لي: خذ هذه الورقة، واخرج من باب الخانقاه، وقف على اليمين، وأعطها لمن يتقدم إليك. قال حسن: وعندما خرجت تقدم إليَّ شاب، فسلمت عليه وأبلغته تحية الشيخ، وأعطيته الورقة. فقبلها وقربها من عينه، وكان الظلام حالًا فلم يستطع القراءة، فذهبنا إلى باب الحمام، ودخل الشاب الحمام، وقرأ الورقة، فإذا بها عن حاله. فقال لي: قدني إلى الشيخ. فقدته إليه، فسلم عليه، ووضع أمامه مائة دينار ذهبي، ونافجة من المسك، وحرمة من العود. فقال له الشيخ: اطمئن فسوف يتحقق مقصودك هنا. وخرج الشاب وقال لي: تعال معي. فذهبت معه إلى رباط القوافل، فأعطاني مائة دينار أخرى، وقال لي: وفَّ بها ديون الشيخ، وإذا تحقق مقصودي هنا، فسوف أعطيك مائة أخرى. فسألته عن أمره، فقال: كان لي منذ ثلاث سنوات شريكان، أحدهما في «بلغار»، والآخر في «نهر وال»، وقد جاءني بالأمس رسول من «مرو» يخبرني أن أحد شريكي جاء إليها، فعزمت على السفر إلى «مرو»، وفي الليل جاء آخر وأخبرني أن الشريك الثاني قد وصل إلى «هراة». وأخذت أفكر طوال الليل: هل أذهب إلى «هراة» أو إلى «مرو»؟ وفي السحر خطر لي أن أذهب إلى الشيخ عند الفجر، وأحمل إليه مائة دينار، ومقدارًا من العطر الزكي، وأسأله هل أذهب إلى «مرو» أو إلى «هراة»؟ ثم أعمل بمشورته. وقد جئت في الفجر، فاستقبلني وأعطيتني تلك الورقة. والآن قال لي الشيخ إن مقصودي سيتحقق هنا، وسوف أنتظر لأرى ماذا يحدث. قال حسن: وفي الظهر رأيت ذلك الشاب، فقال لي: لقد وصل شريكي الذي كان قد جاء إلى «هراة». وفي العصر خرجت إلى السوق فرأيت مرة أخرى، وأسرع نحوي قائلاً: لقد وصل شريكي الآخر من «مرو»، وكنت قادمًا في طلبك. لقد تم مرادي هنا كما قال الشيخ. ثم أعطاني مائة دينار أخرى. فعدت إلى الشيخ فقال لي: وفَّ الديون بهذه الثلاثمائة دينار، ولا تشك بعد الآن؛ لأن ما يأكله هؤلاء القوم لا يرقى إليه شك، فالحق تعالى هو الذي يقضي دينهم.

حكاية:

قال حسن بن المؤدب: مضت أيام لم يحضروا خلالها لحماً إلى الخانقاه؛ لأنني

لم أكن أملك ثمنها، وكان القصابون يطالبونني بثمن ما كنت قد أخذت من اللحم. وذات يوم كان الشيخ يتحدث في المجلس فقال لي: انهض يا حسن، واذهب إلى ذلك الشاب -وأشار بإصبعه إلى رجل- وقل له أعطني ذلك المسكوك الذهبي هي المعقود في حزامك فهو يساوي أكثر من دينار. فذهبت إليه وقلت: أيها الشاب، قال الشيخ: أعط ذلك المسكوك الذهبي المعقود في حزامك للدراويش فهو يساوي أكثر من دينار. ولما سمع الشاب ذلك بكى، وفتح الحلقة، وأعطاني الدينار. فأحضرتة إلى الشيخ، فقال لي: اذهب إلى سوق الحدادين، وهناك تجد قصاباً علق حملاً رضيعاً مزيناً، فاشتره منه، واذهباً معاً إلى «بشولة»، وألق بذلك الحمل في الحفرة؛ لتأكله حيوانات تلك المقبرة. فذهبت وأنا أنكر هذا طوال الطريق؛ لأنه مضت عدة أيام لم يدخل اللحم فيها الخانقاه، على حين يبعث الشيخ بالحمل إلى الكلاب. وعندما ذهبت إلى ذلك المكان، رأيت ما ذكره الشيخ. واشتريت ذلك الحمل، وأعطيت القصاب الدينار، وأخذته معي، وألقيت بالحمل إلى الكلاب. وقف الخلق ينظرون إلى عملي هذا في استنكار، ووقف القصاب يبكي، وقال لي: قدني إلى الشيخ. فقدته إليه، فسقط على أقدامه تائباً. وقال الشيخ: يا حسن، منذ أربعة شهور وهذا الشاب يتجشم المتاعب في تربية هذا الحمل، وأمست مات الحمل، فأسف على إلقائه. ونحن نخشى أن تصل تلك الميتة إلى أفواه الخلق، فيأكل منها مسلم. وقد حقق هذا الرجل مقصوده وتمتعت الحيوانات أيضاً بأكل الدسم، فلماذا تشك أنت؟ إن هؤلاء الدراويش أطهار لا يأكلون إلا الطاهر. فنهض ذلك الشاب وقال للشيخ: لدي كبش حلال غير مطهي، وقد وهبته للصوفية. فقال الشيخ: كان ينبغي هذا لكي تنعم الكلاب بأكل الدهن، ويصل ذلك الرجل إلى مقصوده، وتحصل أنت على لحم حلال.

حكاية:

عندما كان الشيخ أبو سعيد في «نيسابور»، كان مؤذن مسجد المطرز يقرأ القرآن على المئذنة ذات ليلة. وكان في ناحية المسجد رجل تركي مريض؛ فاستطاب صوت المؤذن،

وتأثر به حتى بكى. ولما طلعت الشمس، أرسل شخصاً واستدعى المؤذن وقال له: هل كنت تقرأ القرآن على هذه المئذنة أمس؟ قال: نعم. فقال له: اقرأه مرة أخرى. فقرأ المؤذن خمس آيات، وأعطاه التركي ديناراً. وأخذ المؤذن الدينار، وخرج وجاء إلى مجلس الشيخ، وكان الشيخ يتحدث. وفي أثناء الحديث دخل اثنان من رعاة الكلاب، وطلبا من الشيخ إحساناً، فالتف الشيخ إلى المؤذن وقال له: أعط ذلك الدينار الذي أخذته من التركي إلى هذين الرجلين. وقال المؤذن لنفسه: لقد أعطاني التركي الدينار على انفراد، ولم يكن هناك أحد معنا، فمن الذي أخبر الشيخ؟ فقال الشيخ: لا تفكر كثيراً لأن ماء الحمام يليق للبالوعة. فسر المؤذن، وأعطاهما الدينار.

حكاية:

قال حسن بن المؤدب: دعاني الشيخ يوماً وقال لي: اخرج من الباب، واتجه يميناً، ومد يدك لكل من يأتي أمامك قائلاً: ضع كل ما تملك هنا. فخرجت وفق إشارة الشيخ، ورأيت مجوسياً فاقتربت منه ومددت يدي فقال المجوسي: أسلم أولاً، فقدني إلى الشيخ. فقدته إليه، فقال له: أيها الشيخ، أعرض عليّ الإسلام. ثم أسلم، وسلم كل ما يملك للشيخ.

حكاية:

ذات يوم في «نيسابور»، استدعى الشيخ قدس الله روحه العزيز حسن بن المؤدب وقال له: ينبغي أن تذهب إلى الشحنة، وتطلب إليه أن يعد مائدة لل دراويش. وكان شحنة المدينة منكرًا للصوفية. قال حسن: فذهبت إليه، وأخذت أقول لنفسي طوال الطريق إنه ليس بنيسابور من هو أكثر منه ظلمًا، وأشد إنكارًا للشيخ، فكيف يتحقق هذا؟ وعندما ذهبت إليه، رأيته يضرب رجلاً بالعصا، والناس ينظرون إليه من بعيد. وبقيت حائرًا. وفجأة وقعت عين الشحنة علي فقال: ماذا يفعل ذلك الصوفي هناك؟ وجاء شخص وسألني لماذا تقف هنا؟ فاقتربت من الشحنة، وأبلغته سلام الشيخ، وقلت له: إن الشيخ يأمر أن تقيم مأدبة للصوفية. فأخذ يسخر مني، ثم رفع يده، وأخذ كيسًا من الفضة، وألقاه إلي قائلاً: لعل الشيخ يريد أن يقيم مأدبة بمال حرام، قل لشيخك إنني أخذت هذه

النقود من هذا الرجل بعد ضربه بالعصا. فحملت النقود، وذهبت إلى الشيخ، ووضعتها بين يديه، فقال الشيخ: خذها لنهيئ بها المأدبة. وعندما حان الموعد، وضعت المائدة. فمد الشيخ يده، وأخذ يتناول الطعام والجميع يشاركونه وهم مستنكرون. وفي اليوم التالي كان الشيخ يتحدث في المجلس، فنهض شاب وجاء بين يدي الشيخ، وبكى، وقبل أقدامه وقال له: سامحني لأنني خنتك، وقد نلت جزاء خيانتني. فقال الشيخ: أي خيانة حدثت؟ يجب أن تحدث الدراويش بها. فقال الرجل: دعاني والدي عند وفاته، وأعطاني كيسين من النقود قائلاً: أعط هذه النقود للشيخ بعد وفاتي، لينفقها على الدراويش. فلم أنفذ وصيته، وقلت لأن أنفقتها على نفسي أولى من أن أعطيها للشيخ؛ لأنها ميراث حلال لي. وقد قبض علي الشحنة بتهمة الكذب، وعاقبني، وضربي مائة عصا، وأخذ مني الكيس. وكنت هناك عندما جاء خادمك وأبلغه رسالتك، وأعطاه الشحنة النقود، فهذه النقود مال حلال لك، وها أنا أحضرت الكيس الثاني. ووضع الكيس أمام الشيخ قائلاً: سامحني على ما فعلت. فأجابه الشيخ: اطمئن أيها الشاب؛ فقد وصل إلينا مالنا، ووصل إليك مالك، فانصرف. ثم التفت الشيخ إلى الدراويش وقال: إن كل ما يصل إلى هذه الجماعة لا يكون إلا حلالاً. وبلغ الخبر الشحنة، فجاء إلى الشيخ في الحال، وتاب وأقلع عن الظلم، وأصبح من مريدي الشيخ، والمعتقدين في هذه الطائفة، وبذلك تخلص الناس من ظلمه.

حكاية:

رُوي أنه عندما كان الشيخ في «نيسابور» قال رجلان معروفان أحدهما للآخر: ينبغي أن نمتحن الشيخ، لنرى هل يدرك بكرامته ما سنقوم به أم لا؟ وقالوا: لنذهب إليه، ونأخذ منه شيئاً، ونغريه ونرى ماذا يقول في ذلك. ولفقا حكاية، وجاء إلى الشيخ وقالوا له: هناك بجوارنا فتاة يتيمة، وقد عقدنا قرانها على رجل، وطلبنا لوازيمها من جميع الناس. واليوم تم جهازها، وسنزفها الليلة إلى زوجها، ونريد أن نقودها إلى منزل زوجها بنور الشيخ، حتى تكون أيامهما مباركة. فدعا الشيخ حسن بن المؤدب وقال له: يا حسن، أحضر شمعتين

كبيرتين وأعطهما لهما؛ لأنهما أعدا مفرمة كبيرة. ولما سمع الرجلان هذا الكلام، سقطا على الأرض، وقبلا قدمي الشيخ، وتابا وأصبحا من ملازمي خدمته.

حكاية:

رُوي أن الشيخ مرض يوماً فأحضرُوا طبيباً لعلاجِه. وكان الطبيب مجوسياً. وعندما تقدم إلى الشيخ، وأراد أن يجس نبضه، قال الشيخ: يا حسن، أحضر مقص الأظافر، وقلم أظافره وقص شاربه، ولفهما في ورقة، وأعطاها له؛ لأنه ليس من عادتهم أن يتخلصوا من هذه الأشياء. وأحضر ماء ليغسل يديه. وأخذ الطبيب ينظر في حيرة، ولم يجرؤ على مخالفة الشيخ. قال حسن: وعندما نفذت أوامر الشيخ، وضع الطبيب يده على يد الشيخ، فقلب الشيخ يده، وأمسك بيد الطبيب واحتفظ بها بعض الوقت ثم أطلقها. ونهض الطبيب ليمضي، وظل إلى أن بلغ باب الخانقاه ينظر خلفه. فصاح فيه الشيخ: لماذا تنظر خلفك هكذا؟ ألم نتركك لتذهب؟ فرجع المجوسي، وأسلم على يد الشيخ، وأسلم معه جميع أقاربه.

حكاية:

كان الشيخ أبو صالح الدنداني مريداً خاصاً للشيخ، يقدم له الخلال، ويحلق له شاربه. وقد قال أحد الدراويش للشيخ أبي صالح هذا: علمني حلاقة الشارب، فضحك أبو صالح وقال له: أيها الدرويش، يلزم لك علم سبعين عالماً لتتعلم كيف تحلق لصوفي. إن هذا العمل ليس سهلاً. وقد قال الشيخ أبو صالح: لم يكن قد تبقى للشيخ في أواخر أيامه إلا سن واحدة، وعندما كان يفرغ من الطعام كل ليلة، كان يأخذ مني عوداً من الخلال، ويحركه حول السن. وعندما يغسل يديه يخلله بالماء. وذات ليلة عندما أخذ الشيخ الخلال، جال بخاطري، كما هي عادة البشر في الاعتراض على الآخرين، أنه ليس للشيخ أسنان، وهو في غير حاجة إلى الخلال، فلماذا يأخذه مني كل ليلة؟ فرفع الشيخ رأسه، ونظر إلي وقال: عملاً بالسنة، وطلباً للرحمة؛ لأن الرسول يقول: «رحم الله المخللين من أمتي في الوضوء وفي الطعام». فاستولى عليّ الخجل وبكيت.

حكاية:

رُوي أنه عندما كان الشيخ أبو سعيد في «نيسابور»، أرسل السيد عليك الذي كان مريداً للشيخ وأثيراً لديه، ومعه السيد حسن بن المؤدب، لأداء مهمة في «ميهنة». قال السيد عليك: عندما وصلنا إلى «نوقان»، قال لي حسن: تعال لنذهب لرؤية السيد المظفر، وكان رجلاً عظيماً. فقلت له: لقد أرسلنا الشيخ إلى «ميهنة»، فلن نذهب إلى مكان آخر. وألح عليّ حسن دون جدوى. وذهبنا إلى «ميهنة» وأنجزنا المهمة التي أمرنا بها الشيخ. وفي طريق عودتنا، وصلنا إلى «نوقان»، فقال حسن: سأذهب إلى السيد المظفر، فينبغي أن توافق؛ وإلا ذهبت وحدي. فوافقت ولما جلسنا إلى السيد الإمام المظفر بدأ الحديث. وكان حسن يصغي إليه وقلبه يميل إلى البقاء عنده. وأتم السيد الإمام المظفر الحديث، ثم أخذ في حديث آخر، ودار بخلد حسن أن يبقى هناك. ولما أكمل السيد الإمام المظفر حديثه قلت له: لقد انتهيت من حيث بدأ شيخنا، فخرج السيد الإمام المظفر ورجع حسن إلى نفسه، ونهضنا وخرجنا. وقال حسن: أي خاطر ذلك الذي طرأ لي! ولكنك لم تكذب قول ذلك الكلام حتى تخلصت منه، وأدركت خطئي. ثم عدنا إلى «نيسابور»، وذهبنا إلى الخانقاه فلما رآنا الشيخ، التفت إلى حسن بن المؤدب وقال له: لو لم يفحم «عليك» ذلك الرجل لملاً جعبتك بالأحاديث. فسقط حسن على الأرض واستغفر.

حكاية:

عندما كان الشيخ في «نيسابور»، مرض السيد أبو منصور الوراقاني وزير السلطان طغرل. ولما ساءت حاله، دعا الشيخ أبا سعيد والأستاذ الإمام أبا القاسم القشيري وقال لهما: لقد أحببتكما، وأنفقت الكثير من مالي من أجلكما، ولي الآن حاجة إليكما، وهي أن تحضرا جنازتي، وتقيما على قبري، حتى أخرج بما لكما من قوة من عهدة السؤال. فعاهده كلاهما على ذلك. وعندما لحق برحمة الله تعالى، ذهب الشيخ والأستاذ الإمام للوفاء بهذا العهد. ولما وصلا إلى المقابر، لم يكن القبر قد تم حفره بعد. فقال الأستاذ الإمام للشيخ: إن القبر لم يحفر، والشمس شديدة الحرارة، فانتظر حتى أرد الناس. فألقى

الشيخ سجاده فوق البر وجلس. وعندما استكمل القبر، ودفنوا السيد أبا منصور، وأغلقوا القبر، نهض الشيخ وقال: لقد تم كل شيء، ثم مضى. ولما لحق بالأستاذ الإمام سألته: ماذا فعلت بالوصية التي أوصى بها؟ فأجاب الشيخ: لم تكن هناك حاجة لشيء. وسمع الناس ذلك، فتساءلوا عن تلك الوصية. فقال الأستاذ الإمام: كيف تمت أيها الشيخ؟ فقال الشيخ: لقد جاء الرسولان وسألا، فقال أحدهما للآخر: ألا ترى من الذي يجلس على القبر؟ قالوا هذا وانصرفا، فلما ذهبا ذهبت أنا أيضًا.

حكاية:

كان إبراهيم ينال، الأخ الأصغر للسلطان طغرل، ظالمًا جدًّا، وشحنة على «نيسابور». وكان أهل «نيسابور» يطلبون من الشيخ الدعاء عليه، فلم يفعل، وكان يقول: سوف يصبح رجلًا طيبًا. وفي يوم من أيام الجمعة، كان الشيخ يتحدث في المجلس، فجاء إبراهيم ينال إلى مجلس الشيخ، وبكى كثيرًا. وحين انتهى المجلس جاء أمام منبر الشيخ ووقف. فقال له الشيخ: ماذا تريد؟ فقال إبراهيم: أريد أن تتقبلني. فقال الشيخ: لا أستطيع. فقال: إنني في حاجة إلى ذلك. فقال الشيخ: لا أستطيع. فكرر ذلك للمرة الثالثة. فنظر إليه الشيخ في حدة وقال: ستزول عنك النعمة. فقال: ليكن. فقال الشيخ: سوف تقتل. قال: ليكن. قال الشيخ: لن تكون أميرًا. قل: ليكن. فقال الشيخ: أحضروا الدواة وورقة. فأحضر وهما. فكتب الشيخ -هذه العبارة- «إبراهيم مَنَّا، كتبه فضل الله». فأخذ إبراهيم ينال الورقة وقبلها، ووضعها في حافظته وخرج. وذهب في نفس الليلة إلى العراق، وجلس على العرش في «همدان»، وأعلن عصيانه. فذهب إليه السلطان طغرل، وحاربه وأسره. فأرسل إليه رسالة قال فيها: إنني أعلم أنك سوف تقتلني، ولي حاجة عندك وهي أنه عندما تفعل ذلك، ستجد ورقة بخط أبي سعيد في حافظتي، وأرجو أن تضع هذه الورقة في يدي عندما أدفن؛ فلقد تنبأ لي الشيخ بذلك، وسوف تكون هذه الورقة شفيعي.

حكاية:

رُوي أن الشيخ كان قادمًا من مكان في «نيسابور» مع جماعة من الصوفية. ووصل

كعادته إلى رأس محلة «عدني كوبان». وكان هناك قصاب على رأس الحي. فلما اقترب منه الشيخ والصوفية، قال لأمه وزوجه: هاكم جماعة من المخرفين، انظروا إلى رؤوسهم ورقابهم، إنها تشبه ذيول الحيوانات. وقال كثيرًا من السباب القبيح بصوت منخفض لم يسمعه مخلوق. وأدرك الشيخ هذا بفراسته، فقال: يا حسن، أحضر ذلك القصاب. فذهب حسن إليه وقال له: إن الشيخ يدعوك. فخاف الرجل وجاء وهو يرتعد. وأرسل الشيخ صوفيًا إلى حسن، وقال: اذهب به إلى الحمام. فذهب به حسن، وعاد إلى الشيخ، فقال له: اذهب إلى السوق، واشتر كرباسًا رقيقًا، وزوجًا من الأحذية، وعمامة من الكتان الطبري، واذهب بها إلى الحمام. وخذ معك اثنين من الصوفية، ليدلكا هذا الرجل. فأرسل حسن اثنين من الصوفية إلى الحمام لخدمته، وذهب سريعًا إلى السوق، وأحضر ما أمر به الشيخ. وقال الشيخ للصوفية: خيطوا ثوبًا وسترة على عجل. فلما خاطوهما، قال الشيخ لحسن: اذهب وألبسها لذلك الرجل، وأعطه مائة دينار، وقل له أعد ما كنت تقول، وحين تنفذ نقودك تعال إلينا لنعطيك غيرها. فذهب حسن ونفذ أوامر الشيخ. فبكى القصاب، ووقف نفسه على خدمة الشيخ، وصار من مريديه.

حكاية:

قال العالم أبو بكر الشوكاني: إن والده العالم محمد قال: عندما كنت أطلب العلم في «نيسابور» كان الشيخ قدس الله روحه العزيز بها. وكنت إذا ما فرغت من الدرس كل يوم، ذهبت إلى خدمة الشيخ، ومكثت عنده حتى أؤدي صلاة العصر، ثم أعود إلى المدرسة. وبقيت هكذا حتى جئت الشيخ يومًا، فرفع طرف السجادة، وأخرج من تحتها قبضة من الزبيب وقال لي: لقد جاء الصوفية فتوح ففرقوه، واحتفظنا لك بنصيبك منه، لكل واحد سبع، سبع، سبع. وكان لي زميل واحد في المدرسة، ولكن الشيخ قال سبع ثلاث مرات. وقدمت تحيتي للشيخ وانصرفت. وفي الطريق عدت الزبيب فوجدته ثلاث سبعات. وعندما وصلت إلى المدرسة، كان قد حضر من العراق شقيق لزميلي، وجلس في حجرتي. فسلمت عليه. وسألته عن حاله، وقسمت الزبيب، فأخذ كل منا سبع حبات كما قال الشيخ.

حكاية:

قال السيد الإمام أبو علي الفارمدي قدس الله روحه العزيز: كنت في بداية شبابي طالب علم في مدرسة «سراجان» في «نيسابور». ومضت مدة، وذاع في المدينة خبر فحواه أن شيخاً جاء من «ميهنة»، وهو يعقد المجالس ويتحدث فيها، وقد ظهرت كراماته بين الناس، واعتقد فيه أهل «نيسابور»، وأئمة المذاهب، فذهبت لأراه. وعندما وقعت عيني على جماله، أصبحت له عاشقاً. وزادت محبة هذه الطائفة في قلبي. وكنت أترقب طوال اليوم حتى يخرج الشيخ إلى المجلس لأراه، وصرت من ملازميه في الخفاء بحيث ظننت أن الشيخ لا يعرفني، إلى أن جاء يوم كنت أجلس فيه في حجرتي بالمدرسة، فأحسست بشوق شديدة لرؤية الشيخ. ولم يكن من عادة الشيخ أن يخرج في ذلك الوقت، فأردت أن أصبر فلم أستطع. ونهضت وخرجت، ولما وصلت إلى مفترق الطرق، رأيت الشيخ يسير مع جمع كبير، فسرت خلفهم دون وعي. وكانوا يصحبون الشيخ إلى دعوة، وعندما وصلوا إلى دار المضيف، دخل الشيخ، ودخل الجميع معه. فدخلت أنا أيضاً، وجلست في ركن بحيث لم يرني الشيخ. وعندما انشغلوا بالسماع، انتشى الشيخ، وظهر عليه الوجد، ومزق ثوبه. وحين انتهى السماع، تناول الشيخ الثوب، ومزقه الجميع، وفصل كُماً وشريطاً ونادى قائلاً: يا أبا علي الطوسي، أين أنت؟ فلم أجب، وقلت لنفسي إن الشيخ لا يعرفني، ولم يرني، وربما كان من مريديه من يدعى «أبو علي الطوسي». ونادى الشيخ مرة أخرى، فلم أجب أيضاً. وقال الجميع: لعل الشيخ يقصدك بهذا القول. فنهضت وتقدمت إليه، فأعطاني الكم والشريط، وقال لي: أنت منا بمثابة هذا الكم والشريط من الثوب. فأخذت الكم وقبلته، وجعلت أذهب دائماً إلى خدمة الشيخ، وأجد توفيقاً كبيراً. وعندما رحل الشيخ عن «نيسابور»، ذهبت إلى الأستاذ أبي القاسم القشيري وحدثته بحالي فقال لي: اذهب يا بني واطلب العلم. فانشغلت بتحصيل العلم نحواً من ثلاث سنوات، حتى جاء يوم أخرجت فيه القلم من المحبرة. فوجدته أبيض. ثم تكرر هذا ثلاث مرات، فنهضت وذهبت إلى الأستاذ الإمام وحدثته بالأمر، فقال لي: ما دام العلم قد كف يده عنك، فكف

يدك عنه، واذهب واشتغل بالمعاملة. فذهبت وأخذت متاعي من المدرسة، وذهبت إلى الخانقاه، واشتغلت بخدمة الأستاذ الإمام. وذات يوم ذهب الأستاذ الإمام إلى الحمام وحده. فذهبت وصببت عدة أباريق من الماء في الحمام. وخرج الأستاذ الإمام وصلى وقال: من الذي صب الماء في الحمام؟ فقلت لنفسي ربما كان ما صنعتُه مجافياً للأدب، فالتزمت الصمت. فقال ذلك مرة أخرى، فلم أجب أيضاً. وعندما سأل للمرة الثالثة قلت: أنا. فقال: يا أبا علي، إن ما لم يدركه أبو القاسم في سبعين سنة أدركته أنت بدلو من الماء. وبقيت في خدمته أمدًا مشغولًا بالمجاهدة. وذات يوم ظهرت لي حال تحيرت في أمرها، فأخبرته بها، فقال لي: يا أبا علي، إن سلوكي ليس أعلى من هذا، وكل ما هو أعلى من ذلك لا أستطيع معرفته. فقلت لنفسي أنا في حاجة إلى من يرشدني إلى الطريق، ويرفعني إلى مقام أعلى من هذا. وأخذت تلك الحال في الازدياد. وكنت قد سمعت بأبي القاسم الجرجاني، فنهضت وتوجهت إليه في «طوس». ولم أكن أعرف مكانه. ولما وصلت إلى المدينة، سألت عنه، فقليل إنه يجلس في مسجد بمحلة «رودبار» بين مريديه، فذهبت إلى ذلك المسجد. وكان الشيخ أبو القاسم جالسًا هناك، فصليت ركعتين وتقدمت إليه، وكان قد أحنى رأسه، فرفعها وقال: تعال يا أبا علي، ماذا بك؟ فسلمت عليه، وأخبرته بما حدث لي. فقال: باركك الله، ولتبدأ من الآن، وإذا وجدت التربية الواجبة وصلت إلى مقام عظيم. فقلت لنفسي: هذا شيخي، وأقمت في خدمته. وبعد أمد طويل، أقبل عليَّ الشيخ أبو القاسم، وعقد لي عهده، وأخذ شأني بعد ذلك في الارتفاع.

ورغم أن هذا الشرح بعيد عن غرض الكتاب؛ فقصدنا هو حادثته مع الشيخ أبي سعيد وقصة إعطائه الخرقة، لكن ما دام قد خاض في ذكر بداية حاله فلم نشأ أن نترك ذلك الحديث.

قال السيد الإمام أبو علي الفارمدي: عندما كنت لدى الشيخ أبي القاسم اشتغلت بالرياضة والمجاهدة، ولم يكن الشيخ أبو القاسم قد أجاز لي عقد المجالس، وبعد أمد وصل الشيخ أبو سعيد إلى «طوس»، وذهبت إليه فقال لي: يا أبا علي، سوف يأذنون لك

بالحدث سريعاً مثل البغاء. ولم يمض وقت طويل حتى أذن لي الشيخ أبو القاسم بعقد المجالس، وبعد مدة وجيزة فتح عليّ في الحديث.

حكاية:

قال السيد الإمام أبو نصر العياضي السرخسي: كنت في «نيسابور» لتعلم الفقه، واحتملت المتاعب مدة في طلب العلم على يد السيد الإمام أبي محمد الجويني، وأجدت الخلاف ومذهب التعليق. وسمعت أن الشيخ أبا سعيد جاء من «ميهنة»، ويعقد المجالس، فذهبت إلى مجلسه على سبيل المشاهدة والاختبار. ولما وقع عليه بصري؛ تعجبت لهيبته ولباقته. وعندما أخذ في الحديث، أثر فيّ كلامه حتى أنني قلت لنفسي: ليس لي حيلة في الله وطريق الله الذي يتحدث عنه هذا الرجل، رغم كل ما بلغت من علم. وعليّ أيضاً أن أسلك هذا الطريق. وعندما طاف بنفسي هذا الخاطر، قال الشيخ على المنبر: يجب البدء. فعجبت لكلام الشيخ، وتساءلت لم قال ذلك، وظننته من قبيل المصادفة. وعندما انشغل الشيخ بالحديث مرة أخرى، جال هذا الخاطر بنفسي ثانية، فقال الشيخ: لا ينبغي تأجيل هذا الأمر. فلما تكررت كرامة الشيخ، ارتفعت الشبهة. وحينما أنهى الشيخ المجلس، ونهضت وذهبت إلى المدرسة لأحضر أمتعتي، وأنقطع لخدمة الشيخ؛ ذهب رجل إلى السيد محمد الجويني، وأخبره بالأمر، فجاء إليّ في الحال وقال: إلى أين تذهب؟ فحدثته بالأمر، فقال لي: إنني لا أمنعك عن خدمة الشيخ، ولكنك ذهبت إلى مجلسه، ورأيت مبلغ اطلاعه وهيبته، وحسن حديثه وكراماته، وسوف ترى أكثر من ذلك حينما تزداد به علماً، وإذا كنت تظن أنك سوف تستطيع أن تكون أبا سعيد آخر فأنت مخطئ؛ لأنك لا تعرف ما مقام به من رياضة ومجاهدة. ونحن نعلم ماذا صنع حتى أدرك هذه الدرجة؛ ولو أن مائة رجل قاموا بنفس الرياضات التي كابدها، ما أعطاهم الله ما أعطاه. وستترك علمك طمعاً في هذا، وسوف تفقد علمك دون أن تدرك منزلته. فلما تمعنت قوله، رأيت أن الأمر كما يقول. وظللت على اعتقادي في الشيخ، وواصلت تحصيل العلم، وكنت أذهب إلى خدمة الشيخ، وأفيد من خدمته كثيراً، وكان الشيخ يتلطف في حقّي كثيراً.

حكاية:

قال الأستاذ إسماعيل الصابوني: كان النوم قد استولى عليّ ذات ليلة، ولما حان وقت النهوض لأقضي وردًا تعودت أداءه؛ أحسست بتراخ. وكنت قد وضعت كوزًا بجوار الفراش، فأوقعه قط. وتحيرت، وتراخيت مرة أخرى، ثم استغرقت عيني في النوم. وسقط حجر من السطح على (طشت) كان في وسط الدار، ففزع أهل بيتي وصاحوا: لص. فاستيقظت، ثم أخذت في قراءة الورد. وفي اليوم التالي ذهبت إلى مجلس الشيخ، فالتفت الشيخ إليّ أثناء الحديث وقال: عندما ينام المرء طوال الليل، ويتأخر في النهوض، يسלט قط على فأر ليسيل ماء الكوز حتى يتبدد نومه، ويؤمر بإلقاء حجر في وسط داره، فيقال لص؛ إنه لم يكن لصًا؛ بل كان رسولنا إليك، ليوقظك من النوم، حتى نتحدث إلينا ساعة.

«بيت»

أيها الحبيب ذو الوجه الجميل، لقد كنت فوق سطحك بالأمس،
فقلت «لص»، إنه لم يكن لصًا، بل كنت أنا.

ولما قال الشيخ هذا الكلام بكيت، وأدركت أن الشيخ لا يغفل عنا في أي حال من الأحوال.

حكاية:

قال السيد الشيخ أبو الفتح: إن الشيخ موسى حدثه بأن الشيخ أبا سعيد قال له يومًا في «نيسابور»: تقدم وصل ركعتين لنقتدي بك، واقرأ كل حمد في القرآن. قال الشيخ موسى: فعجزت؛ إذ كيف أستطيع أن أقضي هذا. وتقدمت بحكم إشارة الشيخ، وعندما كبرت جرى على لساني كل حمد في القرآن. ولما انتهينا من الصلاة قال الشيخ: يا موسى لقد كنت عاجزًا عن شكر الله فقامت عني بذلك، أحسن الله إليك.

حكاية:

قال أبو بكر مكرم: كان في «نيسابور» حاكم يحاسب الشيخ دائماً. وذات يوم أحضروا للشيخ سفظاً من العود، وألف دينار. فقال الشيخ لحسن: أعد بعض الـ «زيره با»^(١) والحلوى، وضع صفط العود في النار دفعة واحدة، حتى يصل نصيب من رائحته الطيبة إلى جيراننا أيضاً. وأعدوا وليمة فاخرة. وأقبل هذا الحاكم ليحاسب الشيخ وقال له: هل ترى أي إسراف يكون هذا في مثل هذا الوقت من الضيق والشدة؟ وأخذ يلومه ويزجره، فلم يجبه الشيخ. وغضب الصوفية لذلك. ورفع الشيخ رأسه ونظر إليه، وقال له: ادخل. فدخل الحاكم خطوتين. فقال الشيخ: تقدم أكثر. فتقدم خطوتين آخرين وبقي هكذا. ثم رجع في عسر، وجلس في مسجد بجوار الخانقاه. فأرسل إليه الشيخ درويشاً ليقوم بمساعدته، وظل مريضاً هكذا لمدة عامين ونصف ثم توفي بعد ذلك. ومن هنا قال العلماء والعظماء إنه لا ينبغي الجرأة والتطاؤل على الشيوخ والصوفية، ولا ينبغي الذهاب إليهم إلا في الوقت المحدد، وفي أدب واحترام؛ إذ إنهم تملكهم أحوال فإذا كانوا في حال من القبض ونظروا إلى أحد في قسوة، يحل به الدمار والعياذ بالله.

حكاية:

قال السيد إسماعيل بن مكرم: كنت أسير في طريق «نيسابور» يوماً. وكان الشيخ أبو سعيد يتقدمني، فسلمت عليه، ورد عليّ ردّاً طيباً. وأخذت أسير خلفه وأنا أنظر إلى أقدامه وركابه، وقلت لنفسي ليت الشيخ يأذن لي فأقبل قدمه. فأمسك الشيخ بعنان جواده حتى وصلت إليه، وأخرج قدمه من الركاب، وقربها مني، فقبلتها، ثم ساق جواده وذهب.

حكاية:

ذكر رشيد الطائفة عبد الجليل أنه كان بنيسابور رجل صوفي، محب للشيخ، لا يملك من متاع الدنيا سوى كرمه. وجاء يوماً ليدعو الشيخ والصوفية ليأكلوا من كرمته، فاعتذر

(١) نوع من الطعام.

الشيخ بأنه لا يستطيع. وكرر الطالب عدة مرات فلم يجبه الشيخ. وبعد إلحاح شديد، ركب الشيخ إليه ومعه الصوفية. ولم يكن لدى الرجل سوى قليل من الكرم، والصوفية كثير، فأكلوا العنب كله. وأخفى الدرويش عنقودين من العنب في سجادة، ووضعها في الكرمة بحيث لم يظهر منهما شيء. وعندما أتى الدراویش على العنب كله، نظر الرجل إلى الكرمة فلم يجد شيئاً. وقال له واحد من الدراویش: بارك الله لك. فقال لنفسه لقد مضت بركة هذا العام. وحين انصرف الشيخ، ورأى الرجل الكرمة خالية، غادرها وأغلق الباب ساخطاً، ولم يعد إليها طيلة ذلك الشتاء، ولم يذهب أيضاً إلى مجلس الشيخ. وفي السنة التالية عندما حل موعد إعداد الكرم، وأخذ الناس يصلحون كرماتهم، أحس الرجل بالخطأ، وقال لنفسه: يجب أن أعمار الكرمة، وما دمت ساخطاً عليها فلن يتحقق غرضي، وإذا كنت قد أذنبت، فقد أذنبت في حق نفسي. ثم نهض وذهب إلى الكرمة، وأخذ يطوف بها، فرأى سجادة جديدة في ركن من أركانها، ولما فتش فيها، رأى عنقودين طازجين من العنب أوراقهما خضراء. فسر بهما وقال: يجب أن أحمل هذا العنب إلى السلطان لينعم عليّ وعلى أطفالي. ثم وضع العنب في (طبق) وحمله إلى السلطان سوري. فسر به السلطان، وأمر بأن يملأ الطبق ذهباً ويعطى له. وفرح، وعرف أن ذلك بسبب مقدم الشيخ المبارك، وندم على ما فعل، وأخذ عشرة دنانير من ذلك الذهب، وجاء إلى الشيخ ليستغفره عما كان قد تملكه من السخط، ولما وقع نظر الشيخ عليه قال له: لو لم يأكل السلطان سوري من كرمك؛ لفاتك خير كثير. فسقط ذلك الدرويش على أقدام الشيخ، وتاب عما مضى، وعاد إلى محبته للشيخ.

حكاية:

عندما كان الشيخ في «نيسابور»، وكان يقيم تلك الولايم الفاخرة، جاء مقرئٌ دعيٌّ وقال له: أيها الشيخ، أريد أن أعتكف معك أربعين يوماً. ولم يكن ذلك المسكين قد علم بما زاوله الشيخ من الرياضة في البداية، وكان يظن أن الشيخ قد عاش على هذا النحو طيلة عمره، فقال لنفسه: فلأجبر الشيخ على الجوع، وأفضحه أمام الخلق، وأصل أنا إلى القمة.

وعندما قال الدعيُّ هذا الكلام للشيخ، قال له الشيخ: باركك الله، وألقى سجادته. وألقى ذلك الدعيُّ سجادته بجوار الشيخ، وجلس الاثنان. وكان ذلك الدعيُّ يأكل قليلاً، كما هو شأن المعتكفين، أما الشيخ فلم يكن يأكل قليلاً أو كثيراً، وكان يقيم الولايم الفاخرة في مقره. وبينما كان الشيخ يزداد نضارة وصحة، كان ذلك الدعيُّ يزداد كل يوم ضعفاً ونحولاً، وكان يرى تلك الولايم الشهية فينطوي على نفسه. وكان من الضعف، ينهض لصلاة الفريضة بصعوبة، وندم على هذا التحدي، وأدرك أنه لم يكن يعرف شيئاً. وعندما تمت الأربعون يوماً قال له الشيخ: لقد نفذت لك رغبتك، والآن يجب أن تفعل ما أقول. فقال الدعيُّ: الأمر للشيخ. فقال الشيخ: نأكل أربعين يوماً، ولا نذهب إلى دورة المياه. واتفقا على هذا. وأمر الشيخ بأن يحضروا طعاماً شهياً، وأخذوا يأكلان. وأقبل الدعيُّ على الطعام بجوع أربعين يوماً، واستوفى نصيبه منه. ومرت ساعة، وشعر بحاجة إلى الذهاب إلى دورة المياه، وكان الشيخ ينظر إليه في سكون. ولم يستطع الصبر ساعة واحدة، فسقط على أقدام الشيخ تائباً عن كل ما فعل. فقال الشيخ: بسم الله، اذهب الآن إلى دورة المياه، وافعل ما تريد، واجلس معي حتى ننفذ ما اتفقنا عليه. وجلس الدعيُّ مع الشيخ أربعين يوماً كاملة، وكان يذهب إلى دورة المياه كلما أراد، ولم يذهب الشيخ إليها أربعين يوماً كاملة، وكان يأكل ويرقص ويقيم السماع كعادته. ولما شاهد الدعيُّ تلك الحال، استغفر لما صدر عنه، وأصبح مريداً للشيخ.

حكاية:

كان في «نيسابور» محتسب من أصحاب أبي عبد الله الكرام، وكان منكراً للشيخ. وذات يوم أخذ عدة أثواب ليعطيها للغاسل ليغسلها. وفي الطريق مر بمجلس الشيخ، وكان الشيخ يتحدث، فقال المحتسب لنفسه: سوف أعود الآن، وأقول له ما يجب أن يقال لهؤلاء. وذهب وأعطى الأثواب للغاسل، وأعطاه درهماً. فقال له الغاسل: أعطني أكثر؛ لأن هذا ثمن الغاسول والصابون، وقد تنازلت عن أجر الغسل. فلكمه المحتسب عدة لكلمات، فبكى الرجل، ورجع المحتسب. وتصادف أن الشيخ كان لا يزال يتحدث،

فدخل من باب خانقاه الشيخ وقال له: أيها الشيخ، إلى متى النفاق والتظاهر بالورع؟ فقال الشيخ: ماذا يجب أن نفعل يا سيدي المحتسب؟ فقال: يجب ألا نتحدث في المجلس، وألا نقول الشعر. فقال الشيخ: إننا سنفعل ما تريد، ولكن يجب ألا يفعل السيد المحتسب أيضًا ما فعل وقت الفجر، فيأخذ الملابس، ويحملها إلى الغاسل، ويعطيه درهمًا، فيقول له أعطني ثمن الغاسول والصابون كاملاً فقد تنازلت عن الأجر، فيضربه بالدرة حتى يتألم ذلك الشيخ! إذا كان يلزمك غسل ملابسك فأحضرها، وأعطاها لحسن ليغسلها ويعطرها ويبعث بها إليك، حتى لا يتألم منك مسلم، ولا تحصل معصية. وعندما سمع المحتسب هذا الكلام خجل، وسقط على أقدام الشيخ، وتاب عن إنكاره وتحكمه.

حكاية:

قال السيد أبو الفتوح العياضي: سمعت من السيد حسين بن عباد الويشي قوله: كنت في مجلس الشيخ في «نيسابور»، وكان الشيخ يتحدث، وفكرت في والدتي وبلدي «سرخس». وفي الحال التفت إلي الشيخ وقال:

بيت من الشعر العربي

لتعجل على أمِّ عليك حفيّة تنوح وتبكي من فراقك دائبًا

فخرجت من المجلس، وتوجهت إلى «سرخس»، فوجدت والدتي في مرض الوفاة ووصلت وأدركتها، وتوفيت في اليوم التالي. وأدركت أن هذا كان السبب في قول الشيخ «لتعجل».

حكاية:

كان الشيخ يتحدث يومًا في مجلس في «نيسابور»، وكان في المجلس تاجر، كان قد فكر في نفسه أن يقود الشيخ إلى منزله، ويقدم إليه شيئًا من الحلوى «والزيره با». وفي أثناء المجلس التفت الشيخ إلى هذا التاجر وقال له: أيها الرجل أعط الحلوى «والزيره با» التي أعددتها لنا إلى حمال، ومره أن يسير بها في الطريق، ويضعها حيث يدركه التعب،

فذهب الرجل، وأعطى الحمال وعاء الحلوى، وظل يسير حتى أدرك الحمال التعب. وكان ذلك أمام باب منزل، فاتجه إليه وطرق الباب. فخرج شيخ وقال له: إذا كان معك «زيره باه» وحلوى بالسكر فادخل. فقال التاجر: إن هذا لمن أعجب كرامات الشيخ. ثم سأله: كيف عرفت أن معي «زيره با» وحلوى؟ فقال الشيخ: مضت عدة أيام لم نجد فيها طعاماً، ودعا طفل لنا في المهد قائلاً: يا إلهي امنح أبي وأمي وإخواتي «زيره با» وحلوى بالسكر، فاستجيب دعاؤه، وقد عرف الشيخ أبو سعيد بذلك فأرسلها لنا.

حكاية:

قال الشيخ أبو الحسن السنجاري: سمعت الشيخ أبا مسلم الفارسي يقول: عندما توفي الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في «نيسابور»، ذهبت إلى «ميهنة» لزيارة الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير قدس الله روحه العزيز وأرواحهم، وكان ذلك في بداية أمره. ولما وصلت «ميهنة»، ذهبت إلى الشيخ في المسجد، وكان الشيخ هناك، فأكرمني، وقال لأحد الدراويش: انظر هل يوجد شيء ليأكله؟ فذهب الدراويش وعاد يقول: لم أجد شيئاً. فقال الشيخ: يا فقير ما أفقرك. وأقمت عنده يوماً، ولما عزمت على العودة، طلبت من الشيخ أن يكتب لي شيئاً بخطه المبارك، ووضعت أمامه ورقة، فكتب بخطه:

«بيتان من الشعر العربي»

تقشع غيم الهجر عن قمر الحبِّ وأشرق نور الصبح في ظلمة العتبِ
وجاء نسيم الاعتذار مخففاً فصادفه حسن القبول من القلبِ

فأخذت الورقة وودعت الشيخ. وعندما كنت أتأهب للعودة قال الشيخ: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]. ورجعت وجئت إلى «فارس»، ومرت على هذا مدة طويلة. وفي وقت من الأوقات ذهب درويش من أصحابنا يدعى محمد كوهيان لزيارة الشيخ أبي سعيد في «خراسان»، فقلت له: عندما تصل إلى الشيخ، بلغه سلامي: وقل له: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. وذهب ذلك الدراويش، وزار الشيخ. وعندما رجع قال لي: عندما وصلت إلى «نيسابور» كان الشيخ أبو سعيد هناك، ولما

ذهبت للسلام عليه وقلت: «السلام عليكم» قال: وعليك السلام، ﴿وَتَرَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

حكاية:

قال الأستاذ الإمام إسماعيل الصابوني: عندما كان الشيخ في «نيسابور» كنت ذاهباً لزيارته يوماً، وفي الطريق سألت نفسي: ما تلك الأخبار التي كنت قد قرأتها مع الشيخ عند أبي علي زاهر في «سرخس»؟ وفي أي جزء هي؟ وأخذت أفكر في هذا. ولما دخلت على الشيخ وسلمت، نهض وضممني إلى صدره. ثم جلست فقال: يا أستاذ، ما الخبر الأول من الجزء الأول من تلك الأخبار التي سمعناها عند أبي علي زاهر في «سرخس»؟ فقلت: لا أدري ما دمت لم أطلع على هذا الجزء. فقال الشيخ: أول حديث هو «حب الدنيا رأس كل خطيئة». ثم قال الشيخ: ما الحديث الثاني؟ قلت: لا أذكر. فقال: الحديث الثاني هو «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». ثم قال: ما الثالث؟ قلت: لا أذكر. قال الشيخ: الحديث الثالث هو «كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئاً لغد».

قال الأستاذ إسماعيل الصابوني: عندما قال الشيخ هذه الأحاديث تذكرت أنها كانت كما قال، وعرفت أن تلك الخواطر التي طافت بنفسي في الطريق قد أظهرها لي الشيخ بكرامته كأنما يقول: هذا هو ما كنت تفكر فيه وأنت قادم إلينا، وأيقنت أن الشيخ يقف على أسرارنا تماماً.

حكاية:

قال الشيخ إسماعيل السناوي: جاء الشيخ إلى «نيسابور»، ولم أكن أترك مجلسه أبداً، وكان يردد فيه كثيراً من الشعر، وطالما أنكرت عليه هذا. وذات يوم نظر إلى الشيخ أثناء المجلس وقال: أنا أقول لك هذه: «قد عشقنا وكلنا يفنى» فزال عني ذلك الإنكار. وفي اليوم التالي ذهبت إلى مجلس الشيخ، وكان المقرئ يقرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَكْتُبُ وَلَا إِلَايْمُنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وردد الشيخ هذه الكلمة «ما كنت تدري»، فتملكني حال واحتلت كثيراً لأمنع نفسي من الاعتراض على الشيخ. ولما عدت

إلى المنزل انتابتنى حمى، فقلت لنفسي: سأبعث بشيء للشيخ. ولما فارقتنى الحمى في اليوم التالي، ندمت على هذا الخاطر. وبعد أن مضت عدة أيام، ذهبت إلى مجلس الشيخ ومعى قماش قد أخفيته. وفي المجلس طلب أحد الدراويش لباساً، فنظر الشيخ إليّ وقال: الحمد لله، إذ اصطحبت معك هذا القماش للدرويش، ولن تندم على ذلك كما ندمت في ذلك اليوم. فتملكتنى الحيرة، وأعطيت القماش وجميع ملابسى للدرويش.

حكاية:

وأيضاً حدث عندما كان الشيخ في «نيسابور»؛ أن كان جمع من الصوفية يسرون بصحبته، وكان اليوم سبتاً. وكان هناك رجل يهودي يسير إلى المعبد، وقد ارتدى طيلساناً وملابس حسنة، فرأى الشيخ من بعيد يسير مع الجماعة. ووهب الله تعالى لليهودي البصيرة ليرى عزة الشيخ وذل نفسه، ففر من أمام الشيخ لفرط خجله. وسار الشيخ خلف اليهودي، وظل يتبعه حتى بلغ اليهودي زقاقاً، ولم يجد طريقاً فاضطر للتوقف. ولحق به الشيخ، ووضع يده المباركة على مفرقه وقال:

«بيت»

لا ينبغي للراعي أن يقول: برد،

إذا أراد أن تطيب له الغربة والسير في الليل.

أيها المسكين، أطال الله بقاءك، كيف أنت من دونه، وكيف ستكون؟ وعندما قال الشيخ هذا ورجع، صرخ اليهودي، وأخذ يجري خلفه وهو يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» ولما أدرك الشيخ سقط على أقدامه، وجاء معه إلى الخانقاه، وأصبح من مجاوريه.

حكاية:

رُوي أنه عندما كان الشيخ أبو سعيد في «نيسابور»، كان كثير من اليهود والمسيحيين يسلمون على يده، كما كان كثيرون يسلمون أيضاً على يد أئمة «نيسابور»، وبخاصة الشيخ

محمد الجويني الذي كان شيخ ذلك العهد. وكان له وكيل يهودي، طالما عرض عليه الإسلام، فلم يستجب. وذات يوم قال له: إذا أسلمت أعطيتك ثلث مالي. فقال اليهودي: لا أبيع ديني بالدنيا. وألح عليه في ذلك قائلاً: إذا أسلمت أعطيتك نصف مالي. فقال: لا أبيع ديني بالدنيا. وفي المرة الثالثة قال له: إذا أسلمت أعطيتك ثلثي مالي. فلم يقبل أيضاً. فبئس الشيخ أبو محمد الجويني منه. وتصادف أن مر يوماً بمحلة «عدني كوبان»، وكان هذا الوكيل في صحبته. وكان الشيخ أبو سعيد يتحدث في المجلس في ذلك اليوم، فدخل الشيخ أبو محمد إلى المجلس، وقال الوكيل اليهودي لنفسه: فلأدخل أنا أيضاً إلى المجلس، وأسمع كلام هذا الرجل، وأرى ماذا يقول حتى جعل الناس يتزاحمون هكذا للاستماع إليه؛ وأعرف سر ما يلقيه من قبول لدى الناس. ولا يبدو عليّ ما يجعل الشيخ يظن أنني يهودي. وعندما دخل أبو محمد، دخل الوكيل خلفه، وجلس مخفياً خلف عمود. ولما بدأ الشيخ في الحديث التفت إلى ذلك العمود الذي يجلس الوكيل خلفه وقال: أيها الرجل اليهودي، اخرج من خلف العمود. ولم يستطع اليهودي أن يمنع نفسه من الاستجابة إليه، فنهض دون وعي، وتقدم إلى الشيخ، فقال له: قل أيها اليهودي. فقال الرجل ماذا أقول؟ قال الشيخ قل هذا:

«بيت»

كنت مجوسياً وأصبحت الآن مسلماً،

وكنت سيئ العهد وأصبحت عبداً طائعاً.

فقال اليهودي هذا البيت. ثم قال له الشيخ: اذهب إلى السيد الإمام أبي محمد ليعلمك الإسلام، وقل له إنك لم تعرف أن الأمور موقوفة على أوقاتها، فإذا دخل الوقت لا يحتاج إلى ثلث المال ولا إلى نصفه ولا إلى ثلثيه؛ لأن الأمور متوقفة على الوقت، فإذا ما حان الوقت لا يلزم إعطاء ثلث المال أو نصفه أو ثلثيه. فسر الشيخ أبو محمد وتاب عن تلك الرغبة.

حكاية:

كان أبو نصر الشيرازي رجلاً ثرياً من مشاهير التجار في «نيسابور»، يملك أموالاً طائلة. وعندما ارتفع شأن شيخنا أبي سعيد قدس الله روحه العزيز في «نيسابور»، وأصبح جميع أهلها يعتقدون فيه، صار أبو نصر أيضاً من جملة المعتقدين في الشيخ، وأخذ يدعو إلى الاعتقاد فيه. وكلما ذهب إلى الشيخ ورأى كراماته الظاهرة ازداد اعتقاداً. وذات يوم ذهب الشيخ مع جماعة الصوفية إلى الحمام في محلة «عدني كوبان»، وكان من عادته أن يتردد كثيراً على ذلك الحمام، وفي ذلك اليوم كان يرتدي عباءة صوفية، وقد عقد على رأسه عمامة فخمة أحضرها له أحد المريدين. ولما دخل الحمام كان هناك حلاق. وأسرع صاحب الحمام، وأحضر للشيخ إزاراً نظيفاً، وقدم له خدماته، وأظهر كثيراً من التواضع، وجلس على قدميه حتى نزل الشيخ الحمام. وعندما رأى الحلاق ما قدم صاحب الحمام للشيخ من تقدير وتبجيل، ورأى الجميع يشاركون صاحب الحمام ذلك، سأل صاحب الحمام، بعد أن نزل الشيخ مع الصوفية إلى الحمام: من هذا الرجل الذي كان يتزين؟ فقال صاحب الحمام: إنه الشيخ أبو سعيد شيخ الصوفية، وصاحب الكرامات العظيم. وكان الحلاق من أولئك الذين ينكرون هذه الطائفة فقال: إذا كان حقاً من أصحاب الكرامات فليعطني هذه العباءة الصوفية التي يلبسها، وهذه العمامة؛ لأنني تقدمت إلى عروس، وهم يريدون مني الصداق وأسباب العرس ليزوجوها لي، وأنا لا أملك شيئاً. ومضت ساعة، وحن الوقت لكي يحلق الشيخ شعره، وتقدم الحلاق لذلك. فقال له الشيخ: أيها الفتى خذ عني هذه الأشياء الثلاث: أولاً: عندما تحلق لشخص اغسل يديك وسترتك. ثانياً: عندما تحلق الشعر ابدأ من اليمين. ثالثاً: أن ترفع الشعر والقذارة التي وقعت على السترة حتى لا تقع عليها عين شخص. فنفذ الحلاق جميع أوامر الشيخ. ولما فرغ الشيخ من الحلاقة قال لحسن بن المؤدب: أعط تلك العباءة الصوفية والعمامة لهذا الفتى حتى يتأهب للزفاف. فسقط الشاب على أقدام الشيخ وبكى كثيراً.

قال حسن بن المؤدب: فتقدمت وأعطيته العباءة وأنا أفكر في أن الشيخ لا يملك ثياباً

غيرها، وأنه قد خلعها على الحلاق وسبقي عاريًا في الحمام. وعندما أعطيته العباءة عدت إلى الحمام وأنا مشغول حائر. وقال الشيخ؛ يا حسن لن نقول يقل لك ما لم يقل لنا، فسر واذهب إلى باب الحمام، فإن أبا نصر الشيرواني في انتظارك. قال حسن: فخرجت ورأيت أبا نصر الشيرواني على باب الحمام، وقد لف طاقم في سجادة صلاة، وسألني: يا حسن، هل الشيخ في الحمام؟ قلت: نعم، وقد أعطي ملابسه للحلاق وبقي عاريًا هناك. فقال أبو نصر: سبحان الله، لقد كنت أقرأ القرآن هذه الساعة فاستولى عليَّ النوم، فرأيت في نومي شخصًا اقترب مني وقال لي: انهض لأن الشيخ في الحمام، وقد منح ثيابه لشخص، وبقي عاريًا، فاذهب واحمل إليه ثوبًا. ولما استيقظت قلت إن هذا لا يمكن أن يكون إلا وهمًا، وعدت إلى قراءة القرآن. واستولى عليَّ النوم مرة أخرى، ورأيت نفس الشخص وقال لي نفس الكلام، فلم أصدق مرة أخرى. ثم غلبني النوم، فسحبت الوسادة ونمت ثانية. ولما استولى عليَّ النوم، جاء الشخص نفسه وصاح في قائلًا: يا أبا نصر أنت تدعي محبة الشيخ وأقول لك ثلاث مرات احمل ثوبًا إليه لأنه عار في الحمام فتنغافل؟ إنك إذا توانيت حل بك الدمار. فقفزت من شدة الخوف وأعددت الثوب وأحضرتة. وجلس أبو نصر على باب الحمام، ودخلت أنا وكان الشيخ يتوضأ، فأتم وضوءه، فتقدمت لمساعدته، وخرج الشيخ من الحمام ولبس الثوب. وكان أبو نصر يحمل ألف دينار ذهبي، فقال له الشيخ: ينبغي أن تعطي هذه النقود لصاحب الحمام، ولا يجب أن تقل عن هذا لأن صبيه سيتزوج، كما أن الأستاذ سيعد الحلوى أيضًا. فأعطينا النقود لصاحب الحمام. وسار الشيخ وفي صحبته أبو نصر حتى جاء إلى الخانقاه، ووقف أبو نصر نفسه لخدمة الشيخ، وأنفق كل ما يملك من مال وعقار في سبيله، وظل في خدمته طيلة إقامته في «نيسابور». ولما رحل الشيخ عنها إلى «ميهنة» أعطى جيبته الصوفية الخضراء للشيخ أبي نصر الشيرواني وقال له: ينبغي أن تكون خليفة لي، وأن تدق علمي في ذلك المكان. فذهب أبو نصر إلى «شيروان» وفق إشارة الشيخ، وبنى خانقاه لا تزال قائمة إلى اليوم، وتعرف باسمه، ووضع خرقة الشيخ في تلك الخانقاه، وأصبح شيخًا وزعيمًا لصوفية تلك الولاية. ولا تزال خرقة الشيخ باقية في تلك الخانقاه، وعندما يخرج الناس من المسجد يدخلون إلى

الزاوية لزيارة تلك الخرقة. وعندما يظهر قحط أو وباء، يخرج الأولياء تلك الخرقة إلى الصحراء، ويقومون بالدعاء، فيكشف الله سبحانه وتعالى بلطفه وعنايته وبركة الشيخ ذلك البلاء عنهم. ويسمى أهل الولاية تلك الخرقة «الترياق الأكبر». وقد أقيمت في تلك الولاية أربعمئة خانقاه معروفة بفضل بركة الشيخ قدس الله روحه العزيز.

حكاية:

جمعت هذه الحكاية بروايات كثيرة صادقة؛ فقد رواها البعض عن السيد أبي طاهر الخاتوني، والبعض عن السيد حسن بن المؤدب، وآخرون عن السيد أبي الفتح رحمة الله عليهم، وهي أنهم كانوا يقيمون السماع يومًا في خانقاه الشيخ في «نيسابور»، وظهر حال للسيد أبي طاهر أثناء السماع، فتقدم إلى الشيخ ملبئًا، وأحرم للحج. وعندما فرغوا من السماع، عزم السيد أبو طاهر على السفر إلى «الحجاز»، وطلب الإذن من الشيخ. فقال الشيخ للجماعة: سنرافقه نحن أيضًا. وقال العظماء والمشايخ: وما حاجة الشيخ إلى هذا؟ فقال الشيخ: للسعي إلى تلك الجهة. وصاحب الشيخ كثير من الصوفية. وعندما خرجوا من «نيسابور»، قال الشيخ: لو لم نسر ما استطاع أولئك الأعزاء تحمل ذلك الألم. ونظر الجميع إلى بعضهم متسائلين لمن يقول هذا الكلام. ولما وصلوا إلى الحي والمقر، أخبر رجل الشيخ أبا الحسن الخرقاني قدس الله روحه العزيز أن الشيخ أبا سعيد في طريقه إليه وسوف يصل غدًا، فسر كثيرًا. وكان للشيخ أبي الحسن ولد اسمه أحمد، يعزه كثيرًا. وكان أحمد هذا قد طلب يد فتاة، وتحدد موعد الزفاف في الليلة التي يصل فيها الشيخ إلى «خرقان». وفجأة قتل أحمد، وفصلت رأسه عن جسده، ووضعت على باب صومعة أبيه. وعندما حان وقت الصلاة، خرج الشيخ أبو الحسن من الصومعة، فعثرت قدمه برأس ولده. فنادى ابنه ليحضر مصباحًا. فأحضرت زوجته المصباح. ورأى الوالد رأس ولده فقال: يا روح أبيك! ماذا فعلت! وماذا لم تفعل؟! وفي الحال أحضر بعض الناس، فغسلوا أحمد، وكفنوه، وتركوه حتى يصل الشيخ. وتأخر الشيخ. وعند الضحى رأى الشيخ أبو الحسن درويشًا قادمًا فسأله عن الشيخ، ولماذا تأخر؟ فقال الدرويش:

إنهم تأخروا لأنهم ضلوا الطريق أمس، وإلا لوصلوا في نفس الليلة. فصاح فيه الشيخ أبو الحسن قائلاً: صه، إنهم لا يضلون الطريق؛ بل كانت هناك بقعة محرومة من السعادة، ظمأى إلى أقدامهم، فتضرعت إلى الله أن أبعث إليّ بأقدام الحبيب، حتى أفر بذكر ذلك غداً على البقاع الأخرى، فحقق الحق سبحانه وتعالى مطلب تلك البقعة، وأرسل الأعزة ليمسكوا بعنان ذلك العظيم، ويقودونه إلى تلك البقعة؛ لينعموا عليها بحضوره، وفصلوا رأس ابننا عن جسده في غيبته. وعندما سمع الدراويش ذلك، عاد وأخبر الشيخ بالأمر. فقال الشيخ: «الله أكبر». وأدرك الدراويش أن ما نفوه به الشيخ على باب «نيسابور»، كان إشارة إلى هذه الحادثة.

ولما وصل الشيخ إلى «خرقان»، وذهب إلى الخانقاه، كان هناك مسجد، وكان الشيخ أبو الحسن فيه، فنهض وتقدم لملاقاة الشيخ في منتصف المسجد، وتعانقا. وقال الشيخ أبو الحسن: لقد كان يلزم لذلك الجرح مثل هذا البلسم، وكان روح أحمد تليق قربانا لهذا المقدم. ثم أمسك الشيخ أبو الحسن بيد الشيخ ليجلس مكانه، فلم يفعل. وجلسا كلاهما في وسط المسجد. وتحدث الشيخ أبو الحسن إلى الشيخ، وقرأ المقرئون القرآن، وبكى الجميع وصرخوا. ثم أعطى أبو الحسن الخرقاني خرقة للمقرئين، وقال: لقد حان وقت الصلاة، والأحبة في انتظار. فأخرجوا النعش، وصلوا عليه. ودفنوا أحمد، وظهرت الأحوال في المقبرة. واختلف الصوفية الغرباء مع المقرئين قائلين لقد أعطانا الخرقة لنمزقها. وأخبر خادم الشيخ أبي الحسن سيده بذلك فقال: سلموا لهم هذه الخرقة وسأعطيكم خرقه أخرى لتمزقوها.

وأعدوا مكاناً للشيخ أبي سعيد ليختلي فيه. وأخذ الشيخ أبو الحسن يوصي أهل بيته واحداً واحداً ويقول لهم: إن هذا الرجل معشوق الحضرة الإلهية، ومطلع على الصدور، فاحترسوا حتى لا تحدثوا فضيحة. وظل الشيخ أبو سعيد في هذه المرة ثلاثة أيام عند الشيخ أبي الحسن لم يعقد خلالها مجلساً قط. وكان أبو الحسن يعرض عليه أن يتحدث فيقول له: لقد أحضرنا لنسمع فتحدث أنت. وقال أبو الحسن للشيخ: أنت من أحتاج إليه،

ولقد طلبت من الله تعالى أن ابعث إليّ واحداً من أحبائك، حتى أفضى إليه بهذه الأسرار. ولما كنت شيخاً ضعيفاً لا أستطيع القدوم إليك، وكنت أنت قوياً عزيزاً؛ فقد أحضروك إلينا، ولم يتركوك تذهب إلى «مكة»، فأنت أعز من أن يبعثوا بك إلى هناك، وأحضروا لك الكعبة هنا لكي تطوف بها.

وكانت أم أبي طاهر ترافق الشيخ في هذا السفر، وقد ذكرت أن الشيخ أبا الحسن كان يأتي كل صباح إلى باب المنزل، ويسلم عليها، ويقول لها: خذي حذرک فأنت تتحدثين إلى من اختاره الحق، لم تبق هنا بشرية ولا نفس، هنا الحق، هنا الحق. وكان يأتي في منتصف النهار إلى خلوة الشيخ، ويرفع الستار ويقول: هل تأذن لي بالدخول؟ فكان الشيخ أبو سعيد يقول له ادخل. وكان أبو الحسن يقسم على الشيخ أن يظل كما هو، ثم يدخل ويجلس على ركبتيه بين يديه، ويقول له: إنني أشعر بالآلام يعجز الأنبياء عن تحملها، وإذا أطلقت نفساً واحداً منها؛ لما استطاعت السماء والأرض أن تحتمله. ثم يضع رأسه على وسادة أبي سعيد ويقول كلاماً خافتاً ويكيان معاً. وكان الشيخ أبو الحسن يضع يده تحت ثوب الشيخ ثم يضعها على صدره وهو يقول: إنني أنزل يدي بما بقي من نور.

وذات يوم جاء قاضي تلك الناحية لتعزية الشيخ أبي الحسن. وكان الشيخ أبو سعيد هناك فقال: فلاذهب وأسلم عليه. وقال له الشيخ أبو الحسن: اذهب وكن على حذر. فذهب القاضي، وسلم على الشيخ، ورآه جالساً بين أربع وسائد مثل السلطان؛ وقد جلس درويش عند قدميه واحتضنهما، وأخذ يذلّكهما. فقال القاضي لنفسه: أين يوجد الفقر هنا؟ وكيف يمكن أن يكون هذا الرجل من الفقراء مع مثل هذا التمتع؟ إنه ملك وليس بصوفي أو درويش. وعندما جال هذا الخاطر في نفسه، رفع الشيخ رأسه عن الوسادة وقال: أيها الفاضل، من كان في مشاهدة الحق هل يقع عليه اسم الفقر؟ فصرخ القاضي صرخة، وفقد الوعي، فأخرجوه. وقال له أبو الحسن: لقد قلت لك احذر لأنك لن تقوى على نظرتة. فقال الرجل: لقد تبت، ثم فقد الوعي مرة أخرى، وظل هكذا يوماً وليلة. وبعد

ذلك دخل الشيخ أبو الحسن على الشيخ أبي سعيد وقال له: أيها الشيخ، لقد نظرت إلى القاضي نظرة هيبة، فانظر إليه نظرة رحمة حتى يفيق. فأجابه الشيخ إلى طلبه، وتلطف إلى القاضي قبل أن ينصرف.

وقال الشيخ أبو الحسن للشيخ: إننا نرى الكعبة تطوف حولك كل ليلة، ولست في حاجة إلى الذهاب إليها، فعد لأنك أحضرت لكي تدركنا. وقد حجبت الآن وعبرت بادية هموم أبي الحسن، وسمعت تلبية ضراعتة، وذهبت إلى عرفات صومعته، ورأيت رجم نفسه، وقدم أبو الحسن القربان لجمالك، وصليت على يوسفه، وسمعت تأوهات أحزان المحترقين؛ فعد لأنك لو لم تفعل ذلك لما بقي أبو الحسن، فأنت معشوق العالم. وقال الشيخ: سنذهب إلى «بسطام» ونقوم بالزيارة ثم نعود. فقال أبو الحسن: لقد قمت بالحج، وسوف تقوم بالعمرة.

وذهب أبو سعيد بعد ثلاثة أيام إلى بسطام. وعندما وصل إليها وجد مرتفعاً يمكن رؤية قبر بايزيد البسطامي قدس الله روحه العزيز من فوقه. ولما وقعت عين الشيخ على القبر توقف، وطأطأ رأسه ساعة، ثم رفعها وقال: كل من فقد شيئاً يُعطى له هنا. ثم زار «بسطام». ويقول حسن بن المؤدب: عندما وقف الشيخ على قبر بايزيد كنت واقفاً خلفه. فطأطأ رأسه ساعة أمام القبر ثم رفعها وقال: هنا مكان الأطهار لا مكان الأشرار.

وأقام الشيخ في «بسطام» يوماً وليلة، ورجع من هناك إلى «دامغان»، وظل فيها ثلاثة أيام، ثم أخذوا أهبة الطريق. وكان في خدمة الشيخ مائة رجل أقاموا في رباط حتى رحلوا عن هذه الناحية، كما كان معه أيضاً كثير من الشيوخ. وبعد أن قضوا صلاة العصر، أقاموا السماع حتى الليل، وكان القوال ينشد هذه الرباعية:

لقد انبعث صوت، تأمله.. إنه صوت حبيبي

فأنا أعرف من الذي يتألم لألمي

ها هو وعلى وجهه ثلاثمائة وردة حمراء

فلأنهض ولأقطفها لأن قطاف الورد صناعتي

وكان للشيخ جوادان يركب أحدهم ويحمل متاعه على الآخر، فأرسل للقوال يقول له: لك أحد الجوادين. وعندما أدوا صلاة العشاء طلب الشيخ الجواد وقال للسيد أبي طاهر: ادع الصوفية إلى «صلوة»، وهي قرية بجوار «خراسان». وركب الشيخ وقال للصوفية: اتبعونا غداً. وذهب هو وحسن بن المؤدب في صحبته ومعهما صاحب الركاب ودرويش. ولما وصلوا إلى بوابة المدينة وجدوها مغلقة. وكان المفتاح في قصر أمير المدينة، وقال لهم الحارس يلزم جواز المرور وإحضار المفتاح من قصر الأمير. ولم يكد الشيخ يسمع ذلك حتى صاح في حسن بن المؤدب قائلاً: انزع القفل. ونزع حسن القفل، فسقط طرفه، وفتحت البوابة. وخرجوا. ولما وصلوا إلى الصحراء، كان القمر لا يزال مختفياً، والظلام سائداً، قال حسن بن المؤدب: وكان الخوف يملأ قلبي. فقال الشيخ: يا حسن، قل شيئاً فقلت هذه الأبيات:

«شعر عربي»

وعد البدر لي بالزيارة ليلاً فإذا ما وفي قضيت نذوري
قلت يا سيدي ولم تؤثر الليـ ل على بهجة النهار المنيرِ
قال لا أستطيع تغيير رسمي هكذا الرسم في طلوع البدورِ

فاندمج الشيخ في السماع، وأخذ يصرخ حتى مضت ساعة من الليل، ثم هدأ، وطلب الطعام. لم يكن معنا شيء. وبدت قلعة من بعيد فقلت: لأذهب وأحضر بعض الطعام. وذهبت وطرقت باب القلعة. وجاء رجل إلى السور وقال: ماذا تريد؟ فقلت: هل من طعام؟ فربط ثلاثة أرغفة في شال عمامة وأدلاها، فأخذتها وأسرعت حتى لحقت بالشيخ، فقال: ماذا أحضرت؟ فقلت: أحضرت هذا، وكسرت رغيفاً وأعطيته كسرة منه، فأخذ لقمات ثلاث وأكلها وقال: دع الباقي لك. وعندما بلغ الليل منتصفه قال: لنم ساعة. فقلت: الأمر للشيخ.

وأنتحينا ناحية من الطريق ونزل الشيخ عن جواده. ولم يكن مع أحدنا سجادة صلاة لينام عليها. فسحبنا غطاء السرج، وألقيناه على الأرض، فوضع الشيخ كتفه عليه، ووضع

رأسه على حجري، وقدمه على ذيل الدرويش، واستراح بعض الوقت. ثم طلع النهار فذهبنا إلى قرية ونزلنا في قصر كبيرها. وقال الشيخ: قل لكبير القرية سيصل ضيوف الليلة. وحانت صلاة العشاء، ووصل الدراويش. وكان كبير القرية قد أعد لهم وليمة فاخرة، وأمضوا الليلة في ذلك المكان. ولم يقل الشيخ شيئاً سوى هذه العبارة: «لقد تعبتم وتألتم». وفي اليوم التالي أدوا الصلاة، وفرغوا من الأوراد، ثم طلعت الشمس، فجلس الشيخ والجميع بين يديه، والتفت إلى السيد أبي طاهر وقال له: لقد جئنا معك حتى هنا، وقد تم مرادنا، ولن نسعى أبعد من هذا، فما رغبتك؟ قال السيد أبو طاهر: ما دام مراد الشيخ قد تم فقد تم مرادي أيضاً.

وأخذ الشيخ يسأل الجماعة واحداً واحداً قائلاً: من يريد الذهاب من هنا؟ ومن يريد العودة معنا؟ ولم يكن هناك حرج على أحد فكان كل واحد يقول ما يريد. ثم قال الشيخ لمن أراد الذهاب إلى «مكة»: البسوا أحذية مرتفعة، وأعد لهم معدات الطريق، وسيرهم مسرورين.

ودعا الشيخ كبير القرية وقال له: نريد مكاناً طيباً. وكان له بستان جميل، فأقام فيه مأدبة دعا إليها الشيخ والصوفية، وأمضوا اليوم هناك في بهجة، وفي اليوم التالي رحلوا عنه. واجتازوا قريتين يقال لهما «أرزيان» و«نوشاباد» ليصلوا إلى صحراء «سبزوار» لأن الشيخ كان قد اعتزم ألا يعرج على «بسطام» و«خرقان» في عودته. وعند القرية الثانية استأجروا الدواب، ودفعوا بعض الأجر، وأعدوا معدات السفر على أنهم سوف يقضون أربعة أيام أو خمسة في الصحراء، وكان مع الشيخ جمع كبير.

وعلم الشيخ أبو الحسن بعودة الشيخ، ولما كان يخشى ألا يمر بخرقان؛ فقد أرسل إليه ثلاثة من الدراويش، وصلوا هذه القرية عند صلاة العشاء.

وكان الاتفاق قد تم على أن تأتي الدواب في وقت السحر، ويسيروا إلى الصحراء، ونام الدراويش جميعاً على هذه النية. وفي الليل، سمع حسن طرقةً منخفضة. وفتح الباب، فرأى الدراويش الثلاثة، فرحب بهم وأجلسهم. وسأل الشيخ: من الطارق؟ فأجاب حسن:

دراويش «خرقان». فقال: ماذا يقولون؟ قال حسن: لم أسألهم. فقال الشيخ: أحضر ضوءاً. فأشعل حسن شمعة ووضعها أمام الشيخ وقال له الشيخ: ادعهم. فتقدم الدراويش وسلموا عليه، وأبلغوه سلام الشيخ أبي الحسن، فقال الشيخ: وعليه منا السلام، ثم قال: بم يأمر الشيخ؟ قالوا: لقد أقسم أنك لن تمضي ما لم تره. فقال الشيخ أبو سعيد: سأنفذ أمره. ثم قال لحسن: أعطهم شيئاً ليأكلوا فقد جاءوا من بعيد، وابعث باثنين منهم ليطمئن الشيخ، واستبق واحداً ليذهب معنا. وإذا حضر أصحاب الدواب في الليل، فاعتذر لهم، وأعطهم الأجولة. فقال حسن: لقد جاءوا، وأعطيهم الأجولة، ولم أطلب منهم الأجر، وتركت لهم نفقات الطريق في الأجولة؛ لأن الشيخ لم يأمرني بشيء في هذا الأمر. وكان الصوفية يجهلون ما حدث، ويظنون أنهم سائرون إلى الصحراء في اليوم التالي.

وتوجه الشيخ إلى «بسطام» و«خرقان»، وجاء فارس فاضل من «بسطام»، فركب الشيخ معه. وكان مسروراً جداً في ذلك اليوم، وأخذ ينشد الشعر العربي. وقد ذكر ذلك الفارس أنه قد جرى على لسان الشيخ في ذلك اليوم أكثر من ألف بيت. وعارض الدراويش حسن في الطريق وقالوا: يلزم لنا شيء نأكله. فقال: الأكل في الجوال، وقد أعطيته لأصحاب الدواب. قالوا: هل تركت لهم الأجر أيضاً؟ فقال حسن: نعم، لأن الشيخ لم يأمرني بشيء في هذا الأمر. وظلوا يجادلون في هذا حتى مر بهم الشيخ، فسألهم: ماذا حدث؟ فقال حسن: إن الدراويش يقولون لماذا اعتذرت إلى أصحاب الدواب ما دمت قد تركت لهم الأجر والنفقات. فقال لهم الشيخ: كان يجب الاعتذار إليهم؛ لأن الحق تعالى كان قد أظهر لهم فضلاً ولكن هذا الفضل لم يتم؛ إذ كانوا يريدون أن يصحبوكم ويسيروا معكم، فلما لم تتم لهم هذه النعمة، أصبح كل ما سوى ذلك لا قيمة له، فكان لابد من الاعتذار إليهم. وكان الشيخ مسروراً جداً طوال اليوم الذي توجه فيه إلى «بسطام» وقال: كل من أضاع وقتاً في القدوم إلى هذا المكان، ووهبه بحرمة هذا المكان لله تعالى، يرد إليه وقته. وزار الشيخ «بسطام»، ثم توجه إلى «خرقان»، وأقام عند أبي الحسن يومين أو ثلاثة. وذات مرة سأل الشيخ أبو الحسن الشيخ أبا سعيد: هل هناك عروس لولايتكم؟ فقال

الشيخ: نعم، وهناك كثير من النظارة لهذه العروس لأنها أطهر عروس، ولكن بين هؤلاء النظارة عرش يتجلى فيه واحد فقط. وصرخ الشيخ أبو الحسن وقال: لقد كان كسرى يرى جميع أحواله في كأس الوهم.

وذات يوم كان الشيخ أبو الحسن والشيخ أبو سعيد قد جلسا معاً ومعهما جماعة من العظماء، فالتفت إليهم الشيخ أبو الحسن وقال: في يوم القيامة يحضرون جميع العظماء، ويضعون لكل واحد مقعداً تحت العرش، ويسمع نداء يكلم الخلق عن الحق، ويضعون مقعداً للشيخ أبي سعيد ليتكلم عن الحق بالحق.

وبعد أن مضت ثلاثة أيام طلب الشيخ أبو سعيد الإذن بالرحيل في اليوم الرابع، فقال الشيخ أبو الحسن: اذهبوا من طريق «جناشك» لأن هذا الطريق به بعض القرى، فيكون ذلك أيسر على الدراويش. وبعث ثلاثين درويشاً ليقوموا بخدمة الشيخ حتى يصل إلى «نيسابور»، وليحدثوه عن أحوال الشيخ في كل منزل. وخرج الناس وأبناء الشيخ أبي الحسن دفعة واحدة لتوديع الشيخ. وفي وقت الوداع قال الشيخ أبو الحسن للشيخ أبي سعيد: إن طريقك على البسط والفتح، وطريقي على القبض والحزن، فاهناً الآن وعش سعيداً، ولنحتمل نحن الآلام والهموم، فكل منا يقوم بمهمته. ثم أرسل الشيخ أبو الحسن من الرجال بقدر ما يستطيع في صحبة الشيخ، ليعودوا إليه بأخباره في كل منزل ينزل به حتى «جاجرم».

وفي اليوم التالي لرحيل الشيخ، كانوا ينظفون المكان في خانقاه أبي الحسن، ويرفعون الأغشية، فوجدوا في المكان الذي كانت به زاوية حسن بن المؤدب ورقة مطوية تحت الفراش، وفيها شيء. فحملوها إلى الشيخ أبي الحسن قائلين: لقد وجدنا هذه في ذلك المكان. فسألهم: ماذا بها؟ قالوا: لا نعرف. فقال لهم: انظروا إليه. فوجدوه ذهباً. فسألهم: في زاوية من وجد هذا؟ قالوا: في زاوية حسن بن المؤدب خادم الشيخ أبي سعيد. فقال: زنوه، فلما وزنوه وجدوه عشرين ديناراً. فقال لهم، قدروه جيداً لنعرف مقدار الدين. فوزنوه ثانية فوجدوه عشرين ديناراً. فقال الشيخ أبو الحسن: لننفقه فإن ماله مالنا، ومالنا ماله.

ورأى أبو سعيد قرية في الطريق، فنزلوا بها، وذهب الشيخ إلى الحمام، وكان من عادته عندما يذهب إلى الحمام أن يأمر للحارس بشيء، وكان حسن يحتفظ معه ببعض النقود لهذا الأمر. ولما أراد إعداد النقود، لم يجد تلك الورقة التي تركها في «خرقان»، فاستولى عليه الاضطراب. ولما رأى الشيخ ذلك سأله عما حدث، فأخبره بالأمر، فقال الشيخ: حيثما أنفق هذا المال فقد أنفق من أجلنا. وفي اليوم التالي وصل الخبر من «خرقان» عما وجدوه هناك. وما قاله الشيخ أبو الحسن بشأن ذلك، فقال الشيخ أبو سعيد: هو كما قال الشيخ أبو الحسن.

وظل مريدو الشيخ أبي الحسن في خدمة الشيخ أبي سعيد حتى «جأجرم» كما أمرهم شيخهم. ولما وصلوا إليها أعادهم الشيخ أبو سعيد وقال لهم: سنذهب من هنا إلى «نيسابور»، فبلغوا سلامنا للشيخ، وقولوا له: كن بقلبك معنا.

وعندما وصل الشيخ أبو سعيد إلى ولاية «كوروني» صادفتهم قرية، فأرادت الجماعة أن ينزلوا بها، فسأل الشيخ: ما اسم هذه القرية؟ قيل: «كلف»، فقال الشيخ: لا ينبغي النزول بها. ثم ذهبوا إلى قرية أخرى فسأل الشيخ عن اسمها فقالوا: «دربند» فقال: لا ينبغي النزول بها. ووصلوا إلى قرية ثالثة فسأل الشيخ ماذا يسمون هذه القرية؟ قيل: «خدشاد»^(١)، فقال: ينبغي أن يكون المولى مسروراً، ونزلوا في ذلك المكان. وكانت هناك خانقاه خالية، فتقدم خادمها واستقبلهم كما هي العادة، وقام على خدمتهم، وذبح لهم الخراف، وقال: سأشوي لكم الكبد أولاً حتى ينضج الطعام. وأعدت المائدة. وقال الشيخ: يجب أن يكون أكل الكبد أول خطوة. وعندما قال الشيخ هذا الكلام، عظمه الخادم وقال: أبقَ الله الشيخ، فقد قطعت القلب مع الكبد. فسر الشيخ وقال: إذا قطع القلب يكون طيباً، فأبو سعيد يطلب القلب. وأمضوا اليوم هناك، وفي اليوم التالي قصدوا «نيسابور».

وعندما وصلوا «نيسابور»، كان بعض الصوفية يقولون: منذ رحل الشيخ إلى «خرقان»

(١) «سرور المولى».

انقطعت أحاديثه ومقالاته وأحواله.

وكانوا يقولون ذلك الكلام؛ لأنه عندما ذهب الشيخ إلى «خرقان» لم يتحدث قط؛ بسبب أن الشيخ أبا الحسن كان قد قال له: أنت من أحتاج إليه، وقد دعوت الله تعالى أن ابعث إليّ واحداً من أحبائك أحدثه بأسرارك؛ فلما بعث شيخنا لهذا الأمر، تخلى عن الحديث. والدليل على هذا أنه حيثما وجد الشيخ أبو الحسن، كان شيخنا يرفض الحديث، ويقول له: تحدث أنت، فقد أحضرنا لنستمع.

ولما لم يكن الدراويش مطلعين على هذا الأمر؛ فقد كانوا يقولون هكذا. ولما علم الشيخ بمقالة الدراويش قال: «اشتأقت تلك التربة إلينا، فلما التقينا فنيينا في تلك التربة». وقد قال الشيخ هذا القول ردّاً على ذلك الاعتراض. وفي الحقيقة أنه عندما نتأمل هذا القول يتضح لنا ذلك.

هذا ما وصلنا عن ذهاب الشيخ إلى «خرقان»، وعودته إلى مدينة «نيسابور».

حكاية:

قال السيد الشيخ أبو الفتح رحمة الله عليه: إن مجيء الشيخ من «نيسابور» إلى «ميهنة» آخر مرة؛ كان بسبب أن اثنين من مريديه اختصما. وكان من عادة الشيخ أن يصمت إذا تشاجر اثنان، حتى يخرج ما بصدريهما، ثم يتحدث ويجمع بينهما، فإذا قال كلمته ثم الصلح.

وكان أبناء الشيخ وأحفاده جميعاً معه في «نيسابور» منذ أمد بعيد. وكانوا يدون الرغبة في الذهاب إلى «ميهنة». فلما وقع النزاع بين الدراويشين، وأصلح الشيخ بينهما؛ قال لأبي طاهر: انهض وهبي شئون الصغار لنذهب إلى «ميهنة»؛ فقد ضاق صدري. فنهض أبو طاهر واقترض قرصاً كبيراً، وهياً جميع الأمور، وأعد أربعين حماراً وأربعين رحلاً لأربعين درويشاً بحيث يتعهد كل درويش رحلاً، ويحافظ عليه. وكلف ثمانية من الدراويش لاستطلاع الطريق. وأمدهم أهل «نيسابور» بالكثير، طامعين في أن يتمتعوا برؤية الشيخ أكثر بعد أن يذهب أبناؤه وتقل مشاغله.

وفي اليوم الذي سير الشيخ فيه أبناءه، ركب هو جواداً، ووضع على ظهره عباءة، وفوق رأسه مزدوجة، وتقدمهم إلى بوابة «شوخنان»، ووقف هناك حتى مرت جميع الركائب أمامه واحدة بعد الأخرى. وأخذ يسأل عن صاحب كل رحل، ويوصيه بالحذر، حتى مروا عليه جميعاً. وكان آخر شخص مر أمامه هو السيد أبو الفتح.

قال السيد أبو الفتح: كنت حينئذ في الثامنة عشر، وجئت بين يدي الشيخ فسألني: أين دابتك؟ فقلت: سأذهب مترجلاً. فقال الشيخ: بلغ سلامنا لوالدتك، وقل لها: أكرمي الأولاد، وسوف نكون معكم بعد أربعين يوماً إن شاء الله، فقبلت أقدام الشيخ ومضيت. قال السيد أبو الفتح: لقد شهدت بنفسني هذا الجزء من القصة حتى هذه المرحلة. ولما جاء الشيخ إلى «ميهنة»، سمعت بقيتها من خواص خدمه. وقال السيد أبو الفتح: لم يأت معنا والدي السيد أبو طاهر، ورجع مع الشيخ من مكان الوداع، وذهبا إلى مدينة «نيسابور». وعندما وصل الشيخ إلى الخانقاه، لم يتحدث في المجلس في ذلك اليوم؛ لأن الوقت لم يكن مناسباً. وفي اليوم التالي أخذ مكانه في المجلس، وكان من عادة أبناء الشيخ أن يجلسوا على يمينه فوق المنبر، كما كان من عادة الشيخ أن يخرج من زاويته مع طلوع الشمس. وفي هذا اليوم خرج الشيخ، ووقعت عينه على مكان أبنائه فقال: أبناءنا، أكبادنا، لا أستطيع النظر إلى مكانهم دون حضورهم. وكان أبو طاهر قد اقترض قرضاً، فقال له الشيخ: يجب أن تعمل على رد القرض لنلحق بهم. وعندما تفوه الشيخ بهذا، ضاق صدر المريرين، وكذلك أهل نيسابور؛ إذ كانوا لا يودون فراق الشيخ. وبعد ذلك قضى الدين، وأخذوا أهبة الطريق، ودفع الشيخ القروض في الموعد الذي كان قد حدده من قبل، واستقامت الأمور.

وعندما هبأ الشيخ جميع الأمتعة، واستقر عزمه على الذهاب، جاء عظماء «نيسابور» وأئمتها ودراويشها ليتوسلوا إليه أن يبقى بينهم دون جدوى.

ولما آن موعد الرحيل، أقبل الشيخ أبو محمد الجويني والأستاذ الإمام إسماعيل الصابوني للشفاعة. ووصل الاثنان إلى باب الخانقاه، وأخذ كل منهما يطلب إلى الآخر

أن يتقدم أولاً، وفي النهاية أمسكا ببعضهما ودخلا معاً. وكان الشيخ قد جلس في مواجهة الباب، ولما دخلا وسلما عليه، أجلس أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره، وقرب الثلاثة رؤوسهم بعضها إلى بعض، وأسروا بينهم بعض الحديث، ولم يعرف أحد قط ماذا دار بينهم. وتحدثا كثيراً، وتشفعا كثيراً لعل الشيخ يعدل عن رأيه ويؤجل السفر، فلم يقبل الشيخ. وبعد أن طال الحديث قال الشيخ: حقاً إن هنا كثيرين يحتاجون إلينا، وهناك أيضاً كثيرون، وقد سلمت نفسي هنا حتى فاضت اليد بالخير. فقالا: أيها الشيخ إن «ميهنة» قرية صغيرة جداً، وقد قصرنا في حقك. فقال الشيخ: أنا الذي قصرت في حقكما. فخبجلا، وأدركا أن الشيخ لا يريد البقاء، فودعاه ورجعا. وأنجز الشيخ أعماله وذهب.

وكان بجوار الخانقاه دكان، وعندما كانوا يهيئون جواد الشيخ، خرج ووقف على باب الخانقاه، وقال للدراويش: لقد تركنا هذه البقعة كما وجدناها، ولم نفعل بها شيئاً قط. ثم قال هذا البيت:

حط طائر على رأس جبل ثم طار،

فانظر ماذا على الجبل أو نقص منه؟!

فقال جميع المريدين: لقد ازدانت هذه البقعة بجمالك. ووجد الجميع الراحة في ظلك، فعين واحداً يتولى أمر الخانقاه، ليجد الغريب الراحة بها. فقال: افتحوا الخانقاه، وأعدوا كل شيء، ومن أتاه رزق منكم فليحمله معه. أنا لم أترك لكم شيئاً معلوماً، والله تعالى يرزقكم بكل ما تحتاجون إليه.

وكان الأمر كما قال الشيخ، فلم يكن لهذه الخانقاه رزق معلوم قط. ومع ذلك فقد كان روادها أكثر دائماً من الخانقاهاات الأخرى في «نيسابور»، وكانت عامرة دائماً، وأكثر بركة وفتوحاً من جميع الخانقاهاات، بفضل أنفاس الشيخ وهمته المباركة. وظلت هكذا حتى غزا الغز مدينة «نيسابور» فخربوها.

وعندما ساق الشيخ جواده، وسار مسافة، قال لدرويش كان يسير في ركابه: هناك عظم فوق الخانقاه فعد وألق به بعيداً. وسمع جميع أئمة «نيسابور» وشيوخها -الذين كانوا في

وداع الشيخ - منه هذا البيت:

إن المكان الذي أراك فيه،

أذهب إليه وأعتكف به.

ثم ودع الشيخ الجميع، وسار صوب «عقبة رشك». وعثر جواده في حطام صندوق، فضغطت فخذ الشيخ تحت كتف الجواد وجرح. ففرشوا له ثوبًا، وأناموه عليه، وأمسك أربعة أفراد بأطراف الثوب، وأنزلوا الشيخ إلى عقبه، ووضعوه في هذا المنزل الوعر. وكان أحد الدراويش قادمًا من مدينة «طوس»، فلما رآه الشيخ استدعاه وسأله: من أين جئت؟ فقال: من «طوس». فقال الشيخ: وإلى أين تذهب؟ قال: إلى «نيسابور». فقال له: أذهب إلى خانقاه الصوفية؛ وبلغ الدراويش سلامنا، فقد نصحبونا كثيرًا بعدم الذهاب، وقل لهم إن الجواد قد عثر في الطريق ولكنه لم يسقطنا، وأنتم سوف تنسبون إلينا الكرامات. وحملوا الشيخ من «عقبة» إلى «طوس» على الأيدي أيضًا؛ لأنه لم يكن يستطيع ركوب الجواد. وكان الأستاذ أبو بكر من ولاية الأمر في «طوس»، فقال لأهل قرية يقال لها «رفيقان»: سأعفيكم من الخراج هذا العام لتصنعوا محفة للشيخ تحمله إلى «ميهنة». وصنعوا المحفة، وحملوا الشيخ فيها إلى «ميهنة»، وظل مريضًا عدة أيام ثم تماثل للشفاء.

حكاية:

حكى عن أبي الفضل محمد بن أحمد النوقاني أنه قال: كان الشيخ أبو سعيد قادمًا من «نيسابور» إلى «ميهنة». وعندما بلغنا الجبل، كان في صحبتنا رجل فقال لنفسه: ما هؤلاء الناس الذين يأكلون الكعك والحلوى والأطعمة الطيبة ويزعمون أنهم صوفية. فاطلع الشيخ بكرامته على سر ذلك الرجل. ولكيلا يحدث له شر بسبب ما أضمر في نفسه من اعتقاد في حق هذه الطائفة، أو يتطرق الخلل إلى دينه، دعاه الشيخ وقال له: اذهب خلف هذا الجبل وزودنا بالأخبار. فنهض الرجل، وذهب إلى حيث أشار الشيخ، فرأى حية ضخمة، فخاف وفر عائدًا إلى الشيخ. فسأله: ماذا رأيت؟ فحدثه الرجل بما رأى. فقال

الشيخ: لقد كانت هذه الحية رفيقة لنا سنين طويلة. فخبجل الرجل وسقط على أقدام الشيخ، وتاب عن ذلك القول.

حكاية:

رُوي أنه عندما كان الشيخ أبو سعيد قادمًا من «نيسابور» إلى «ميهنة»، نزل بمنزل في الطريق، وتناول الدراويش شيئًا من الطعام، وناموا. وعندما حان وقت الصلاة، وأذن المؤذن، توضأ الدراويش؛ وأدوا السنة. وأقام المؤذن الصلاة. فوقف الجميع وانتظموا في الصفوف، ما عدا درويش كان لا يزال نائمًا بسبب مشقة الطريق. ولما استيقظ، كان الجميع قد شرعوا في صلاة الفرض، فمنعه الخجل من أن يقول وظل نائمًا، وانتظر حتى يتفرق الجمع. وكان هناك لص قد دخل ليسرق شيئًا، ولما رأى الدراويش قد انشغلوا في الصلاة، وابتعدوا عن أمتعتهم، ورأى الملابس ملقاة، تقدم ليسرق منها شيئًا. ولما توسط الأمتعة، كان ذلك الدرويش مستيقظًا، فرفع حجرًا وقذفه به. فأدرك اللص أن شخصًا يراه، وفر هاربًا، ولم يستطع أن يسرق شيئًا. وكان الجمع يجهلون هذه الحال؛ لأن ظهورهم كانت للأمتعة أثناء الصلاة. وعندما سلموا، ورأوا الدرويش نائمًا، أنكروا عليه ذلك قائلين: انظروا إلى هذا الذي لم يؤد الصلاة. فقال الشيخ: كان يجب ألا يصلي حتى يحرس ملابسكم إلى أن تنتهي الصلاة. ولم يفهموا قول الشيخ. ولما اقتربوا من الأمتعة، وأطلعوا على حقيقة الأمر، أدركوا أن الشيخ قد قال ما قال عن طريق كرامته؛ أي أنه كان يقول لهم: لو لم يظل ذلك الدرويش نائمًا لسرق اللص الملابس، وبقي الجميع دون ثياب. فتابوا عن ذلك الإنكار.

حكاية:

رُوي عن جدي شيخ الإسلام أبي سعيد رحمة الله عليه أنه قال: كان الشيخ أبو سعيد يتحدث يومًا في المجلس فقال خلال حديثه «العلماء ورثة الأنبياء» وسوف أقول لكم كلامًا بحكم هذا الخبر. ثم قال: في هذه الساعة يأتي إلى «ميهنة» رجل يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله. أي أن كلام المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذي قاله في حق

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنقوله نحن أيضًا بحكم ميراث النبوة. ومرت ساعة وقال الشيخ: يا أبا طاهر أنت خادم للدراويش فقم واستقبل يحيانا. فقام السيد أبو طاهر وقام معه جماعة من الدراويش، وذهبوا للاستقبال. وأقبل درويش من نهاية الحي، يرتدي ثيابًا ملوثة ممزقة. ويحمل على كتفه قربة وكوزًا. وكان الشيخ جالسًا على المنبر. ولما رأى «يحيى» الوافد من ما وراء النهر الشيخ، جعل يحييه حتى وصل إلى دكان على باب روضته المقدسة. وكان منبر الشيخ على هذا الدكان، فلما وصل إليه دعاه الشيخ للجلوس، فجلس. وأخذ الدراويش وجميع أهل المجلس ينظرون إليه في ذهول. وعندما أنهى الشيخ المجلس قال: ينبغي أن يغتسل. فقادوا يحيى إلى شاطئ النهر ليغتسل، وأمر الشيخ بإحضار ثوب ليلبسه، وأقام لدى الشيخ ثلاثة أيام. وكان يجلس بين يديه كل يوم، والشيخ ينظر إليه أثناء الحديث. ويقول كلامًا آخر، ويحيى يقوم بتحيته. وفي اليوم الرابع نهض وقال للشيخ: أيها الشيخ إنني أفكر في المسير، يعني الحج. فقال له الشيخ: على بركة الله، أبلغ سلامنا لتلك الحاضرة. فحيا الشيخ، ومضى وهو يتراجع إلى الخلف، حتى لم يعد يرى الشيخ، فاستقام في السير. وأشار الشيخ للجميع ولأبنائه أن يخرجوا لوداعه، ففعلوا. وقال السيد أبو بكر المؤدب الذي كان يؤدب أبناء الشيخ، لقد قال لي الشيخ: اصحب الأبناء، واجتهد أن تسير معه وتنال تلك السعادة. فأسرعت ولحقته به، وسرت معه، وكنت آخر من ودعه، ثم رجعت. وفي السنة التالية في نفس الفصل، وفي نفس الموعد، قال الشيخ أثناء المجلس: انهضوا واستقبلوا يحيانا. فخرج السيد أبو طاهر مع الجميع إلى البوابة للاستقبال، فرأوا يحيى آتيًا، وعلى كتفه نفس القربة والكوز. وعندما رأى أبناء الشيخ حياهم، وجعل يحيى حتى مثل بين يدي الشيخ. وكان الشيخ على منبره فوق الدكان، فقبل يد الشيخ، وقبل الشيخ رأسه. ولما جلس قال الشيخ: يا يحيى، لا يمكن التخلي عن فتوح تلك الحاضرة، فحدث الجماعة عنها، وأفدهم. فرفع يحيى رأسه وقال: أيها الشيخ، لقد ذهبنا وسمعنا ورأينا ووجدنا ولم يكن الحبيب هناك. فصرخ الشيخ وقال: قل هذا مرة أخرى. ففعل. وصرخ الشيخ ثانية، وقال: قل مرة أخرى. فقال يحيى مرة ثالثة. فصرخ الشيخ ثم التفت إلى الجماعة وقال: ليس هناك صدق أعظم

من صدق هذا الرجل فاستمعوا إليه. ثم قال: يا يحيى لا ينبغي أن تكون هذه الفتوح دون شكر؛ فليكن شغلنا أن نشكر هذه الليلة، فأعدوا الزبيب والجزر المقلي وحلوى من الفانيذ المزعفر. فنهض حسن بن المؤدب والسيد أبو طاهر ويحيى ثلاثتهم وساروا وهم يفكرون في أنه من المتعذر أن تتوفر مثل هذه الأشياء بميمنة، وهناك ما يزيد على المائة شخص. قال حسن: عندما وصلنا إلى بداية السوق، كان هناك شخص يقول لآخر: هاك خادم الشيخ والصوفية الذين تبحث عنهم. فتقدم شاب وسلم علينا، وقال: كنا قادمين من بوشنج هراة مع قافلة كبير، فسطا علينا لصوص، ونذرت أن أعطي صوفية «ميمنة» حملاً من الزبيب إذا نجوت من أيديهم، فتعالوا وخذوه. فذهبنا معه. وجاء رجل آخر وسلم علينا، وقال: لقد نذرت أنا أيضاً أن أعطي خمسة دنانير ذهبية. فأخذنا الزبيب والفانيذ والذهب ورجعنا. وقابلنا السيد حمويه رئيس «ميمنة»، وكان مريداً للشيخ، فسألنا: من أين أتيتم؟ فحدثناه بقصة الشكر. فأعطانا هو الآخر مائتي مَن^(١) من الخبر. وعدنا إلى الشيخ بعد ساعة، وهياناً المأدبة وفق ما أشار به، وعم السرور الجميع. وأقام يحيى هناك ثلاثة أيام، ثم رجع إلى ما وراء النهر.

حكاية:

كان الشيخ عمرو البسخواني رجلاً عظيماً، على جانب كبير من الفضل، وقد جاور في «مكة» ثلاثين عاماً.

قال: طبقاً للخبر الذي يقول: «اليد اليمني لأعالي البدن واليد اليسري لأسافل البدن» لم تصل يدي اليمني تحت السرة طيلة ثلاثين عاماً، ولم تصل يدي اليسري أعلى السرة إلا لسنة. وله أعمال فيها احتياط أمثلتها كثيرة.

قال: عندما وصلت شهرة الشيخ أبي سعيد من «خراسان» إلى «مكة»، قال أهل الحرم من المشايخ: ما أحوجنا إلى شخص يخبرنا بأحواله، لنعرف أي رجل هو. ثم قالوا: ينبغي لهذا الأمر رجل ناضج، عالم، متصوف، من ذوي الأحوال. واتفق الجميع على الشيخ أبي

(١) وزن يساوي ثلاثة كيلوجرامات.

عمرو، ثم طلبوا منه الذهاب إلى «ميهنة»، واستطلاع الأخبار عن أحوال الشيخ. فسار الشيخ أبو عمرو حتى وصل إلى مدينة «طوس»، ثم غادرها إلى «ميهنة»، وكان قد اغتسل سبع مرات؛ فقد كان يغتسل من كل خاطر دنيوي يطوف بقلبه. ولما اقترب من «ميهنة»، كان الوقت ظهراً، وقد أذن للصلاة. وأدت الجماعة السنة، وكان المؤذن ينتظر إشارة الشيخ ليقم الصلاة. وقال الشيخ للمؤذن: هناك شخص قادم فانتظر لنعرف من أين، وإلى أين، ولیدرك صلاة الجماعة.

وكان الشيخ عمرو قد خلع نعليه حين صار على بعد فرسخ من «ميهنة». فقال الشيخ لأبنائه: اخلعوا نعالكم، واذهبوا لتستقبلوا شخصاً لم يصل إلى «ميهنة» من هو أعز منه. فخرج الدراويش وأبناء الشيخ لاستقباله.

ودخل الشيخ أبو عمرو، وصلى السنة، وحى الشيخ، وقضيت الصلاة جماعة. واختلى الشيخ به ثلاثة أيام وليال، وتحدثا كثيراً. وبعد ذلك استأذن الشيخ أبو عمرو في العودة، فقال له الشيخ: ينبغي أن تذهب إلى «بشخوان»، وتكون نائباً لنا في هذه الولاية. فرجع أبو عمرو إلى «بشخوان» عملاً بإشارة الشيخ. وعندما حان وقت الوداع، أعطاه الشيخ ثلاثاً من الخلال، كان قد قلمها بنفسه، وقال له: إذا أرادوا أن يبتاعوا منك واحداً من هذه الخلال الثلاث بعشرة دنائير فلا تبعه، وإذا طلبوه بعشرين دينار فلا تبعه أيضاً، وإذا أرادوه بثلاثين ديناراً وهنا أمسك الشيخ. وودع الشيخ أبو عمرو الشيخ أبا سعيد ورحل. ولما وصل «بشخوان» نزل في الخانقاه -وحيث توجد الآن خانقاته كانت هناك حجرة جعلوها خانقاه- وتقرب إليه أهل «بشخوان» و«نسا». وكان يقيم في كل خميس خاتمة في هذه الخانقاه، وكان مريدوه وأهل القرية يتجمعون هناك، كما كان جميع المعارف من القرى القريبة من بشخوان يظهرون له محبتهم. وقد ألفوا حين تنتهي الخاتمة، أن يطلب أبو عمرو كوزاً من الماء، ويغسل فيه واحداً من الخلال التي أعطاهها له الشيخ. وكانوا يحملون ذلك الماء إلى مرضى الولاية، فيمن الحق تعالى عليهم بالشفاء ببركة هذين الشيخين.

وفي ذلك الحين كان في «بشخوان» رئيس مصاب بمرض القولون. وذات ليلة آلم الداء رئيس «بشخوان» ولم يهدأ الألم، فجاء شخص إلى الشيخ أبي عمرو وقال له: يقال إن لديك خللاً تغسله، فيجد المرضى في مائه الشفاء، فأعطني قليلاً منه لأحمله إلى الرئيس. فبعث إليه الشيخ أبو عمر بقدر من الماء، ولما شربه وجد الشفاء. وفي اليوم التالي ذهب الرئيس إلى الشيخ أبي عمرو وقال له: من المعروف أن لديك ثلاثاً من الخلال فبعني واحداً. فقال الشيخ: بكم تشتريه؟ فقال الرئيس: بعشرة دنانير. فأجاب: إنه يساوي أكثر. فقال: بعشرين ديناراً. فقال لا أبيع. فقال: بثلاثين ديناراً. فقال إنه يساوي أكثر. فصمت رئيس «ميهنة» ولم يزد على ذلك. فقال الشيخ أبو عمرو: لقد توقف شيخنا أبو سعيد عند هذا. وأخذ منه الثلاثين ديناراً، وهدم تلك الحجرة، وبني بذلك المبلغ الخانقاه الموجودة الآن. وظل الرئيس يحتفظ بالخلال طيلة حياته. ولما أشرف على الوفاة، أوصى بأن يكسروا ذلك الخلال، ويضعوه في فمه ويدفنوه به. أما الخلايان الآخران اللذان كانا في حيازة الشيخ أبي عمر فقد أوصى عند وفاته بأن يدفنوهما معه، فدفنا مع الشيخ أبي عمرو في قبره المبارك تنفيذاً لوصيته.

حكاية:

كان السيد أبو القاسم الزراد من مريدي الشيخ، وقد قام بكثير من الأسفار والرياضات. قال: خرجنا من «الكوفة» قاصدين «الحجاز» مع جماعة من المشايخ. وعندما خرجنا قال البعض: نسير على التجرد. وقال البعض الآخر: نسير على التوكل. وقلت لنفسني: يا أبا القاسم كن يقظاً وسر كما تريد. وعزمت على أن أرجع كل خطوة لا أخطوها على اليقظة، وتركت البادية على هذا العزم. ولما عدت، كنت أقضي الليل واقفاً في مسجد الشيخ، وأؤدي الصلاة خلفه، بحيث أضع وجهي وراء قدميه. وحينما أقبل الليل، توضأت، فألفيت نوراً في باطني، وسررت لذلك سروراً عظيماً. وفي وقت السحر توضأت مرة ثانية، وتضاعف ذلك النور، فازددت سروراً، وقلت لنفسني: لقد وجدت ما كنت أبحث عنه. وعند الفجر خرج الشيخ من الخانقاه، فتقدمت إليه على نية

أن أحدثه بما حدث لي في الفجر، فقال: هل تقول أم نقول نحن؟ قلت: ليتفضل الشيخ. فقال: ليس ذلك الشيء هو الذي يرون به الطريق، إنما هو من بركة الوضوء؛ لأن الرسول ﷺ قال: «الوضوء على الوضوء نور» فذلك هو نور الوضوء فلا تغتر. فعدت إلى وعيي، وتبت عن ذلك التفكير.

حكاية:

عندما خرج آل سلجوق من نور بخارى، وجاءوا إلى «خراسان»، واستقروا في «باورد» و«ميهنة»، تجمع حولهم كثير من الناس، واستولوا على أكثر «خراسان»، بسبب غفلة مسعود، سلطان ذلك العهد، عن الملك، وانشغاله بالملذات والمفاسد.

وتلك قصة مشهورة، وليس غرضنا ذكرها، وإنما الغرض هو ذكر شيخنا؛ لأن في شرح هذه القصة طولاً للكتاب، وبعداً عن الغرض.

وأرسل السلطان مسعود إليهم رسولاً يتهدهدهم، فكتبوا له رسالة يقولون فيها إن الأمر لله وهو يفعل ما يريد. وعرف الشيخ ذلك بكرامته. ولما جاء الإخوان جفري وطرغرل لزيارة الشيخ في «ميهنة»، وكان جالساً مع جماعة من الصوفية في روضته، تقدما إلى منبره، وسلموا عليه، وقبل يده، ووقفوا بين يديه. فأحنى الشيخ رأسه إلى الأمام لحظة ثم رفعها وقال لجفري: لقد منحناك ملك «خراسان»، ومنحنا طغرل «ملك العراق». فحيّاه الاثنان ورجعا. وبعد ذلك قاد السلطان مسعود جيشه وذهب لقتالهما. وحين وصل إلى «ميهنة»، أقام على باب القلعة. وذهب الشيخ والناس إلى القلعة. وكان في «ميهنة» خلق كثير بحيث علق البائع أربعين ميزاناً في رباط القوافل. كما كان بالقلعة واحد وأربعون رجلاً من مهرة الرماة الذين يصيرون الهدف دائماً، ولا يخطئون قط، فأهلكوا وجرحوا كثيراً من مشاهير جيش السلطان.

قال حسن بن المؤدب: ذات ليلة بعد أن أدينا صلاة العشاء، قال لي الشيخ: اذهب إلى «بادنة»، وهي قرية صغيرة على بعد فرسخين من «ميهنة»، وبلغ سلامنا إلى السيدة العجوز «فلانة»، وقل لها ابعتي بذلك القدر من الزيت الذي تحتفظين به لنا.

قال حسن: فأنزلوني عن حائط القلعة بحبل، وتسلفت من بين -العدو- بحيث لم يرني أحد. وذهبت إلى «بادنة»، وأحضرت الزيت. وفي وقت السحر عدت إلى أسفل القلعة، ورفعوني إليها بحبل، وذهبت بالزيت إلى الشيخ. وصلى الشيخ الفجر ثم خرج وجلس على مقعد، وأمر بأن توضع المواقد في وسط القلعة. ووضعت الآنية فوقها، وصبوا في كل إناء جزءاً من الزيت. وأخذ الزيت يغلي دون أن يعرف أحد ما غرض الشيخ من ذلك. وظل القتال مستمراً، ثم عرض الصلح، وقبله الفريقان. وخرج رئيس «ميهنة» من القلعة، فأنعم عليه السلطان. ثم دخل الرئيس، وأخرج الرماة الواحد والأربعين من القلعة. وأصدر السلطان أمره بقطع اليد اليمنى لكل منهم. فكانوا يتقدمون، ويضعون أيديهم المقطوعة في الزيت المغلي، والشيخ يبكي ويقول: لقد قطع مسعود يد ملكه. وبعد أن أصدر السلطان أمره بهذا العقاب رحل إلى «مرو». وعلم آل سلجوق بمجيئه إليها، فذهبوا إلى هناك، وقاتلوه وانتصروا عليه، وبذلك انتقل الملك من أسرة مسعود إلى آل سلجوق. وجلس جفري على العرش في «خراسان»، وملك طغرل «العراق» على نحو ما قال الشيخ.

وقد جرى على لسان الشيخ في مجلس من المجالس قوله: جاء الأمير طغرل إلى «ميهنة» يوماً، ونزل في هذه الصحراء. وكانت وسادته سرج جواده، وفراشه لبد السرج. وأرسل شخصاً إلى هذه القرية يقول: نحن أناس غرباء، وقد نزلنا ضيوفاً عليكم في هذا المكان، فابعثوا إلينا ببعض الدقيق. ولما أحضروا له الدقيق، أخذه وذهب إلى «سرخس». وكان في «سرخس» جماعة من أتباعه فقال لهم: نأخذ منكم أولاً، فكان ينزل كل من يتقدم إليه، ويستولي على جواده. وقد انقاد له الآخرون.

وفي ذلك الوقت بعث إليه سوري برسالة يقول فيها: ما هذا الذي تفعلون إنكم بذلك تضطروننا للحضور، والقبض عليكم. فأرسلوا إليه رسولاً يقول له: ليس الأمر لنا أو لكم، إنما الأمر لله عز وجل، وسوف يكون ما أراد الله. فقلنا: سوف يكون لهذا الرجل العزة في الدنيا. والآن تم له الأمر واستولى على جميع «خراسان».

حكاية:

قال حسن بن المؤدب: كان الشيخ يسوق جواده يومًا في أحد الطرق، وكنت أسير ممسكًا بركابه كعادتي، فسمعت الشيخ يقول لنفسه بصوت منخفض: إني شيخ ضعيف، ولا قدرة لي، فاشملني بفضلك، واعف عني. ولم يكد الشيخ يقول هذا حتى عثر جواده، ووقع عن الجواد، ولكنه لم يصب بأذى. فقال: الحمد لله ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] وسجد شكرًا لله وقال: الحمد لله أننا سقطنا خلف الجواد. قال حسن: أدركت حينئذ أن الشيخ كان يتضرع إلى الله من أجل هذا؛ لأنه كان قد توقع هذا البلاء قبل أن يحدث، فأخذ يتضرع حتى سهل الأمر، ومر بسلام.

حكاية:

قال جدي شيخ الإسلام أبو سعيد: سمعت والدي السيد الشيخ أبا طاهر يقول: كان لأمي خال مسن في «ميهنة» يُدعى «شبوبي» وكان شيخًا معمرًا، قصير القامة، كثيف اللحية، فقيرًا، يعول كثيرًا من الأولاد، ومشغولًا دائمًا بكسب قوته، ولم يكن يترك مجلس الشيخ قط. وكان شيخنا كثير التألم والبكاء. وذات يوم اعتراه حال في مجلس الشيخ. ولما أنهى الشيخ المجلس، وانصرف الناس، وجلس في وسط المكان كصيد علق من حلقة. فقال له الشيخ أبو سعيد: أيها الشيخ، ماذا أَلَمَّ بك؟ فقال: لا أعرف. فقال الشيخ: ينبغي أن تعرف. وفي اليوم التالي قال الشيخ: اربطوا وسط الشيخ شبوبي، وارفعوا أكمامه، وأعطوه مكنسة ليكنس المسجد وينظفه. وأخذ شبوبي المكنسة، وذهب إلى المسجد. وكان رئيس «ميهنة» السيد حمويه عند الشيخ، قال: لقد خطر لي أنه لو فعل هذا العمل شاب لكان أكثر لياقة. وأدرك الشيخ ذلك بفراسته فقال لي: أيها السيد، إن هذا الشيخ يرغب في أن يكون صوفيًا، وإذا لم يسلك الطريق فلن يصل إلى مقصوده. فبكي شبوبي وقال: أيها الشيخ، إني رجل مسن ضعيف كثير الأولاد فارحمني. فأحني الشيخ رأسه ثم رفعها بعد برهة وقال اترك تلك المكنسة فقد تم الأمر. وقال والدي السيد أبو طاهر: وفي وقت الظهر أرادوا حمل قمح الصوفية إلى الطاحون، ولم يكن الأمر مستتبًا

في ذلك الوقت؛ إذ كانت فتنة التركمان في بدايتها، فسألت الشيخ: من الذي أبعث به إلى الطاحون؟ فقال: الشيخ شُبوبي. فبعثت به مع عدد من الدراويش. ولما ذهبوا إلى الطاحون، وأخذوا يطحنون القمح، جاء التركمان إليها، وطرقوا الباب، فلم يفتحوا لهم. ووقف الشيخ شُبوبي خلف الباب، وأغلقه بظهره. فأطلق أحد التركمان سهمه، فاخترق الباب، ودخل في ظهر الشيخ، وخرج من صدره، فاستشهد في الحال. وحملوه على حمار، وأحضره إلى «ميهنة»، ووضعوه على باب منزل الشيخ أبي سعيد. ولما رأى الشيخ لحيته البيضاء وقد تخضبت بالدماء، بكى وأخذ يقول: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ثم أقبل على جنازته. وفي اليوم التالي عقد الشيخ مجلساً على قبر شُبوبي.

قال رئيس «ميهنة» السيد حمويه: لقد خطر لي أثناء مجلس الشيخ، لماذا كان مقتل هذا الشيخ؟ فأدرك الشيخ أبو سعيد ذلك بكرامته، والتفت إليّ وقال: أيها السيد،

«رباعية»

لماذا تجيل النظر في الميدان
وفيه جراح الفيلة وأنفاس الأفاعي
وكل من ينزل إليه يسلم القلب والروح
فماذا يريد الأعزل من الطواف بقصر السلطان

وصلى الله على محمد وآله أجمعين. ثم مسح وجهه بيديه ونزل عن المنبر.

حكاية:

رُوي أنه كان في ما وراء النهر جماعة من الصوفية والشيوخ العظام، يعقدون المجالس دائماً، ويقولون أقوالاً طيبة في الطريقة. وكان لهم مقدم له كثير من المريدين، ولكل مريد منهم محب من أهل الدنيا، وقد أعد لهم جميعاً مكاناً في قصره. وقد اعتادوا حين يؤدون صلاة العشاء، ويفرغون من الأوراد، أن يجلسوا على السجاجيد، ويقضون الليل في

التفكير حتى يطلع النهار. وعندما ينتهون من صلاة الفجر، كان الشيخ يبدأ الحديث، وبجيب على كل مشكل، أو خاطر خطر لهم في تلك الليلة، ويقول ما ينبغي قوله. وكان خادم ذلك الجمع رجلاً يدعى عمران، وكان سالكاً متحمساً. وذات ليلة أخذ عمران يقول لنفسه: إنه لأمر عجيب حقاً، إذا طلبته يقول: أيها الوضع إلى أين تسرع؟ أظن أنك تلحق بي؟ وإذا لم أطلبه يقول: «وسارعوا». وإذا طلبت غيره يقول: «مشارك». وإذا تحولت عنه يقول: «مرتد». وأمضى الليل في هذا التفكير حتى طلع النهار. وفي الفجر بدأ الشيخ الحديث، وأجاب على مشاكل المريدين. ولما وصل إلى عمران، نهض وعرض مشكلته فقال: تراءى لشخص طلب، ف قضى عمره في الطلب تارة، وفي المجاهدة تارة، وأفنى أكثر عمره في الخدمة، ولم يظهر لذلك الطلب الذي لاح له مكان أو معنى؛ فما سبب ذلك؟ فأطرق الشيخ ولم يعرف جواباً لذلك المشكل. وفكر كثيراً، وفي النهاية رفع رأسه وقال: يا عمران، انتظر حتى يوم الجمعة عندما يحضر الشيوخ، فيتحدث كل منهم في هذا الأمر، فربما يتضح الجواب. وفي يوم الجمعة اجتمع شيوخ الولاية، وعرض عمران عليهم ذلك المشكل. وقال كل شيخ قولاً، ولكن الجواب لم يتضح، ولم يجد السائل شفاء، وتضاربت جميع الأقوال. وانتهى اليوم ولم يجب أحد على سؤال عمران، وصمت جميع الشيوخ. وصرخ السائل قائلاً: لقد أفنيت عمري في هذا الجنون، واليوم رأيت عظماء طريقتكم، فمزقت حجابي، وأظهرت دائي، لأعرف طبيب طريقتكم، فتركتهموني لهذا الداء، وقد تمزق حجابي. فتعالى الصياح من الجميع، وأمضوا تلك الليلة وهم جالسون يفكرون في ذلك الأمر، وظلوا في حيرة حتى الصباح. ولما طلع النهار، قال كل شخص ما تراءى له في تلك الليلة، فلم يجد السائل الشفاء أيضاً، ولم يتضح أي حل. وقال كبيرهم: ليس لدينا دواء لهذا الداء، إن دواءه عند رجل ظهر في «خراسان» يدعى الشيخ أبا سعيد بن أبي الخير، فاذهب إلى هناك، واطلب شفاء ذلك الداء، ولم نترق حتى يصلنا جواب المشكل. فنهض عمران، واتجه إلى الطريق، وأخذ يسير دون وعي؛ حتى أنه لم يفكر في طعام. ولم تقبل تلك الجماعة الصادقة الطلب أن ينشغلوا بشيء، ما لم يرتفع ذلك المشكل من الطريق. وعندما وصل عمران إلى «ميهنة»، كان الوقت

صباحًا، وكان الشيخ يتحدث في المجلس. فلما اقترب عمران، ورآه الشيخ، رفع رأسه وقال من أعماقه: ادخل يا عمران فقد جلسنا اليوم من أجلك. فحياه عمران ووقف بعيدًا. وقال الشيخ: ادخل يا عمران فقد جئت من مكان بعيد. فتقدم عمران إلى الشيخ، فقال له: أيها الدرويش، ليست جميع الأحوال متشابهة؛ فأنت إما أن تطلبه أو تطلب منه. وقد طلب منه أكثر من مائة وعشرين ألفًا من الرسل، ولو لم يأت محمد إلى الدنيا لما طلبه أحد. لقد كان محمد أول طالب له، والله تعالى شكره في ذلك المعنى فقال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] فإذا طلبته؛ فالطلب رد، والسبيل سد، والمطلوب بلا حد. وإذا طلبت منه، فلا يتم لك ما مضى حتى تقول كلامه، وتجلس مع أحبائه، وتسرع إلى تلبية ندائه. وقد ترك الآخرين في غفلة، وتركك على بابه. وجعل الآخرين ينشغلون بطلب الغير، وجعلك مشغولًا به وبأحبائه. فقال عمران: أيها الشيخ، أليس هو الكريم؟ فقال الشيخ: إنه «الكريم الذي يعطي قبل السؤال، ويعفو قبل الاعتذار». عد يا عمران فإن الجماعة في انتظارك. فحياه عمران ورجع. وسأل سائل الشيخ: وما حالنا نحن المذنبين؟ فقال الشيخ: أيها الشاب، إن الرسول ﷺ يقول: «إن الله وملائكته يترحمون على المقربين على أنفسهم بالذنوب». وأخذ عمران يسير حتى وصل إلى الشيوخ، فوجدهم قد جلسوا على حالهم في انتظاره. فأخبرهم بما كان من الشيخ، فاستمعوا إليه، ونهضوا وتوجهوا صوب «ميهنة»، وسجدوا على الأرض تعظيمًا للشيخ.

حكاية:

رُوي أن درويشًا خرج من «العراق» وجاء إلى الشيخ. ولما وصل «ميهنة» كان الشيخ في قرية «بادنة» على بعد فرسخين من «ميهنة». فلم ينتظر الدرويش في «ميهنة» وتوجه إلى «بادنة». ولما مثل بين يدي الشيخ، قبل قدميه، وسار في ركابه. وفي الطريق سأل: أيها الشيخ، ما حق الشيخ على المريد، وما حق المريد على الشيخ؟ فلم يجبه الشيخ في تلك الساعة. وعندما وصلوا «ميهنة»، وخرج الشيخ في اليوم التالي ليتحدث في المجلس، قال لذلك الدرويش: ينبغي أن تسير الآن إلى «غزنين»، وتذهب إلى فلان، وتطلب منه

مائة دينار ذهبي، ومنين من العود، من أجل الصوفية. فنهض الدرويش في الحال، واتجه إلى الطريق، وأبلغ رسالة الشيخ، وأخذ المائة دينار والعود ورجع. ولما وصل إلى مدينة «هراة»، ذهب مع درويش هروي إلى الحمام. وكان في الحمام غلام جميل، فتطلع إليه ذلك الدرويش، وأخبر الهروي بالأمر. فقال الهروي: يلزمنا شيء لنحضره إلى المنزل ونختلي به. فأعطاه الدرويش دينارين. ورتب الهروي الأمر، وأحضر الغلام. وجاء الدرويش، وأكلوا شيئاً واختليا به. وعندما أراد الدرويش أن يقصد الغلام، رأى الشيخ أبا سعيد يدخل من الزاوية، ويصيح فيه، فصرخ الدرويش، وفقد الوعي. وعندما عاد إلى رشده، نهض وتوجه إلى «ميهنة». ولما وصل إليها. كان الشيخ يتحدث في المجلس. فأسرع الدرويش إليه، ولما رآه الشيخ قال له: حق الشيخ على المريد هو أن تذهب إلى «غزنين» متى أشار إليك بذلك، لصالح الدراويش. وحق المريد على الشيخ هو أنه إذا وقعت في خطأ في الطريق، منعك عما لا يليق. فخلج الدرويش واستغفر.

حكاية:

قال السيد «عليك»: كنت في «نيسابور»، واشتقت لرؤية الشيخ، فأسرت بالخروج منها، وسرت حتى أتيت «ميهنة» في يوم وليلة. وعندما اقتربت من المدينة رغبت في أن أتوضأ، وأذهب إليها بوضوئي. ولما وصلت إلى نهر بجوار «ميهنة»، رأيت درويشاً مقبلاً. ولم أكد أنزع نعلي حتى قال لي الدرويش: إن الشيخ يطلب منك أن تحضر هكذا. قال السيد عليك: فذهبت إلى الشيخ عاري القدمين، وكان قد جلس على دكان في الروضة، فقال: أحضروا مقعداً حتى يضع نعله المنتزع فوقه. فأحضروا مقعداً، ووضعوه أمام الشيخ، ووضعوا النعل فوقه. وقال الشيخ: أحضروه، فحملوه إليه. وقبل الشيخ النعل، ووضعوه فوق رأسه، وأمسك به، ومسح وجهه فيه وقال: كل من يخطو خطوة في هذا الطريق يكون عظيماً. ثم قال: لقد أحضرك قبل أن تفكر في الحضور إلينا.

حكاية:

رُوي أن الشيخ أبا سعيد كان يعظ في المجلس يوماً. وحضر أحد الأدياء إلى

المجلس، وجلس خلف عمود، وأخذ ينظر إلى الشيخ. ورآه جالساً على المنبر بين أربع وسائد، وقد بدت كراماته واضحة للعيان. وأخذ الدعوي يشاهد حال الشيخ في الخفاء، وينكر عليه ذلك. فالتفت الشيخ إليه وقال: أيها الرجل الذي يجلس خلف العمود، انزع الإنكار من قلبك وتقدم إلينا. فخرج الرجل من خلف العمود وهو يصيح قائلاً: أي إله هذا. فرد عليه الشيخ قائلاً: لا تخطئ، بل قل: أي انقياد هذا. فصرخ الناس جميعاً، وتاب الرجل، وأصبح من مريدي الشيخ.

حكاية:

قال السيد أبو الفتح: عندما قمت بخدمة الشيخ، وكنت أشاهد حاله، وأسمع عن الرياضات التي مارسها، وأتصور أن هذه الحال ثمرة لتلك المجاهدات، فكرت في أن أمارس الرياضة في الخفاء. وقلت لنفسي: فلأمارس الاحتياط في اللقمة أولاً؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال للرسول: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، ولما كان العمل الصالح نتيجة للقمة الحلال؛ فإن من صالحه أن آكل من كسب يدي، ولا آكل من طعام الصوفية. ولم أكن أعرف طريقاً للكسب، أو أجيد عملاً. وكان بجوار الشيخ رجل طحان يدعى «ميرة». فذهبت إليه في الخفاء، وتعلمت منه نسج المكاتل. وفي ظهر كل يوم، عندما كان الشيخ يخلد إلى الراحة وقت القيلولة، وينام الصوفية أيضاً، كنت أخرج في الخفاء إلى الصحراء، وأحضر مقداراً من الخوص، وأقوم بنسجه، وأبيعه وأشتري بثمانه شعيراً، أطحنه على الرحي، وأصنع منه خبزاً. وأخذت أصوم دائماً، وعند الإفطار أجلس على المائدة مع الصوفية، وأخرج رغيف الشعير من كمي، وآكل منه في الخفاء، وأنا أحاول دائماً أن أبتعد عن مكان الشيخ على المائدة، حتى لا يطلع على هذه الحال. وأخذت أكثر من الوضوء والصلاة، وأنا أظن أنه لا يوجد شخص قط يطلع على هذا السر. ولم يحدثني الشيخ في هذا الأمر قط، حتى جاء الوقت الذي ترك فيه الشيخ «ميته» إلى «نيسابور». وحين وصل إلى «طوس»، كان بها سيد يقال له السيد «أبو طالب الجعفري» يحبه الشيخ كثيراً، ولا يتناول طعامه إلا معه. وعندما غادر

الشيخ «طوس» إلى «نوقان» وفي رفقته السيد أبو طالب حدث أن كانا جالسين يوماً على المنبر يتناولان الطعام، وكان في «طوس» زاهد، فلما سمع بمقدم الشيخ إلى «نوقان» جاء لتحيته. ولما دخل عليه وحياءه، أجابه الشيخ دون أن يلتفت إليه. فتألم الزاهد كثيراً لأنه أهين أمام الناس، وخرج حزيناً من عند الشيخ. فقال السيد أبو طالب للشيخ: أيها الشيخ، إنك لم تلفت إلى زاهدنا. فقال الشيخ: لا حاجة بنا إلى زاهد، لا حاجة بنا إلى زاهد. ثم قال: يا سيد، لا تتحدث إلى القرائين لأنهم غمازون، والله لا يأخذ الناس بأقوالهم، ولكنه لا يتركهم بأقوالهم. ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء القوم يشقون على الخلق. ثم التفت إليّ وقال: إذا ذهبت إلى الآخرة فلا تقل إنني مريد شيخي، لأنك تسير في طريق الزهد، وتعمل عملاً دون متابعة الشيخ. قال السيد أبو الفتح: عندما تفوه الشيخ بهذا سقطت على الأرض مغشياً عليّ من هول ذلك الكلام، وأخذت أستغفر الشيخ حتى سامحني وقال لي: ارجع عن ذلك. فقلت: رجعت. وسألني الجميع عما حدث، فقصصت عليهم قصتي. وتعجبوا كثيراً؛ إذ إن أحداً قط لم يقف على تلك الحال، باستثناء الشيخ الذي أدركها عن طريق كرامته.

حكاية:

كان السيد أبو القاسم الحكيم رجلاً عظيماً في «سرخس»، محترماً من الجميع، له كثير من المريدين. وعندما وصل صيت الشيخ إلى مدينة «سرخس»، أراد أهلها أن يتعرفوا على مكانة الشيخ. وكانوا قد جلسوا يوماً، وأخذوا يتحدثون عنه، فقال واحد منهم إنه رجل عظيم، وقال آخر إنه يملك داراً خلف الجبل - أي أنه قروي والقرويون ليس لهم شأن. وكان يحيى التركي رجلاً عظيماً فقال: ليس لكم أن تتحدثوا عنه دون علم، وسوف أذهب إلى «ميهنة» لأراه، وأعرف أي رجل هو. ثم توجه إلى «ميهنة». وخرجت الجماعة لوداعه وقالوا له: تأمله جيداً لتعرف أي رجل هذا الذي يصل صيته إلينا دائماً. وجاء يحيى إلى «ميهنة»، ولما وصل إليها كان الوقت فجراً، وكان الشيخ على المنبر. فلما دخل يحيى من باب المسجد، ووقع عليه نظر الشيخ، قال له: مرحباً يا يحيى، هل جئت لترانا؟ ينبغي

عليك الآن أن تتأملنا جيداً، ماذا قال لك دراويشك في تلك الساعة التي أتيت إلينا فيها؟ قال يحيى: ليقول الشيخ. فقال الشيخ: لقد قالوا لك تبين أي رجل هو. ثم قال الشيخ: اذهب وقل لهم إنني رأيت رجلاً ليس لكيسه رباط، وليس في خلقه خصومة. فصرخ يحيى وغاب عن الوعي. وعندما عاد إلى رشده، نهض مسروراً وذهب إلى أبي القاسم، وذكر تلك الحال للجماعة، فسروا جميعاً، وتوجهوا إلى «ميهنة»، وانخرطوا في خدمة الشيخ.

حكاية:

رُوي أن الشيخ قصد مدينة مرو. وكان السيد على الخباز خادماً للصوفية هناك، وكان الشيخ أبو علي سيّاه الجماعة. وعندما سمعاً بوصول الشيخ قال أحدهما للآخر: سيصل ذلك الطائر ويلتقط الحبة من أمامي وأمامك. وتحدثا ساعة ثم قالوا: يجب إعداد الترتيبات اللازمة، والذهاب لاستقباله. وهياً الشيخ أبو علي من الترتيبات ما يليق لتعظيم الشيخ؛ لدرجة أنه اشترى من أجل كلاب البلد حمارين ممتلئين وذبحهما. ولما سأله الخادم لماذا ذبحت الحمارين؟ قال: عندما يحضر مثل ذلك العظيم، فلا أقل من أن تنعم كلاب البلد أيضاً. ثم خرجنا لاستقبال الشيخ. وكان الشيخ يرغب في أن ينزل في رباط عبد الله المبارك، فقال الشيخ أبو علي سيّاه: نحن نخدم في كل سنة ألف بومة على أمل أن ينزل لدينا صقر، والآن نزل ذلك الصقر فلن ندعه ينزل في مكان آخر. وقال الشيخ: المروءة واجبة، والكل صقور، ولا يوجد بوم. فقال الشيخ أبو علي: لو لم يبين الشيخ لنا خطأنا لحل بنا الدمار. ودخل الشيخ المدينة، ونزل في الخانقاه، ثم صعد على المنبر، ووقف الشيوخ بين يديه، بينما اصطف الشباب أيضاً. وبدأ الشيخ الحديث، وشعر السيد علي الخباز بالغيرة. ثم دخل أبو علي سيّاه، ونظر إلى رجاله، ورأى شيخنا واقفاً على المنبر في عظمة وهيبة، فقال لنفسه: لو رآه الناس على هذه الحال، وسمعوا كلامه، لذهبت ولايتنا، وانفض عنا أهل «مرو». فالتفت الشيخ إليه في الحال وقال له: أيها السيد، اخرج إلى هذا السوق، فهم يطهون هناك «شاباطياً» طيباً،

فأحضر واحداً طيباً مثل وجهك. فخرج علي الخباز سريعاً وأحضر الشاباطي. فأخذه الشيخ، والتفت إلى الشيخ أبي علي سياه وقال له: لقد بعنا لك مدينة «مرو» وولايتها بهذا الشاباطي، ومنحناه لك أيضاً. وأعطاه الشاباطي، وخرج في الحال، ولم ينتظر قط. وألحوا عليه كثيراً لينتظر فترة؛ إذ كانوا يعدون المائدة، فلم يقبل. وذهب إلى رباط عبد الله المبارك. ووضع السيد علي الخباز المائدة في الصحراء، ولما فرغوا من الطعام، رجع الشيخ إلى «ميهنة».

حكاية:

قال والدي -والد المؤلف- نور الدين المنور: سمعت من السيد أبي الفتح أن الشيخ أبا سعيد كان يعظ يوماً فوق دكان الروضة. وفي أثناء الحديث قال: يهب نسيم من الخلد الأعلى، ولا يكون ذلك إلا في أقدام الدراويش. وانشغل بالحديث. ثم قال مرة أخرى: يهب نسيم من الخلد الأعلى ولا يمكن أن يكون ذلك إلا في أقدام الدراويش. ثم قال ذلك للمرة الثالثة. فنهض السيد حسن بن المؤدب وجماعة من الصوفية؛ لأنهم أدركوا أن هناك دراويش على وشك الوصول. وأخذوا يسرون حتى وصلوا مدخل القرية. وكان الشيخ قد أشار عليهم أن يتجهوا إلى اليمين، فساروا وفق إشارة الشيخ، فوجدوا الدراويش قادمين من ناحية «مرو». وعندما رأهم الصوفية، عانقوهم وعادوا معهم. ولما وصلوا إلى مكان الشيخ، قال لحسن: أحضر نعالهم. فأحضر حسن النعال إلى الشيخ، فأخذها ووضعها على رأسه وقال:

«بيت»

هذه هي التي ينبغي أن يحملها الإنسان ويضعها على رأسه،

وهذه هي التي تجعل الكبير أمامها صغيراً.

وصلى الله على محمد وآله أجمعين. ومسح وجهه بيديه، وختم المجلس. وانطلق الصياح من الخلق.

حكاية:

قال السيد أبو بكر المؤدب: كنت في خدمة الشيخ في «ميهنة». وفي يوم من أيام الربيع، سقط مطر كثير وسيل قوي. وعندما حدث هذا، خرج شيخنا وقت العصر وقال: يجب أن نصلي صلاة الاستسقاء. وخرج إلى الصحراء، وسرت مع الشيخ حتى شاطئ النهر. وقال الشيخ: انزلوا إلى الماء. فقفز الجميع في الماء. وبقيت واقفاً لخدمة الشيخ، ومعى ملابس نظيفة، وأخذت أنظر إليه. وفي أثناء ذلك، جاء حسن بن المؤدب من خلفي، ووضع رأسه بين ساقي، وحملني حتى شاطئ النهر، وألقاني في الماء. وتجاوز عمق الماء رأسي، ولم أكن أعرف السباحة. وحمل الماء عمامتي ونعلي، وبلل جميع ثيابي. وفقدت الوعي، ولم أشعر بنفسي أو بالدنيا. وأخرجوني من الماء وخفضوا رأسي، فخرج الماء من حلقي. وقال الشيخ: تنبغي صلاة الجنازة. فأحضروني، ووضعوني أمام الشيخ. وأخفى الشيخ وجهي بسجادة، واصطفت الجماعة، وكبر الشيخ علي أربع تكبيرات، وصلى صلاة الجنازة. ثم جلس عند رأسي، ورفع طرف السجادة عن وجهي، وقال: يا أبا بكر، قم بعد الموت وتحدث. وعندما قال هذا نهض، وأركبوه حماراً. وذهبت معه وحول وسطي مئزر، وتركت الجمع في ذلك المكان. وذهب الشيخ إلى الدار، ولم يخرج للمائدة في تلك الليلة. وفي اليوم التالي، جلس على المنبر ليتحدث. وقبل أن يبدأ الحديث، قال لحسن بن المؤدب: انهض، فنهض حسن. وقال له الشيخ: ينبغي أن تذهب إلى «بلخ»؛ فتذهب في اثني عشر يوماً، وتعود في اثني عشر يوماً، وتظل في «بلخ» يوماً واحداً، فتعود إلى هنا بعد خمسة وعشرين يوماً. وسوف يأتي أبو عمرو خشكويه من «نيسابور» إلى «بلخ»، فبلغه سلامنا، وقل له: نريد ثلاثة أمان من العود، وقرضاً قدره مائة دينار من أجل الصوفية، وخذاها وأحضرها إلينا. فذهب حسن بن المؤدب. وعندما وصل «زردك»، وكان ذلك في وقت غارة التركمان، فقبضوا على حسن، وضربوه، وهزأوا به، وقالوا له أنت جاسوس، وقيدوه بالأغلال يوماً وليلة، وصلبوه. قال حسن: وقد أحدثت على نفسي بسبب البرد والعناء، وتضرعت إلى الشيخ في منتصف الليل وقلت: أيها

الشيخ، أنقذني. فلما قلت هذا، خرج قائد التركمان من مقره في الحال، وفك القيد عن يدي، وبعث بي إلى خيمة، وأحضروا لي ماء ساخناً لأغتسل، وبعثوا إلي بتيابي لأرتديها. وقادني القائد إلى خيمته، وقال لي: أيها الجاسوس، عند من تعمل؟ فقلت: أنا تلميذ لزاهد «ميهنة» الشيخ أبي سعيد. فقال لي: صفه. فوصفت له الشيخ. فقال القائد: إن هذا الشيخ كما وصفت؛ لأنني رأيته في نومي الآن، وقد سحب سيفه، وقال لي: اترك هذا الرجل وإلا أهلكتك. فخفت وخلصتك، فاذهب حيثما تريد. فذهب إلى «بلخ»، وكان أبو عمرو خشكويه قد ذهب إلى «غزنين»، فرجعت إلى «ميهنة» بعد الخمسة والعشرين يوماً التي أشار إليها الشيخ. وكان الوقت فجرًا، والشيخ على المنبر، فقال للجماعة: لقد جاء حسن، فاخرجوا لاستقباله. واستقبلني أبناء الشيخ وجماعة المتصوفة في الصحراء. وجئت بين يدي الشيخ، فقال لي: مرحبًا يا حسن، هل تقول أم نقول نحن؟ قلت: ليتفضل الشيخ. فقال: لقد كنا نعرف أنك لن ترى أبا عمرو، ولكنك ذهبت، وقبض عليك التركمان في الطريق، وقيدوك، وتألمت، ولجأت إلينا فخلصناك. ثم ذهبت إلى «بلخ»، ولم تر أبا عمرو. قال حسن: فقلت أيها الشيخ، ما دمت قد عرفت أن هذا سوف يحدث، فلماذا أردت لي أن أتألم؟ فقال الشيخ: يا حسن، إننا لم نستطع أن نترفق بذلك الذي ألقى أبا بكر في الماء في ذلك اليوم، فكانت تلزم عصا التركمان لتعاقبه. قال حسن: وقد كانت كل هذه التعبئة من أجلي.

حكاية:

رُوي أن الشيخ أبا سعيد ذهب في وقت من الأوقات إلى «سرخس»، ونزل في خانقاه الشيخ أبي الفضل حسن. وكان خادم الخانقاه في ذلك الوقت يسمى أبا الحسن، ولم يكن للخانقاه رزق معلوم. قال الخادم: قلت لنفسني أيجيء شخص بهذه المرتبة، وجمع بهذه الكثرة، وليس لدي شيء أطعمهم إياه! وعندما جالت هذه الأفكار بخاطري، دعاني الشيخ وقال لي: يا أبا الحسن، اذهب إلى حانوت فلان الصراف في السوق، وقل له إن أبا سعيد يقول لك أرسل ثلاثين دينارًا. فذهبت إلى الصراف، وقلت له إن الشيخ يطلب

ثلاثين دينارًا. وعندما سمع الصراف ذلك، أعطاني في الحال ثلاثين دينارًا نيسابوريًا، وأمرني بالعودة. وفي اليوم التالي قال لي الشيخ: يا أبا الحسن، اذهب إلى الصراف، وخذ منه ثلاثين دينارًا أخرى، وأنفقها. ففعلت. وفي اليوم الثالث قال لي: اذهب إلى الصراف، وخذ منه ثلاثين دينارًا وحدها، وعشرة دنانير وحدها، وأنفق الثلاثين دينارًا، واستأجر بالعشرة دنانير حمارًا حتى «نيسابور». فذهبت إلى الصراف وقلت له: أعطني ثلاثين دينارًا وحدها، وعشرة دنانير وحدها. فقال الصراف: ما هذا؟ إنك لم تقل مثل هذا القول كل يوم. فقلت له: إن الشيخ ذاهب إلى «نيسابور»، وإذا كنت ستطلب النقود مني غدًا، فانهض واطلبها من الشيخ الآن قبل أن يرحل. فجاء الصراف معي إلى الشيخ، وكان الصوفية قد أعدوا الركائب وربطوا الأحمال، ووقف الصراف أمام الشيخ، فلم يقل له الشيخ شيئًا، وركب حصانه وسار. وأخذ الصراف يسير خلفه حتى بوابة المدينة. فلما خرج الشيخ من البوابة ضاق قلب الصراف. وعندما وصلوا إلى طريق «نيسابور» رأيت قافلة قادمة منها، وكان هناك رجل يسير أمام القافلة، فلما اقترب من الجماعة حياهم، وسأل: من هذا؟ فقالوا له إنه الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير. فتقدم الرجل إلى الشيخ، وحياه. فرد الشيخ تحيته، وقال له على الفور: أعط تلك المائة دينار، إلى الصراف. فأخرج الرجل صرة من الذهب، وأعطى الصراف المائة دينار، فأخذها. وقال له الشيخ: هل وصلتك نقودك؟ قال: أجل. فقال له الشيخ: اذهب. فقال الصراف: إنني لن أتحوّل عنك حتى تتقبلني. فقال له الشيخ: لقد تقبلتك. وانصلح أمر الصراف. ورجعنا من صحبة الشيخ.

حكاية:

كان القاضي سيف من جماعة القضاة والأئمة الكبار في «سرخس»، ينكر جميع أصحاب الرأي، والصوفية، والشيخ أبو سعيد إنكارًا شديدًا. وكان قاضيًا لولاية «سرخس»، يتمتع بمكانة كبيرة، وحرمة تامة، عندما كان شيخنا بهذه المدينة. وقد عرض أموالًا كثيرة على بعض الناس، ليقوم أحدهم بالقضاء على الشيخ، ولكن واحدًا منهم لم يجزؤ على التفكير في هذا الأمر. وكان الشيخ يجهل ذلك. وقبل رجل هذا العمل يومًا، فأعطاه

القاضي مبلغًا من النقود. وفي يوم من الأيام قرروا إهلاك الشيخ، وكان يعقد مجلسًا في ذلك اليوم، كما كان هذا اليوم نفسه موعد انعقاد مجلس القاضي. وأخذوا ينادون من فوق المآذن أن القاضي سيف سيعقد مجلسًا في المكان الفلاني فاحضروا. ولما سمع الشيخ صوت المنادي قال: توضأوا لنصلي على القاضي صلاة الجنازة. فتعجب الناس لأن القاضي سيف في صحة جيدة، وسوف يتحدث في المجلس؛ بينما الشيخ يقول توضأوا لنصلي عليه صلاة الجنازة. وبعد أن قال الشيخ هذا، استمر في الحديث. وفي ذلك الوقت كان القاضي سيف يغتسل في الحمام ليذهب للحديث في مجلسه. وقبل ذلك بعدة أيام كان أحد المزارعين قد أقسم يمينًا بالطلاق وخالفه، فأصدر القاضي حكمه بالترقية بينه وبين زوجته، وحبسه فترة، وأخذ منه النفقة، ومؤخر الصداق، وأمر بجلده. وكان المزارع قد أتى إلى المدينة، وأحضر منجلًا لحداد، فسنه له، وأخذه وسار عائداً إلى قريته. ورأى القاضي خارجاً من الحمام بمفرده، ولما كان قلبه مملوءاً بالحق على القاضي؛ فقد ضربه بالمنجل، وطعنه في بطنه طعنة تمزقت لها أحشاؤه، وهلك في الحال. وانطلق الصباح معلناً قتل القاضي، وكان الشيخ لا يزال يعظ في المجلس، فتعجب الناس كثيراً لما سبق من قول الشيخ. وقال الشيخ: يا إلهي! لقد حكم علينا، فمن كان هو بالنسبة لنا؟ وحكمنا عليه فمن كان هو بالنسبة لله!؟

حكاية:

قال الشيخ عمر الشوكاني إن السيد محمد والد الإمام مالك الشوكاني كان يملك أيام شبابه قباء وقلنسوة. وذات يوم كان الشيخ أبو سعيد جالساً، فمر عليه مرتدياً القباء والقلنسوة. ورآه الشيخ فقال: إن ذلك الشاب وديعة في هذا القباء. فأخبروه بذلك، فقال: إن الأمر كما ذكر الشيخ، فمنذ أمد بعيد وهذا الأمر يلح علي ويؤلمني. ولم يمض وقت كثير حتى تاب، وحول قصره الكبير إلى خانقاه، وأنفق أموالاً كثيرة في سبيل الصوفية والشيخ. واستضاف في خانقاه في «شوكان» أربعين صوفيًا ينفق عليهم من ماله. كما شيد القبة العالية والمنارة الموجودتين في المسجد الجامع في «شوكان»، وملاً مخزناً

فوق قصره بالقمح، وأخذ يخرج منه على نواحي البناء والتعمير. وكان يقول لنفسه إن هذا القمح لن يكفي لهذه الأمور. وتمت العمارتان والقمح ما زال باقيًا، فتعجب كثيرًا لأنه كان على يقين من أن ما أخرجه منه أضعاف ما كان قد اختزنه. وبعث برجل إلى المخزن وقال له: أخرج القمح الذي بالمخزن لنعرف مقداره. فذهب الرجل إلى المخزن، وكان فيه قمح كثير، فازدادت دهشته لأن القمح الموجود به أكثر مما كان قد اختزنه من قبل، علمًا بأنه أخرج من أجل العمارة كميات كبيرة. وأخذ الرجل يخرج القمح، فنذ صبره وسأله: ما مقدار ما تبقى من القمح في المخزن؟ فقال الرجل: يا سيدي، لا يزال المخزن مملوءًا بالقمح. ولم يستطع -السيد محمد- إخفاء هذه الكرامة. وكان قد عين مؤدبًا لتعليم أولاده، فذهب إلى ذلك المؤدب، وهو المقرئ عبد الملك بن شادان من أهل «طوس»، وحديثه بالأمر. فبكى المؤدب وقال له: إن هذا ليس بالأمر الغريب؛ فهو من كرامة ذلك الشيخ الذي أصبحت مريدًا له، وأرشدك إلى هذا الطريق، وأمرك بهذه الخدمة. ولو أنك لم تقل لي هذا الأمر، ولم تخبر به أحدًا؛ لبقى ما في المخزن حتى يوم القيامة، مهما أخرجت منه أنت وأولادك، بفضل بركة الشيخ، ونظرة الطاهر قدس الله روحه العزيز.

حكاية:

سمعت أيضًا من الشيخ عمر الشوكاني أن الشيخ كان ذاهبًا يومًا إلى مدينة «طوس» عن طريق «سرداوه»، لينزل بقرية «رفيقان». وأرسل درويشًا قبله ليخبر أهل القرية بقدومه، وليرى ما إذا كانت بها خانقاه يمكن أن ينزل بها. ولما وصل الدرويش لم يجد هناك خانقاه؛ إذ كان جميع أهل القرية من قاطعي الطريق. وكان في تلك القرية معلم صالح، أدى فريضة الحج، ينفق من النقود التي يتقاضاها من الصبية لقاء تعليمهم. وعندما علم المعلم بوصول الشيخ، تقدم لخدمته، وأرجع معه الدرويش وقال له: إن جميع الناس هنا مفسدون، من قاطعي الطريق، ولا توجد خانقاه، وأموال أهل القرية جميعًا حرام. وأنا الرجل الوحيد الصالح في قريتي، ومالي حلال. ولن تجد شخصًا آخر يملك درهمًا واحدًا حلالًا، أو فيه نفحة من صلاح. ولما خرجا إلى الصحراء، وقطعا مرحلة طيبة،

لحقاً بالشيخ. فقال له المعلم: يا سيدي الشيخ، لقد جئت لأنني سمعت بوصولك سالمًا، والناس في هذه القرية لصوص مفسدون، وليس في القرية جميعها درهم واحد حلال إلا أموال التي أخذها من تعليم القرآن للصبية. وليس بالقرية خائفاه، ولن تجد فيها شخصًا صالحًا سواي؛ فأنا رجل صالح، أديت فريضة الحج. وأريد الآن أن ينزل الشيخ في منزلي. فقال له الشيخ: سأنزل في دار رئيس القرية، فقال المعلم: إنه هو نفسه أسوأ من الجميع. كما أنه يشرب الخمر دائمًا، ولا يوجد في منزله فراش طاهر يمكن أن يجلس الشيخ عليه. فلم يهتم الشيخ بذلك. ورجع المعلم، وقال لرئيس القرية: إن الشيخ قادم، وسوف ينزل بدارك. وعندما سمع الرئيس هذا، أمر بأن يجمعوا فراش المنزل ويطهروه. وأخذ يفكر في أنه لا يملك شيئًا حلالًا ليقدمه للشيخ. وكانت له أم عجوز فسألته: ماذا دهاك حتى أنك مهموم هكذا؟ فقال لها: إن الشيخ أبا سعيد قادم من «ميته»، وسيحل ضيفًا علي، ويشرفني مثل هذا العظيم. وكلما فكرت في جميع ممتلكاتي، لا أجد بينها شيئًا واحدًا حلالًا، لأقيم له به مأدبة. وأنا مهموم حائر لهذا السبب. وكانت والدته سيدة صالحة، فخلعت من يدها سوارين، ووضعتهما أمام ولدها وقالت له: خذ هذه فهي ميراث حلال لي عن والدتي، وقد ورثتها هي أيضًا عن والدتها. وسوف يأتي الشيخ إلى منزلك بفضل هذه اللقمة الحلال. فأخذها الرئيس، وقد أثرت فيه كلمات والدته، وأنفقها على ضيافة الشيخ والصوفية. ولما رأى الشيخ وسمع كلامه، تاب على يديه، كما تاب أكثر أهل القرية. وكان الرئيس يضع في حسابه أن ينفق على الصوفية من ثمن السوارين بحيث لا يحتاج لشيء أو يتبقى شيء. وعندما نفذ المال، عزم الشيخ على الرحيل، وأمر بإعداده جواده. وألح عليه الرئيس أن يبقى يومين أو ثلاثة، فلم يقبل ورحل. وبعد مضي فترة اشترى نظام الملك قرية «رفيقان» ووقفها على أبناء الأستاذ أبي أحمد الذين كانوا أحفاد الشيخ من ناحية أمهم. وهكذا بقية القرية ببركة لفظ الشيخ.

حكاية:

سمعت أيضًا من السيد عمر الشوكاني أنه كان في قرية «أزجاه» درويش يدعى حمزة

يعمل في صناعة السكاكين. وكان مريدًا للشيخ أبي سعيد، ورجلاً طيباً للغاية، وعاشقاً محترفاً باكيًا، وسالكاً متحمساً. وكان في كل يوم يعقد فيه الشيخ مجلساً، يخرج من «أزجاء» في وقت السحر، بحيث يصل إلى المجلس في الوقت الذي يخرج فيه الشيخ من صومعته ليعظ. وإذا ما أنهى الشيخ وعظه، عاد إلى قريته. ولم يكن يترك مجلساً قط من مجالس الشيخ. وكان رجلاً كثير الأولاد، رقيق الحال، يعطف عليه الشيخ. وفي يوم من الأيام كان قادماً إلى مجلس الشيخ في «ميهنة» ومعه دينار ذهبي ربطه في رباط. ولما وصل إلى مشارف «ميهنة» قال لنفسه: لو أنني حملت هذا الدينار معي، وطلب شخص من الشيخ شيئاً فسيعرف أنني أحمل ذهباً. ثم قال: من الأفضل لك يا حمزة أن تخفيه خلف الحائط. وأخفى الدينار، وذهب إلى مجلس الشيخ. وعندما وصل الشيخ إلى منتصف الحديث، التفت إليه وقال: يا حمزة، انهض وارفع الدينار الذي أخفيته خلف الحائط؛ لأن هناك لصاً يسرقه. فنهض حمزة، وذهب إلى المكان الذي أخفى فيه الدينار، فوجد رجلاً يحفر الأرض، وقد أوشك أن يسرق الدينار، فتقدم حمزة، وأخذ الدينار، وجاء به إلى الشيخ، ووضعه أمامه. وبعد هذا لم يعد قادراً على البعد عن الشيخ، فحمل أمتعته وأولاده، وجاء إلى «ميهنة»، وظل في خدمة الشيخ طيلة حياته. ولما توفي الشيخ، رجع إلى «أزجاء»، وقبره بها، وهو قبر عظيم ومبارك.

حكاية:

كان نظام الملك رحمة الله عليه قد شيد خانقاه في «أصفهان». وعين الأمير سيد بن محمد، وكان علوياً فاضلاً، خادماً لها. وكانت العادة المتبعة أن يجتمع العلماء والصوفية وأصحاب الحاجات وأرباب الإدارات من جميع الأطراف في تلك الخانقاه كل عام. وعندما يأتي شهر رجب، يستدعي نظام الملك سيد بن محمد هذا، ليعرض عليه حاجة كل فرد، ويأمر لكل منهم بما يليق له من عطاء أو صلة أو إدرار. ثم يعود الجميع إلى منازلهم، وقد قضوا حوائجهم، يأخذون في الدعاء له بالخير. وفي سنة من السنين جاء شهر رجب، ولم يحقق شخص مقصوده. وانتهى شهر شعبان، ولم يقض نظام الملك

حاجة أحد. وأقبل شهر رمضان أيضًا، ولم يستدع نظام الملك واحدًا من هؤلاء الجمع، ولم يتكلم في شأنهم. وأخذ الجميع يتحدثون في هذا الأمر، ويقول كل منهم قولاً. وقالت جماعة إن نظام الملك ملّ هذا، وقالت جماعة أخرى ربما أوقع شخص بنا عنده. ولما انتهى شهر رمضان، وشوهد هلال شوال، أرسل نظام الملك في تلك الليلة رجالاً إلى سيد بن محمد وقال له: عندما تنتهي من العشاء، أحضر إلينا عشرة أشخاص من كبار الصوفية والأئمة؛ لأن هناك أقوالاً وأموراً نريد أن نتحدث فيها.

قال سيد بن محمد: وحين فرغنا من العشاء، أخذت عشرة أشخاص من الشيوخ، وذهبت إلى نظام الملك، وأنا أفكر فيما سوف يحدث، ولما دخلت عليه، رأيته جالساً في المحراب، وقد أوقد شموعاً أمامه. وسلمت عليه، فرحب بي كثيراً وقال: اعلموا أنني كنت مشغولاً في أوائل شبابي بطلب العلم، ولم أوفق في هذا الأمر على نحو ما كنت أرجو، فقلت لوالدي: ينبغي أن تبعث بي إلى «مرو» لأتمكن من الدراسة هناك. فقبل والدي. وأرسل معي غلاماً وحماراً، وقال لي: عندما تصل إلى «أزجاه»، اطلب من رؤساء القوافل أن يترثوا يوماً من أجلك. واذهب إلى الشيخ أبي سعيد في «ميهنة»، وقدم له الطاعة، وأصغ لما يقول لك، وتذكره، وسر على نحو ما يأمر بك به، واطلب منه أن يدعو لك. وعندما وصلت القافلة إلى «أزجاه» طلبت إليهم التوقف يوماً حتى أذهب وأحيي الشيخ، فأجابوني إلى طلبي. ووصلت إلى مشارف «ميهنة» عند الفجر. ولما وقعت عيني عليها رأيت الصحراء كلها زرقاء من كثرة الصوفية ذوي الأردية الزرقاء الذين خرجوا إليها وجلست جماعة في كل مكان. وتعجبت، وتساءلت ماذا عساه حدث حتى خرج كل هؤلاء الناس وانتشروا هكذا في كل مكان؟ وعندما وصلت، ووقعت عيونهم علي، نهضوا وتقدموا إلي، وأخذوا يسلمون علي واحداً واحداً، ويعانقوني. وسألتهم: ماذا حدث؟ ولأي سبب خرجتم؟ فقالوا: أبشر، فعندما أدينا صلاة الفجر قال لنا الشيخ: كل من يريد أن يرى شاباً سوف تدين له الدنيا وينال ثواب الآخرة، فليخرج ويستقبله في طريق «أزجاه». فخرجنا جميعاً لتحييتك. فتأثرت لهذا القول، وبكيت، وسرت مع الجمع

حتى وصلت إلى الشيخ. وقادوني إليه على هذا النحو، فعظمته، وسلمت عليه، وقبلت يده. فنظر إلي وقال: مرحبًا، بارك الله فيك يا بني، سوف تسلم إليك سيادة الدنيا، فاعمل فإن العمل يطلبك. ولن يعود عليك شيء من هذا الطريق الذي تسير فيه، ولكن سرعان ما يحقق طلبة العلم منك الكثير. ثم قال: هل تعاهدني على أن تعز هذه الطائفة؟ فعاهدته على النحو الذي جرى به لفظه المبارك، أن أكون تائبًا لأقدامهم. وأحني الشيخ رأسه وأنا واقف بين يديه في احترام، ثم رفعها وقال لي: ألا تزال واقفًا يا بني؟ قلت: يا سيدي الشيخ، أريد أن أسأل سؤالًا. قال: سل. قلت: يا سيدي الشيخ، هل يوجد لهذا الأمر دليل حتى أعمل على تداركه؟ قال الشيخ: أجل فالوقت الذي ينالون فيه مطالبهم منك يكون نهاية عمرك. ثم بكى نظام الملك وقال: أيها الأعداء، لقد كان حسن -يقصد نفسه- يعتزم كل يوم منذ أول شهر رمضان أن يحقق مقاصد الجميع، ويمنحهم الإيرادات والمعاشات المقررة في كل عام، ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يمنحني التوفيق. والآن مضت ثلاثة أيام لم أنهض فيها من هذا المكان، وأخذت أتعبد وأتضرع إلى الله كل ليلة حتى الصباح، وأطلب منه تعالى أن يهبني التوفيق مرة أخرى، حتى أقضي حاجات الجميع، وأنا أعلم أن هذا نهاية عمري، على نحو ما ذكر الشيخ بلفظه المبارك. والآن عندما تؤدون صلاة العيد في الغد، عليك يا سيد بن محمد أن تأخذ الجميع إلى الخزانة، وتعرض حاجة كل فرد، حتى يتحقق مقصود الجميع، وتجدد رسائل الإدرار إلى الديوان؛ فلم يبق لحسن من العمر ما يكفي لأن يصل كل شخص إلى بلده. قال سيد بن محمد: وفي اليوم التالي أدينا صلاة العيد، ورحل السلطان، وبقي نظام الملك ثلاثة أيام، ورفعت إليه حاجات الخلق وفق ما كان قد حكم، وأخذت النقد ذهبًا من الخزانة، وجددت رسائل الإيرادات. وفي اليوم الرابع رحل نظام الملك خلف السلطان، وعندما وصل إلى «نهادند» اغتاله الملاحظة خذلهم الله، وبقي الجميع محرومين من شفقتة رحمة الله عليه.

حكاية:

قال السيد أبو علي الفارمدي قدس الله روحه العزيز: عندما ذهبت إلى خدمة الشيخ أبي

القاسم الجرجاني، وأمرني بالرياضات المختلفة، وأصبحت مهذباً مؤدباً، أخى بيني وبين أبي بكر بن عبد الله، وبعث بنا نحن الاثنين إلى الشيخ أبي سعيد في «ميهنة». ولما وصلنا إليها، وأدبنا السنن والفرائض، ذهبنا إلى الشيخ. فأمر حسن بن المؤدب أن يحضر إزاراً، وأعطاه لي، وأمرني الشيخ بتنظيف الغبار عن الحائط بهذا الإزار. وأمر أبا بكر ابن عبد الله بتنظيف أحذية الدراويش. وبعد أن أقمنا عنده ثلاثة أيام نؤدي هذه الخدمة، أمرنا في اليوم الرابع بالعودة إلى خدمة الشيخ أبي القاسم، وذهبنا إلى الشيخ أبي القاسم. ومضت مدة على هذا النحو، ومات كل من الشيخين. وانكشف لي الأمر، والتف حولي المريدون، وصادفت قبولاً عظيماً. وذاع صيتي وشهرتي في العالم. ولم يحدث هذا بالنسبة للشيخ أبي بكر، فلم تنتشر شهرته بين الناس بهذا القدر، ولم يسر ذكره. وذات يوم قال الشيخ أبو عبد الله: لقد أمر الشيخ أبو سعيد الشيخ أبا علي بإزالة الغبار عن الجدار بالإزار؛ ليزيل طوال عمره بإزار الكلام غبار المعصية عن جدران قلوب عباد الحق، وأمرني بتنظيف أحذية الدراويش، لأظل طيلة عمري في المؤخرة، لا يعرفني أحد، أو يذكرني أحد.

حكاية:

كان الأمير مسعود من الأمراء والسلاطين الكبار. ولم يكن هناك من حكام الأطراف من هو أعظم منه. وذات يوم احتاج الشيخ إلى قرض من المال للإنفاق على الدراويش. فأرسل حسن بن المؤدب إلى -الأمير مسعود- يقول له: ارع الدراويش بشيء من المال. ولما ذهب حسن إليه وأبلغه رسالة الشيخ، لطفه كثيراً وقال له: سوف أريح قلب الشيخ من هذه الناحية. ولما ذهب إليه حسن مرة أخرى قال إنه سوف يدفع. وذهب إليه عدة مرات، فكان يكرر الوعد، حتى تجاوز الأمر الحد. فكتب الشيخ هذا البيت على ورقة، وأعطاهما لحسن ليوصلها إلى مسعود:

«بيت»

إذا لم تنفذ ما وعدتنا به،

فلن تنجوا من يدنا ولو كنت أسداً.

وسلم حسن الورقة إلى مسعود. فلما قرأها غضب وقال: ما هذا؟ وطرد حسن من أمامه، وأعادته خائبًا. وجاء حسن إلى الشيخ، وذكر له ما سمع. وكان من عادة مسعود أن يقتني كلابًا غورية، تمزق كل من تمسك به في الحال. وكانوا يقيدونها في النهار، ويتركونها حول خيمته في الليل. ولم يكن أحد يجروء على الاقتراب من الخيمة. وحين رجع حسن إلى الشيخ متألمًا، وذكر له تلك الحكاية، لم يقل الشيخ شيئًا. وفي تلك الليلة، خطر لمسعود أن يتجول حول خيام خدمه وحشمه، جريًا على عادة الملوك؛ ليرى ماذا يقولون، وماذا يفعلون ونهض في منتصف الليل، وارتدى قميصًا، وأسدل شعره حتى لا يعرفه أحد. وكان جميع خواصه وغلमानه وحراسه قد ناموا، فخرج من الخيمة. ولما سار عدة خطوات، رآه الكلاب ولم تعرفه، فجرت خلفه. وصاح فتنبه غلमानه، وخرجوا من هنا وهناك، ولما اقتربوا منه، كانت الكلاب قد مزقته وقضت عليه.

حكاية:

روى الشيخ عبد الصمد بن محمد الصوفي السرخسي مريد الشيخ الخاص هذه الحكاية فقال: كنت قد غبت عن مجلس الشيخ مدة، وأسفت على ما فاتني من الفوائد. وعندما وصلت إلى «ميهنة»، كان الشيخ يتحدث في أحد المجالس، فلما وقع بصره عليّ قال: يا عبد الصمد لا تأسف فلو أنك غبت عنا عشر سنوات فإننا لا نقول إلا كلمة واحدة. وتلك الكلمة يمكن كتابتها على هذا الظفر - وأشار إلى الإصبع الأكبر من اليد اليمنى - وهي: «اذبح النفس وإلا فلا». وعندما قال الشيخ هذه الكلمة، صرخت وغبت عن الوعي.

حكاية:

رؤي أنه جاء وقت في «ميهنة» لم يتناول الصوفية لحمًا لعدة أيام. ولم يكن حسن يستطيع إحضاره؛ لأن جميع القصابين كانوا يطالبونه بأثمان لحومهم. وذات يوم نهض الشيخ، وسار الجميع في رفقته حتى خرج من البوابة المؤدية إلى طريق «مرو»، وأصبح على هضبة «زعقل» بصحراء «مرو» (وقد سبق ذكرها من قبل، فعندما كانت تعتري الشيخ حال من القبض كان يذهب إلى ذلك المكان). ولما اعتلى الشيخ الهضبة. وقف وتريث

برهة. وظهر غزال في الصحراء، وظل يتقدم حتى اقترب من الشيخ، وسقط على الأرض. فامتلأت عينا الشيخ بالدمع، وأخذ يردد: لا ينبغي! لا ينبغي! والغزال يتمرغ في التراب. والتفت الشيخ إلى الصوفية وقال لهم: هل تعرفون ماذا يقول هذا الغزال؟ إنه يقول: أتيت لتجعلني فدية للدراويش، فتسعد قلوبهم. وأنا أقول له لا ينبغي ذلك؛ لأن لك صغاراً، وهو يلح. ثم بكى الشيخ والصوفية، وارتفع صياحهم، وظهرت الأحوال. وظل الغزال يتمرغ في التراب. فأرسله الشيخ إلى حانوت القصاب، قائلاً لحسن: قل له يذبحه بسكين حاد، ويسمي عليه ليتيم المراد للصوفية هذه الليلة. وذهب حسن وفق إشارة الشيخ، وأعد الأمر، وتمتع الدراويش بلحم ذلك الغزال.

حكاية:

قال السيد أبو علي الفارمدي: في وقت من الأوقات خرجت من «طوس» إلى «ميهنة» مع جمع كبير في رفقة الشيخ أبي سعيد. وفي الطريق وصلنا إلى جبل. وتقدمت إلينا حية كبيرة، فخفنا وهربنا. وتوقف الشيخ على صهوة جواده، وعندما اقتربت الحية منه، ترجل. وأخذت الحية تتمرغ في التراب بين يديه، وكنت أقرب الجميع إلى الشيخ. ومرت فترة ثم قال لها الشيخ: لقد تجشمت المتاعب فعودي. وعادت الحية واتجهت إلى الجبل. وتقدم الجميع إلى الشيخ وسألوه قائلين: ما هذا أيها الشيخ؟ فقال الشيخ: لقد رافق أحدنا الآخر عدة سنوات في هذا الجبل، ورأى كل منا كثيراً من الفتح على يد الآخر. والآن عرفت أنني أمر من هنا، فجاءت وجددت العهد «حسن العهد من الإيمان». ثم قال الشيخ: كل من لديه خلق يتحقق له كل شيء بالخلق، مثل إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فقد كان طريقه الخلق، فلا جرم أن ارتدت النار عنه بالخلق.

حكاية:

كان الشيخ يتحدث يوماً في أحد المجالس، فنهض درويش وطلب منّا من اللحم. وكان في مجلس الشيخ رجل تركي، فقال: أنا أعطيه له. وعندما أنهى الشيخ المجلس، تقدم الدرويش إلى الشيخ وعظمه، فقال له الشيخ: أيها الدرويش، ماذا ستفعل باللحم؟

فقال: سأصنع منه حساء (شوربة)^(١) فقال الشيخ: لماذا قلت: (شوربة) فأشعلت الفتنة في نفسك! وبعد ذلك أعطاه التركي اللحم، فحمله الدرويش إلى منزله. ورأى رجلاً غريباً يجلس مع زوجته، فقد صوابه، ولم يستطع أن يتمالك نفسه، واستل سكيناً، وقتل الرجل والمرأة في الحال، وترك اللحم، وفر هارباً.

حكاية:

رأيت مكتوباً بخط الإمام مالك رحمة الله عليه. جاء فيه: اعترت سيدة حال في مجلس الشيخ، فألقت بنفسها من سطح مرتفع. وأشار الشيخ، فبقيت معلقة في الهواء. ومدت النسوة أيديهن وجذبنها إلى السطح، ونظرن فوجدن أن ذيلها تعلق في مسمار صغير.

حكاية:

رأيت بخط أشرف بن أبي اليمان رحمة الله عليه أنه كان هناك صديقان من منكري الشيخ؛ أحدهما خياط والآخر نساج. وكانا عندما يلتقيان، يقولان إن أمر هذا الشيخ لا يعتمد على أصل. وذات يوم قال أحدهما للآخر: إن هذا الرجل يدعي الكرامة، فلنذهب إليه نحن الاثنين، فإذا عرف عمل كل منا عرفنا أنه على حق، وأن ما يفعله يعتمد على أصل. ثم ذهبا إلى الشيخ. وعندما وقع بصره عليهما قال:

«بيت»

فوق الفلك رجلان محترقان،

أحدهما خياط والآخر نساج.

ثم أشار إلى الخياط قائلاً: هذا لا يخطط إلا قباء الملوك، وأشار إلى النساج وقال: وهذا لا ينسج إلا «الكليم» الأسود. وعندما سمع الرجلان ذلك تملكهما الخجل، وتابا عن إنكارهما.

(١) «شور» فتنة، اضطراب.

حكاية:

قال السيد عماد الدين محمد بن العباس رحمه الله: كنت في السابعة من عمري عندما سمعت والدي يقول: قالت السيدة «ماهك» ابنة السيد حمويه رئيس ميهنة: كان الشيخ أبو سعيد يتحدث يوماً في مجلس «ميهنة». وكان في ذلك اليوم يرتدي عباءة حمراء وعمامة بيضاء، وقد احمر وجهه وهو يتحدث. فأخذت أنظر إليه وأنا أقول لنفسي إن الله سبحانه وتعالى لم يخلق في الدنيا شخصاً مثل الشيخ. وعندما جال هذا بخاطري. التفت الشيخ إليّ وقال: تنبهي لما تفكرين فيه، وإذا أردت أن تعرفي فانظري لتري، وأشار إلى تلك الشجرة التي تقع على باب روضته المقدسة. فنظرت ورأيت شاباً يقف تحت الشجرة، أسود، ضامراً، هزياً على عكس صورة الشيخ. وكا ينظر إلى الشيخ جيداً، وينصت إلى أقواله، فنظرت إليه وأنا أقول لنفسي: أي مكانة لهذا الشاب حتى يشير الشيخ إليه؟ وأخذت أفكر في هذا. فقال الشيخ: تنبهي وعودي إلى رشدك، فتنبهت. وقال الشيخ: إن ذلك الذي ترينه شعرة واحدة منه أعز على الله من الدنيا والآخرة، فلا يغرنك اللون.

حكاية:

قال السيد الإمام عماد الدين محمد أيضاً: في يوم من الأيام كان الشيخ أبو سعيد يتحدث في مجلس، فدخل السيد الإمام حسن السمرقندي، وسمع كلام الشيخ، وقال لنفسه: أي كلام هذا الذي يقوله الشيخ؟ فالتفت الشيخ إليه في الحال وقال: لقد قرأت الصحيح خمس عشرة مرة، فما هو آخر خبر فرأته في الصحيح؟ وكان السيد الإمام حسن قد قرأ الصحيح خمس عشرة مرة، ولكنه رغم إطالة التفكير، عجز عن أن يتذكر ذلك الخبر. فقال الشيخ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»، فحجل السيد الإمام، وانهارت كبرياؤه. وعندما خرج قال: لقد حفظت الصحيح خمس عشرة مرة، وقرأته مراراً، ولكنني حاولت كثيراً فلم أستطع أن أتذكر هذا الخبر.

حكاية:

قال السيد عماد الدين محمد أيضًا: سمعت جدي الأستاذ أبا بكر النوقاني يقول: في يوم من الأيام كان الشيخ أبو سعيد والسيد حمويه وأنا جالسين في مسجد الشيخ في «ميهنة». فدخل شاب من الأتراك وسأل: من كبير ميهنة؟ فأشار الشيخ إلى السيد حمويه، فقال له الشاب: اعرض عليّ الإسلام. فقال السيد حمويه للشيخ: اعرض عليه الإسلام. وقلت أنا: لا تتمهلا وحرّراه من قيده. فقال لي الشيخ: اعرض عليه الإسلام أنت. فعرضته عليه، وأسلم الشاب. وسألته ماذا حدث لك؟ فقال: لقد كنا أخوين ذاهبين إلى تاجر في «طبرستان»، ورأيت في نومي هاتفاً يقول لي: انهض وأذهب إلى «ميهنة»، وأسلم على يد كبيرها. فاستيقظت وأخذت أفكر في هذا الكلام. وراق الإسلام لقلبي، وظهر لي أن ذلك الحلم كان حقيقة، فقلت لأخي: أنت أدرى بالمال. وتركت الجميع وسرت وجئت إليكم، وأسلمت على هذا النحو. فالتفت الشيخ إليّ وقال: لقد حسبنا في عداد العلماء، وغرامة ذلك أن تعلمه قدرًا من القرآن لتصح صلاته. فعلمت الشاب حتى سورة «الضحى». ولما عاد السيد حمويه إلى منزله، أرسل كل ما كان يلبسه من الملابس، من عمامة ودراعة وقميص وإزار وحزام وحذاء وجورب، إلى الشيخ قائلاً: أنفق هذه من أجل تطهير الشاب. وأمر الشيخ حسن بن المؤدب ببيعها، وإقامة مأدبة للدراويش، وطهروا ذلك الشاب، وأصبح من خيرة الرجال.

حكاية:

قال السيد عبد الكريم خادم الشيخ الخاص، كان أحد الدراويش قد استوقفني لأكتب له بعض حكايات الشيخ، فأقبل شخص وقال لي: إن الشيخ يدعوك، فذهبت إليه. ولما اقتربت منه سألتني: ماذا كنت تفعل؟ فقلت: لقد طلب مني أحد الدراويش بعض حكايات الشيخ، فكنت أكتبها له. فقال الشيخ: يا عبد الكريم، لا تكن كاتبًا للحكايات، ولكن كن بحيث يحكون الحكايات عنك.

وفي هذا الكلام عدة فوائد، أولاً- أن الشيخ أدرك بفراسته ماذا كان يفعل السيد

عبد الكريم. ثانيًا - كيف يكون تأديبه له: ثالثًا - أنه لم يرغب في أن يكتب حكايات كراماته فيحملونها إلى أطراف العالم ويصبح مشهورًا على نحو ما ذكرت في بداية الكتاب من أن الشيوخ كانوا يخفون أحوالهم.

حكاية:

كان في قرية «أزجاه» درويش يدعى حمزة السكان. وكان مريدًا للشيخ، يحضر إلى «ميهنة» في كل يوم يعقد فيه الشيخ مجلسًا، ثم يعود عندما ينهي الشيخ المجلس، ما عدا يوم الخميس، إذ كان عندما ينتهي المجلس يظل في «ميهنة» حتى يوم الجمعة ويمضي اليوم في خدمة الشيخ، ويعود بعد أن يؤدي الشيخ صلاة الجمعة، وكان حمزة هذا رجلًا طيبًا، وإن كان يبدو جبانًا. وفي ذلك الوقت كان لجماعة الصوفية زاوية في مسجد دار الشيخ، يقيمون بها. وذات يوم جاء حمزة هذا عند الظهر، ودخل المسجد، وأحدث ضجة، وفتح باب المسجد في خشونة كبيرة؛ بحيث تألم الدراويش جميعًا واضطربوا. وكان الشيخ قد اطلع على هذا الأمر، فخرج من صومعته، ولم يكن من عادته أن يخرج في مثل هذا الوقت، وشمل الاضطراب الجميع، وشكوا حمزة إلى الشيخ قائلين إنه تسبب في إقلاقهم. فأمرهم الشيخ باستدعائه. وكان قد ذهب إلى السوق، فذهبوا إليه وأحضره. وقال له الشيخ: يا حمزة، إن الدراويش يشكون منك، فأنت تبدد أوقاتهم، ولا تتمسك بالعقل. فبِمَ تجيب؟ فقال حمزة: أيها الشيخ، ما داموا لا يستطيعون تحمل متاعب حمزة فلينزعوا ثياب الحمالين، لأن ثياب الحمالين هذه إنما هي من أجل من يتحملون. فتملكت الشيخ حال من البسط، وصرخ قائلاً: قل ذلك ثانية يا حمزة. فكرر حمزة قوله. فصاح الشيخ مرة أخرى وقال: قل مرة أخرى. فقال حمزة. وصرخ الشيخ، وأمر بإحضار السكر. فأحضر حسن طبقًا من السكر ووضعه أمام الشيخ، فأخذ ينثره بيده المباركة على رأس حمزة، وهو يصيح قائلاً: «من لم يطق احتمال الأذى فعليه أن ينزع ثوب الحمالين».

حكاية:

رُوي أنه عندما جاء الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز إلى ناحية «باورد» أراد

أن يمر من هناك. وكان في «باورد» لص قد تاب، فجاء إلى الشيخ وقال له: أيها الشيخ: ماذا يحدث لو أنك أقمت في «باورد» بضعة أيام؛ ليطمئن الناس إليك. فقبل الشيخ، وأقام هناك ثلاثة أيام. وكان هذا العريف يعطي حسن دينارًا كل يوم ويقول له أنفقه على طعام الدراويش. وكان حسن ينفق الدينار والدراويش يعترضون على ذلك، ويقول كل منهم قولاً، ويتساءلون أهو مال حلال؟ وكان الشيخ كعادته لا يقول شيئاً. وبعد مضي ثلاثة أيام عزم الشيخ على الرحيل وقال أمام الجميع: أين العريف؟ نادوه، ففعلوا. وعندما دخل الرجل سأل الشيخ: من أين كانت النقود التي أنفقتها على طعام الدراويش؟ فأجاب: كان قد بقي لي من ميراث جدتي قلادة بها ثلاث حبات من الذهب، وقد وصلت إلي عن طريق الميراث الحلال. وكنت أنفق كل يوم حبة من هذه الحبات. وقد نفدت الحبات اليوم، وعزم الشيخ على الرحيل. ولما سمع الناس كلامه، زال شكهم، وازداد اعتقادهم في الشيخ.

حكاية:

كان للسيد الإمام أبي عاصم العياضي ولدان. فقال له أخوه أبو نصر العياضي: أرسلهما إلى الشيخ -يقصد أبا سعيد- لينالا بركته، ويدعو لهما. فذهبا إليه. ولما اقتربنا من الشيخ، ووقع بصره عليهما، قال من بعيد: «وصل، وفهمت، أنبتهما الله نباتًا حسنًا».



اعلم أن حكايات كرامات الشيخ أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب. ولما كنا قد اشترطنا على أنفسنا الإيجاز والاختصار؛ فقد اقتصرنا على هذا القدر، بعد أن بذلنا في تصحيح الأسانيد وصدق الرواية أقصى ما يمكن أن نبذله من الجهود، وقمنا بأدق الاحتياط والاستقصاء. وكل ما يذكر أكثر من هذا، يخرج بنا عن حد الاختصار، وينتهي إلى السأم والملل. وإذا طالع شخص عشر هذا المقدار، طلبًا للفائدة، فسوف يتم مقصوده.

أسأل الحق سبحانه وتعالى التوفيق في الاستماع إلى الحق، وأن يكرمنا بالصدق، وأن يبقي بركة أنفس ذلك العظيم وأوقاته وأحواله حتى قيام الساعة، بحق محمد وعترته الطاهرين.

الفصل الثاني

في الحكايات التي تتأتى منها فائدة، وبعض حكايات الشيوخ التي جرت على لفظ الشيخ المبارك من أجل الفائدة

حكاية:

رُوي أن الشيخ أبا سعيد قدس الله روحه العزيز كان في دورة المياه يوماً. وعندما كان مشغولاً بالاستبراء، دعا حسن بن المؤدب، وقال له: تعال، واخلع عني هذا الثوب، وهبي بعض الحلوى للدراويش. فذهب حسن وفق إشارة الشيخ، وقال له: أيها الشيخ، ماذا كان يحدث لو أنك تريثت حتى تفرغ من الوضوء؟ فقال الشيخ: لا يجب أن يقطع الشيطان الطريق.

وقد أظهر الشيخ له بهذه المسألة الدقيقة أنه إذا خطر له خاطر رحماني بعمل شيء فإنه ينبغي التعجيل فيه.

ولا تغتر بحياتك؛ لأن المشايخ الكبار، مع ما تهيأ لهم من الكشف، والأنبياء مع كمال أحوالهم، لم يكونوا في مأمن من مكر الشيطان. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىَ الْشَّيْطَانُ فِيْ أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْمَانَهُ﴾ [الحج: ٥٢].

حكاية:

كان في عهد الشيخ قدس الله روحه العزيز درويش يقوم بكل المهام الخشنة، وأينما

وجد عملاً شاقاً قام به. وفي وقت من الأوقات كان يزيل الوحل، وكانت يده ورجلاه ملوثة به، فخرج من عمله على هذا الحال، وجاء إلى الشيخ، وقال له: أيها الشيخ، إنني لا أستطيع أن أقوم بكل هذه الأعمال الشاقة من أجل الله، وإنما أطمع في أن يثني الشيخ عليّ، ويشجعني بثنائه. فسر الشيخ من صدق الدرويش وقال له: سأفعل هكذا. وبعد ذلك أخذ الشيخ كلما رأى الدرويش يقوم بعمل أثنى عليه. وكان -الدرويش- يسر بذلك الثناء، ويستمد منه القوة.

حكاية:

عندما كان الشيخ في «طوس»، كان قد جلس يوماً مع السيد الإمام أبي الحسن الرواقي، وأخذاً يتحدثان. وكانت هناك مشكلة اعترضت الشيخ، فتحدثا فيها، حتى حل إشكال الشيخ. وقال الشيخ: إن الله يهيئ لنا الأمور. ثم قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وسأله السيد أبو الحسن الرواقي: أيها الشيخ، إذن فهو الله الذي يهيئ أمورنا؟ فقال الشيخ: لا ولكن تدخلوا في أعمالكم، وقولوا لقد فعلت كذا، وسأفعل كذا، وينبغي أن أفعل كذا، والله يهيئ لكم الأمر. قولوا ها نحن أولاء؛ وإن كان لا دخل لنا في عملنا.

حكاية:

كان السيد الإمام المظفر حمدان يقول في «نوقان» يوماً: أنا والشيخ أبو سعيد مثل مكيال من الذرة، الشيخ أبو سعيد حبة منه، والباقي أنا. وكان أحد مريدي الشيخ أبي سعيد في ذلك المكان، فلما سمع هذا القول، أخذه الحماس، ونهض وأسرع إلى الشيخ، وأخبره بما سمع من السيد الإمام المظفر. فقال له الشيخ: اذهب وقل للسيد الإمام المظفر إنه هو تلك الحبة أيضاً، أما أنا فلست شيئاً.

حكاية:

كان الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز في «طوس»، وعندما عزم على الرحيل، خرج معه الأستاذ أبو بكر لوداعه. وحاول الشيخ كثيراً أن يعيده، فلم يستجب له. وقال

له الشيخ: يجب أن تعود. فقال الأستاذ: أيها الشيخ، لن أعود دون أن تدلني على الطريق.
فقال الشيخ: انهض من طريق التدبير، واجلس في طريق التقدير.

حكاية:

توفي للشيخ ابن صغير، وكان الشيخ يحبه كثيراً. وعندما حملوه إلى المقبرة، وضعه
الشيخ في القبر بيده. ولما خرج من القبر، انهزم الدمع من عينيه، وأخذ يقول لنفسه هذا
الشعر بصوت منخفض:

(شعر):

ينبغي أن ترى الشر وتخليه خيراً،
وأن تتجرع السم وتخليه قنّداً
لقد جمحت، ولم أكن أعرف،
أن الوهق يصبح أقوى بال جذب

ثم توفي للشيخ ابن صغير آخر فقال: لقد طلب منا أهل الجنة تذكّاراً، فأرسلنا لهم
نفتحين من عطرنا حتى نصل.

حكاية:

عندما كان الشيخ في «نيسابور»، قال يوماً: ينبغي إعداد الجواد. فأعد. وخرج الشيخ،
وفي رفقته عدد كبير من الصوفية، ووصلوا إلى قرية على باب «نيسابور». وسأل الشيخ:
ماذا يسمون هذه القرية؟ قالوا «باب الحبيب». فنزل الشيخ بها، وأمضى اليوم فيها مع
الجماعة. وفي اليوم التالي سأله الصوفية: أيها الشيخ! هل نرحل؟ فقال: إن الشخص
يسير طويلاً ليصل إلى باب الحبيب، وما دمنا قد وصلنا إلى هنا فإلى أين نذهب؟ وأقام
في ذلك المكان أربعين يوماً، وظهرت كثير من الكرامات، وتاب أكثر أهل القرية على يد
الشيخ، وأصبحوا من مريديه، وجاءوا إلى «نيسابور» في رفقته.

حكاية:

كان الشيخ أبو سعيد قد احتجم يوماً، فقال لحسن: يا حسن، كيف تراني؟ فقال حسن هذا البيت:

عندما يحتجم الناس تسيل منهم الدماء،

وعندما تحتجم أنت يسيل منك العشق

وقال الشيخ للفصاد: أمسك يدي واربطها. وربطوا يد الشيخ ولم تنزف ثانية.

حكاية:

كان الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز يتحدث يوماً في مجلس في «نيسابور»، فدخل السيد أبو علي بن سينا من باب خانقاه الشيخ، ولم يكن أحدهما قد رأى الآخر قبل هذا، ولو أنه حدثت بينهما مكاتبات. وعندما دخل السيد أبو علي بن سينا من الباب، التفت إليه الشيخ وقال: لقد جاء حكيم. ودخل السيد أبو علي وجلس، واستمر الشيخ في الحديث، وأنهى المجلس، وذهب إلى المنزل، وذهب معه أبو علي بن سينا، وأغلقا الباب عليهما، واختليا معاً ثلاثة أيام وليال، وتحدثا أحاديث لم يعرفها أحد، ولم يدخل عليهما إلا من سمح له، ولم يخرجوا إلا للصلاة الجماعة.

وبعد ثلاثة أيام رحل السيد أبو علي بن سينا. وسأله تلاميذه: كيف وجدت الشيخ؟ فقال: إنه يرى كل ما أعرف. وسأل مريدو الشيخ الشيخ قائلين: أيها الشيخ؛ كيف وجدت أبا علي؟ فقال: إنه يعرف كل ما أرى.

وقد مال أبو علي إلى شيخنا، وكان يأتي إليه كثيراً، ويرى كراماته. وذات يوم دخل من باب دار الشيخ، وكان الشيخ قد أمر بإعداد الجواد لزيارة «أندرن» وهو موضع بجوار «نيسابور»، يقع على الجبل، حيث كان يوجد غار إبراهيم وصومعته، فقال الشيخ: إننا نعتزم القيام بزيارة. فقال أبو علي: سنسير في صحبتك. وسارا ومعهما جمع كبير من الصوفية، ومريدي الشيخ، وتلاميذ أبي علي. ووجدا في الطريق الذي كانا يسيران فيه نائياً

ملقي على الأرض فقال الشيخ: ارفعوا هذا الناي. فرفعوه، وأعطوه له. وأمسك الشيخ بالناي، ووصلوا إلى مكان به حجر صلد، فوضع الشيخ الناي على ذلك الحجر، وثبته فيه. وعندما رأى أبو علي ذلك، سقط على أقدام الشيخ ولم يعلم أحد ماذا كان يجول بضمير أبي علي حتى أبدى له الشيخ هذه الكرامة.

أما السيد أبو علي فقد أصبح مريدًا للشيخ هكذا؛ بحيث لم تكن تمضي أيام قلائل حتى يأتي لزيارته. وبعد ذلك كان يورد في كل كتاب يؤلفه في علم الحكمة فصلًا وافيًا في إثبات كرامات الأولياء، وحالات المتصوفة. وألف، كما هو معروف، مؤلفات منفردة في بيان مراتبهم، وكيفية سلوك جادة الطريقة والحقيقة.

حكاية:

عندما أصبح السيد حسن بن المؤدب مريدًا للشيخ وانقطع لخدمته في «نيسابور»، بذل كل ما كان يملك من مال في سبيل الشيخ. وكلفه الشيخ بخدمة الدراويش، وأخذ يتعهد بالتربية، ويأمره بممارسة الرياضة، ويحثه على تأدية شروط هذا الطريق، وكان لا يزال بعد في باطن السيد حسن شيء من الشعور بالسيادة. وذات يوم ناداه الشيخ وقال له: يا حسن، ينبغي أن تأخذ مخلاة، وتذهب إلى سوق الكرمانيين، وتشتري ما تجده من الكرش والكبد، وتضعه في المخلاة. وتحمله على ظهرك، وتحضره إلى الخانقاه.

وأخذ حسن المخلاة، وذهب وفق إشارة الشيخ، وكان هذا الأمر شديدًا عليه، وذهب مضطرًا إلى سوق الكرمانيين، واشترى كل ما وجد من الكرش والكبد، ووضعها في المخلاة، وحملها على ظهره، وأخذت الدماء والأقذار تسيل عليه. وكان يشعر بالخجل من أن يراه على هذه الحال الناس الذين كانوا يرونه إلى عهد قريب بالملابس الفاخرة؛ فقد كان من الصعب عليه أن يتخلى عن سيادته.

وهذه طبيعة الناس جميعًا، فالرسول ﷺ يقول: «إن آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة». وكان هدف الشيخ من هذا الأمر أن يخرج من رأسه ما بقي من السيادة وحب الجاه.

ولما حمل حسن المخلاة، وأحضرها على هذا النحو من سوق الكرمانيين إلى خانقاه الشيخ في محلة «عدني كويان» - وكانت في النصف الأيمن لسوق نيسابور - ودخل من باب الخانقاه، ووقف أمام الشيخ؛ أمره الشيخ بأن يحملها إلى بوابة الحيرة، ويغسلها، ويطهرها، ويعيدها. وكانت - بوابة الحيرة - في النصف الأيسر لسوق المدينة. وذهب حسن إلى بوابة الحيرة على هذا النحو ونظف تلك الأجزاء وأعادها. ولما دخل الخانقاه، لم يكن قد بقي فيه من السيادة وحب الجاه شيء. فدخل على الشيخ حرًا مسرورًا. فقال له الشيخ: ينبغي الآن أن تحمل هذه إلى المطبخ، لتكون طعامًا للصوفية الليلة. فحملها حسن، وأعد كل شيء، وانهمك الطباخ في إعدادها. وأدرك الشيخ أن حسن تحمل مشقة كبيرة في تلك الرياضة، فناداه وقال له: ينبغي لك الآن أن تغتسل، وترتدي ملابس نظيفة كعادتك، وتذهب إلى سوق الكرمانيين، ثم تذهب من هناك إلى بوابة الحيرة، وتسأل جميع من بالسوق عما إذا كانوا قد رأوا شخصًا يحمل مخلاة على ظهره. فذهب حسن وفق إشارة الشيخ، وأخذ يسأل كل حانوت في السوق من أوله إلى آخره. ولم يقل له أحد لقد رأيت هذا الشخص، أو لقد كان ذلك الشخص أنت. ولما رجع حسن عند الشيخ قال له: يا حسن، إنك أنت الذي كنت ترى نفسك؛ وإلا لما كانت لأحد القدرة على رؤيتك. ونفسك هي التي كنت تضعها في عينك، ويجب عليك أن تقهرها وتسحقها سحقًا؛ لأنك لن تتخلص منها ما لم تحطمها. وعليك أن تشغلها بالحق فلم تعد لها طاقة على نفسها، أو على الخلق. وعندما شاهد حسن تلك الحال، تخلص من قيد الظن وحب السيادة. وتحرر من هذا كله. وقام الطاهي بطهي الكرش والكبد. وأعدت المائدة في تلك الليلة، وجلس عليها الشيخ والصوفية. وقال الشيخ: أيها الأصدقاء، كلوا فأنتم اليوم تأكلون سيادة حسن.

حكاية:

جاء شخص إلى الشيخ يومًا وقال له: أيها الشيخ، لقد جئت لتطلعني على شيء من أسرار الله. فقال له الشيخ: عُد غدًا. فرجع الرجل. وفي ذلك اليوم كان الشيخ قد أمر

فأمسكوا فأراً، ووضعوه في صندوق صغير، وأحكموا غطاءه. ولما عاد الرجل في اليوم التالي قال: أيها الشيخ، حدثني بما وعدتني به. فأمر الشيخ بأن يعطوه ذلك الصندوق، وقال له: حذار، ولا تفتح هذا الصندوق. فأخذ الرجل الصندوق، وعاد إلى منزله وقد تملكته الرغبة في أن يعرف أي سر في هذا الصندوق؟ ومهما حاول أن يمنع نفسه لم يستطع الصبر. وفتح غطاء الصندوق فقفز الفأر وهرب. وجاء الرجل إلى الشيخ وقال له: أيها الشيخ، لقد طلبت منك سرّاً من أسرار الله تعالى فأعطيتني فأراً. فقال الشيخ: أيها الدرويش، لقد أعطيتك فأراً فلم تستطع أن تخفيه، فكيف تخفي سر الله الذي أحدثك به؟

حكاية:

كان الشيخ قدس الله روحه يدعو كل مريد يريد أن يؤهله ليكون من جملة تلاميذه ويقول له: افعل ثلاثة أمور، الأول- حافظ على كل ما يحضره هذا السيد إلى الدار من الغلة واللوازم، ولا تتصرف فيها على نحو ما تفعله النساء مع الغزال والنساج دون أمر أزواجهن؛ لأن البركة تزول بسبب ذلك. والثاني- لا تترك بيت العنكبوت في الدار؛ لأن الشيطان يستوطن فيه، وجلساؤنا ليسوا من جلساء الشيطان. والثالث- كل طعام تنوي طهيه، وكل شيء تضعه في القدر، سواء كان من اللحم أو الحبوب، اغسله أولاً بالماء ثم ضعه. وتذكر هذه الأمور الثلاثة لكي توفق.

حكاية:

في وقت من الأوقات كان الشيخ يتوضأ. وأرسل درويشاً ليحضر الماء، فتأخر الدرويش. وأخذت جماعة الدراويش يعترضون على ذلك التأخير وينكرونه قائلين: إن الطريق قريب فلماذا تأخر؟ وكان الشيخ يرى شكهم، فلما رجع الدرويش قال لهم: إن الماء الذي يلزم لوضوئي لم يكن قد خرج بعد من العين، وكان هذا الدرويش ينتظر خروجه، فلما خرج، أخذه وأحضره، فلا تشكوا.

حكاية:

كان السيد الإمام أبو بكر الصابوني زميلاً للشيخ في مدرسة مرو. وعندما بلغ الشيخ تلك الدرجة التي بلغها، جاءه السيد الإمام أبو بكر وقال له: أيها الشيخ، لقد كنا زميلين في مدرسة واحدة، وتعلمنا معاً، فأوصلك الحق تعالى إلى هذه الدرجة العظيمة، وبقيت أنا هكذا في العلم، فما سبب ذلك؟ فقال الشيخ: هل تذكر اليوم «الفلاني» الذي أملى علينا فيه الأستاذ ذلك الحديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعينه» وكتبناه نحن الاثنين، ماذا صنعت به عندما ذهبت إلى المنزل؟ فقال: حفظته وانشغلت بأمر آخر. فقال الشيخ: إنني لم أفعل هذا، فعندما ذهبت إلى المنزل، انتزعت من أمامي كل ما لي منه بد، وأبعدته عن فكري، أما ما لم يكن منه بد؛ فقد أخذت به، وأسلمت فكري إليه. وذلك هو ما أمر به الحق؛ فقد ورد في الخبر «قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون، أنا بدك اللازم فالزم بدك. لا إله إلا الله فاتخذة وكيلاً».

حكاية:

سئل الشيخ: من أظرف شخص في «سرخس»؟ فقال: أظرف شخص في مدينتكم هو لقمان. فقالوا: أيها الشيخ، لا يوجد في مدينتنا من هو أكثر منه اضطراباً وقذارة. فقال الشيخ: لقد أخطأتم، إن الظريف يكون طاهراً. والطاهر هو الشيء الذي لا صلة بينه وبين أي شيء آخر. ولا يوجد من هو أكثر انقطاعاً ولا طهارة من لقمان لأنه ليس له علاقة بشيء قط.

حكاية:

قيل للشيخ: إن فلاناً يسير على الماء. فقال: هذا أمر سهل، فالخطاف والصعوبة يسيران أيضاً على الماء. وقيل له: إن فلاناً يطير في الهواء. فقال: إن الغراب والبعوضة يطيران أيضاً في الهواء. وقيل له: إن فلاناً ينتقل من المشرق إلى المغرب في لحظة واحدة، فقال: إن الشيطان أيضاً ينتقل من المشرق إلى المغرب في لحظة واحدة، ومثل هذه الأشياء لا

قيمة لها. إنما الرجل (الذي يكون جديرًا بهذا الاسم) هو الذي يعيش بين الناس، ويقوم وينام ويتعامل معهم، ويختلط بهم، ولا يغفل لحظة واحدة عن ذكر الله.

حكاية:

في يوم من الأيام كان المؤذن يؤذن لصلاة الفجر ويدعو للصلاة، وقد أوشك الوقت أن ينتهي والشيخ لم يخرج من داره، وذهب المؤذن إلى باب الشيخ، وأذن عدة مرات حتى انتهى الوقت. فخرج الشيخ، وأقام المؤذن الصلاة، وقضيت الصلاة. وجلس الشيخ، وسأله الشيوخ والدرأويش قائلين: أيها الشيخ، ماذا حدث حتى أنك خرجت متأخرًا اليوم؟ فقال الشيخ: لقد أمسكت الدنيا بأذيالي وأخذت تقول لي إن لكل شيء نصيبًا منك، وينبغي أن يكون لي أنا أيضًا نصيب. واجتهدت كثيرًا في الخلاص منها وألححت عليها فلم تتركني. وعندما أوشك وقت الصلاة أن ينتهي، شغلته بالفضل حتى تترك أذيالي. وبعد ذلك أقبلت الدنيا على السيد المفضل وأولاده، ولم يكن لأحد من أبناء الشيخ نصيب من الدنيا سوى الكفاف، باستثناء أبناء السيد المفضل، فقد كانوا جميعًا ذوي مال وثروة. وكان أكثر أبناء الشيخ اهتمامًا بالدنيا هم أبناء السيد المفضل.

حكاية:

ذهب الشيخ أبو سعيد إلى «طوس» مرة، فطلب أهلها منه أن يعظ، فأجابهم إلى طلبهم. وفي وقت الفجر، وضعوا منصة في خانقاه الأستاذ، وأخذ الناس يتوافدون ويجلسون. وعندما اعتلى الشيخ المنصة، قرأ المقرئون القرآن، تكاثرت الناس بحيث لم يعد هناك مكان لأحد، فنهض المعرف وقال: غفر الله لكل من يتحرك من مكانه خطوة. فقال الشيخ: «وصلى الله على محمد وآله أجمعين». ومسح وجهه بيديه وقال: لقد قال كل ما كنت أرغب قوله، وما قاله جميع الرسل، فقد قال «غفر الله لكل شخص يتحرك من مكانه خطوة». ونزل الشيخ عن المنصة، ولم يقل أكثر من هذا في ذلك اليوم.

حكاية:

قال الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز: لقد تكلم مائة من الشيوخ في التصوف، فقال أولهم ما قاله آخرهم. وإذا كانت العبارات قد اختلفت؛ إلا المعنى واحد. وهو «التصوف ترك التكلف». وليس هناك تكلف أكثر من نفسك، فعندما تشغل بنفسك تعجز عنه.

وقال الشيخ: قال الشيوخ والمرشدون: كل ما يليق للخلق لا يليق لله، وكل ما يليق لله لا يليق للخلق.

وكان الشيخ يقرأ القرآن يومًا فلما انتهى الوقت، أخذ يقرأ كل آية من آيات الرحمة، ويترك كل آية من آيات العذاب. فقال له شخص: أيها الشيخ، ليس هذا نظام القرآن. فقال الشيخ:

(شعر):

أعطني الخمر أيها الساقى، وأنت أيها المطرب اعزف على العود.
كي أشرب الخمر اليوم، فقد حان وقت الطرب والسرور.
لقد تهيأت لنا الخمر والمال والحسان الجميلات.
لا يوجد هنا غم، وإن يوجد فهو نصيب قلوب الأعداء!

ثم قال: إن البشرى والمغفرة كلها من نصيبي، أما العذاب فمن نصيبهم. فماذا أصنع والعيب عيبهم! وظهر الشك على ذلك الدرويش، فقال الشيخ: «ذلك رغم أنف أبي الدرداء». وقد ورد الشيخ هذا القول كثيرًا.

* قال الشيخ: قال الشيخ أبو بكر الواسطي: «تعلق الخلق بالخلق كتعلق المسجون بالمسجون».

* وقال الشيخ: طلب سائل من شيخ أن يعظه، فقال له: كل شيء من العلا إلى الثرى ذرة في قدرته، وكل علم لا يصل إلى ذرة من وجود الله، والكلام في الشيء الذي هو ليس

بشيء محال؛ لأن العبارة لا تصل إليه.

* قال الشيخ: وقيل لذلك الشيخ مرة أخرى: حدثنا. فقال: «ما سوى الله فليس له حقيقة فماذا نُكَلِّم».

* قال الشيخ: قال سهل بن عبد الله: «قبيح لمن يلبس الخرقة وهم الأرزاق في قلبه»، فهو لا يعرف أن «أرزاق العباد على الله لا يقوم بها إلا فضله».

* قال الشيخ: كنت عند أبي العباس القصاب في «طبرستان»، وعندما كان الدراويش يأتون إليه كان لكل منهم حاجة وأمنية، فكان يقول: يا إلهي، يلزم لكل شخص حاجة، ولا تلزم لي حاجة، ويلوم لكل شخص وجود ولا يلزم لي وجود، وإنما يلزم لي العدم.

حكاية:

كان الشيخ أبو سعيد يتحدث يوماً في مجلس في «نيسابور»، وعندما اندمج في الحديث، قال في وسط كلامه: «ليس في الجبة سوى الله». وأشار بإصبعه إلى الجبة التي كان يرتديها، فخرج إصبعه منها حيث مس صدره المبارك. وقد حدث ذلك في حضور كثير من الشيوخ مثل أبي محمد الجويني، والأستاذ الأمام أبي القاسم القشيري، والأستاذ إسماعيل الصابوني، وكثير من كبار الشيوخ الآخرين. ولم يستطع واحد منهم الاعتراض على هذا القول، وطاب الوقت للجميع بحيث غابوا عن أنفسهم. وخلع جميع الشيوخ الخرق موافقة للشيخ، ووضعوها في وسط المكان. وعندما أنهى الشيخ حديثه، ونزل عن المنبر، مزقوا جبة الشيخ، وخرق جميع الشيوخ. واتفق الشيوخ جميعاً على ألا يمزقوا مقدار الذراع من الكرباس الذي يحمل علامة إصبع الشيخ، وأن يحتفظوا به؛ لكي يزوره الصادر والوارد في كل وقت.

وبقي ذلك -الذراع- في حوزة السيد الشيخ أبي الفتح وأبنائه. وكان الناس الذين يجيئون إلى «ميهنة» من جميع أنحاء العالم لزيارة الشيخ، عندما ينتهون من زيارة قبره المقدس، يزورون تلك القطعة مع غيرها من آثار الشيخ، ويرون أثر ذلك الإصبع. وقد ظلت في مكانها حتى فترة غارة الغز، ثم ضاعت مع الآثار المباركة الأخرى إبان تلك الغارة.

حكاية:

كان في «نيسابور» درويش يقال له «حمزة التراب» لكثرة تواضعه. وذات يوم كتب رقعة إلى الشيخ، ووقعها، لشدة تواضعه بكلمة: «تراب القدم». فكتب الشيخ هذا البيت على ظهر الرقعة وأرسلها إليه:

«بيت»:

إذا كنت قد صرت ترابًا، فقد أصبحت ترابًا لترابك.

وعندما أصبحت ترابًا لترابك، صرت طاهرًا.

وقد ذكر جدي -جد المؤلف- شيخ الإسلام السيد أبو سعيد أن بعض الناس يعتقدون أن الأشعار التي جرت على لسان الشيخ من قوله، ولكن الأمر ليس كذلك، لأنه كان مستغرقًا هكذا في حضرة الحق بحيث لم تكن له قدرة على قول الشعر، إلا هذا البيت الذي كتبه على ظهر رقعة حمزة، وهذه الرباعية الأخرى التي قالها الشيخ:

«رباعية»:

يا حبيبي! لا توجد بأرض خاوران شوكة

ليس لها شأن معي ومع حالي

ومع لطفك ورقعة جمالك

لا عار علي في بذل مائة ألف روح

أما الأشعار الأخرى كلها؛ فقد كانت مما حفظه الشيخ عن المشايخ.

حكاية:

قال الشيخ: سمعت هذا البيت من أبي القاسم بشر ياسين فقد قال لي يومًا، يا أبا سعيد:

«بيت»:

يلزم رجل محترق الكبد، ضاحك،

وليس مثل هذا الرجل كثير.

* كان الشيخ مسترسلاً في الحديث يوماً وقد جلس إليه كثير من الشيوخ والصوفية، فبكى واحد من القوم بصوت مرتفع حتى تألم الجميع كثيراً لبكائه. فنظر الشيخ إلى ذلك الرجل نظرة قاسية وقال له: «إن شئت أن تقول كما قلت فاقعد كما قعدت، فإن من ثبت نبت ومن صبر ظفر». ثم قال: سمعت أن عقبة بن عامر قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا تم فجور العبد ملك عينيه فبكى بهما ما شاء». ثم قال:

(شعر):

لو أن دونك بحر الصين معترضاً لخلت ذاك سراً باً ذاهب الأثر
ولو دعيت وفيما بيننا سقراً لهون الشوق خوض النار في السقر
* وقال شيخنا أيضاً: دخل رجل على الشيخ أبي الفضل حسن يوماً وقال له: أيها الشيخ، رأيتك في نومي أمس ميتاً، ومحمولاً على نعش. فقال الشيخ أبو الفضل: لقد رأيت هذا الحلم لنفسك، فهم لا يموتون أبداً «فمن عاش لله لا يموت أبداً».

حكاية:

رُوي أن درويشاً كان يتوضأ يوماً، فدخل الشيخ إلى دورة المياه. وكان الدرويش يغسل يده ويقول: «اللهم أعطني كتابي بيمينى». فقال له الشيخ: لتصنع به ماذا أيها الدرويش؟ وماذا ستقرأ في ذلك الكتاب؟ لا ينبغي أن تقول مثل هذا القول، فليس لك قدرة عليه. فقال الدرويش: وماذا أقول إذن أيها الشيخ؟ فقال له: «اللهم اغفر وارحم ولا تسأل».

حكاية:

كان «بابا حسن» إمام الشيخ في الصلاة، وقد كان أمام الصوفية على عهد الشيخ. وذات يوم كان يؤدي صلاة الفجر، ولما قرأ القنوت قال: «تباركت ربنا وتعاليت، اللهم صل على محمد» ثم سجد. وعندما فرغ من الصلاة قال له أبو سعيد: لماذا لم تصل على آل محمد ولم تقل «اللهم صل على محمد وآل محمد؟». فقال بابا حسن: يا شيخ، إن الصوفية يختلفون في هل تجوز الصلوات على آل محمد في التشهد والقنوت أم لا. ولم

أقل ذلك احتياطاً من أجل ذلك الخلاف. فقال الشيخ: إنني لا أسير في موكب لا يكون فيه آل محمد.

حكاية:

عندما كان الشيخ في «نيسابور»، وقد أنكره الناس في جميع الجهات، كان الأستاذ الإمام أيضاً من أولئك المنكرين. فلما جاء إلى مجلس الشيخ، زال عنه ذلك الإنكار؛ وإن كان يراوده أحياناً، نتيجة لضعف الطبيعة البشرية. وفي يوم من الأيام كان الأستاذ الإمام يرافق الشيخ والصوفية إلى أحد الأحياء. وجاء كلب غريب إلى ذلك الحي، فنبحت كلاب الحي دفعة واحدة، وهجمت على الكلب، وجرحته، وأخرجته من الحي. فسحب الشيخ عنان جواده وقال: إن أبا سعيد غريب في هذه المدينة، فلا يليق أن يصنع معه ما صنع مع الكلب. فزال الإنكار والشك عن الأستاذ الإمام، وصفت نفسه تماماً.

حكاية:

كان السيد عبد الكريم خادم الشيخ الخاص من أهل «نيسابور»، قال: كنت صغيراً عندما أحضرني أبي لخدمة الشيخ أبي سعيد. فلما عاد والدي، ووقفت بين يدي الشيخ، وقع بصره على قشة ملقاة في الرواق، فأشار الشيخ إليّ أن أحضرها، فحملتها إليه، فقال لي: بم تسمى هذه في لغتكم؟ قلت: قشة. فقال: اعلم أن الدنيا والآخرة قشة في هذا الطريق، إذا لم ترفعها عنه فلن تصل إلى مقصودك؛ لأن سيد العالم عليه السلام قال: «أدناها إمطة الأذى عن الطريق». ثم قال: كل شيء لا يكون لله يكون حقيراً، وكل شخص لا يكون لله يكون ضيعاً. وحيثما يكون وجودك تكون النار، وحيثما تفنى تكون الجنة.

حكاية:

كان مريد من مريدي الشيخ قادماً من «العراق» إلى «ميمنة» لزيارة الشيخ. وكان قد أحضر له ملابس ثمينة، وأخذ يقول لنفسه طوال الطريق: إنني أحمل هذه الملابس

الجميلة اللطيفة للشيخ، وسوف يسر الشيخ سرورًا عظيمًا بهذه التحف. ولما أصبح على بعد فرسخ من «ميهنة»، قال الشيخ: أعدوا الجواد. فأعدوه وركب الشيخ، وسار الجميع في صحبته حتى وصلوا إلى الصحراء. فتزايدت آمال الدراويش، وظن أن الشيخ خرج لاستقباله من أجل تلك الملابس، وازداد حب الدنيا في قلبه نتيجة لهذا الظن. وأقبل على الشيخ، وقبل أقدامه. وقال له الشيخ: هات الثياب التي أحضرتها من أجلنا. فأحضرها الدراويش في الحال. وأمر الشيخ بتمزيق الثياب جميعها، وعلقوا على كل شوكة قطعة منها. فلما رأى الدراويش ذلك تأثر كثيرًا وانهار.

وقد أراد الشيخ بهذه الحركة أن يظهر للدراويش أن الدنيا لا قيمة لها عنده، وأن ما كان يرجوه من وراء الملابس إنما كان كله حُبًّا في الدنيا، ولا يليق لهذه الطائفة التهالك على الدنيا، ولا النظر إلى العقبى. وبعد ذلك زهد الدراويش في الدنيا، ولما بلغ «ميهنة» أقام على خدمة الشيخ. وتعهده الشيخ برعايته، وأصبح من أعزة هذه الطائفة.

حكاية:

وصل دراويش إلى «ميهنة» يومًا وأسرع إلى الشيخ وقال له: أيها الشيخ، لقد سافرت كثيرًا، وتحملت المشقة، ولم أسترح أو أرّ الراحة قط. فقال له الشيخ: لا عجب في ذلك؛ فقد كنت تبحث في هذا السفر عن مرادك، ولو أنك لم تسافر وتخلت عن وجودك لحظة؛ لاسترحت، واستراح بك الآخرون. فوجود المرء سجنه، وإذا خرج من هذا السجن استراح.

حكاية:

كان هناك سيد في «طوس» يقال له السيد حمزة يملك قصرًا على بوابة «رودبار». وكان الشيخ يحبه كثيرًا، كما كان هو أيضًا مريدًا للشيخ. وكلما ذهب الشيخ إلى «طوس»، دعاه السيد حمزة إلى قصره. وكان الشيخ يجيب دعوته؛ إذ كانت له منزلة كبيرة عنده.

وفي وقت من الأوقات وصل الشيخ إلى مدينة «طوس»، وطلب السيد حمزة، فقبل له إنك لن تستطيع رؤيته، لأنه مشغول منذ أربعين يومًا في الفساد، وإدمان الخمر، والسكر مع

غلمانه وجواريه، وقد جلسوا جميعاً عراة مخمورين. فقال الشيخ: عجباً، لا يجب أن يقل الإثم في مثل هذا القصر عن ذلك. ولم يقل أكثر من هذا، ولم يعترض عليه أي اعتراض. وعندما أخبروا السيد حمزة بوصول الشيخ، أمر بالكف عن اللهو في الحال، وذهب في اليوم التالي إلى الشيخ. وشمله الشيخ برعايته كعادته، ولم يحدثه عن ذلك الأمر، ولم ينقص من تقديره له شيئاً.

حكاية:

عندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز في «نيسابور»، كان الشيخ أبو عبد الله باكو يقيم في خانقاه الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي، وكان قد أصبح شيخاً لها من بعده. وقد تعود أبو عبد الله هذا أن يسأل الشيخ في كل وقت سؤالاً على سبيل الجدل. وكان الشيخ يجيبه عليه. وذات يوم سأل الشيخ قائلاً: أيها الشيخ، إنني أرى منك عدة أشياء لم أرها من شيوخي.

أولاً- أنك تدع الشبان يجلسون في مواجهة الشيوخ. وتضع الأقل مرتبة في نفس مستوى الأعلى مرتبة في جميع الأشياء، ولا تفرق بين الصغير والكبير.

وثانياً- أنك تسمح للشبان بالرقص في السماع.

وثالثاً- إذا خلع درويش خرقة فإنك تشير بإعادتها إليه وتقول: «الفقير أولى بخرقته». ولم يكن شيوخنا يفعلون ذلك.

فقال الشيخ: ألا يوجد شيء آخر؟ فأجاب بالنفي. فقال له الشيخ:

أما بالنسبة للأقل مرتبة والأعلى مرتبة؛ فإن أي واحد منهم لا يعتبر في نظري أقل مرتبة، ذلك أنه عندما يضع قدمه في الطريق، فرغم أنه قد يكون شاباً، فإن الشيوخ يجب أن يضعوا في اعتبارهم أنه من الممكن أن يتلقى في يوم واحد ما لم يتلقوه في سبعين عاماً. ولا يمكن لإنسان يؤمن بهذه العقيدة أن ينظر إلى أي شخص على أنه أقل مرتبة.

وأما عن رقص الشبان في السماع، فإن الشبان لا تخلو أنفسهم من الشهوة، ويغلب

عليهم هوى النفس. ومن المؤكد أن الشهوة تملك جميع الأطراف، فإذا ما صفقوا تبددت الشهوة من أيديهم، وإذا ما رقصوا قلت الشهوة من أرجلهم. وعندما تنقص الشهوة من أطرافهم على هذا النحو؛ فإنهم يستطيعون أن يصنوا أنفسهم من الكبائر الأخرى. ولكن عندما تتجمع الشهوات، والعياذ بالله، فإنهم يعجزون عن صيانة أنفسهم من الوقوع في الكبائر. فالأولى أن يبددوا نيران تلك الشهوة في السماع أكثر منه في أي شيء آخر.

وأما بالنسبة للخرقة التي يخلعها الدراويش، فإن التخلي عنها يتعلق بكل جماعة الدراويش، ويكون موضع اهتمامهم. فإذا لم يكن في متناول أيديهم خرقة أخرى، فإنهم يلبسونه خرقة ثانية؛ لأنهم بذلك يخفون عن عقولهم حمل التفكير فيها، فيسترد الدراويش خرقة، ويكون ذلك من أيدي جميع الدراويش. ولكن هذه الخرقة لا تكون نفس الخرقة التي خلعها.

قال الشيخ أبو عبد الله: لو لم أكن رأيت الشيخ؛ لما رأيت صوفيًا حقيقيًا.

حكاية:

وفي هذا الوقت أيضًا، كان الشيخ أبو عبد الله باكو يجلس يومًا في مجلس الشيخ، وقد نسي نفسه، ووضع قدمًا على قدم مثل السادة. فرآه الشيخ، وكان يتحدث في ذلك الوقت مع شخص في وداعة ولطف. فدعاه ذلك الشخص قائلاً: جعل الله الجنة زادك. فقال الشيخ: لا تلزم لنا الجنة مع حفنة من العرج والمفلوجين والفقراء، فهناك لا يوجد سوى المكفوفين والضعفاء، وإنما تلزم لنا الجحيم؛ ففيها يكون جمشيد والنمرود وفرعون وهامان وهذا السيد، وأشار إلى أبي عبد الله، وأنا، وأشار إلى نفسه. فخجل الشيخ أبو عبد الله، وثاب إلى رشده، وأدرك أنه أساء الأدب، وتاب، وأقبل على الشيخ يطلب المَعذرة. ولم يجلس هكذا مرة أخرى.

حكاية:

كان الشيخ «حبي» خياط الشيخ الخاص. وفي يوم من الأيام كان يخطط ثوبًا للشيخ. وفي وقت القيلولة، وكان الشيخ قد استلقى على فراشه ووقف إلى جواره السيد عبد

الكريم خادمه الخاص وفي يده مروحة يروح بها عليه، دخل الشيخ حبي، وفي يده ثوب الشيخ. فقال له السيد عبد الكريم، أي وقت هذا؟ فقال الشيخ حبي؟ أينما تكون أكون. فوضع السيد عبد الكريم المروحة من يده، وصفعه عدة مرات. فلما بلغ صفعات قال له الشيخ: كفى. فخرج الشيخ حبي وشكا إلى السيد النجار.

ولما خرج الشيخ لصلاة العصر قال له السيد النجار: ما قول الشيخ في أن يتناول الشبان على الشيوخ؟ فأجاب الشيخ: لقد كانت يد السيد عبد الكريم يدي. فلم يقل أحد شيئاً بعد ذلك.

حكاية:

كان الشيخ يعظ في «نيسابور» يوماً، وكان الشيخ أبو القاسم القشيري حاضراً. وفي نفس اليوم كان له نزاع على طاحون يملكها في قرية «حسين آباد»، إذ ادعاها أحد القرويين لنفسه، وأخذ المقرئ يقرأ هذه الآية في مجلس الشيخ: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] فقال له الشيخ: هل تقول لي؟ قل للأستاذ الإمام؛ لأنه يقول إن طاحون حسين آباد ملكي.

حكاية:

وروي أن الشيخ كان يسير يوماً إلى حي من الأحياء في «نيسابور»، ومعه جمع كبير. فألقت سيدة بعض القاذورات من السطح، ووقع جزء منها على ثوب الشيخ. ولم يتأثر الشيخ من ذلك، بينما غضب الجميع وأرادوا أن يفعلوا شيئاً مع صاحب الدار. فقال لهم الشيخ: اهدأوا، إن الشخص الذي يستحق نار الجحيم، يقنعون منه بالقاذورات؛ فمن الواجب أن نشكر الله كثيراً. فهدأ الجميع ولم يؤذوا أحداً، وبكوا كثيراً.

حكاية:

روي أن الشيخ ذهب إلى منزله يوماً، فرأى السيدة فاطمة ابنة السيد أبي طاهر وحفيدة الشيخ، وكانت تعلق خيطاً على مغزل. وكان طرف الخيط قد ضاع منها. فقال لها الشيخ: يا فاطمة، إذا ضاع طرف الخيط منك مرة أخرى فاقرئي هذه الآية حتى تجديه. ﴿وَلَا

تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا ﴿[النحل: ٩٢]﴾ وقرأت السيدة فاطمة هذه الآية، فوجدت طرف الخيط.

حكاية:

رُوي أن الشيخ كان يسير يوماً في «نيسابور» ممطياً جواده، فبلغ باب الكنيسة. وتصادف أن كان اليوم يوم الأحد، وكان المسيحيون قد تجمعوا في الكنيسة. فقال الصوفية: أيها الشيخ، من الواجب أن نراه. فترجل الشيخ عن جواده. ولما دخل الكنيسة، تقدم المسيحيون إليه وعظموه، ووقفوا أمامه في احترام وتجلت الأحوال. وكان المقرئون في صحبة الشيخ، فقال أحد المسيحيين: هل يسمح الشيخ بأن يقرأوا آية. فقال الشيخ حسناً. وقرأ المقرئون بعض الآيات، وغمرت النشوة الجميع وبكوا. ونهض الشيخ وخرج. فقال له شخص: لو أن الشيخ أشار إليهم، لحلوا الزنار جميعاً. فقال الشيخ: إنني لم أعقده لهم حتى أحله.

حكاية:

كان الشيخ يعظ يوماً في مجلس في «نيسابور»، فقال في وسط حديثه: لقد امتلأت الخانقاه من أعلاها إلى أسفلها بالجواهر. فلم لا تجمعونها؟ فتلفت الناس، ظانين أن هناك جواهر يأخذونها، فلم يروا شيئاً. وقالوا: أيها الشيخ، إننا لا نرى جواهر. فقال الشيخ: إنها الطاعة، إنها الطاعة.

حكاية:

عندما كان السيد أبو طاهر ابن الشيخ الأكبر صغيراً، أحضر الصبية في المدرسة لوجه إلى منزل الشيخ كعادتهم. فتقدم السيد حسن -بن المؤدب- إلى الشيخ وقال له: لقد أحضر الصبية لوح السيد أبي طاهر. فقال الشيخ: إلى أي سورة وصل؟ فقال حسن: إلى سورة «لم يكن». فقال الشيخ: ضع فاكهة أمام الصغار. فوضع حسن الفاكهة. وسألهم الشيخ: من كبيركم في المدرسة؟ فأشاروا إلى واحد. فاستدعاه الشيخ وقال له: قل

للاستاذ لا ترسل للصغير لوحًا بسورة «لم يكن» مرة ثانية. أما اللوح الذي تبعته، فابعثه بسورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح: ١].

حكاية:

كانت هناك سيدة عجوز تملك حجرة بجوار خانقاه الشيخ. وكانت تدق دائماً في «هاون» فارغ دون حاجة، لتقلق الدراويش. وكان الدراويش يشكون إلى الشيخ، ولكنه لم يكن يقول شيئاً. وذات يوم خرجت السيدة العجوز، فقال الدراويش: فلنذهب وننزع سقف حجرتها، حتى تنشغل بذلك، ولا تزعجنا. ولم يقل الشيخ شيئاً. وذهبوا وانتزعوا سقف الحجرة. وجاءت السيدة العجوز، ورأت سقف الحجرة مفتوحاً، فقالت: يا أسفاً على رجل بهذا الكبر، وعتاب بهذا الصغر.

حكاية:

رُوي أن الشيخ ذهب يوماً إلى حمام «نيسابور». وجاء السيد الإمام أبو محمد الجويني للسلام على الشيخ، فقيل له إنه ذهب إلى الحمام، فذهب هو أيضاً إليه. ولما دخل، سأله الشيخ: هل هذا الحمام جيد؟ فقال أبو محمد: نعم. فسأله الشيخ: ما سبب جودته؟ فقال: لأن الشيخ فيه. فقال الشيخ: ينبغي أفضل من هذا. فقال: فليفضل الشيخ بقوله. فقال الشيخ: لأنه ليس معك سوى إزار واحد، وسطل واحد، وتلك أيضاً ليست ملكك.

حكاية:

قال السيد الشيخ أبو الفتح رحمة الله عليه: في وقت من الأوقات جاء جمع من «العراق»، وأحضروا للشيخ رداء صوفياً جميلاً مزركشاً. وعندما قدموه للشيخ لبسه. وكان هناك قط تعود أن يطوف حول الشيخ، فتعلق بذلك المرقع، وتبول عليه. فقال الشيخ: لقد قررت أن أرتدي رداء الصوفية. وأكون صوفياً ساعة، فتبول القط على صوفيتي. فخذوا هذا الرداء، وأعطوه للسيد أبي الفتح؛ لأنه صوفي. فخلعوا الرداء عن الشيخ، وأعطوه للسيد أبي الفتح. وكان يروي هذا دائماً على سبيل التفاخر.

حكاية:

سمعت من كثير من الشيوخ ذوي السيرة الحسنة، أنه عندما كان الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز في «نيسابور»، أصبح جميع أصحاب الفرق وأئمة المذاهب من مريديه، وتبدل إنكارهم له اعتقاداً. وكان القاضي أبو بكر الحيري -الذي كان يعتبر من الأئمة الكبار، وواحدًا من أربعة من الشيوخ في «نيسابور» يحملون اسم أبي بكر، وكل من يستعين بهم في الدعاء إلى الله، يحقق الله تعالى حاجته- قد أقام وليمة، ودعا إليها جميع أئمة الفرق، كما دعا الشيخ. وعندما اجتمع جميع الأئمة والكبار، شرعوا يتحدثون في مسألة، جرياً على عادة الفضلاء. وانتهى بهم الحديث إلى التفضيل بين المذاهب، وأخذ كل شخص من فحول أئمة المذاهب يؤكد مذهبه. وأخذت كل طائفة تتمسك بدليل على أحقية مذهبها، وبطلان المذاهب الأخرى، حتى طال الحديث، ولم يصلوا إلى مخلص. واتفق الكبار والأئمة على أن يحتكموا إلى القرآن المجيد، والكتاب الكريم. ووفقاً للنص ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، أمسكوا بالمصحف ليقترعوا على رأي كل مذهب؛ لأن كل ما يظهر من الكتاب العزيز، يكون في منزلة الوحي، ولا يستطيع أي شخص أن يطعن فيه.

وأحضروا المصحف متفقين، وطلبوا من أبي بكر أن يمسه به. فقال: إنه مصحف، وربما يظن شخص أنني أعرف الأوراق. فأخذوا يشيرون إلى كل شخص، حتى اتفقوا في النهاية على إعطائه لأبي سعيد. وقالوا إنه رجل من الأولياء، وعندما يجتمع إعجاز القرآن مع كرامته، سوف يظهر الحق من فحوى الكتاب المجيد، من محكمات الآيات، لا من المتشابهات التي تحتاج إلى تأويل. وسلموا المصحف للشيخ، فأخذه وقال: بسم الله الرحمن الرحيم. لنرى هل المذهب الشافعي مصيب، وهل هو حق؟ وقال: السطر السابع من الصفحة اليمني. وفتح المصحف وأراه للجميع. وكانت أول كلمة في السطر السابع هي: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]. وعندما قرأ هذه الآية، تعجب الجميع من إعجاز القرآن، وقالوا: لقد تم كل شيء الآن، وسنتصر على هذا. ولم

يستفتوا القرآن على المذاهب الأخرى.

وفي هذه الحكاية عدة فوائد:

أولاً- أن تعلم أن المذهب الشافعي حق بحكم نص القرآن المجيد. وليس معنى هذا أن المذاهب الأخرى باطلة. كلا وحاشا.

ثانياً- أن تعلم أنه عندما تواجه مشكلة دينية، وتريد أن تعرف أحد أمرين: أيهما حق يليق أن تعمل به، وأيهما بطل يليق أن تتركه؛ فمن الجائز أن تفتح القرآن على هذه النية. فقد أجمع أئمة المذاهب، وكبار رجال الدين، وأئمة المتصوفة في هذا المحفل، واتفقوا على هذا الحكم، مثل السيد الإمام أبي محمد الجويني، وابنه إمام الحرمين، والقاضي صاعد، وعلي الصندلي، وأبي بكر إسحاق، والأستاذ إسماعيل الصابوني، والأستاذ الإمام أبي القاسم القشيري، وفحول الأئمة الآخرين، وكبار رجال الدين الذين يطول ذكرهم، وكان كل منهم قدوة الدنيا في مذهبه. ولم يعترض واحد منهم على هذا، ولم يقل إنه غير لائق. ثالثاً- إنه يجب في جميع الأمور البدء من ناحية اليمين، وخصوصاً في أمور الدين، وفقاً لما جاء في الخبر عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

رابعاً- أن الاختيار أفضل وفقاً للحديث الذي يقول: «إن الله تعالى وتر يحب الوتر». وكل حكاية من الحكايات التي ذكرت، والتي سوف تذكر، تتضمن كثيراً من الفوائد، ولكن إذا خضنا في شرح كل واحدة منها، لأدى ذلك إلى التطويل والسأم، والحر تكفيه الإشارة.

حكاية:

رُوي أنه عندما كان الشيخ قادماً من «نيسابور» إلى «ميهنة»، خرج من «طوس»، وأخذ يسير منفرداً، حتى وصل إلى بوابة «نوبهار»، والصوفية يسировون من خلفه. وكان هذا في أوائل عهد التركمان، ولم تكن «خراسان» آمنة في ذلك الوقت. فلحق به أربعة أو خمسة أفراد منهم، وأرادوا أن ينتزعوا جواده. فقال لهم الشيخ: من أنتم، وماذا تريدون؟ فقال له:

انزل. فقال الشيخ: لقد أركبني أربعة أشخاص على الحصان، فاصبروا حتى أنزل وخذوه. ولم يكذب قوله، حتى وصل الصوفية. فقال لهم الشيخ: أنزلوني وأعطوهم الحصان. فقال الدراويش: إننا كثرة، ولن نعطيهم شيئاً. فقال الشيخ: لا يليق هذا، فقد وعدتهم به، فأعطوهم لهم. ونفذوا ما أشار به الشيخ. وأخذ التركمان الحصان وذهبوا.

ونزل الشيخ مع الصوفية في إحدى القرى. وعند العصر، أقبل جمع من التركمان، وأعادوا الجواد وحصاناً جيداً آخر، واعتذروا للشيخ كثيراً قائلين: أيها الشيخ إن هؤلاء الشبان لم يعرفوك فسامحهم. ولم يقبل الشيخ الحصانين، وقال لهم: كل ما أنزل عنه لا أركبه ثانية. ولما قال الشيخ هذا، تاب التركمان، وحلوا شعورهم، وذهبوا جميعاً للحج في تلك السنة، بفضل بركة الشيخ.

حكاية:

عندما كان الشيخ في «نيسابور»، كانت هناك سيدة عجوز، تقيم في حجرة فوق خانقاه الشيخ. وكانت ترى الشيخ دائماً، وتذهب إلى مجلس أبي القاسم القشيري، ولا تحضر مجلس الشيخ، أو تستمع إلى حديثه. قالوا لها: أيتها العجوز، إنك ترين الشيخ كل يوم، وتشاهدن كراماته، ولا تحضرين إلى مجلسه قط، وتذهبين إلى مجلس الأستاذ الإمام، فهل ترين هناك شيئاً لا ترينه هنا؟ وكيف يحدث هذا؟ فبكت العجوز في ألم وقالت: ماذا أصنع إن هذا ليس في يدي، فقد دلوني على الأستاذ الإمام، ولم يدلوني على الشيخ.

حكاية:

رُوي أن الشيخ كان يعظ في «نيسابور» يوماً، وقد أمسك في يده عمامة، وقل في وسط حديثه: تلزم ثلاثمائة دينار نيسابوري، وهذه العمامة لمن يقرض حسن ثلاثمائة دينار. فصاحب سيدو عجوز قائلة: أنا أعطيها له. فقالوا لها: أيتها العجوز، إنها ثلاثمائة دينا ذهبي، فمن أين تحضرينها؟ فقالت: أنا أعرف ذلك، فعندما قال الشيخ هذا القول، حسبت ما كنت قد حملته معي من منزل والدي إلى منزل زوجي، وما أعطانيه زوجي، فوجدته ثلاثمائة دينار، وقد وهبتها لما أراد الشيخ. فقال لها الشيخ: بارك الله فيك. وأمر حسن

ابن المؤدب بإعطاء العمامة لتلك العجوز قائلاً: سلها أي دعاء تريد أن أدعوه لها؟ فسألها حسن، فقالت: الدعاء بسلامة القلب. فأبلغ حسن رغبته إلى الشيخ، فضحك وقال لها: يا سليمة القلب، لماذا لم تطلبي جاهاً وضياعاً وعقاراً؟ لقد حصلت على السعادة التي ركعنا من أجلها سبعين عاماً ولم تصلنا نفحة منها.

حكاية:

كان الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز قد جلس يوماً في خانقاهه، وكان سيد «نيسابور» الأجل قد جاء لتحيته، وجلس خلفه. فدخل الشيخ أبو العباس الشقاني فأجلسه الشيخ أمام السيد الأجل، فتألم السيد لذلك، وساوره الشك. فالتفت إليه الشيخ وقال: أيها السيد، إن الذين يحبونك يحبونك من أجل المصطفى، والذين يحبون هؤلاء يحبونهم من أجل الله.

حكاية:

رُوي أن الشيخ كان يسير يوماً في سوق «نيسابور» وفي رفقة جمع من الصوفية، فنزلوا إلى السوق. وكانت هناك جماعة من الشبان يسيرون عراة، وقد تمنطق كل منهم بحزام من الجلد، وحملوا شخصاً على رقابهم. فلما بلغوا الشيخ سأل: من هذا؟ ف قيل له: إنه أمير المقامرين. فسأله الشيخ: بم نلت هذه الإمارة؟ فقال: باللعب المستقيم النظيف. وعندما سمع الشيخ ذلك صرخ قائلاً: لعب لعباً مستقيماً، واللعب لعباً نظيفاً، وكن أميراً.

حكاية:

كان السيد على الطرسوسي مريداً للشيخ، ورفيقاً له على الفائدة، وكان الشيخ يعلمه آداب الأكل وسننه. وذات ليلة كان السيد علي يشرب كأساً، فقال له الشيخ: ما هذا، إن قاع الكأس يكاد يسقط من شرهك. وعندما أعدت المائدة في الليلة التالية، جلس السيد علي في مكان آخر. فلما جاء الشيخ قال: إنني لا أرى السيد علي. ف قيل له: إنه في نهاية المائدة أيها الشيخ. فقال له الشيخ: لأنَّ أحتملك أفضل من أن أحتمل الآخرين.

حكاية:

قال السيد الشيخ أبو الفتح: لما جاء السيد السنكاني إلى الشيخ، كان شاباً ظريفاً يرتدي ملابس حسنة. وحدث أن كانوا يرافقون الشيخ إلى وليمة، وكان من عادة الشيخ أن يسير خلف الجماعة. وأخذ السنكاني يسير أمام الشيخ، وينظر إلى نفسه معجباً. فقال له الشيخ: لا تسر في الأمام. فسار خلف الشيخ. وعندما ساروا عدة خطوات، قال له الشيخ: لا تسر في الخلف، فسار على يمين الشيخ. وعندما ساروا عدة خطوات، قال له الشيخ: لا تسر على اليمين. فسار على يسار الشيخ فقال له: أيها السيد لا تسر على اليسار. فتضايق السنكاني وقال: أيها الشيخ، أين أسير؟ فقال له: اترك نفسك، واستقم في السير. ثم قال الشيخ هذا البيت:

ما شأنك بالتصوف ما دمت تهتم بنفسك،

وماء الحياة هذا في غنى عن البشـر

فصرح السيد السنكاني، وسقط على أقدام الشيخ، ولبى وسافر إلى «الحجاز»، وأصبح من الرجال الصالحين.

حكاية:

قال السيد الشيخ أبو الفتح: كان الشيخ قدس الله روحه العزيز قد جاء من «نيسابور» إلى «ميهنة»، ومعه عدد كبير من الدراويش. وفي اليوم التالي أخذ يعظ على منصة روضته، وجلس إليه كثير من الناس وغمرت النشوة الجميع. وعندئذ علا صياح السكارى وضوضاؤهم؛ فقد كان في جوار الشيخ رجل يسمى «أحمد أبو شره»، يقضي الليل في بيته مع اللصوص، حيث يشغلون بالباطل، وتناول الخمر حتى مطلع الفجر. وكان يحدثون ضجة عظيمة. فتضايق الصوفية، وعامة الناس منهم، وسرى فيهم الحماس فقالوا: لنذهب ونهدم المنزل على رؤوسهم. فقال لهم الشيخ: سبحان الله، لقد انشغلوا بالباطل حتى أنهم لا يحسون بحقوقكم، وأنتم رغم أنكم ترون الحق بهذا الوضوح؛ فإنه لا

يشغلکم حتى لا تحسون بباطلهم. فصرخ الناس وبكوا، ووعدوا بترك هذا الأمر. وانقضی ذلك اليوم ولم يقل الشيخ شيئاً.

قال السيد أبو الفتح: وفي اليوم التالي كنت واقفاً بين يدي الشيخ، فمر أحمد أبو شره خجلاً على الشيخ، ولم يقل له الشيخ شيئاً، حتى اقترب منه. فقال له الشيخ: السلام عليكم، إنا لم نتخاصم، وأنت لنا نعم الجار، وقد أوصى الرسول عليه السلام في حق الجار، فإذا اعترضتك مشكلة فأشركنا فيها حتى نساعدك. فلما قال الشيخ ذلك، نظر أحمد إلى الأرض، وقال: أيها الشيخ، إنني أعاهدك على ألا أفعل هذا قط، وقد تبت عنه. وأصبح بعد ذلك مريداً للشيخ.

ولم يمض وقت طويل حتى أحس الشيخ بدنو أجله، وأخذ يوصي كل شخص بوصيته، فنهض أحمد هذا وقال له: أيها الشيخ، إنني شيخ، ولم أر ضياء المعرفة بعد، وأنت ترحل الآن، ماذا أصنع؟ فأجابه الشيخ: اطمئن فإن الشخص الذي يسقط عليه ضوء هذا الشمع، أقل ما يفعله الله معه أنه يرحمه.

قال السيد الشيخ أبو الفتح أيضاً: إن الشيخ قدس الله روحه العزيز كان يذهب إلى الحمام في يوم الأربعاء. وكان الشيخ أبو محمد الجويني رحمة الله عليه يأتي إلى الخانقاه، ويذهب منها إلى الحمام. وذات يوم كان الشيخ قد ذهب مع أبي محمد الجويني إلى الحمام، فقال له الشيخ: ما سبب هذه الراحة التي يشعر بها الناس من الحمام؟ فقال: إن الإنسان يكون متعباً منهوئاً، فيصب الماء الساخن على نفسه فيستريح. فقال الشيخ: هناك ما هو أفضل من هذا. فقال الشيخ أبو محمد: إن الناس يكونون قذرين طوال الأسبوع، ويطول شعرهم، ولا يحلقونه، فيحلقون، وينظفون أنفسهم، ويصباحون أكثر خفة، فيستريحون. فقال الشيخ: هناك ما هو أفضل من هذا. فقال الشيخ أبو محمد: ماذا يرى الشيخ؟ فقال الشيخ: أرى أنه إذا اجتمع اثنان متخاصمان، فإنهما يجدان الراحة ثانية. فبكى الشيخ أبو محمد رحمة الله عليه وقال: أيها الشيخ، إن ما يتأتى لك من العلم لا يتأتى لأي شخص آخر.

حكاية:

كان الشيخ يتحدث في المجلس يوماً، وكان أحد أبناء الشيخ أبي الحسن الخرقاني حاضراً، فقال الشيخ في وسط الحديث: إن الأشخاص الذين نجوا من أنفسهم منذ عهد النبوة إلى يومنا هذا قد بلغوا عقداً، وإذا أردتم فإنني أعدهم، وإذا كان هناك شخص قد تطهر من نفسه، فإنه يكون والد هذا السيد، وأشار إلى ابن الشيخ أبي الحسن الخرقاني، ثم قال الشيخ: لقد ذكر الشيخ أبو الحسن الخرقاني قدس الله روحه العزيز أن علماء الأمة قد اتفقوا على أنه يجب معرفة الله جل جلاله بالعقل، ولما نظر أبو الحسن بالعقل، رأى نفسه أعمى في هذا الطريق؛ لأنه ما لم يمنحه الله البصيرة ويرشده إلى الطريق؛ فإنه لا يرى ولا يعلم. ولقد ساعدنا كثيراً من الناس، وقدناهم من غرور العقل إلى الطريق.

حكاية:

قال والدي -والد المؤلف- نور الدين بن المنور رحمة الله عليه: إن الشيخ أبا سعيد كان ذاهباً إلى مكان في «نيسابور»، فوصل إلى حي الحرب. ورأى الحوانيت مرتبة، ومملوءة بالفاكهة الناضجة، والمكان أكثر زينة من جميع الأمكنة في سوق «نيسابور». وحين وصل الشيخ إلى ذلك الحي، وسأل عن اسمه، قيل له «حي الحرب»، فقال الشيخ: عجباً.. إذا كان الشخص يرى مثل هذا في حي الحرب، فماذا يمكن أن يرى في حي الصلح؟

روى والدي رحمة الله عليه أيضاً أن الشيخ قدس الله روحه العزيز أراد أن يعظ يوماً. وعندما خرج وجلس على المنبر، وقرأ المقرئون القرآن، سأل الناس أسئلة كثيرة مختلفة. وكان هناك جمع كبير، وسأل كل سؤالاً من نوع مختلف. وأخذ الشيخ ينظر إليهم في صمت حتى سألوا كثيراً. وفي النهاية قال الشيخ هذا البيت:

إذا كفت يدي عن حبيبي في الختن،

لكفاني باورد ونسا وطوس حبيباً.

وصلى الله على محمد وآله أجمعين. ومسح وجهه بيده، ونزل عن المنبر، ولم يقل أكثر من هذا في ذلك اليوم.

وقال والدي أيضًا: في بداية عهد الشيخ بالتصوف، وكان أهل «ميهنة» لا يزالون ينكرونه، أحضر السيد حمويه رئيس «ميهنة» رجلًا فاضلاً من «سرخس» متعصبًا ضد الشيخ، لكي يتحدث إلى الناس، ويصدر فتواه. وجاء هذا الفاضل إلى مجلس الشيخ يومًا. وسأل شخص الشيخ: إلى أي حد يمكن التسامح في الصلاة بثوب ملوث بدم البرغوث؟ فقال الشيخ: إن إمام دم البرغوث هو هذا السيد الإمام، وأشار إلى ذلك الفاضل، ثم قال: سله عن هذه المسألة، وسله عنا.

حكاية:

رُوي أن الشيخ كان يرسل حسن بن المؤدب إلى السيد حمويه كل يوم من أيام الجمعة، ليستفسر عنه، ويعطيه رسالة، ويتحدث إليه. وكان السيد حمويه يسر بذلك، ويفاخر به. وفي يوم من أيام الجمعة في فصل الشتاء كان الجو باردًا جدًا، والشيخ مشغولاً في أمر، فدعا حسن وقال له: اذهب إلى السيد حمويه، وسلم عليه، وقل له إن الجو بارد اليوم. ولم يدع السؤال عنه في هذا اليوم بمثل هذا القول، حتى لا يتأثر ويقول إن الشيخ لم يذكرنا في البرد.

حكاية:

كان الشيخ يتحدث في أحد المجالس يومًا، فقال في وسط حديثه: سوف يأتي يوم لا يستطيع فيه شخص أن يقيم في مكان سنة واحدة، ولا يستريح في صومعة خمسة أيام، ولا يبقى في مسجد يومًا واحدًا.

وقال الشيخ أيضًا: ذهب شاب إلى شيخ وقال له: أيها الشيخ، عظمي. فأخنى الشيخ رأسه ساعة ثم قال: أيها الشاب، هل تنتظر جوابي؟ قال نعم. فقال الشيخ: كل ما سوى الحق جل جلاله لا يستحق الكلام، وكل ما يتعلق بالحق عز وجل لا تحويه العبارة «إن الله تعالى أجلُّ من أن يوصف بوصف أو يذكر بذكر».

حكاية:

عندما كان الشيخ أبو سعيد في «نيسابور»، حملوا إلى جماعة خانقاه الشيخ ذات ليلة صندوقاً به طعام. وكانت هذه الخانقاه بجوار السيد الأجل حسن. ولما حمى السماع وظهرت الأحوال للصوفية انخرطوا في الرقص، فتبدد نوم السيد حسن بسبب رقص الصوفية. وسأل خدومه: ما هذا؟ فقالوا: لقد جاء إلى الشيخ أبي سعيد في هذه الخانقاه صندوق به طعام، فأقاموا به وليمة، والصوفية يرقصون. وكان السيد الأجل ينكر الصوفية، فقال: اصعدوا إلى السطح، واهدموا الخانقاه على رؤوسهم، فصعد خدم السيد الأجل إلى سطح الخانقاه، وانتزعوا سقفها. وأخذوا يلقون الحجارة إلى الخانقاه. فاضطرب الدراويش. وسأل الشيخ عما حدث. فقالوا: إن رجال السيد الأجل يقذفون الأحجار إلى الخانقاه. فقال الشيخ: أحضروا ما قذفوه. فوضعوا جميع الأحجار في طبق، وقدموه للشيخ. فأخذ يمسك بالأحجار واحدة واحدة ويقبلها ويضعها على عينيه وهو يقول: كل ما جرى على الرسول عليه السلام عزيز وطيب، ويجب تحمله بالقلب والروح. ولم يحدث شر كبير أن سقطت علينا هذه الأحجار؛ إذ كيف أرقنا نوم ذلك العزيز. يجب أن نذهب إلى خانقاه محلة «عدني كوبان». ونهض في الحال وركب الجواد، وسار صوفية الخانقاهين في رفقته، وأخذ القوالون ينشدون في الطريق، حتى وصلوا إلى الخانقاه، وطاب السماع في تلك الليلة.

وعندما عاد خدم السيد الأجل إلى القصر باكين متألمين، ظن أن الصوفية ضربوا رجاله. فسألهم ماذا حدث لكم حتى تبكوا هكذا؟ فقصوا عليه ما حدث بالتفصيل. فلما سمع السيد ذلك، ندم على ما أشار به وسأل: ماذا حدث في النهاية؟ قالوا: لقد رحلوا جميعاً. فتألم السيد الأجل، وبكى، وزال عنه كل شك في الصوفية، وأخذ يؤنب نفسه طوال الليل.

وفي اليوم التالي نهض عند الفجر، وأمر بإعداد جواده، وركبه ليذهب للاعتذار للشيخ. وكان الشيخ قد ركب في نفس الوقت ذاهباً مع الصوفية للاعتذار للسيد، فتقابلا

عند مفترق طريق «نيسابور»، واحتضن كل منهما الآخر، وسأله عن حاله. وأخذا يعتذران لبعضهما، ويطلب كل منهما من الآخر أن يعود، حتى قال السيد الأجل: إذا كان الشيخ قد قبل عذري، فليعد حتى أذهب وأعتذر إليه. فأجابه الشيخ: الأمر لك، ورجعا كلاهما إلى الخانقاه. واعتذر كل من هذين العظمين إلى الآخر كثيراً، وصفت نفوس الجميع. وقال السيد الأجل: إذا كان الشيخ قد عفا عني فليحضر إلى منزلي الليلة. وذهب الشيخ في تلك الليلة إلى قصر السيد الأجل، وأعد السيد وليمة فاخرة، وتمتع أهل الخانقاهين بتلك الليلة في القصر. وظهر إعزاز السيد الأجل الكبير للشيخ، وأصبح من مريديه؛ بحيث أنفق من أجله ثلاثين ألف دينار خلال المدة التي قضاها الشيخ في «نيسابور».

حكاية:

رُوي أن درويشاً نهض في مجلس الشيخ، وقص قصة طويلة. فقال له الشيخ: اجلس أيها الرجل لأعلمك كيف تتحدث. فجلس الرجل. وقال له الشيخ: ماذا تريد من هذه القصة الطويلة؟ عندما تريد أن تسأل شيئاً فقل هكذا: إن الصدق أمانة، والكذب خيانة، وأنا في حاجة إلى الشيء الفلاني. فقال الرجل: سأفعل هكذا، هل تأذن لي بأن أقول ذلك ثانية، لأرى هل تعلمت أم لا؟ فقال له الشيخ: قل. فقال الرجل: الصدق أمانة، والكذب خيانة، وأنا في حاجة إلى عبادة الشيخ. فقال الشيخ: بارك الله لك فيها، وخلع العباءة وسلمها إليه. ولما أنهى الشيخ المجلس، ذهب مريدو الشيخ إلى الرجل، وطلبوا منه أن يبيعهم العباءة بمائة درهم فلم يقبل. وأخذوا يزيذونها حتى بلغت ألفاً، فباعها. وأحضروها للشيخ فلم يقبلها. وأعادها إلى ذلك الدرويش، وترك له النقود، وأصبح الدرويش من خواص المريدين.

حكاية:

كان الشيخ يتحدث في «ميهنة» يوماً، وكان حمزة صانع السكاكين، وأحد مريدي الشيخ، وموضع حبه الكثير، يقطن قرية «أزجاه». وكان في كل يوم يكون فيه مجلس الشيخ، يخرج من «أزجاه» في وقت معين، بحيث يصل إلى «ميهنة» في الميعاد الذي

يخرج فيه الشيخ من زاويته، ويجلس في مكانه. وفي هذا اليوم تأخر حمزة أكثر من المعتاد. وأخذ الشيخ يسأل عنه؛ لأنه كان درويشًا حقًا، وسالكًا متحمسًا. في أثناء الحديث وصل حمزة، فالتفت الشيخ إليه وقال ادخل يا حمزة، ثم قال:

«رباعية»:

لقد زينت البيت كله بوجهك

وجعلت وجوهنا مثل النار بخمرك

وزدت سرورنا إلى ستة أمثاله

أسعد الله حياتك فقد أسعدتنا

فانبعث الصباح من المجلس، وظهرت الأحوال.

حكاية:

في يوم من الأيام اعترت الشيخ حال من القبض، فخرج من «ميهنة» إلى «سرخس» كعادته. ولما وصل إلى «دستجرد»، رأى لقمان السرخسي، فسأله: إلى أين تذهب يا أبا سعيد؟ فقال: إنني ذاهب إلى «سرخس»، لأنني منقبض القلب. فقال له: عندما تصل إلى «سرخس» بلغ سلامي إلى سيدها.

حكاية:

قال الشيخ أبو سعيد: كنت عند الشيخ أبي الفضل في «سرخس»، فدخل شخص وقال له: لقد ألم بلقمان مرض، وعجز عن السير، وقال لي احملني إلى رباط «بورجا». وقد مضت ثلاثة أيام منذ نقل إلى هناك لم يتكلم خلالها قط. واليوم قال لي: قل للشيخ أبي الفضل إن لقمان ذاهب فهل تريد شيئًا؟ وعندما سمع الشيخ أبو الفضل ذلك قال: سندهب إلى هناك. ونهض، وذهبنا جميعًا. وعندما رآه لقمان ابتسم، فجلس الشيخ أبو الفضل عند رأسه وأخذ لقمان ينظر إليه وزفر زفرة حارة ولم يحرك شفتيه. فقال واحد من الجميع: لا إله إلا الله. فابتسم لقمان وقال: أيها الشاب، لقد دفعنا الخراج وأخذنا

الصك وبقينا على التوحيد. فقال الدرويش: ينبغي أن تتذكر نفسك أخيرًا. فقال لقمان: هل تأمرني بالعريضة وأنا على أعتابه؟ فسر الشيخ أبو الفضل وقال: إنه يقول الصدق.

ومات -لقمان- بعد ساعة، وهو ينظر إلى الشيخ، ولم يطرأ على نظره أي تغيير. واختلط الأمر على الناس، فقال بعضهم إنه مات، وقال البعض الآخر إنه لم يمت لأن بصره ما زال صحيحًا. وقال الشيخ أبو الفضل: لقد مات، ولكنه لم يغلق عينيه ما دمنا جالسين؛ لأن الأحبة لا يغلقون عيونهم عن الأحبة، ثم نهض الشيخ أبو الفضل، وأغلق لقمان عينيه.

حكاية:

رُوي أنه عندما وصل الشيخ أبو سعيد إلى «قاين» أقاموا له عدة ولائم. وفي أحد الأيام كانوا قد أقاموا وليمة للشيخ، فلما حضر، أرسلوا شخصًا لاستدعاء السيد أبي سعيد الحداد، وكان من عظماء العصر، فقال: لقد مضت أربعون عامًا أكلت فيها من طعامي، ولم أتناول خلالها طعام أحد قط. فأبلغوا الشيخ ذلك. فقال: منذ خمسين عامًا وأنا لم أكل من طعامي، ولا من طعام شخص آخر، وكل ما أكلته كان من طعام الحق، وعرفت أنه له.

حكاية:

وحدث أيضًا عندما كان الشيخ في «قاين» أن كان فيها إمام عظيم يقال له محمد القايني، وكان يزور الشيخ دائمًا، ويذهب معه إلى الولايم. وذات يوم دُعي الشيخ إلى وليمة، فذهب في رفقته. وظلوا يقيمون السماع والرقص حتى أذن المؤذن للصلاة، فقال الإمام محمد: الصلاة، الصلاة. فقال الشيخ: إننا في صلاة، وظل يرقص. فخرج -الإمام محمد- من بين الجميع، وأدى الصلاة، ثم عاد إليهم. ولما فرغوا من السماع، التفت الشيخ إلى جماعة الصوفية وقال: لا يوجد في الدنيا من مشرقها إلى مغربها رجل أعظم وأفضل من هذا الرجل، ولكنه لا علاقة له بالتصوف قدر شعرة.

حكاية:

رُوي أنه اجتمع يوماً عند الشيخ في «نيسابور» جماعة من كبار الصوفية، مثل أبي محمد الجويني، والأستاذ إسماعيل الصابوني، والأستاذ أبي القاسم القشيري، وأخذوا يتساءلون عن الورد الذي يقرأه كل منهم في الليل. ولما جاء دور الشيخ سألوه: ما وردك؟ فقال: إنني أقول كل ليلة: يا رب، هب لل دراويش شيئاً يأكلونه في الغد. فنظر كل منهم إلى الآخر. وقالوا: أيها الشيخ، أي ورد هذا؟ فقال الشيخ: إن المصطفى عليه السلام قال: «إن الله تعالى في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»، فاعترفوا بأن ورد الشيخ أتم من أورادهم.

وفي هذه الحكاية مغزي أراد الشيخ به أن يقول لهم إنكم تقرأون الأوراد، وتصلون من أجل ثواب الآخرة، وطلب المنزلة، وهذا من أجل أنفسكم. وإذا كنتم تريدون الخير، لطلبتموه أيضاً من أجل معاصريكم. وجميع أورادي ودعواتي موقوفة على طلب الخير للغير، وهذا أتم.

وقد وُجد مثل هذا في أقوال أحد كبار الشيوخ؛ فقد كان يقول في مناجاته: اللهم اجعل أعضائي وجوارحي في يوم القيامة من الكثرة بحيث تملأ طبقات الجحيم السبع فلا يبقى فيها مكان لأحد، واجعل كل عذاب سوف تعذبه لعبادك جميعاً من نصيب نفسي، حتى آخذ حقي منها، وأراها كما أريد، وينجو العباد من العقاب.

حكاية:

قال إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: قال لي والدي الشيخ أبو محمد الجويني يوماً: انهض واذهب إلى الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير، واحفظ كل ما يقوله لك، لتذكره لي. فذهبت إلى الشيخ وسلمت عليه. فسألني عن الأحوال، وقال لي: ماذا تتعلم؟ قلت: الجدل، فقال الشيخ: لا ينبغي الجدل، لا ينبغي الجدل. فعدت إلى والدي، وحدثته بما ذكره الشيخ. فقال والدي: لا تتعلم الجدل بعد اليوم، وتعلم الفقه وعلم المذاهب. فسرت وفق هذه الإشارة، حتى وصل علمي إلى هذه الدرجة، ببركة نظريهما.

حكاية:

رُوي أن الشيخ كان يسير إلى مدينة هراة، وفي رففته جمع كبير من الصوفية والمقرئين. ولما وصل إلى قرية «ريكا»، وهي قرية على بعد فرسخين من المدينة، كان بها رجل يدعى الشيخ أبا العباس الريكاني، له أخ كبير من خيرة رجال عصره، وكانا متلازمين دائماً؛ ويملكان كعادة أهل «هراة» جوسقاً، ويقيمان فيه. وقد اعتادا دعوة كل من يصل إلى القرية من الصوفية لينزل ضيفاً عليهما، ويؤديا له واجبات الضيافة. وكانا ينكران السماع. ولما وصل الشيخ إلى القرية، أنزلاه في الجوسق، وأعدا له ما تيسر من الطعام. ولما فرغوا من الأكل قال الشيخ: أنشدوا شعراً. فقال الشيخ أبو العباس: إننا لم نعتد ذلك. فقال الشيخ للقول: تعال وأنشدنا شيئاً. فأنشد القول بعض الشعر، فتملكت الشيخ حال، ونهض، وأخذ يرقص، والجميع يوافقونه. وأظهر الشيخ أبو العباس استنكاره لذلك، فأمسك الشيخ بيده، وجذبه إليه ليرقص معه. وأخذ يجذب نفسه منه، فقال له الشيخ: انظر، فنظر إلى الصحراء في الخارج، فرأى جميع الجبال والأشجار والمباني ترقص مع الشيخ، فاندمج أبو العباس مع الشيخ في الرقص دون وعي، وأمسك بيد أخيه قائلاً له: تعال، فلا طاقة لنا على مقاومة هذا الرجل. ورقص الأخوان كلاهما، وتخليا عن إنكارهما، وأظهرا الرغبة في السماع بعد ذلك.

وأمضى الشيخ اليوم في ذلك المكان. وفي اليوم التالي ذهب إلى مدينة «هراة»، ولما بلغ بوابة المدينة قال: لقد دخل الإسلام هذه المدينة، لكن الكفر لم يخرج منها. وعندما دخل الشيخ المدينة، ذهب إلى الخانقاه التي يقيم فيها خاله، وتقدم خال الشيخ من فوق الخانقاه، ورأى كل منهما الآخر. ولم يفه الشيخ بشيء قط، ورجع من ذلك المكان، وذهب إلى قصر قاضي «هراة» وجلس دون حجاب. وأخبروا القاضي بحضور الشيخ، فجرى إليه عاري القدمين، وجلس أمامه على ركبتيه، وقال له: أيها الشيخ، عظمي. فقال الشيخ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». ولم يقل أكثر من هذا ونهض. وتوسل إليه القاضي أن يبقى ساعة فلم يقبل.

وفي الطريق، تقدم شخص من أهل «هراة» إلى الشيخ، وأمسك بعنان جواده، وأخذ يسير معه. وسأله أثناء السير قائلاً: أيها الشيخ، ما رأيك في الآية التي تقول: ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾؟ [طه: ٥]. فأجاب الشيخ: لدينا في «ميهنة» نسوة من العجائز يقلن إن الله موجود، وليس هناك عرش. وأخذ الشيخ يسير حتى خرج من البوابة، ووصل إلى مكان فيه بئر كبيرة، وقد اعتادوا أن يسموه بئر يعقوب. وكان هناك رجل قد وقف على حافة البئر، فأخذ يصيح قائلاً: تعالي يا جوهر. فأطلت من القصر سيدة عجوز، سوداء اللون، مجردة الوجه، كبيرة الأسنان، قبيحة الشكل. ورأى الشيخ وجماعة الصوفية تلك المرأة. فقال الشيخ: لا يوجد لمثل هذا البحر أفضل من هذا الجوهر.

واتجه الشيخ إلى البوابة التي يسمونها باب السرة. ولما وصل إليها، كان عندها رجل قال كلمة تألم منها الشيخ. وأشار الشيخ إلى أنه لا يوجد على تلك البوابة قبة كما هو الحال في البوابات الأخرى، ثم خرج الشيخ من بوابة المدينة. وكان كثير من الخلق قد خرجوا لوداعه ورؤيته، فالتفت الشيخ خلفه وقال: «يا أهل هراة، إني أراكم بخير، وإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم». ولم يقل الشيخ أكثر من هذا، وسار، ولم يبق في «هراة» ساعة واحدة.

حكاية:

رُوي عن عدة أشخاص من العظماء وأبناء الشيخ أبي عبد الله الأنصاري أن شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري قال: أردت في أوائل شبابي أن أكون صوفيًا. وتمنيت أن يسر الله لي هذا الأمر. وأخذت أمارس الرياضات، وأقوم بخدمة شيوخ الطريقة، وعظماء الدين، وكنت أستعين بالدعاء، لكنني رغم هذا كنت أقول الفاحشة؛ فقد كانت تجري على لساني وظل الأمر على هذا النحو حتى ذهبت إلى «نيسابور» يومًا، وكان بها الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز، فذهبت لزيارته، وكان قد جلس ووقف بين يديه أحد المريدين يقلب لفتًا مسلوقة في مسحوق من السكر، ويعطيه له، فيأكله. ولما دخلت عليه، كانت بيده لفطة أكل نصفها، فوضع بيده النصف الثاني في فمي. ومنذ ذلك الوقت لم تجر

على لساني فاحشة قط، أو شيء غير لائق، وفتح لي باب التصوف. وكل ما يجري على لساني من أقوال إنما هو بفضل نصف اللفتة الذي وضعه الشيخ بيده المباركة في فمي.

حكاية:

رُوي الشيخ أبا سعيد كان قد اقترض في وقت من الأوقات بمدينة «ميهنة» مبلغ خمسمائة دينار ذهبي من أجل الدراويش. وقال لحسن بن المؤدب يوماً: أعد الجواد لأذهب إلى أبي الفضل الفراتي، فهو يستطيع سداد هذا القرض.

وسار الشيخ وفي رفقته جماعة الصوفية. وأخبر درويش أبا الفضل الفراتي أن الشيخ قادم للاقتراض منه. وذكر له ما قاله الشيخ في «ميهنة». فخرج أبو الفضل لاستقبال الشيخ في حفاوة كبيرة، وأنزله في مكان طيب، وأنفق عليه مالاً كثيراً، وأقام له الولايم ثلاثة أيام، ولم يتوان لحظة عن خدمة الشيخ، طوال هذه الأيام الثلاثة.

وفي اليوم الرابع، وقبل أن يتفوه الشيخ بكلمة في هذا الموضوع أو يشير إليه، أعطى أبو الفضل حسن بن المؤدب خمسمائة دينار نيسابوري وقال له: هذه من أجل قرض الدراويش. وأعطاه مائة دينار أخرى، وقال: وهذه من أجل الطعام في الطريق. ومائة دينار ثانية، وقال: وهذه من أجل نفقات السفر.

وذهب حسن بن المؤدب إلى الشيخ، وحديثه بالأمر. فسأل الشيخ أبا الفضل عن الدعاء الذي يدعوه له، فقال: ما يتفضل به الشيخ. فسأله الشيخ: هل أدعو لك الحق سبحانه وتعالى ألا يمنحك الدنيا؟ فقال: لا أيها الشيخ، فلو لم تكن الدنيا، لما جئت إلى هنا، ولما استراح قلبك. فقال الشيخ: يا إلهي لا تدعه للدنيا، واجعل الدنيا زاداً له لا وبلاً عليه. وقد شملته بركة دعاء الشيخ هو وأولاده، فأصبح من كبار الصوفية، ووصل أبناؤه إلى الدرجات الرفيعة، سواء في الدين أو الدنيا، وأصبحوا من مشاهير «خراسان».

حكاية:

عندما كان الشيخ أبو سعيد في «نيسابور» قال لحسن يوماً: انهض وأحضر قوالاً.

وخرج حسن وبحث، فلم يجد أحداً. ولما عجز عن العثور على أحد القوالين، أرشده إلى شاب في حانة. وذهب حسن لإحضاره، فوجده ثملاً. فرجع إلى الشيخ وقال له: لقد بحثت في جميع المدينة فلم أجد أحداً إلا شاباً ثملاً. فقال له الشيخ: ينبغي إحضاره. فأحضر حسن الشاب إلى الشيخ. فقال له الشيخ: أنشدنا شيئاً أيها الشاب. فأنشد الشاب بيتاً مكسوراً، غير مفهوم، لأنه كان ثملاً، ثم استسلم للنوم. وقال الشيخ: هيئوا له نوماً مريحاً. ونام الشاب ساعة، وعندما استيقظ صاح قائلاً: أين أنا؟ فاقترب منه حسن وقال له: لقد طلبك الشيخ لتشد شيئاً. فأخذ يتقدم ببطء، وهو يتعثر في كل خطوة، حتى وصل أمام الشيخ، وقبل أقدامه، وقال: لقد تبتُّ. فربت الشيخ على رأسه، وأرسله إلى الحمام، وطلب من الحلاق أن يحلق له، فحلق له رأسه، وألبسه ثوب الشيخ. وقام بخدمة الدراويش في الخانقاه ثلاثين عاماً بفضل بركة الشيخ.

حكاية:

وحدث أيضاً عندما كان الشيخ في «نيسابور» أن قال يوماً: أعدوا الجواد. فأعدوه. وركب الشيخ، وسار في رفقته جمع من الدراويش. وفي وسط السوق اقتربت من الشيخ امرأة مطربة، ثملة، ذات وجه مكشوف، مزين، فصرخ فيها الدراويش قائلين: ابتعدي عن الطريق. فقال الشيخ: كفوا أيديكم عنها. ولما اقتربت منه المرأة، قال الشيخ:

«بيت»

أهكذا تأتي إلى السوق مزيئاً ثملاً،

ألا تخشى أيها الحبيب أن تقع في الأسر؟

فتملكت المرأة حال، وبكت كثيراً، وذهب إلى مسجد في تلك الناحية، ونادت واحداً من مريدي الشيخ. فقال له الشيخ: اذهب لترى ماذا تريد. فذهب الدراويش، ووضعت المرأة كل ما كانت تلبسه من ثياب وحلى في إزار، وأعطته للدراويش، وطلبت منه أن يوصلها للشيخ. فأحضرها الدراويش للشيخ، وأبلغه رسالتها. فقال الشيخ: باركها الله. وأمر بأن ينفقوا كل ما تخلت عنه المرأة في شراء الحلوى والخبز والبخور الزكي. واتجه

الشيخ وجماعة الصوفية إلى الصحراء لتأدية الصلاة في المدينة. وكان جمع كبير من عامة الخلق يسرون خلف الشيخ، فأحضر الحمالون الطعام، ووضعوه كله أمام الجميع، ودعوهم إليه. ولم يشاركهم الصوفية. ووقف الشيخ مع الصوفية في ناحية ينظرون إلى الناس، ووضعوا العود والبخور على النار، وأخذ العود يحترق، وانتشرت رائحته في الهواء، وغمرت النشوة الشيخ، فأخذ يصرخ، قائلاً: كل ما يأتي بالنفس، يذهب بالدخان والريح. وعندما فرغ الناس من الطعام ذهب الشيخ إلى المدينة.

وظلت المرأة المطربة ثابتة على توبتها، وأصبحت من جملة السيدات الصالحات، ببركة كرامة الشيخ قدس الله روحه العزيزة.

حكاية:

قال الشيخ أبو الفتح رحمة الله عليه: إنه عندما كان في «نيسابور» كان سيف الدولة واليًا عليها، وكان من جملة السلاطين الكبار. وذات يوم جاء لزيارة الشيخ في خانقاه، وبكى كثيرًا، وأظهر تواضعه. وقال: أرجو أن يقبلني الشيخ ابنًا له. فقال له الشيخ: يا إبراهيم، لقد أحرزت درجة رفيعة، فلا ينبغي أن تعجز عن القيام بحقها. فقال: سأقوم بها إن شاء الله ببركة همة الشيخ. فقال له الشيخ: هل تعاهدني على ألا تظلم، وتقصّر أيدي الجنود حتى لا يظلموا الرعية؟ قال: أعاهدك. فقال له الشيخ: لقد قبلتك ابنًا لي. فعظمه سيف الدولة وخرج. واتبع العدل والسيرة والحسنة حتى اشتهر بالعدل والإنصاف في «خراسان». وكانوا يضربون المثل بمروءته، بفضل بركة الشيخ.

حكاية:

عندما كان الشيخ في «نيسابور»، حدث يومًا أن كان يعظ في خانقاه الأستاذ الإمام. وفي أثناء عودته من هناك إلى محلة «عدني كوبان»، قابله في الطريق إبراهيم ينال أخو السلطان طغرل. فلما اقترب من الشيخ، ترجل عن جواده، وأحنى رأسه تحية للشيخ. فقال له الشيخ: احن رأسك أكثر. ففعل. فقال الشيخ: احنها أكثر. فأحنها حتى اقتربت من الأرض، فقال الشيخ: انتهينا، اركب بسم الله. فركب، وسار الشيخ إلى خانقاه.

وسأل الدرويش نفسه ما هذا الذي فعله الشيخ مع أخي السلطان طغرل؟ فالتفت إليه الشيخ وقال: أيها الدرويش، ألا تعرف أن كل من يسلم علينا إنما يسلم علينا من أجل الله؟ إن قلبي هو القبلية التي يتقرب إليها الخلق، ولست أنا المقصود في نفسي، إنما المقصود هو الحق جل جلاله. وكل تبجيل للحق سبحانه وتعالى كلما كان أقرب إلى الخشوع كان أكثر قبولاً. ولهذا أمرت إبراهيم بنال بتبجيل الله تعالى، لا بتبجيل شخصي. ثم قال الشيخ: لقد جعل الله الكعبة قبلية المسلمين ليسجد الخلق له، أما الكعبة نفسها فلا قيمة لها. وجعلنا قبلية الخلق ليعترموه فينا، ولا قيمة لنا بأنفسنا. فسقط الدرويش على الأرض، وأدرك أن ما يفعله الشيوخ لا يصل إليه تفكير أي شخص، وأنه لا يمكن الاعتراض على ما يفعلونه لا بالظاهر ولا بالباطن؛ لأنه لا يمكن أن يكون إلا حقاً.

حكاية:

في رواية صحيحة نقلاً عن السيد الإمام أبي علي العثماني أنه قال: سمعت الشيخ أبا سعيد يقول: رأيت المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في النوم، وعلى رأسه تاج، وفي وسطه حزام. وقد وقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عند رأسه، ووقف أبو القاسم الجنيد وأبو بكر الشبلي بين يديه. فسلمت عليه وسألته: «يا رسول الله ما تقول من أولياء الله؟»، فقال المصطفى: «هذا منهم، وأنت آخرهم، فإذا مضيت أنت لشأنك لا مذكر أحد بعدك» وأشار إلى كل واحد منهم.

ويقول جامع هذه الأقوال -المؤلف- سمعت الإمام عبد الرحيم يقول في «طوس» إنه سمع والده السيد الإمام عبد الكريم الإزجاعي يقول: سمعت الشيخ أبا سعيد بن أبي الخير يقول: رأيت المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في النوم، فقال لي: يا أبا سعيد، كما أنني آخر الأنبياء، فأنت آخر الأولياء، ولن يكون بعدك ولي. وخلع خاتماً من يده وأعطاه لي.

حكاية:

في وقت من الأوقات كان الشيخ يعظ في «ميهنة». وفي أثناء ذلك وصل درویش من

ما وراء النهر، ودخل إلى المكان وجلس. وأتم الشيخ المجلس في ذلك اليوم، وحياء الدرويش، وأقام لديه ثلاثة أيام. وكان يجلس كل يوم في مجلس الشيخ، والشيخ يلتفت إليه، ويقول أقوالاً طيبة. وفي اليوم الرابع وقف الدرويش في وسط المجلس وصاح قائلاً: أيها الشيخ، أريد أن أعرف أي رجل أنت، وما أحوالك؟ فقال له الشيخ: أيها الدرويش: أنا رجل لا أربط كيسي، ولا أتعارك مع الناس. ولما سمع الدرويش ذلك القول جلس. وعندما فرغ الشيخ من الحديث أسرع الدرويش عائداً إلى بلده.

وكان في ما وراء النهر شيوخ كبار، اعتادوا أن يجلسوا في حلقة، ويتبادلون فيها الحديث. فلما جلس بينهم، وتحدث كل منهم في موضوع، وجاء دوره قالوا له: هيا، حدثنا عما رأيت في «خراسان». فقال: رأيت في «ميهنة» شيخاً كان يعظ وعظاً جيداً لا أذكره كله، وقد سألته أي رجل أنت، وما أحوالك؟ فقال لي: أنا رجل لا أربط كيسي، ولا أتعارك مع الخلق. فنهض الشيوخ دفعة واحدة، وتوجهوا إلى «خراسان»، وسجدوا تعظيماً للشيخ، قائلين إن مثل هذا الشخص يستحق التعظيم، لأنه لم يبق له من نفسه شيء قط.

حكاية:

عندما ذهب الشيخ إلى «نيسابور»، ظل أبو القاسم القشيري لا يراه عاماً، وكان منكراً له، بيد أن الناس كانوا ينقلون إليه كل ما يفعله الشيخ، وينقلون إلى الشيخ أيضاً كل ما يصنعه الأستاذ الإمام، وكلما كان الأستاذ الإمام يتحدث في حق الشيخ مظهرًا إنكاره له، كانوا يخبرون الشيخ بذلك، ولم يكن الشيخ يعقب عليه بشيء.

وذات يوم قال الأستاذ الإمام: ليس هناك ما هو أكثر من أن أبا سعيد يحب الحق سبحانه وتعالى، والحق سبحانه وتعالى يحبنا. ويوجد فرق كبير بين الحاليين، فأنا كالفيل، وأبو سعيد كالبعوضة.

وقال رجل هذا القول إلى الشيخ فقال له: اذهب إلى الأستاذ الإمام، وقل له: أنت البعوضة أيضاً، أما أنا فلست شيئاً قط، ولا جود لي. فذهب الدراويش وأبلغ الأستاذ

الإمام هذا الكلام، فلم يذكر بعد ذلك شيئاً يسيء إلى الشيخ. ثم جاء إلى مجلس الشيخ، وتبدل ذلك الإنكار بالألفة. وقد دونت هذه الحكاية في ذلك الوقت.

حكاية:

وأيضاً عندما كان الشيخ في «نيسابور»، مرض أحد الأئمة الكبار، فذهب الشيخ لعيادته، وجلس إليه. وبينما كان الشيخ يسأله عن حاله، دخل جمع من وكلاء أعمال هذا الإمام، وأخذ أحدهم يقول يلزم لفلان كذا من البذور، ويقول الآخر تلزم عمارة لفلان، وظلوا يتحدثون على هذا النحو، وهو يجيبهم، وقد انهمك في الحديث تماماً، ولما تنبه لنفسه، اعتذر للشيخ، فقال له الشيخ: الأفضل للسيد الإمام أن يموت. فأفاق الإمام لنفسه، وأدرك أنه أخطأ، وأن الحق في جانب الشيخ، فاعتذر إليه قائلاً: إن نظري لا يرقى إلى حيث يضع الشيخ قدمه. واستغفر عن ذلك.

حكاية:

وأيضاً عندما كان الشيخ في «نيسابور»، حدث أنه كان ذاهباً يوماً إلى مقبرة الحيرة. وعندما بلغ قبور المشايخ، رأى هناك جماعة كانت تشرب الخمر، وتدق الدفوف، فثار الصوفية. وأرادوا أن يعتدوا عليهم، فمنعهم الشيخ. ولما اقترب منهم قال لهم: جعلكم الله مسرورين في الآخرة، على نحو ما أنتم عليه من السرور في الدنيا. فنهضوا جميعاً، وقبلوا أقدام الشيخ، وسكبوا الخمر، وحطموا الدفوف وتابوا، وأصبحوا من خيرة الرجال بفضل بركة الشيخ.

حكاية:

كان الشيخ أبو سعيد ذاهباً إلى «مرورود» ولما وصل «بغشور»، وجدها مدينة سيئة، ووجد أهلها رجالاً أخياراً، عظماء، أكثرهم من الأئمة، وأهل التقوى. وكان في «بغشور» ثلاثمائة رجل من أهل الفتوى والدين. وكان جميع أهل المدينة صالحين. ويقال إنه في وقت من الأوقات أراد واحد من عمال السلطان أن يفسد في تلك

المدينة، فاجتمع أهلها، سواء العوام منهم والخواص، الصغار والكبار، وقالوا: لن ندع أحداً ينشر الفساد في مدينتنا، أو يرتكب معصية، أو يعلم أبناءنا ممارسة الفساد. وبلغ الصراع بينهم وبينه مدى بعيداً، ولم يستسلموا له في النهاية، أو يتركوه ينفذ مأربه.

وعندما وصل الشيخ «بغشور» قال: هذه المدينة جحيم لأهل الجنة. وسار منها إلى «مرورود». ولما رأى القاضي حسين رحمة الله عليه الشيخ أبا سعيد في هذه المدينة، أصبح من مريديه، وأقام الشيخ هناك ثلاثة أيام.

وكان أحد الدراويش يحتفل بختان ولده، ودعا الشيخ والصوفية، فذهبوا إليه. وبعد أن فرغوا من تناول الطعام، أقاموا السماع. وغمرت النشوة الشيخ، وركب جواده على تلك الحال، وذهب إلى الخانقاه والصوفية في رفقته، والقوالون ينشدون، وأخذوا يسرون على هذا النحو، حتى بلغوا قلب المدينة. وأنكر الناس عليهم ذلك، وذهبوا إلى القاضي حسين، وأطلعوه على ما حدث. فكتب حسين رقعة إلى الشيخ يقول له فيها: إن الناس يظهرون إنكارهم، ويشكون في هذه الحركة. فكتب الشيخ على ظهر الرقعة هذا البيت، وأعادها إليه:

«بيت»

لقد صار هذا الطبع السيئ تعويذة لذلك

الوجه الجميل، وإلا لأصابته عين سوء

وعندما قرأ القاضي هذا البيت، بكى، وزال الإنكار عن الناس.

حكاية:

رُوي أنه عندما ذهب الشيخ إلى «مرو» وحدث ما حدث من الشيخ أبي علي سياه والسيد الخباز، على النحو الذي مر ذكره من قبل، خرج الشيخ من الخانقاه وأخذ يسير إلى الصحراء. وكان أحد السادة يسير في ركابه بحكم أنه من مريديه. ولما بلغ الشيخ قصر السيد، أمسك بعنان جواد الشيخ، ودعاه قائلاً: يجب أن يدخل الشيخ قصرى، ويشرفني

بزيارته. فدخل الشيخ والصوفية القصر. وكان به عمود كبير ترتكز عليه عدة أخشاب، وكانت أكثر العمارات محملة على عمود على هذا النحو. وعندما وقع بصر الشيخ على ذلك العمود قال: «لاستوائك حملت ما حملت». وما أن ذكر الشيخ هذه العبارة، حتى قال السيد: حقاً أيها الشيخ، لقد أنفقت كثيراً على هذا العمود، وطففت كثيراً، وتحملت المشاق حتى أحضرته إلى هنا، ولا يوجد عمود أكبر منه في المدينة كلها. فقال الشيخ: سبحان الله! أين نحن، وأين هذا الرجل؟! ونهض وبارح القصر، ورفض البقاء، رغم إلحاحهم عليه، وذهب من هناك إلى رباط عبد الله المبارك، ولم يقيم بمرو، وعاد إلى «ميهنة».

حكاية:

قال السيد الشيخ أبو الفتوح رحمه الله: عندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز في «نيسابور»، أحضروا له ثوباً خيط حديثاً، وغسلوه، ووضعوه على الحبل ليجف، فضاع الثوب. وأخذ كل شخص يقول من الذي يجرؤ على عمل كهذا؟ وكان الشيخ قد جلس في رواق الخانقاه فلم يقل شيئاً. وكان هناك رجل مسن جلس بجوار الشيخ أبي سعيد، وكان أبو سعيد يحبه كثيراً. وقال الصوفية سنبحت في الزوايا، ونرى أين نجد الثوب. وبدأوا بالرجل الذي كان يجلس إلى جوار أبي سعيد، وفتشوه، فوجدوا ثوب أبي سعيد مربوطاً على وسطه. ولما رآه أبو سعيد قال: أخرجوا متاعه إلى الطريق. فأخرجوه إلى باب الخانقاه، وخرج الرجل، وذهب ولم يره أحد بعد ذلك مرة ثانية.

حكاية:

رُوي أن تاجرًا كان قد أحضر للشيخ جارية تركية، وكانت تلك الجارية تقوم بخدمة الشيخ، وتعتقد فيه اعتقاداً شديداً، فمنحها الشيخ لابنه السيد أبي طاهر. وجاءت إلى الشيخ وبكت وقالت له: أيها الشيخ، لا أدري لماذا تبعدني عن خدمتك؟ فقال لها الشيخ: إن أبا طاهر قطعة مني، وأنا لا أبعدك عن خدمتي عندما تكونين عنده. فذهبت الجارية إلى خدمة أبي طاهر، وظلت في الوقت نفسه تقوم بخدمة الشيخ، وأصبحت موضع إعجاب الجميع في تدينها وتقواها، حتى لقد قال لها الشيخ، في يوم من الأيام:

«بيت»

من الذي أتى بك من التركستان

قولي له يذهب ويحضر مثلك.

وكانت تلك الجارية والدة السيد أبي الفتح.

في أقوال الشيخ أبي سعيد التي قالها :

* قال أبو سعيد: كنت أسير حتى وصلت إلى قرية على حدود بلاد الجبل يقال لها «طرق» فنزلت بها، وسألت: هل كان يوجد هنا أحد من الشيوخ؟ فقالوا أجل، شخص يدعى «دادا». فسرت إلى قبر ذلك الشيخ، وزرته فشعرت بالراحة التامة. وخرجت جماعة من القرية، فسألته: هل رأى أحد «دادا» لأسأله عنه؟ فأجابوا: يوجد رجل رآه في أواخر أيامه. فأرسلت شخصاً ليحضره. وكان رجلاً ذا هيئة فسألته: أيها الشيخ، هل رأيت دادا؟ فأجاب: كنت صغيراً عندما رأيته. قلت: ماذا سمعت منه؟ قال: لم تكن لدي القدرة على أن أفهم كلامه، ولكنني أتذكر قولاً من أقواله. فطلبت إليه أن يذكره. فقال: دخل عليه صوفي ذات يوم وحياه وقال له: لقد أسرع إليك أيها الشيخ لأنال الراحة على يديك، فقد طفت العالم، ولم أحصل على الراحة قط، ولم أر مجرباً. فقال له دادا: أيها الغافل، لماذا لم تسعد الآخرين لتستريح أنت، ويستريح بك الحق أيضاً؟

قلت: لقد قال كلاماً عظيماً، وتم مقصودنا، وتعبت أنت، فعد إلى بيتك. ثم التفت الشيخ -أبو سعيد- إلى واحد من القوم وقال: «ما كل هذا إلا نفسك: إن قتلتها وإلا قتلتك، وإن صدمتها وإلا صدمتك، وإن شغلتها وإلا شغلتك».

ثم قال الشيخ: «لا يصل المخلوق إلى المخلوق إلا بالسير إليه، ولا يصل المخلوق إلى الخالق إلا بالصبر عليه، والصبر عليه بقتل النفس والهوى» ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى وعده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴿[التوبة: ١١١].

حكاية:

قال الشيخ: في يوم من الأيام مر رجل دهري على حلقة أبي الحسن النوري، وكان يتحدث عن الحق ويقول: إن الصوفية يسمون الله «الحق» في لغتهم، وفي كل لغة يسمون الله عز وجل باسم آخر، فبعضهم يسميه «الرحمن» لأنه يمنحهم الرزق. وبعضهم يسميه «الرحيم» لأنهم يريدون الجنة، وبعضهم يسميه «الملك» لأنهم يريدون المنزلة. وكل شخص يحتاج إلى شيء يسميه باسم ذلك الشيء. والصوفية يسمونه «الحق» لأنهم لا يمدون أيديهم إلى غيره، ولا يتطلعون إلى شيء. ثم قال: وقولهم أكثر طهرًا، لأنهم يقولون الحق. وعندئذ قال الدهري لأبي الحسن النوري: أولئك الذين يقولون «الحق» ما معنى قولهم هذا؟ فقال: معناه، ذلك الذي يغمر الخلق بنعمه الكثيرة، وهو في غنى عنهم جميعًا.

ثم قال الشيخ: إنه السبحان، وأطهر من كل ما يقولون وما يفكرون. ولله عز وجل تسعة وتسعون اسمًا في القرآن والتوراة والإنجيل والزيور. وأعظم هذه الأسماء السبحان، وعندما تقول السبحان؛ فقد قلتها جميعًا. وإذا قلتها جميعها. ولم تقل السبحان، فكأنك لم تقل شيئًا. وكلها مرتبطة بهذا الاسم، فإذا ما قلته، تفتحت لك جميعها، وانمحت الذنوب. وكما أن المسبحة تتكون من الألف حبة على رأسها واحدة كبيرة تسمى المؤذن، وإذا ما تقطعت انفرطت جميعها، كذلك عندما تقول السبحان تجدد أسماء الله جميعها. فيجب أن تجتهد كثيرًا في أن تقول السبحان.

وجميع المخلوقات تقول «سبحان» ولكنك لا تسمعها لما أنت فيه من غفلة. فهذه البلابل التي تتغنى بالآلاف الألحان تقول سبحان الله، ولكنها لا تسمع إلا الألحان. والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

حكاية:

قال الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز: رأني بعضهم في النوم أتحدث وأنا ميت

وذقني ملثمة، وأنا أنكلم. وكان شخص يقول: لا تتحدث إلى الناس، وإذا تحدثت فقل كما قال الشيخ: حين مت بقي هو فقط. «مات العبد وهو لم يزل».

قرأ مقرئ هذه الآية أمام الشيخ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] فقال الشيخ: لقد قال المفسرون في هذه الآية: أراد به فتح «مكة»، وأنا أقول إنه لم يذكر القسم من أجل فتح «مكة»، وإنما أراد به لقاء الإخوان.

* * *

حكايات وفوائد

جرت هذه الفوائد متفرقة على لسان الشيخ أبي سعيد المبارك:

* قال شيخنا إن عمر بن الخطاب سأل كعب الأحبار: أي آية في التوراة وجدتتها أكثر إيجازاً؟ فقال كعب: وجدت في التوراة أن الحق سبحانه وتعالى يقول: «ألا من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني» وقد كتب في مقابل هذا: «قد طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشوق».

* قال الشيخ: قال بايزيد البسطامي: إن الحق سبحانه وتعالى فرد فينبغي أن تبحث عنه بالتفريد، وأنت تبحث عنه بالمداد والورقة، فكيف تجده؟

* قال الشيخ: قال بعض الحكماء: «ولدت باكياً والناس يضحكون، فاجتهد أن تموت ضاحكاً والناس ييكون».

«بيت»

إنني أضحك عندما يتحدثون عنك،

وتصعد روحي وأنا ضاحك

* قال الشيخ إن الشبلي قال: كل ما أطلع على مقدار ذرة من علم التوحيد يعجز عن حمل بعوضة، من ثقل ما وضع على عاتقه.

* قال شيخنا:

«بيت»

منذ اعتنقت عشقك،

طردني الثعلب الأعرج من عريني.

* قال شيخنا: «أشرف كلمة في التوحيد قول النبي ﷺ: «سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته».

* قال الشيخ: قال يوسف بن الحسين: كل من وقع في بحر التوحيد يزداد ظمأ كل يوم، ولا يرتوي أبداً، ولا ينطفئ ذلك الظمأ إلا بالحق.

* قال شيخنا: إن الجنيد قال: ذلك التوحيد الذي للصوفية، من قبيل فصل الحديث عن القديم، والخروج من الوطن، ورؤية المحن، وترك ما يعرف وما لا يعرف، وبدلاً من هذا كله يكون الحق.

* قال الشيخ: جاء رجل إلى ذي النون المصري وقال له ادع لي. فقال ذو النون إذا كان لك سبق في علم الغيب يكون جميع الدعاء سابق لك في علم التوحيد. وإلا فكيف ينجي صياح النظارة وصرائحهم الغريق؟

«بيت»

لو أنني حملت حبك معي إلى القبر،

أصبح، وإن كنت أرى منك الفضل

* قال الشيخ: سئل السيد أبو الحسن البوشنجي رحمة الله عليه: ما الإيمان؟ وما التوكل؟ فقال: الإيمان: أن تأكل مما تجده أمامك، وتمضغ اللقمة وأنت مرتاح القلب، والتوكل: أن تعلم أن ما لك لن يفوتك.

* قال الشيخ: إن أبا عبد الله الرازي قال: عصف بي البرد والجوع، فتكاسلت -عن

القيام للصلاة- وسمعت هاتفاً يقول لي: هل تظن أن العبادة صلاة وصوم؟ أن تخضع نفسك لأحكام الله تعالى أفضل من الصلاة والصيام.

* سئل الشيخ: ما التصوف؟ فقال: التصوف كله شرك. فقالوا: لماذا أيها الشيخ؟ فقال: لأن التصوف حفظ القلب من الغير والسوى، ولا يوجد غير أو جزء.

* قال الشيخ: كان الجنيد قد جلس يوماً مع جماعة من الدراويش وأخذ يتحدث في أفضل الحق ونعمه جل جلاله. فقال درويش «الحمد لله». فقال الجنيد: قل الحمد تآمماً كما قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. فقال الدراويش: ومن يكون هؤلاء العالمون حتى يقرنوا به؟ فقال الجنيد: قله تآمماً لأنك عندما تقرن الحديث بالقديم يتلاشى المحدث إلى جانبه ويبقى القديم.

* قال الشيخ: كان الشبلي يقول كثيراً: «الله، الله، الله». فسأله لماذا تقول الله، الله، ولا تقول «لا إله إلا الله» فأجاب: إنني أخجل أن أذكره على لساني بالإنكار، وأخشى أن أموت وأنا أقول «لا إله» ولا أصل إلى «إلا الله».

قال الشيخ: «لا إله» طريق التصوف. و «إلا الله» نهايته، وما لم يستقم الشخص في «لا إله» سنوات، لا يصل إلى «إلا الله».

* قال الشيخ قال معاوية بن أبي سفيان: حيث تكفي الشياطين أمر بالسيف، ولو أن ما بيني وبين الخلق شعرة ما انقطعت؛ لأنه عندما يجذبونها أرخيها، وعندما يرخونها أجذبها.

* قال الشيخ: يقولون في كيلة ودمنة إن الشخص لا يقدر على السلطان القوي إلا إذا سلمه رقبته. ومثل هذه الأعشاب الغضة، فهي كلما هبت عليها الريح، أسلمت نفسها لها لتلقيها على الأرض، فتنبج في النهاية. أما الشجرة الكبيرة التي لا تستسلم، فإن الريح تقتلعها من جذورها. وعندما ترى الأسد وتشعر بالخوف منه، تخرج على الأرض، وتواضع حتى تنجو؛ لأن الأسد قوي ولكنه كريم. ولا يخدعك العدو الضعيف؛ لأن

البغل القوي ينفر من التبن الضعيف، بل إنه يهلكه. والنار لا تحرق فتيلة على نحو ما تحرق العداوة قبيلة. والعتاب أفضل من الحقد الدفين. وجرح الناصح الأمين أفضل من سلام العدو المبين.

* قال الشيخ: مثل الأدب للأحمق كالماء تحته الحنظل، كلما شربت منه أكثر، ازداد مرارة.

* قال الشيخ: إن العاقل هو الذي عندما يعرض له أمر من الأمور يجمع الآراء جميعاً وينظر فيها ببصيرته، حتى يخرج منها بالصائب، ويترك الآخر. كالشخص الذي يضيع منه دينار في التراب؛ فإنه إذا كان ماهراً، جمع التراب الذي في تلك الناحية، ونخله بغربال حتى يظهر الدينار.

* قال الشيخ: كان لأعرابي ابن تُوْفي فجزع عليه كثيراً. فقالوا له: اصبر فقد وعد الحق الصابرين بالثواب. فقال: كيف لمن كان مثلي أن يصبر على قدرة الحق سبحانه وتعالى، فوالله إن الجزع منه أحب إليه من الصبر، لأن هذا الصبر يسود القلب.

* ذكر شيخنا عن الشبلي أنه قال: كان هناك صديقان تعودا أن يصحبا بعضهما في الإقامة والسفر. وتصادف أن اضطرا إلى أن يعبر البحر. ولما وصلت السفينة إلى منتصف البحر، صعد أحدهما على حافتها فسقط في الماء قضاء. فألقى الصديق الآخر بنفسه في الماء خلفه. وأوقفوا السفينة ونزل الغواصون إلى الماء وانتشلوهما سالمين. وبعد أن استراحا ساعة قال الصديق الذي سقط أولاً لصديقه: لنفرض أنني سقطت في الماء فما الذي أوقعك أنت؟ فقال: لقد غبت بك عن نفسي حتى ظننت أنني أنت.

* قال الشيخ: كان للخليفة ابنة عم يحبها، وكانا قد جلسا يوماً على حافة بئر فسقط خاتم الخليفة فيها، فخلعت الفتاة خاتمها وألقته في البئر. فسألها الخليفة: لم فعلت هذا؟ فقالت لقد جربت الفراق عندما بعد كل منا عن الآخر، فلم أرض أن يشعر خاتمك بوحشة الفراق، فجعلت خاتمي مؤنساً له.

* قال الشيخ:

(شعر)

يا من وجهك مثل النهار دليل للموحدين،
ويا من شعرك مثل ليل الملحج في اللحد.
يا من أنا، مثلك، مقدم على جميع العشاق،
أنت المقدم على الحسن كما تقدم على الكلام «قد».
إن المكي يفخر بالكعبة والمصريين بالنيل،
والمسيحي يفخر بالأسقف، والعلويون بالجد.
وأنا عبدك أفخر بعينيك السوداءين تلك،
الباديتين تحت نقابك فوق الخد!

* قال الشيخ: وقف صبي في حلقة الشبلي وقال له: يا أبا بكر اجعلني غائبًا عن نفسي
ثم أعدني إليها حتى أكون معه كما كنت. فقال له الشبلي: من أين لك هذا القول فأنت
أعمى أيها الغلام. فقال. من أين أجد هذا يا أبا بكر إن لم يجعلني أعمى فيه؟ ثم فر من
أمامه.

* قال الشيخ:

«بيت»

إذا أبصرتني أبصرته،
وإذا أبصرته أبصرتنا.

* قال الشيخ: يقول يحيى بن معاذ الرازي: طالما يكون العبد في الطلب يقال له: ما
شأنك بالاختيار، لست حرًّا في اختيارك. وعندما يفني العبد يقال له: إذا كنت ترغب
فاترك لأنك إذا اخترت فاختيارك بنا، وإذا تركت فتركك بنا. فاختيارك اختيارنا، وفعلك

فعلنا.

* قال الشيخ: يقول سهل بن عبد الله: إن أصعب حجاب بين الله والعبد هو الإدعاء.
قال الشيخ: قال رسول الله ﷺ: «من لم يقبل من... صادقاً كان أو كاذباً لم يرد على الحوض».

* قال الشيخ: يقول عبد الله بن الفرّج العابد: عدت على نفسي أربعة عشر ألف نعمة في يوم وليلة، من ناحية واحدة. قيل له وكيف عدتها؟ قال: عدت أنفاسي فكانت أربعة عشر ألف نفس في يوم وليلة.

* قال الشيخ: يقول محمد بن حسام: إن الطيب الذي يعطيك دواءً مرّاً لكي تشفى، يكون أكثر إشفافاً عليك من الذي يعطيك الحلوى لتمرّض. وكل جاسوس يحذرك لتسلم، يكون أكثر عطفاً عليك من الشخص الذي يطمئنك عما تخاف منه بعد ذلك.

* قال الشيخ: قال ملك لوزير: ماذا ينبغي للرجل لكي يكون شريفاً؟ فأجاب: أن تجتمع فيه سبع خصال، فقال: ما هي؟ قال: الأولى: همة الأحوار. والثانية: حياء العذارى. والثالثة: تواضع العبيد. والرابعة: سخاء العشاق. والخامسة: سياسة الملوك. والسادسة: علم الشيوخ وتجربتهم. والسابعة: عقل غريزي مختف.

* قال الشيخ: يقول أبو جعفر القايّني: سمعت والدي يقول: إن الرجال يفخرون بأربعة أشياء، لكنهم لا يعرفون معناها، وهي: الحسب والغنى والعلم والورع. وقد ظنوا أن الحسب شرف النسب، والحسب هو الخلق الطيب. وظنوا أن الغنى كثرة المال، والغنى هو غنى القلب. والعلم نور يلقيه الله تعالى في قلب العبد. والورع هو الامتناع عما حرم الله.

* قال الشيخ: كان لأعرابي جارية تدعى زهرة. فقالوا له: أترى أن تكون أمير المؤمنين وتموت جاريته؟ فقال: كلا، لأن زهرة ستموت، وأمور الأمة سوف تختل.

* قال الشيخ: قال مزارع لوكيله: اشتر لي حماراً لا يكون صغيراً ولا كبيراً، بحيث يصونني في المنخفضات والمرتفعات، ولا يعجز في وسط الشدة، ويسير مستقيماً في

الطريق الوعر، وإذا أعطيته علماً قليلاً صبر، وإذا أعطيته كثيراً امتلاً.

فقال له الوكيل: يا سيدي، إنني لا أعرف هذه الصفات إلا في أبي يوسف القاضي، فاطلب من الله أن يجعله حماراً من أجلك.

* قال الشيخ: جاء رجل يهودي إلى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقال: يا أمير المؤمنين، من يكون الله عز وجل؟ وكيف يكون؟ فتغير لون علي وقال: إن إلها لا صفة له ولا كيف، وهو لا يتغير أبداً، وليس له بداية، وهو سابق على البداية، وليس له غاية ولا نهاية، وجميع الغايات تنقطع دونه؛ لأنه غاية الغايات.

فقال اليهودي: إنني أشهد أن كل من يقول غير هذا على ظهر الأرض يكون باطلاً. «وأنا أشهد أن لا إله الله وأن محمداً رسول الله».

* يقول سيد الطائفة الجنيد: لن تشعر بالتوحيد إلا في الوقت الذي يكون لله حق عليك، لأنه طالما لم تؤد هذا الحق لا يكمل شعورك به.

* قال الشيخ: في وقت من الأوقات أتى درويش من البادية، وتحمل مشقة كبيرة، وكان معه رفيق، فوصلا «الكوفة»، وذهبا إلى حديقة نخيل، وسأل الدرويش شيئاً. فقال له صاحب الحديقة: ادخل، واصعد النخلة، وكل بقدر ما تستطيع، واحمل معك ما ترى. فصعد الدرويش على النخلة، وجلس رفيقه تحتها. وانزلت قدم الدرويش من مكانها، وسقط عن الشجرة، ودخلت شوكة من النخيل في بطنه، ومزقتها حتى صدره. ونظر ذلك الدرويش، ولما رأى بطنه ممزقة قال: الحمد لله أنني لم أمت حتى لا أراك وقد حققت مرادك، معدة خاوية وبطن ممزقة، وروح زاهقة، لأن جزاءك في الآخرة سوف يكون أسوأ من هذا. وتقدم ليرى بطنه ويربطها. وعندما رفع ذيله قال الدرويش هذا البيت:

اليوم لا يرفع غيري ذيلي

ليلي نهاري ونهاري ليلي

قال الدرويش: لم تبق هنا خيانة.

* قال الشيخ: سوف يكون جمال الله ونواله عذراً لخيانة العباد، ففي عفوهِ عنكَ إظهار لألوهيته؛ وفي عقوبته لك إظهار لجرمك.

* قال الشيخ: مرض سري السقطي، وذهب الجنيد لعيادته، وحمل معه مروحة ليروح له. فقال له سري: يا جنيد، إن النار تزداد حمية من الريح. فقال الجنيد: كيف؟ فقال سري: «عبد مملوك لا يقدر على شيء». فقال له الجنيد: أوصني. فقال: لا تشغل عن صحبة الله بصحبة الأغيار. قال الجنيد: لو أنني سمعت هذا من قبل لما صحبتك أنت أيضاً.

* قال الشيخ: «أوحى الله تعالى إلى داود: يا داود قل لعبادي إني لم أخلقهم لأربح عليهم ولكن خلقتهم ليربحوا علي».

* قال الشيخ: كان أبو بكر الكتاني رجلاً عظيماً. وكان ذا علم ومجاهدات كثيرة، بحيث لم يبلغ أحد درجته. وواحدة من مجاهداته أنه جلس في «مكة» ثلاثين عاماً تحت قبة، وكان يتطهر مرة واحدة كل يوم وليلة، وهذا صعب لأنه لم ينم قط، بل إن النوم لم يكن يأتيه في مجلسه هذا.

وذات يوم دخل شيخ مهيب من باب بني شيبه، واقترب منه، وحياه وقال له: يا أبا بكر، لماذا لم تذهب إلى مقام إبراهيم لأن الناس اجتمعوا هناك، ليستمعوا إلى حديث رسول الله ﷺ، فتسمعه أنت أيضاً. فقد جاء شخص يعرف أخباراً عظيمة، وأخذ يملئها عليهم. فرفع أبو بكر رأسه وقال له: أيها الشيخ، ذلك الذي يروي -أخبار الرسول- عمن يرويها؟ فقال: عن عبد الرازق بن صنعان، عن معمر الأزهرى، عن أبي هريرة. فقال له: أيها الشيخ، لقد ذكرت إسناداً طويلاً، وكل ما يتحدثون عنه هناك بالإسناد والخبر، أسمعه هنا دون إسناد. فقال الشيخ: ممن تسمعه؟ قال: حدثني قلبي عن ربي. فقال الشيخ: وما دليلك على هذا؟ قال: دليلي هو أنك الخضر. قال الخضر: لقد كنت حتى ذلك الوقت أظن أنه لا يوجد ولي لم يعرفني الله به، حتى رأيت الشيخ أبا بكر الكتاني الذي عرفني ولم أعرفه.

* قال الشيخ: جاء الأستاذ أبو علي الدقاق إلى -الشيخ- أبي علي شوبوي في «مرو»،

و كنت عندئذ بها. وكان الشيخ شبوبي محدثاً، يحفظ صحيح البخاري، وقد استمعت إلى صحيح البخاري منه. وكان مطلعاً اطلاعاً تاماً في هذه الناحية. فأحضر الأستاذ أبا علي ليتحدث عن شيء، وقال له: حدثنا في هذا المعنى. فقال الأستاذ أبو علي: إن الحديث في هذا الأمر مغلق علي. فقال الشيخ شبوبي: يجدر بنا أن نعد لك ما تريد حتى تحدثنا فيما نريد. فهذا المعنى نار، ويحتاج إلى وقود. فقبل الأستاذ أبو علي، وعقدوا له مجلساً، وكان الحديث لا يأتيه وهو على المنبر إذ لم يكن الناس أهلاً له، ودخل الشيخ من باب المسجد، ولما رآه الأستاذ؛ تهيأ له الحديث. وعندما انتهى المجلس، قال الشيخ شبوبي: لقد كنت على النحو الذي كنا نحن عليه.

* قال الشيخ: تلزم الحاجة، فليس للعبد طريق أقرب إلى الله من الحاجة. ولو أنها وقعت على الحجر الصلد، لفجرت منه عيون الماء، فالأصل هو هذا، وهو للدراويش، وتلك رحمة الله معهم.

* قال الشيخ: في وقت من الأوقات في فصل الصيف، كان الجو حاراً جداً في وقت القيلولة. ورأيت الشيخ شبوبي يسير في هذا الحر والغبار، فقلت له: إلى أين أيها الشيخ؟ فقال: إلى هذه الخانقاه القريبة، ففيها دراويش، وقد سمعت أن كل من يقضي وقت القيلولة بين الدراويش، تمطر عليه مائة وعشرون رحمة في اليوم، وخصوصاً في هذا الوقت الذي أذهب فيه.

* قال الشيخ: اربط نفسك بهم، وادعهم إلى مصادقتك.

قال الشيخ: كان سري السقطي يملك حانوتاً في «بغداد»، اعتاد أن يجلس فيه. ولم يكن بالحنوت شيء يبيعه، وكان قد علق على بابه ستاراً، وأخذ يصلي خلفه. وجاء رجل من جبل اللكام لتحيته، فأرشدوه إلى مكانه، فدخل السوق، وسار حتى بلغ الحانوت، ورفع الستار وحياه. وقيل لسري: لقد حياك الشيخ فلان من اللكام. فقال: أين ذهب؟ قيل: لقد عاد إلى الجبل. فقال السري: لم يكن رجلاً. وإنما الرجل الذي يكون في السوق بين الخلق وهو مشغول بالله، ولا يكون، بقلبه، خالياً منه لحظة.

* قال الشيخ: كان الشيخ أبو العباس يقول كثيراً: كل مريد يقوم بخدمة واحدة لدرويش أفضل له من مائة ركعة يزيد بها في الصلاة. وإذا أنقص من طعامه لقمة واحدة أفضل له من أن يصلي طول الليل.

* قال الشيخ: طاف درویش كثيراً، وسافر طويلاً، فلم يشعر بالراحة، أو يجد شيئاً، وانقبض قلبه، ونام تحت شجرة شوك، وغطى رأسه بدثاره، فشعر قلبه بالراحة. فرفع رأسه إلى السماء وقال: «يا رب أنت معي في الكساء وأنا أطلبك في البوادي مذكراً».

* قال الشيخ: خرج الجنيد يوماً فرأى صبيّاً خرج من مكان وقال له: أيها الشيخ، إلى متى انتظر؟ فقال الجنيد: أعنّ وعدّ؟ فقال: نعم، سألت مقلب القلوب أن يحرك قلبك إليّ. فقال الجنيد: صدقت. ماذا تريد؟ فقال الغلام: لقد جئت لتجيبني عن يقول: «إذا خالفت النفس هواها صار دواها». فقال الجنيد: نعم فالعلل تجذب المرء. وإذا ما خالف الهوى صار مرضه شفاء له.

* قال الشيخ: قال المرتعش: قمت بالحج عدة مرات مجرداً، دون زاد، ولا دلو، ولا شيء. وعرفت أنني فعلت هذا كله بسبب هوى النفس. فسأله كيف؟ فأجاب: لأن والدتي قالت لي يوماً احمل الجرة، فحملتها، وأحسست بالتعب. فأدركت أنني فعلت هذا كله وفق هوى النفس.

* قال الشيخ: يقول سفيان الثوري: إذا قال لك شخص «نعم الرجل أنت» وسرك ذلك أكثر من أن يقول لك «بئس الرجل أنت» فاعلم أنك رجل سيء.

* قال الشيخ: في وقت من الأوقات وصل نساك إلى منصب الوزارة، فكان ينهض كل يوم وقت الفجر، ويخرج المفتاح، ويفتح الباب، ويقضي ساعة في -مصنعه- ثم يخرج منه، ويذهب إلى خدمة الأمير. فأخبروا الأمير بما يفعل. فتحرق شوقاً لأن يعرف ماذا يوجد في ذلك المكان. وذات يوم تبع الوزير متخفياً إلى ذلك المكان، فرأى مغارة على شاكلة النساكين، ورأى الوزير يدير الآلة، فسأله: ما هذا؟ فأجاب الوزير: إن كل ما أنا فيه من نعمٍ ملكٍ للأمير، ولكنني لم أنس بدايتي، فأنا أذكر نفسي بها حتى لا أقع في خطأ.

فخلع الأمير خاتمته من إصبعه وقال له: خذه وضعه في إصبعك، وإذا كنت قد بقيت إلى الآن وزيراً، فأنت منذ الآن أمير، وهذا الملك لك، وهو يليق بك.

* قال الشيخ: كان بايزيد يركب أسداً، ويتخذ الأفعى سوطاً، وكان يقول: هل توجد درجة أعلى من هذه بين الناس. وعندما كان يصلي يقول: «إلهي بستر عشنا، فلو رفعت عنا غطاءك لافتضحنا».

* قال الشيخ: كان أبو علي الدقاق يتحدث في أحد المجالس، وكان الحماس قد تملكه، واستولت النشوة على الناس. وقال رجل: يا أستاذ، إنني أرى هذا كله، فأين الله؟ فقال: وكيف أعرف؟ إنني أيضاً أصرخ بسبب هذا. فقال له: ما دمت لا تعرف فلا تتحدث. فقال: وماذا أقول إذن؟

* قال الشيخ: قيل لبايزيد: ماذا تقول في شخص يسافر من أجل الله وهو معه، لماذا يسافر ومقصوده يتحقق في مكانه؟ قال: تتوسل الأراضي إلى الحق تعالى قائلة: يا إلهي، أرني ولياً من أوليائك، وأضئ عيني بمقدم حبيب. فيوحي الحق تعالى إليهم بالسفر، حتى يتم مقصود تلك البقعة.

* قال الشيخ: كان في مدينة «مرو» رجل فاضل، لم يكن يغادر منزله قط، وتصادف أن خرج يوماً وجلس في المسجد. فأحضر شخص طعاماً، ووضعه أمامه، فمد يده، وأخذ يأكل قليلاً قليلاً. وعندما انتهى من الطعام، دخل كلب واتجه إليه، وأمسك بذيله. فقال له الرجل: من السهل على أن أؤذيك، وأنا لا أخشاك، وأعرف من الذي أرسل إليك، ومن الذي عين لذلك، ولكن الآخرين غافلون. ولا أدري إذا كانوا سيتركونك أم لا. وبعد لحظة دخل المؤذن ومعه عصا وضربه ضربة محكمة فصرخ الكلب. والتفت الرجل إليه وقال له: رأيت كيف قلت لك إنني لا أخشاك ولكن لا أعرف ما إذا كان الآخرون سيتركونك أم لا؟ إن الصديق لا يخشى صديقه.

* قال الشيخ: قال رجل لشيخ في «سمرقند»: اكتب لنا بعض الآيات القرآنية. فقال له الشيخ: منذ ثلاثين عاماً وأنا معلق بكلمة واحدة وهي: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]

ولم أنه منها بعد.

* قال الشيخ: يؤتى إبليس يوم القيامة بين يدي الله، ويقال له هل أضللت هؤلاء الخلق جميعاً؟ فيقول: كلا، ولكنني دعوتهم، ولم يكن من الواجب عليهم أن يستجيبوا لي. فيقال له: اذهب الآن، واسجد لآدم، حتى تنجو. فيدوي الصياح في العرش أن اسجد لكي تنجو نحن وأنت من هذه المحنة، فيأخذ في البكاء ويقول: لو كان ذلك متوقفاً على رغبتني، لسجدت له من أول يوم.

* قال الشيخ: ذهبت إلى أبي بكر الجوزقي وقلت له: ارولي حديثاً، ففتح كتاباً، وروى لي هذا الحديث: إن لله عز وجل جيشين أحدهما في السماء يرتدي الأردية الخضراء، والآخر في الأرض وهو جيش «خراسان». والصوفية الآن هم جيش الأرض، فهم يريدون أن يستولوا على جميع الأرض.

* قال الشيخ: كان لأحد الصوفية ابن محبوب اسمه أحمد. وكان يريد شخصاً يتحدث معه عنه. ولما لم يجد أحداً، ذهب إلى حيث يوجد الأجراء، وقال لواحد منهم: كم تريد أجراً عن يوم؟ قال: ثلاثة دراهم وطعاماً. فاصطحبه إلى المنزل، وأحضر له طعاماً، وأعطاه ثلاثة دراهم. وقال له: اجلس لأتحدث إليك عن أحمد، وحرك رأسك إعجاباً كلما تحدثت إليك. ومضت ساعة قال الأجير بعدها: أيها السيد، إذا كان لديك عمل آخر فدعني أقوم به؛ لأن اليوم يمر ببطء، فقال الرجل: إن هذا هو عملي معك فقط.

* قال الشيخ: كان في قريتنا رجل أجر جواده لآخر، فهلك الجواد. فقال الرجل: إنني أستطيع أن أدفع ثمنه. فقال صاحب الجواد: لا أريد إلا جوادي، واشتبكاً معاً، وتجمع الرجال من هنا وهناك. ولم يمض بعض الوقت حتى قتل ألف رجل، وترملت نساؤهم، وتيتمت أطفالهم، وتخربت بيوتهم، وكان هذا كله بسبب جواد ذلك الرجل.

* رأى أحد رجال السلطان محمود السلطان في النوم فقال له: كيف حال السلطان؟ فقال: صه، فلست سلطاناً هنا، ولست شيئاً. إنه هو السلطان، ولقد كان ذلك خطأ. فسأله الرجل: وماذا حدث لك بعد الموت؟ فأجاب: لقد أحضرت إلى هنا، وسئلت عن كل

صغيرة وكبيرة. لقد سلب غيري بيت المال، وترك لي الحسرة والألم.

* قال الشيخ: اعتمد زكريا عليه السلام على الشجرة وقال: يا رب، قل لهذه الشجرة أن تحميني. فعاتبه الله سبحانه وتعالى وقال له: أتعتمد على الشجرة؟ انظر ماذا يحدث لك. وعندما احتوته الشجرة، ظل جزء من رداءه خارجها. وجاء الناس إلى الشجرة، ورأوا ذلك الجزء، فقالوا: ماذا يوجد في داخل هذه الشجرة؟ وأحضروا فأساً، وقطعوا أعلى الشجرة، وأخذوا يقطعون منها، حتى وصلوا إلى رأس زكريا، فتأوه. ف قيل له: اصمت، إنك أنت الذي اعتمدت على الشجرة، فلماذا تتأوه الآن؟ لو أنك اعتمدت علينا لحميناك.

* قال الشيخ: قال رجل لآخر: تعال لأستضيفك. فقال: حقاً؟ فأجابه: وإذا كنت تقبل، فإنني أحضر شخصاً لسمعك شيئاً. فقال الرجل: أعطني أولاً من هذا الشراب اللذيذ. فأعطاه بعض الشراب فشرب الرجل وانتشى، وقال لمضيفه: إذا أعطيتني عدة كؤوس أخرى من هذا الشراب، فلا حاجة بي إلى السماع، بل أقوم أنا بإسماع ألف شخص؛ لأنني في كل وقت أتناول فيه الشراب تصبح أعضائي السبع آذاناً، وأسمع جميع السماع، ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

* كان الشيخ يقول: الريح في أيديهم وفي يد سليمان أيضاً ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ [سبأ: ١٢]. أعلم أن -سليمان- طب التملك، وسوف يحتفظون له بالدنيا في السماء أربعين عاماً، ويذهب إلى الجنة بعد جميع الرسل بأربعين عاماً.

* قال الشيخ: لقد قال الشيوخ إن الله يجب من يتليه ويجذبه ويقذف به من هذا المكان إلى ذلك المكان حتى يذله، ولا يبقى من قوته شيئاً. وعندئذ يتجلى بنور بقاءه على ذلك العبد الطاهر.

* قال الشيخ: كان أبو حفص حداداً يضرب الحديد بالمطرقة. فأمر غلمانه أن يدقوا المطرقة لتطهر. ثم قال: دقوا المطرقة ثانياً. فقالوا: أيها الأستاذ علام ندق؟ لقد تطهرت ولم يبق شيء. ولما سمع أبو حفص ذلك سقط في الحال، وصرخ وألقى المطرقة من يده، وتخلّى عن حانوته، وأصبح شيخاً عظيماً.

* قال الشيخ: قيل لأمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه: فيمن تأمل؟ قال: في شخص لم يخلقه الله تعالى. قالوا: أيها الشيخ، ماذا يأملون من شخص لم يخلقه الله، فإنه لا يعلم شيئاً. قال شيخنا: ليس هو المخلوق الذي تظنون أن الله لم يخلقه، وإنما هو المخلوق الذي خلقه هكذا وأودعه كل هذه الصفات، وهي كلها تطهره تماماً، ثم يسلبه ذلك تماماً مرة أخرى، فكأنه المخلوق الذي لم يخلقه ولم تكن فيه كل هذه النقائص.

ثم قال الشيخ: لقد كان الشيخ أبو الحسن الخرقاني يقول: إن الصوفي غير مخلوق لهذا السبب.

* قال الشيخ: «قال رجل لعبد الله بن مبارك: أسلم على يدي يهودي، فقطعت زناره. فقال: قطعت زناره، فما فعلت بزنارك؟».

* قال الشيخ: «قيل لأعرابي: هل تعرف الرب؟ قال: ألا أعرف من جوعني وعراني وأفقرني وطوفني في البلاد». كان يقول هذا ويتواجد.

* كان الشيخ يعظ يوماً. وفي وسط الحديث، التفت إلى الأستاذ الإمام أبي القاسم القشيري وقال له: ألم تقل إن الأستاذ أبا إسحاق الإسفراييني قال: «الناس كلهم في التوحيد عيال على الصوفية»، قال: نعم. قال الشيخ: استمعوا إلى ما يقول.

* قال الشيخ: عندما ذهبت إلى أبي عبد الرحمن السلمي، ورأيت له لأول مرة قال لي: سأكتب لك مذكرة بخط يدي. فقلت: تفضل. فكتب بخطه: «سمعت جدي أبا عمرو ابن نجيد السلمي يقول: سمعت أبا القاسم جنيد بن محمد البغدادي يقول: التصوف هو الخلق، من زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصوف».

وأحسن ما قيل في تفسير الخلق ما قاله الشيخ الإمام أبو سهل الصعلوكي: «الخلق هو الإعراض عن الاعتراض».

* كان شيخنا يقول كثيراً: جلس شيخ في سفينة، وتناول طعامه، وكان قد بقي رغيف جاف، فجعله إلى فمه، ولكن أسنانه لم تستطع مضغه، فكسره بيده، وألقاه في البحر. فأقبل الموج وسأله: من أنت؟ فقال: رغيف جاف. فقال له: ما دام أمرك قد انتهى إليّ

فسوف تصير رطبًا.

* قال الشيخ: كنت في مدينة «مرو»، فرأيت صرافًا شيخًا، فقال لي: أيها الشيخ، لا يوجد في العالم كله من يعطيني شربة ماء، أو يسلم علي. وجميع الناس يريدون أن يتحرروا من أنفسهم ساعة، وأنا أريد أن أعرف لساعة واحدة أين أقف؟ وفي أواخر عمره سقطت عليه نار واحترق.

* قال الشيخ: كان هناك رجل يملك مالا كثيرا، ففكر في أن يستغله في التجارة، وركب سفينة، فتحطمت السفينة، وغرق ماله ومتاعه، وجميع من كانوا بالسفينة. وبقي وحده معلقا بلوح من ألواحها. وبلغ جزيرة خالية ليس بها مؤنس. ومرت عليه سنوات، فاستولى عليه الضيق والحزن. وذات ليلة كان قد جلس على شاطئ البحر عاريا، وقد استرسل شعره، ولبيت ملابسه، فأخذ يردد هذا البيت:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وهيهات الغراب متى يشيبُ
فسمع صوتًا آتيا من البحر يقول:

«بيت»

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريبُ
أيها الرجل، يا تيأس، ألا تعرف أن هذه الشدة والألم الذي أنت فيهما الآن قد يظهر بعدهما الفرج؟

وفي اليوم التالي وقعت عين ذلك الرجل على البحر، فرأى شيئا كبيرا، فلما اقترب كان سفينة أهله. وعندما رآوه سألوه عن حاله. فقال: إن قصتي طويلة. وذكر لهم قصته، وأخبرهم عن بلده، فسألوه: ألم يكن لك ولد؟ قال: كان لي ولد صغير. وعندما سمعوا ذلك، قبلوا الأرض بين يديه، وقالوا له: هذه سفينة ابنك، ونحن جميعا غلماناه. ثم ألبسوه بعض الملابس، وقالوا له: إذا أردت فإننا نعود الآن. ثم عادوا معه، وأوصلوه إلى بلده.

* قال الشيخ:

(شعر):

عندما تتأزم الأمور تتفرج،
وعقب كل غم يزداد الفرح.

* قال شيخنا: كان عالم يأتي من «أزجاه» إلى مسجد في محلة «ناوسار» في وسط «ميهنة»، وكان يعقد مجلساً وعندما ينتهي المجلس يصيح قائلاً: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقَّ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَكِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

* كان الشيخ قد جلس يوماً، ونهض شاعر لينشد شعراً، وبدأ يقول:

ماذا تريد الأرض والزمان من هذا الدوران

* فقال له الشيخ: كفى، كفى! اجلس فقد أفسد قولك طعم الشعر.

* قال الشيخ: كان أبو حامد الدوستانى يسير في طريق مع رفيق، فقال الرفيق: يوجد هنا صديق فانتظر حتى أدخل وأؤدي صلة الرحم. فجلس أبو حامد ودخل الرجل ولم يخرج في تلك الليلة، وسقط ثلج عظيم في الليل، وخرج الرجل في اليوم التالي فرأى أبا حامد يتحرك وسط الثلج، والثلج يتساقط منه. فقال الرجل: ألا تزال هنا؟ فقال: ألم تقل لي ابق هنا، والأصدقاء يوفون.

* قال الشيخ: أرسل كلب الروم رسولاً إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه. وعندما جاء وسأل عن منزله أرشده إليه فقال لنفسه: ما هذا الخليفة الذي بعثت إليه! وعندما بلغ المنزل تعجب، وسأل الحاضرين عن عمر فقالوا: إنه ذهب إلى المقابر. فذهب خلفه، فوجده نائماً على الرمال في المقبرة، فقال الرسول: حكمت وعدلت فلا جرم أن نمت آمناً سعيداً، أما ملكنا فقد حكم ولم يعدل، وأقام الحراس على السطح، ولم ينم آمناً.

* قال الشيخ: كنت في «مرو»، وكان بها سيدة عجوز تدعى «سيارى»، فجاءت إلي، وقالت: يا أبا سعيد، لقد جئت إليك متظلمة. فقال لها الشيخ: قولي مظلمتك. فقالت: إن

الناس يدعون دائماً قائلين: يا إلهي لا تدعنا لأنفسنا طرفة عين، وقد مرت ثلاثون عاماً وأنا أقول: يا إلهي دعني لنفسي طرفة عين؛ لأرى من أنا، ومن أكون، ولم يتحقق هذا بعد.

* قال الشيخ: مر رجل على مجلس يحيى بن معاذ الرازي، وكان يعظ الناس وينصحهم، فقال له الرجل «ما أعرفك بالطريق وما أجهلك برب الطريق!».

* قال الشيخ: قيل للشيخ أبي الفضل حسن: ادع الله ألا يسقط المطر. فقال حسناً. وفي تلك الليلة تساقط الثلج في قطع كبيرة. فقيل له: ماذا فعلت؟ فقال: شربت مرتباً، يعني: كنت متنعشاً وكان الجو لطيفاً أيضاً.

* قال الشيخ: قيل للشيخ أبي الفضل حسن: ادع للسلطان محمود؛ فربما يشفى. ففكر لحظة ثم قال: إن هذا الكلام يبدو لي حقيراً جداً. يعني: لا تنظروا إلى ذاته.

رؤي أبو حمزة النوري: قبيح المظهر، مسترسل الشعر، قذر الملابس. فقال شخص: هذا الاضطراب الظاهر دليل على اضطراب الباطن. فقال: «كلا، إن الله تعالى ساكن الأسرار فجملها، وباين الأبدان فأهملها».

* قال الشيخ: قال أبو الحسن النوري: «أهل المعرفة عرفوا القليل من القليل؛ لأنهم عرفوا الدليل والسييل، والحق وراء ذلك».

* قال الشيخ: كان أبو يعقوب النهرجوري شيخاً كبيراً، ومع هذا كله فلم يكن يقلل من العبادة والمجاهدة ساعة، ولم يشعر بالسعادة لحظة، وظل يتأوه في مناجاته لله تعالى. فسمع نداء يقول له: «يا أبا يعقوب اعلم أنك عبد واسترح».

* قال الشيخ: «من أحب ثلاثة فالنار أقرب إليه من جبل الوريد: لين الكلام، ولين الطعام، ولين اللباس».

* قال الشيخ: دخل درويش على الشبلي وقال له: أيها الشيخ إذا نام شخص في ذلك الطريق فهل يسير فيه؟ فقال الشبلي: إذا كان قد نام في ظل الإخلاص فإن نومه صدر منزل.

ثم قال الشيخ: قول الشبلي هو ما ذكره الرسول ﷺ: «نوم العالم عبادة».

* قال الشيخ: هبط الوحي على موسى أن قل لبني إسرائيل اختاروا أفضل شخص فيكم، فاختاروا ألف شخص. فهبط الوحي ثانيًا أن اختاروا الأفضل من هذه الألف، فاختاروا عشرة أفراد. وهبط الوحي للمرة الثالثة أن اختاروا الأفضل من هؤلاء العشرة، فاختاروا واحدًا.

ثم هبط الوحي أن قولوا لذلك الأفضل: أحضر أسوأ شخص في بني إسرائيل، فطلب مهلة قدرها أربعة أيام، وأخذ يطوف ويتجول حتى نزل في اليوم الرابع بمحلة رأى فيها رجلاً، كان معروفًا بأنواع الرذائل والفساد. فأراد أن يأخذه معه، ولكنه قال لنفسه: لا ينبغي أن أحكم بالظاهر، ويجوز أن يكون ذا قدر ومكانة، ولا يليق بي أن آخذه بقول الناس. كما أنه يجب على ألا أغتر باختيار الناس لي على أنني الأفضل، وما دام ما أفعله ليس إلا ظناً فمن الأفضل لي أن أظن في نفسي. ووضع العمامة على رأسه ورجع إلى موسى وقال له: لقد بحثت كثيرًا فلم أر من هو أسوأ مني. فهبط الوحي على موسى أن ذلك الرجل أفضلهم حقًا، لا لأنه أكثر منهم طاعة، ولكن لأنه عرف أنه الأسوأ.

* قال الشيخ: قال أبو بكر الواسطي: يسقط شعاع الشمس على نافذة المنزل فتظهر فيه الذرات. وتهب الريح، وتحرك تلك الذرات في وسط الضوء، فهل تخافون من ذلك؟ قالوا: كلا. فقال: إن الكون كله يكون أمام قلب العبد الموحد كالذرة التي تحركها الريح.

* قال الشيخ: قال الشبلي: «لا يكون الصوفي صوفيًا حتى يكون الخلق كلهم عيالاً عليه». قال الشيخ: أي ينظر إلى الجميع بعين الشفقة، ويعد الاهتمام بهم فرضاً عليه؛ لأنهم جميعاً في تصرف القضاء والمشية.

قال الشيخ: قال أبو العباس المغربي: «الخلق قوالب وأشباح تجري عليها أحكام القدرة».

* قال الشيخ: قال محمد بن علي القصاب: «كان التصوف حالاً فصار قالاً، ثم ذهب الحال والقال، وجاء الاحتيال».

* قال الشيخ: سمعت الشيخ أبا الحسن علي بن المثنى في «استرآباد» قال: وقفت على الشبلي يوم الجمعة في الجامع ببغداد بعد الصلاة فإذا وقف عليه سائل وعليه زي القوم. فقال: ما الوصل؟ فأقبل عليه الشبلي وقال: أيها السائل عن الوصل، الخطوتان، وقد وصلت. فقا السائل: يا أبا بكر ما الخطوتان؟ قال الشبلي: قيام ذروة بين يديك تحجبك عن الله. فقال السائل: يا أبا بكر أخبرني بشرح قولك عن الذروة؟ فما شرح تلك الذروة. قال: الدنيا والعقبى. كذا قال ربنا تعالى ﴿مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فأين من يريد الله؟ ثم قال الشبلي: إذا قلت الله فهو الله، وإذا سكت فهو الله. يا أله، يا أله، يا من هو هو ولا يعلم أحد ما هو إلا هو. سبحانه وحده لا شريك له. ثم غشي على الشبلي وهو يتمل كما يتمل السليم، ثم حمل إلى داره.

* قال الشيخ: سمعت الشيخ أبا الفضل حسن شيخ وقته بسر خس يقول: الماضي لا يذكر، والمستقبل لا ينظر، وما في الوقت يعتبر، وهذا صفة العبودية. ثم قال: «حقيقة العبودية شيان: حسن الافتقار إلى الله تعالى، وهذا من أصل العبودية. وحسن القدوة برسول الله ﷺ: وهو الذي ليس للنفس فيه نصيب ولا راحة».

* قال شيخنا: «سمعت الشيخ يقول: من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته، فقد بطلت صدقته».

قال أبو علي الفقيه: سمعت بأسانيد عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ: اليد العليا خير من اليد السفلى وهي السائلة. ثم قال عبد الله بن عمر الأيدي ثلاث: يد الله العليا، ويد المعطي الوسط، ويد السائل السفلى.

* قال شيخنا يوماً في وسط الحديث: «قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة يجاء بالإخلاص والشرك فيبحثوا بين يدي رب العالمين. فيقول الله جل جلاله للإخلاص انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك انطلق أنت ومن معك إلى النار. ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرَجِ يَوْمٍ ذِي مَعْنٍ﴾ [النمل: ٨٩].

* قال شيخنا: إن شيخاً قال: «دخل مسلمة بن عبد الملك على الوليد فاسترضاه من

شيء بلغه عنه، فرضي عنه، فخرج مسلمة. فقال: خدر السمع يدي مسلمة. فقال مسلمة: يا أمير المؤمنين ما ينسى الليل إلا في ضياء وصالك».

* قال شيخنا: «عن ثابت أن امرأة كانت تأكل طعامًا، وأتاها سائل فسأل ولم يبق معها من طعامها غير لقمة، فأطعمتها السائل. فأتاها الأسد، وأخذ صبيًا لها فذهب به؛ فإذا هو برجل قد أقبل إلى الأسد حتى انتهى إليه، فأخذ بلحيته ففلقها حتى استخرج الصبي من فيه، فسلمه إلى أمه فقال لها لقمة بلقمة».

* قال شيخنا يومًا على المنبر: إن داود النبي عليه السلام قال: إلهي أطلبك حتى أجذك. فأوحى الله تعالى إلى داود: يا رأس العابدين ويا محبة الزاهدين تركتني في أول قدم رفعته وذلك أنك رأيت الطلب منك لا مني.

* قال شيخنا: «إذا ظننت أنك وجدته فحينئذ فقدته».

* قال شيخنا: «قال داود الطائي: ذهبت ليلة إلى المقبرة، فسمعت قائلًا يقول: آه مالي، ألم أكن أصلي؟ ألم أكن أصوم؟ فأجابه مجيب: بلى، ولكنك إذا خلوت بربك لم تراقبه».

ثم قال شيخنا: «من راقب الله تعالى في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه».

* قال شيخنا: سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن معنى الركوع، فقال: «المسلم يركع ويقول بقلبه لو ضرب عنقي لم أدع ديني وعبادة ربي».

* قال شيخنا يومًا في وسط حديثه: «طلب مرید من شيخه دعاء فقال: يا بني، اختيار ما جرى لك خير من معارضة الوقت».

* قال شيخنا: سمعت من أبي علي الفقيه أن رابعة سئلت: بم أدركت ما أدركت؟ قالت بكثرة قولي هذا: أعوذ بك من كل شاغل يشغلني عنك، ومن كل مانع يمنعي عنك.

* قال الشيخ: سمعت أبا العباس القصاب عندما سئل في مدينة «آمل» عن الآية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فقال: «قل» شغل. «وهو» إشارة. و«الله» عبارة ومعنى التوحيد منزله عن الإشارة والعبارة.

* قال الشيخ: قال لقمان السرخسي يوماً: مضت ثلاثون عاماً منذ وكل الحق إلينا أمر هذه البطاح، فلم يجرؤ أحد على أن يتصوف فيها، ويجلس بها.

* قال الشيخ: سئل الأستاذ أبو علي الدقاق عن السماع فقال: السماع عو الوقت، فمن لا سماع له، لا سمع له، ومن لا سمع له، فلا دين له؛ لأن الله تعالى قال ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]، وقال: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] فالسماع سفير من الحق، ورسول من الحق، يحمل أهل الحق بالحق إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بطبع تزدق.

* قال الشيخ: دخلت عائشة ابنة الصديق رضى الله عنها على الرسول من عرس. فقال الرسول ﷺ: يا عائشة، كيف كان العرس، هل كان طيباً، وهل كان هناك أحد أشدكم شعراً؟

* قال الشيخ: سماع الأحبة يكون بالحق. وهم يسمعون على أحسن وجه. يقول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]. وسماع كل شخص يحمل لون الوقت، فقد يستمع شخص للدنيا، ويستمع شخص لهوى النفس، وربما يستمع شخص لحبيب، وقد يستمع شخص لأحاديث الوصال والفراق، وهذا كله يكون وبالأول ظلاماً لذلك الشخص. وعندما يكون الوقت مظلماً يكون السماع مظلماً. وربما يستمع شخص في معرفة، وذلك هو السماع الصحيح، لأنه يستمع من الحق، وأولئك هم الأشخاص الذين يخصصهم الله بلطفه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩]، فالعبودية ملك وموضع اختصاص لله، وقد اختص هؤلاء بأنهم عباده فيكون سماعهم من الحق بالحق.

حكاية:

سئل الشيخ:

لقد كان لكل شيخ شيخ، فمن كان شيخك؟

وقد أضعف الشيوخ أنفسهم بالمجاهدة، بينما رقتك لا يسعها طوقك.

والشيوخ قاموا بالحج وأنت لم تحج، فما سبب ذلك؟

فأجاب: أما سؤالكم عن أنه كان لكل شيخ شيخ فمن كان شيخك؟ فإن ﴿ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧].

وأما ما تسألون عنه من أن الشيوخ قد أضعفوا أنفسهم بالمجاهدة، بينما رقتك لا يسعها طوقك، فإنني أتعجب لذلك لأنه عندما تحشر رقتي في السماوات السبع والأرض، فإنها تحشر بما منحني الله.

وأما ما تقولونه من أن الشيوخ أدوا فريضة الحج وأنت لم تحج؛ فليس بالأمر الكبير أن تقطع ألف فرسخ لتزور الكعبة، وإنما الرجل الحق هو الذي يجلس هنا، وتطوف الكعبة فوق رأسه هكذا في كل يوم وليلة، انظر لترى. فنظر كل الحاضرين ورأوا.

حكاية:

كان الشيخ ذاهباً يوماً للعزاء في «نيسابور»، فتقدم المعروفون إلى الشيخ، وأرادوا أن يقوموا بتقديمه إلى الناس، جرياً على عادتهم. وعندما رأوه، عجزوا ولم يعرفوا ماذا يقولون، فسألوا مريدي الشيخ عن اللقب الذي يقدمون به الشيخ. وأدرك الشيخ ما يسألون عنه، فقال لهم: اذهبوا وقولوا أفسحوا الطريق للا شيء بن اللا شيء، وسمع جميع العظماء ذلك، فرفعوا رؤوسهم، ورأوا الشيخ قادماً. وسر الجميع لتواضع الشيخ، وبكوا.

حكاية:

كان الشيخ يمر يوماً في طريق. وكان الكناسون ينظفون المرحاض ويخرجون الفضلات بالقرية. وعندما بلغ الصوفية ذلك المكان، استجمعوا أنفسهم وفروا. فناداهم الشيخ وقال لهم: إن هذه القاذورات تتحدث إلي بلسان حالها وتقول: أنا تلك الأطعمة الطيبة الرائحة، اللذيذة، التي تبعثرون من أجلها الذهب والفضة، وتضحون من أجلها

بأرواحكم، وتحملون كل تعب ومشقة من أجل الحصول عليها. وقد تلونت بلونكم من ليلة واحدة صحبتكم فيها. فلماذا تفرون مني؟ يجب أن أفر أنا منكم!
ولما قال الشيخ ذلك، صرخ الجميع وبكوا، ووردت الأحوال.

حكاية:

رُوي أنه حدث يوماً في «ميهنة» أن وضع حسن بن المؤدب المصباح أمام الشيخ، وذهب، فناداه الشيخ، وقال له: ما السبب في أن هذا المصباح لا يضيء الليلة جيداً ككل ليلة؟ فقال حسن لا أعرف. فقال له الشيخ: افحصه. فلما فحصه قال: لقد ترك الصوفية الخشبة التي ينظفون بها مصباحهم فيه. فقال الشيخ: ارفع هذا المصباح من أمامي. فرفع حسن المصباح من أمامه.

حكاية:

قال طلحة بن يوسف العطار: مكثت عند الشيخ أبي سعيد مدة. وعندما عزمت على العودة قال لي: عندما تذهب إلى «بغداد»، ويسألونك: ماذا رأيت، وماذا استفدت، فماذا ستقول؟ هل تقول رأيت وجهاً وذقناً؟ فقلت: بم يأمر الشيخ؟ فقال الشيخ: كل من يعرف العربية اقرأ عليه الشعر:

قالوا «خراسان» أخرجت رشاً ليس له في جماله ثانٍ

فقلت: لا تنكروا محاسنـه فمطلع الشمس من خراسان

وكل من لا يعرف العربية اقرأ عليه هذا الشعر:

«رباعية»

إنهم يأخذون منك خضرة الجنة والربيع

يا من يأخذون منك التذكار إلى الخلد

ويأخذون منك النقوض والصور إلى الصين

يا من إيران كلها تأخذ منك فال السعد

حكاية:

قال السيد الشيخ أبو الفتح: كان الشيخ قدس الله روحه العزيز ذاهباً يوماً من «نيسابور» إلى «بستقان»، وفي رفقته السيد على الطرسوسي. وكان الشيخ يقول في الطريق: «اللهم اجعلني من الأقلين». ولما وصل إلى «بستقان» سأل السيد علي الشيخ قائلاً: لقد كنت تقول كثيراً في الطريق «اللهم اجعلني من الأقلين»، فقال الشيخ: يقول الله عز وجل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣] فكنت أريد أن أكون من أولئك القوم، وأؤدي شكر نعمته.

حكاية:

قال السيد الشيخ أبو الفتح: كان القوال ينشد هذا البيت أمام الشيخ يوماً:

«بيت»

سوف أختفى في غـزلي،

حتى أقبل شفـتك عندما تقرأه.

فسأله الشيخ عن صاحب هذا البيت فقال: اسمه عمارة. فنهض الشيخ وذهب مع الصوفية لزيارة قبر عمارة.

حكاية:

قال السيد أبو بكر المؤدب: كان الشيخ يتحدث يوماً مع الخطيب الكوفي بصوت منخفض ثم التفت إلي وقال: هل كنت تسمع ما نقول؟ قلت: كلا. قال الشيخ: كنا نقول: «العجز عجزان: التواني في الأمر إذا أمكن، والجد في طلبه إذا فات». وعندما كان الشيخ يقول هذا الكلام كان القوال ينشد هذا المصراع:

«مصراع»

«ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهر»

حكاية:

عندما كان الشيخ في «نيسابور»، أحضر شخص كوبًا من الماء، وقال له: انفخ فيه من أجل مريض. فنفخ الشيخ في الكوب، وأخذه من الرجل، وشربه فقال الرجل: أيها الشيخ، لم فعلت هذا؟ فقال: إن النفس الذي نفخته في هذه الجرعة لا يستطيع أحد غيري أن يسحبه الآن، فتعال غدًا لأنفخ له نفحة الشفاء.

حكاية:

عندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز في «نيسابور»، ذهب إلى الحمام. وقام درويش بمساعدته، وأخذ يحك سواعد الشيخ، ويجمع القاذورات عن ظهره، جريًا على عادتهم ليراها الشخص. وفي أثناء قيامه بهذا سأل الشيخ: أيها الشيخ: ما المروءة؟ فأجاب الشيخ: ألا تحضر قذارة الشخص أمام وجهه. فأقر الحاضرون بأنه لم يقل في هذا المعنى قول أفضل من هذا.

حكاية:

قال الشيخ: كل من يصلي على المصطفى صلوات الله عليه ألف مرة في ليلة الجمعة، يرى الرسول في النوم. وقد نفذت هذا القول في مدينة «مرو»، ورأيت المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في نومي، وكانت فاطمة الزهراء رضي الله عنها جالسة أمامه، والمصطفى يضع يده المباركة على مفرقها الميمون. وعندما أردت أن أتقدم إلى الرسول ﷺ قال: «احذر، فإنها سيدة نساء العالمين».

حكاية:

عندما كان الشيخ في «نيسابور»، ظل الناس لمدة عام يرددون أقوال المنجمين، ويصغون لأحكامهم. وأخذ عوام الناس يرددون دفعة واحدة أن هذه السنة ستكون كذا وكذا. وقال الشيخ يومًا على المنبر: سأحدثكم اليوم عن أحكام النجوم، ثم قال: ستكون هذه السنة كلها كما يريد الله تعالى: على نحو ما كانت السنة الماضية كما أراد الله تعالى،

وصلى الله على محمد وآله أجمعين. ومسح وجهه بيده، وختم المجلس.

حكاية:

قال أحدهم للشيخ يوماً: أيها الشيخ، ادع لي، فقال:

«بيت»

أواه... لقد انعدم العدل من العالم أيها الناس،

فهو يذنب ويجب علي أنا أن أعتذر!

وقد جرى هذا البيت على لسان الشيخ كثيراً.

* قال الشيخ: لو صدق ما يروى عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه كبر على ميت خمس تكبيرات في صلاة الجنازة، فربما تكون أربع تكبيرات منها على الميت، والخامسة على الناس جميعاً.

* في يوم من الأيام نهض رجل في مجلس الشيخ، وطلب شيئاً من الناس، وأخذ يقول: أنا رجل فقير. فقال له الشيخ: لا يجب أن تقول هكذا، وإنما يجب أن تقول: أنا رجل سائل؛ لأن الفقر سر من أسرار الحق جل جلاله.

حكاية:

عندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز في «نيسابور»، كان قد جلس يوماً في الخانقاه، فدخلت ابنة علوي عند الشيخ، وكان أبواها يسألان، وأجلس الشيخ تلك الفتاة أمامه، وقال: هذه الفتاة من أبناء الرسول، وأنتم تدعون أنكم تحبونه، وتنادونه في وقت الصلاة بصوت مرتفع. والآن أظهروا برهان صدق هذه الدعوى التي تدعونها في حق جدّها، بالإحسان إلى أبنائه وذريته. ثم خلع ثوبه وأعطاه للفتاة، وشاركه في ذلك جميع الحاضرين في الخانقاه. ونالت الفتاة شيئاً كثيراً.

حكاية:

قال حسن بن المؤدب: عندما كان الشيخ في «نيسابور»، كان أئمة المدينة وعظماؤها

يفدون عليه، مثل الشيخ أبي محمد الجويني، والأستاذ الإمام أبي القاسم القشيري، والأستاذ إسماعيل الصابوني. وكانوا يسألون الشيخ عن أشياء، ويتباحثون معه. وذات يوم كان الشيخ يتحدث في حضور هؤلاء الجمع؛ وآخرين من عظماء المدينة. وفي وسط الحديث جرى هذا البيت على لسان الشيخ.

«بيت»

أيها الحبيب إنني لا أغفل عن أحوالك لحظة،

ولي رسل ينبؤني عنك حيثما تكون.

وعندئذ التفت الشيخ إليهم وقال: أين معنى هذا البيت في القرآن؟ ففكر العظماء كثيراً ثم قالوا: ليقُل الشيخ. فقال الشيخ: هل ينبغي أن أقول؟ قالوا: نعم، قال: إن الله يقول: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]. فتعجبوا جميعاً لسعة إدراك الشيخ.

حكاية:

قال حسن بن المؤدب: كان الشيخ يتحدث يوماً، وعندما فرغ من الحديث وقفت أمامه، فقد تعودت أن أقف هكذا عندما يذهب الناس، لأتلقى أوامره. فقال لي: يا حسن، اذهب إلى المدينة، وانظر مَنْ مِنْ أهلها أكثر بغضاً لي، وأكثر إنكاراً للصوفية، واذهب إليه وقل له: ليس لدى الدراويش شيء، ولا يوجد معلوم ليأكلوا منه، ويجب أن تنوب في هذا. فخرجت وأخذت أطوف المدينة جميعها وأنا أفكر في هذا الأمر.

ولم أجد من هو أكثر إنكاراً من علي الصندلي، ولكنني قلت لنفسي: ربما يكون هذا الظن خاطئاً. وطفيت المدينة مرة أخرى، وفكري لا يزال متجهاً إليه. وأخذت أستعرض المدينة مرة أخرى، فاتجه تفكيري إليه ثانية، فأدركت أنه حق. وذهبت إلى خانقاه وكان قد جلس وتلاميذه بين يديه، يطالع كتاباً. فسلمت عليه، فأجاب في نخوة كعادته، وقال: أتريد شيئاً؟ فقلت: إن الشيخ يحبك ويقول لك: لا يوجد شيء معلوم، وينبغي أن تنوب

في أمر الدراويش. وكان رجلًا مرَّحًا حاضر النكتة فقال: أتعبر هذا عملاً مهمًّا أو فريضة؟ ظننت أنك جئت تسأل عن شيء، اذهب أيها الصديق لأن لديَّ عملاً أكثر أهمية من أن أعطيكم شيئاً: إنكم عُمِّي، فاستمروا في عبثكم، وقولوا هذا البيت وارقصوا عليه:

«بيت»

أتأتني إلى السوق مزيناً ثملاً،

ألا تخشى أيها الحبيب أن تقع في الأسر؟

وعندما سمعت هذا الكلام، ذهبت إلى الشيخ، وأردت ألا أذكر له ما حدث، فقلت: إنه يقول لا يوجد الآن معلوم، فلنر ماذا يكون بعد ذلك. فقال الشيخ: لا تنبغي الخيانة، يجب أن تذكر ما حدث. فقصصت عليه ما حدث بالصدق، فقال الشيخ: ينبغي أن تذهب إليه مرة أخرى، وتقول له: أتيت إلى السوق مزيناً بزينة الدنيا، مخموراً بحبها، ألا تخشى أن تصبح في الغد أسيراً في سوق القيامة؛ لأن الله يقول ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

فرجعت إليه وأبلغته رسالة الشيخ، فأحنى رأسه وفكر برهة وقال: اذهب إلى الخباز فلان وخذ منه مائة درهم، فأنتم الذين استطعتم أن تفسروا هذا البيت على هذا النحو لا أستطيع أنا أن أفعل لكم شيئاً، ولا يستطيع غيري أن يتفوق عليكم.

حكاية:

رُوي أنه أثناء إقامة الشيخ في خانقاه محلة «عدني كوبان»، كانوا قد وضعوا المائدة يوماً، وأخذ الشيخ والدراويش يتناولون الطعام. وفي أثناء ذلك دخل الشيخ أبو محمد الجويني وألقى التحية، فلم يجبه الشيخ، ولم يلتفت إليه. فتألم أبو محمد، وجلس غاضباً. وعندما انتهى الطعام، وغسلوا أيديهم، نهض الشيخ، وأجاب على تحية أبي محمد، وقال له: إن السلام من أسماء الله جل جلاله، ولا يليق بنا أن ننطق باسمه بضم ملوث. فسر أبو محمد وقال: ليس لأحد من العلم بالطريقة والشرعية مثل ما للشيخ.

وقد استفاد جميع الحاضرين من الصوفية من هذا. ولهذا السبب لا يسلم الصوفية وهم على المائدة، ويتظرون حتى ينتهوا من الطعام.

حكاية:

كان للشيخ أبي سعيد قدس الله روحه العزيز أخت يدعوها أبناء الشيخ بالعمة. وكانت في غاية الزهد؛ بحيث لم تكن تخرج من المنزل إلا للضرورة القصوى. وكانت تحتفظ برداء وحذاء خارج المنزل، وإذا ما خرجت لضرورة ارتدتتهما، ولم ترد الثياب التي تلبسها في الداخل، حتى لا تحضر إلى المنزل الغبار الذي علق بها من الطريق. وكان إذا ما ذهب الشيخ لزيارتها تمسح المنزل وتقول: لقد دخل الشيخ البيت بالحذاء الذي يسير به في الطريق.

وذات يوم كان الشيخ يتحدث في منزل العمة فقالت له: أيها الشيخ إن كلامك سبيكة من الذهب. فقال لها الشيخ: وصمتك جوهر غير مثقوب.

وكانت العمة قد ثقت ثقبًا بين صومعتها وصومعة الشيخ، حتى تراه دائمًا، وتستفسر منه عما تريد. وذات يوم كان الشيخ في صومعته. وكان الخضر، الذي كثيرًا ما كان يصحب الشيخ، قد جاء لزيارته، وجلسا منفردين، وأخذا يتحدثان، فأقبلت العمة إلى الثقب، وأدركت بفراستها أنه الخضر الذي يتحدث مع الشيخ، فأخذت تراقبهما في الخفاء. وشرب الخضر مرتين من الكوز الذي كان الشيخ قد وضعه أمامه. وعندما نهض الخضر، نهض معه الشيخ، وخرج خلفه. ولما غادر المكان، جاءت العمة سريعًا عن طريق السطح، ودخلت صومعة الشيخ، وشربت من الكوز في الموضع الذي شرب منه الخضر، أملًا في الحصول على البركة، ثم خرجت. وجاء الشيخ إلى صومعته، في الوقت الذي ذهبت فيه العمة إلى صومعتها، وأدرك بكرامته ما حدث منها. ولم يقل شيئًا، ونادى الخادم ليسد الثقب الذي في صومعة العمة.

حكاية:

قال الشيخ قدس الله روحه: رأى شخص الجنة في النوم، وقد مدت فيها مائدة،

جلست عليها جماعة، فأراد أن يجلس معهم، فجاء شخص وأمسك بيده وقال له: ليس هذا مكانك، فهذه المائدة لمن يملكون ثوباً واحداً، وأنت تملك ثوبين، فلا يمكنك أن تجلس معهم.

ثم قال شيخنا: لقد وصل الأمر الآن إلى أنه يخطون مرقعاً أزرق، ويلبسونه، ظانين أن جميع الأمور قد استقامت، ويقفون أمام دن الصبغة، ويقولون: ألقوه في الدن مرة أخرى ليزداد زرقة؛ فهم يظنون أن الصوفية هي هذا المرقع الأزرق، وقد حصروا همتهم في تجميله وتزيينه، وجعلوه صنمهم ومعبودهم.

وفي اليوم الذي قال فيه الشيخ هذا الكلام، كانوا يخطون له رداء جديداً، فلبسه، وقال: لقد ألبسوني الآن مرقعاً بعد سبعة وسبعين عاماً قضيتها في هذا الطريق، وكان عملي فيها واحداً في الليل والنهار، فألبسوني المرقع بعد هذا كله، أما الآن فمن السهل أن يخطوا لكل شخص مرقعاً، ويلبسوه إياه.

* قال شيخنا إن الحق تعالى يقول: لقد كنا نقول للجميع «قولوا لا إله إلا الله» ونقول لك «فعلّم أن لا إله إلا الله». وكان هناك شخص من ما وراء النهر، فقرأ هذه الآية: ﴿وَقُودُّهَا النَّاسُ وَالْجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]. وكان الشيخ يقلل من الحديث في آيات العذاب، فقال: ما دام الحبر والإنسان عندك في مقام واحد، فاشغل الجحيم بالأحجار، ولا تحرق هؤلاء المساكين!

حكاية:

رُوي أن رجلاً خرج من «بغداد»، وجاء إلى الشيخ في «ميهنة»، وسأله قائلاً: أيها الشيخ، لماذا خلق الحق سبحانه وتعالى هذه المخلوقات، هل كان في حاجة إليها؟ فأجاب الشيخ: كلا، ولكنه خلقهم من أجل ثلاثة أشياء:

الأول - لما كانت قدرته كبيرة جداً، فكان يلزم لها ناظر.

والثاني - لما كانت نعمته كثيرة جداً، فكان يلزم لها أكل.

والثالث - لما كانت رحمته واسعة جدًا، فكان يلزم لها آثم.

حكاية:

في وقت من الأوقات كان درويش يسير أمام الشيخ إلى الخانقاه، فقال له الشيخ: يا أخي، كن كالكرة أمام المكنسة، ولا تكن كالجبل خلف المكنسة.

حكاية:

في يوم من الأيام وصل الشيخ مع جماعة الصوفية إلى باب طاحون. فأوقف جواده وتوقف عن السير لحظة وقال: هل تعرفون ماذا تقول هذه الطاحون؟ إنها تقول: إن التصوف هو ما أنا فيه، فأنا آخذ الأشياء الغليظة، وأعيدها ناعمة. وأدور حول نفسي، وأنقى نفسي بنفسي، حتى أبعد عنها ما لا يلزم. فسر الجميع لهذا الرمز.

حكاية:

رُوي أن الأستاذ أبا صالح المقرئ ألم به مرض، بحيث لزم الفراش. فقال الشيخ للسيد أبي بكر المؤدب: أحضر الدواة والقلم حتى أُملي عليك حرزًا من أجل أبي صالح. ثم أمره أن يكتب:

«رباعية»

اصطفت الحور لرؤية محبوبي الجميل

وتعجب رضوان وضرب كفًا بكف

وأسدل الخال الأسود مطرفًا على ذلك الخد

وتشبث الأبدال بالمصحف من الخوف

فكتبها السيد أبو بكر المؤدب، وحملوها إلى أبي صالح، وعلقوها له، فظهرت عليه معالم الصحة في الحال، وزال ذلك المرض.

حكاية:

رُوي أن واحداً من المشايخ ذهب غازياً إلى بلاد الروم في عهد الشيخ -أبي سعيد-، وذهب يوماً إلى ميدان الحرب، فرأى إبليس هناك فقال له: أيها الملعون، ماذا تفعل هنا؟ ألك شأن بهؤلاء الجمع الموجودين هنا؟ قال: لقد وقعت هنا دون رغبتني. فسأله: كيف؟ فأجاب: كنت أمر في «ميهنة»، وكان الشيخ أبو سعيد يسير من المسجد إلى البيت، فعطس عطسة ألفت بي هنا.

* وسئل الشيخ أيضاً عن رأيه في الشخص الذي يسرق في الليل، ويصلي في النهار؟ فقال الشيخ: ليس هذا عجيباً؛ فإن بركة الصلاة في النهار، ستمنعه من السرقة في الليل.

* قال أحد الشيوخ للشيخ: لقد رأيتك في نومي، فسألتك: ماذا نفعل أيها الشيخ لكي نتخلص من هذه النفس؟ فقال الشيخ: لا ينبغي عمل شيء من أجل هذا، لأن كل شيء قدر، وكتب، ولا يمكن إبعاده. فإذا أراد الله، يكون التوفيق. وإذا لم يرد، فإن ذلك لن يقلل من الأمر أو يزيده. ولو أنه أراد لألقى بك على الطلب. وفي الحقيقة أنه إذا طلبك هو؛ فإنه عندئذ يلقي بك في الطلب.

* قال الشيخ: ورد في الخبر أن قوماً ذهبوا إلى رسول الله ﷺ، وسألوه: ما الفقر؟ فنادى أحدهم وقال له: هل تملك خمسة دراهم؟ فقال: أجل، فقال له: إنك لست فقيراً. ونادى آخر وقال له: هل تملك خمسة دراهم؟ فقال: كلا، فقال: هل تملك متاعاً بخمسة دراهم؟ قال نعم. فقال له: لست فقيراً أنت أيضاً. ونادى آخر وقال له: هل تملك خمسة دراهم؟ قال: كلا. قال هل تملك ممتلكات بخمسة دراهم؟ قال: كلا. فقال: هل تملك جاهاً بخمسة دراهم؟ قال: كلا. قال: هل تستطيع أن تكسب خمسة دراهم؟ قال: نعم. فقال: انهض فإنك لست فقيراً. ودعا آخر وقال له: هل تملك شيئاً من هذا كله؟ قال: كلا. فقال له: إذا ظهرت خمسة دراهم هل تطالب بنصيب منها؟ فقال: لا أقل من هذا. قال: انهض فإنك لست فقيراً. ثم دعا آخر وقال: هل تملك شيئاً من هذا كله؟ قال: كلا، فقال: هل إذا ظهرت لك خمسة دراهم تتصرف فيها؟ قال: كلا يا رسول الله، فسأله: ماذا تصنع

بها؟ قال: أضعها تحت تصرف الجماعة. فقال: أنت فقير حقًا، والفقير يكون هكذا. ولما قال الرسول ذلك، بكى الجميع وقالوا: يا رسول الله، إن الجميع ينادوننا بالفقراء، والفقير هو ما أوضحته، فماذا نكون نحن الآن؟ فقال: إنه هو الفقير وأنتم طفيليون.

* قال الشيخ قدس الله روحه العزيز: في وقت من الأوقات لحق زنبور بنملة، فرآها تحمل قمحة إلى منزلها. وكان الناس يدوسونها ويؤذونها. فقال لها الزنبور: ما هذه الشدة والمشقة التي تتحملينها من أجل حبة؟ هل تذلين نفسك هكذا من أجل حبة واحدة حقيرة؟ تعالي، لترَي كيف أحصل على قوتي في سهولة، وأخذ نصيبي منه دون هذه المشقة. ثم حمل النملة إلى دكان قصاب، وكان اللحم معلقًا، فطار الزنبور، وحط على اللحم، وأكل حتى شبع، وجمع قطعة ليحملها. فدخل القصاب، وضربه بسكين، فشقه نصفين وألقاه. ووقع الزنبور على الأرض. فتقدمت النملة وأمسكت بقدمه وأخذت تسحبها وهي تقول: كل من يجلس حيث يريد، يسحبونه إلى حيث لا يريد.

حكاية:

قال السيد مصعد بن السيد الإمام المظفر النوقاني: كان الشيخ أبو سعيد قد جلس مع والدي يومًا، فقال له والدي: إنني لا أدعوك صوفيًا، ولا درويشًا؛ بل أدعوك عارفًا كاملاً. فقال الشيخ أبو سعيد: هو ما يقول.

وقال السيد مصعد: أخذت جدتي «صاينة» والدتي «راحة» إلى الشيخ أبي سعيد في «نيسابور». وكانت والدتي في سن الثانية عشرة، ولم يكن والدي قد طلبها للزواج بعد. فسأل الشيخ والدتي: ما اسمك؟ فقالت: راحة. فقال: بارك الله فيك، ينبغي أن تقيمي وليمة للصوفية. فقالت: إنني لا أملك شيئًا. فقال لها الشيخ: أسألي، فقالت: وكيف أفعل ذلك؟ وعندما طلب منها الشيخ إقامة الوليمة سألته أن يعطيها شيئًا، فأعطاه الشيخ رداءه وقميصه، فحملتهما؛ وذهبت بهما إلى منزل الميكالين. وكانت هناك سيدة وابنتها، فقالت لهما: لقد طلب الشيخ أبو سعيد مني إقامة وليمة، فقلت له إنني لا أملك شيئًا، فقال لي أسألي. فسألت منه، فأعطاني هذه. فكم تساوي في نظركم؟ فنهضت الفتاة ودخلت

إلى المنزل، وأحضرت سوارين يقدران بستين ديناراً، ووضعتهما أمامي، وأخذت الرداء. وأحضرت الأم عقداً قيمته ستون ديناراً، وأخذت القميص.

وجلسنا نتحدث بعض الوقت، وقلت لهما إن ملابس الشيخ تتحدث إلي. هل تعرفان ماذا تقول؟ قالتا: كلا. قلت: إنها تقول إنني لن أستريح مع أحد، إما أن أكون في مكاني وإما ألا أكون. فهل تقدرون على ذلك؟ فقالتا: كلا. فقلت لهما: ينبغي أن نتبين ماذا نفعل. فنهضتا، وقبلتا الرداء والقميص، ووضعتاهما أمامي وقالتا: إنهما يليقان بك أكثر، كما أن الأساور والعقد تحت تصرفك. فنهضت وذهبت إلى الشيخ، ووضعت الرداء والقميص والأساور والعقد أمامه، وقلت له: أقم الدعوة للصوفية على نحو ما تراه صواباً. فأمر الشيخ بإعداد وليمة، ومزقوا الرداء والقميص، ووزعوهما على الصوفية.

وذهبت صابئة بعد ذلك إلى «نوقان»، ونزلت عند السيد المظفر، وأخذتا يتحدثان، وكانت صابئة تتحدث في الفناء. والسيد المظفر يتحدث في البقاء. وسر السيد المظفر من حديث صابئة فقال لها: كل من يوافقك يوافق الحق، وكل من يخالفك يخالف الحق. فقالت صابئة: ينبغي أن أقدم إليك شيئاً على سبيل الشكر، ولست أملك شيئاً، وقد وضعت راحة تحت تصرفك. فقال السيد المظفر: أنا لا أفكر في هذا. وكانت قد مرت عشرة أعوام منذ لحقت زوج السيد المظفر برحمة الله تعالى، ولم تكن له رغبة في الزواج طوال العشرة أعوام التي كانت فيها على قيد الحياة. وبعد مضي عشرين عاماً، تزوج راحة، وأتجب منها السيد مصعب، ببركة همة الشيخ، ونظره قدس الله روحه.

حكاية:

قال أبو الفصل محمد بن أحمد العارف النوقاني: خرجت في رفقة الشيخ أبي سعيد إلى مقابر الحيرة في «نيسابور»، لتشييع صوفي. وعندما وصلنا في مواجهة قبر أحمد الطابراني، توقف جواد الشيخ. ووقعت عين الشيخ على القبر، وظل ينظر إليه فترة، ثم ساق الجواد، وقال: لقد كان أحمد الطابراني يتكلم معي.

حكاية:

قال الشيخ: رأيت نفسي في النوم أجلس مع الأستاذ أبي علي الدقاق والأستاذ أبي القاسم القشيري. ودوى نداء يقول: انهضوا، وليقدم كل منكم قرباناً. فنهضنا كلانا، ونفذنا ذلك. وحاول الأستاذ القشيري كثيراً أن يقوم ليفعل، فلم يستطع، وأخذ يبكي. ولو أنه نفذ ذلك، لما كان هناك مثله في الدنيا.

حكاية:

رُوي أن الشيخ قدس الله روحه العزيز كان يسير مرة، فجاءت حية كبيرة، وأخذت تمسح رأسها في أقدام الشيخ، وتتقرب إليه. وكان مع الشيخ درويش، فتعجب لذلك. فقال له الشيخ: لقد أقبلت هذه الحية لتحيتي. فهل ترغب أن يكون لك مثل هذا؟ فقال الرجل: أجل. فقال له الشيخ: لن يكون لك أبداً ما دمت تريد.

حكاية:

كان الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز قد جلس على قبر الشيخ أبي يزيد البسطامي قدس الله روحه العزيز. فأشار إلى القبر وقال: «قال هذا الشيخ: إن الله تعالى جعل أقدام الأولياء نثار الأرض فما لهؤلاء الأجساد، يعني لا يرضون بذلك».

حكاية:

كان أحمد بن أبي الليث قد جاء إلى الشيخ في وقت من الأوقات. وعندما رجع، أرسل الشيخ شخصاً معه. فلما رجع ذلك الشخص، سأله الشيخ: ماذا كان أحمد يقول في الطريق؟ فأجاب: كان يتحدث بنعم الله. فقال الشيخ: عن أي النعم كان يتحدث؟ فإن النعم درجات، أهى النعم التي أنعم علي بها؟ أم تلك التي أنعم بها عليك؟ فالنعم التي أنعم علي بها أرفع وأعظم النعم، والنعم التي أنعم عليك بها متوسطة، وقد اكتملت. ثم قال: كان هناك شيخ لم يمشط شعره حتى عشتت العقرب في رأسه، وتكاثر. ورُوي أنه عندما كان شخص يدخل على شيخنا كان يقول له: لقد كنا في البداية

تحدث معكم عن نعم ربكم، ونقول لكم إنه يوجد في بلدكم كذا من النعم. أما الآن فأبي النعم نشكر؟ لقد أسندنا ظهورنا من العجز، هنا على هذا الجدار.

حكاية:

روى أن السيد علي الخباز جاء من «مرو» إلى «ميهنة»، ليذهب منها إلى «باورد». وكان الشيخ أبو سعيد قد جلس في المسجد، ومعه السيد أحمد بن نصر، وكثير من الشيوخ، وأخذوا يتبادلون الحديث. وفي أثناء ذلك تكلموا عن رجل من أبناء الدنيا. فقال السيد علي الخباز: حقاً إنه رجل ذو همّة. فقال الشيخ: إن المروّة لا يجب أن تسمى بالهمّة، وإنما تسمى أمنيّة، فالذي ينفق المال يوصف بأنه ذو أمنيّة، لا همّة. وصاحب الهمّة هو الذي لا يتطرق تفكيره إلى شيء دون الله.

حكاية:

روى أن الشيخ قدس الله روحه العزيز كان قد جلس في المسجد، فوقعت قشة على ذقنه المباركة، فمد درويش يده، وأمسك بالقشة، وألقاها في المسجد. فالتفت إليه الشيخ وقال: يا أخي، ألا تخشى أنه بسبب ما فعلت أن يدق الله عز وجل السماوات السبع على الأرض، ويفنيها؟ إن الله تعالى أمر أن تضع وجهاً بهذه العزة على تراب المسجد فقال: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، وأنت لم تستسغ وجود هذه القشة فوق ذقنا، فكيف تستسغ أن تلقي بها في بيت الله؟

حكاية:

روى أنه عندما كان الشيخ في «نيسابور». أرسل رسالة إلى الأستاذ الإمام أبي القاسم القشيري يقول له فيها: سمعت أنك تتصرف في الأوقاف. فأجاب: إن الأوقاف في يدي، وليست في قلبي. فأرسل إليه الشيخ ثانياً يقول: ينبغي أن تكون يدك مثل قلبك.

حكاية:

قال الأستاذ عبد الرحمن مقرئ الشيخ: عندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز في

«نيسابور»، جاءه شخص وقال له: أنا رجل غريب، جئت إلى هذه المدينة فوجدتها مليئة بصيتك وشهرتك، وأن لك كرامات كثيرة، والآن أريد أن تظهر لي إحداها. فقال له الشيخ: كنت في «آمل»، فدخل شخص على أبي العباس القصاب وسأله هذا السؤال نفسه، فقال له الشيخ أبو العباس: ألا ترى ذلك؟ أليس ما تراه هنا كرامة أن ابن قصاب تعلم المهنة من أبيه، ورأى رؤيا سلبته له، وأُحضر إلى «بغداد»، وأرسله الشيخ الشبلي إلى «مكة»، ومن «مكة» إلى «المدينة»، ومن «المدينة» إلى «بيت المقدس»، وأراه الله الخضر، وألقى بمحبته في قلب الخضر، حتى حظي بالقبول عنده، وصاحبه، وأعادته إلى هنا، واتجه إليه الناس في جميع أنحاء العالم، يخرجون من الحانات، ويتخلصون من ذنوبهم، ويتوبون على يديه، ويأتي المحترقون إليه من جميع أنحاء العالم، يسألونه عن الله، هل توجد كرامة أكثر من هذا؟ فقال الرجل: أريد أن أرى كرامة الآن. فقال له: تأمل جيدًا، أليس كرمًا من الله أن أحد أبناء ذابحي العنز يجلسونه في مقعد العظماء، ولا تفتس به الأرض، ولا تقع عليه الجدران، ولا يتهدم فوقه هذا المنزل، ينال الولاية دون ممتلكات أو مال، ويتلقى رزقه دون عمل أو كسب، ويطعم الخلق، أليس هذا كله كرامة؟

ثم قال الشيخ: أيها الرجل، لقد حدث لي معك ما حدث للشيخ أبي العباس. فقال الرجل: أيها الشيخ، أأطلب منك كرامة من كراماتك، فتحدثني عن الشيخ أبي العباس؟ فقال الشيخ: كل من ينتمي إلى الكريم تكون كل أعماله للكريم، ثم ابتسم وقال:

«شعر»

كل نسمة تهب علي من ناحية بخارى،
يفوح منها عبير الزهور والمسك والياسمين.
وكل رجل وامرأة تهب عليه هذه النسائم،
يقول: عليها تهب من بلاد الختن.
لا، لا، إن مثل هذه النسائم العطرة لا تهب من الختن،

إنها تهب من عند محبوبـي.
وإنني لأتطلع إلى اليمن كل ليلة أملاً في أن تأتي،
لأنك سهيلي، وسهيل يطلع من اليمن
وإنني لأجتهد أيها الحبيب أن أخفي اسمك عن الناس،
حتى يقل حديث الناس عنك.
ولكن كلما تحدثت إلى شخص يكون اسمك
أول ما أنطق به، سواء أردت أو لم أرد.

ثم قال الشيخ: عندما يتطهر العبد تكون حركاته وسكناته وأقواله كلها كرامات.
وصلّى الله على محمد وآله أجمعين.



الفصل الثالث

في بعض فوائد أنفاس الشيخ قدس الله روحه العزيز، وبعض الرسائل والأشعار
التي جرت على لفظه العزيز بالقدر الذي تحقق لنا صدقه

* قال الشيخ: العمل يعكس صورة القلب لا قول اللسان.

* ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] إذا لم تقتل النفس فلن
تتحرر من هواها، ولا يكفي أن تقول «لا إله إلا الله» لتصير مسلماً.

* ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. يقول الله عز وجل:
إنني لا أغفر الشرك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:
٤٨]. ولك سبعة هياكل محشوة بالشك والشرك فيجب عليك إخراج الشرك منها لتستريح.
﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، طاغوت كل أحد نفسه. طالما
أنت لا تكفر بنفسك فلن تؤمن بالله. وطاغوت كل شخص نفسه، فتلك النفس هي التي
تبعدك عن الله، وتقول لك إن زيداً قد أساء إليك، وعمراً أحسن إليك، فهي تجعلك تتجه
إلى الخلق؛ وهذا كله شرك، فلا شيء يصير إلى الخلق، إنما الكل يتجه إلى الله. ويجب
أن تعرف هذا وتقول له. وعندما تقوله، يجب عليك أن تثبت على هذا القول، وأن تستقيم.
والاستقامة هي أنك إذا آمنت بالواحد، فلا تشغل بغيره، لأن الخلق والخالق اثنان.

* جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال له: قل لي في الإسلام قولاً يكون أصلاً أسير
عليه. فقال له: قل «آمنت بالله ثم استقم». وفي هذا المعنى جاء في القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

الثعلب» فنتقلوا في كل لحظة من مكان إلى آخر، لأن هذا لا يجعل الإيمان صحيحًا. فالإيمان أن تقولوا «الله، الله» وأن تستقيموا على ذلك. والاستقامة هي أنه إذا قلت «الله» فلا تذكر على لسانك حديث مخلوق غيره. ولا تدخله في قلبك، وكأنه ليس هناك خلق. فإلى متى تستطيع أن تقول عنهم ما تراه وتسمعه؟ انظر إلى الوجود الأزلي، وتحدث وانقل عنه لأنه لا يغني مطلقًا، وأحب الله الذي إذا أفنيت أنت لا يفنى هو بل يظل باقياً؛ حتى تكون أنت أيضًا هذا الكائن الذي لا يفنى أبدًا.

* قال الشيخ: الخصومة كفر، وعن غير بصيرة شرك، والسرور فريضة.

* قيل للشيخ إن رجلاً تاب ثم نقض توبته، فقال شيخنا: لو لم ينقض الله توبته لما نقضها أبدًا.

كان الشيخ يقول دائماً: أنت مسكين. وكان يقول أيضاً: لا تبحث عن معشوقٍ خالٍ من العيوب لأنك لن تجده.

* قال الشيخ: ألف صديق قليل، وعدو واحد كثير.

* قال الشيخ في مناجاته يوماً: يا إلهي اغفر لعبدك لأن له مثل هذا الوجه، ولا تحاسبه فإن له هفواته.

* سئل الشيخ: هل يكون رجال الله في المسجد؟ قال: وفي الحانات أيضاً.

* سئل الشيخ: ما التصوف؟ فقال: أن تترك ما في رأسك، وتمنح ما في كفك، ولا تجزع مما يصيبك.

* قال الشيخ: «كل ما شغلك عن الله فهو مشئوم عليك».

* قال الشيخ: أنت تتنفس ثلاثين ألف نفس في يوم وليلة. وكل نفس لا يكون لله يكون نتناً كالجيفة التي تزكم رائحتها الأنوف.

* قال الشيخ: «وقتك بين النفسين» واحد مضى، والآخر لم يأت بعد. ثم قال: مضى الأمس، وأين الغد؟ اليوم هو اليوم: «الوقت سيف قاطع».

- * قال الشيخ: التصوف شيئان: أن تنظر في ناحية واحدة، وأن تحيا بطريقة واحدة.
- * قال الشيخ: «الله» وكفى. «وما سواه هوس، وانقطع النفس».
- * قال الشيخ: «من صح قصده إلينا، وجب حقه علينا».
- * قال الشيخ: «الذكر نسيان ما سواه».
- * كان الشيخ يقول كثيراً: «كن يهودياً صرفاً، وإلا فلا تلعب بالتوراة».
- * قال الشيخ: «راحة النفس كلها في التسليم، وبلاؤها في التدبير».
- * قال الشيخ: قيل لذلك الشيخ: ادع لنا. فقال: «اختيار ما جرى لك في الأزل، خير من معارضة الوقت. الخير اجمع فيما اختار خالقنا، واختيار سواه الشر والشؤم».
- * قال الشيخ: هذا وكفى ويمكن أن يكتب على الظفر: «اذبح النفس وإلا فلا تشغل بترهات الصوفية».
- * قال الشيخ: الإسلام هو الاستسلام لأحكام الأزل. «والإسلام أن يموت عنك نفسك».
- * قال الشيخ: ينظر العبد في الصلاة فيقول له الله سبحانه وتعالى: لا تنظر فإن كل ما تنظر إليه أنا أفضل لك منه، فانظر إليّ، وعندما ينظر مرة أخرى يقول الله تعالى: لا تنظر، هل تنظر إلى ما هو أعظم وأعز مني؟ وعندما ينظر مرة ثالثة يقول الله تعالى: اذهب إلى ما تنظر إليه.

«بيت»

هل تعرف ماذا قال لي الحبيب اليوم؟

لقد قال: أغلق عينيك، ولا تنظر إلى أحد سواي.

- * قال شيخنا يوماً على رأس الجمع: أقسم بالله الذي يعلم، وهذا سبعون قسمًا، أن كل من يضع الله عز وجل أمامه طريقًا آخر، فإنه يكون قد أبعد عن طريق الحق. ثم قال هذا البيت:

يجب اختصار القول،

والحذر من صديق سوء.

فالصديق السيئ هو الذي يقول بالاثنتين، والقول بالاثنتين كفر يجب الحذر منه. وهذه هي نفسك التي تتحدث إليك دائماً، وتوقع بينك وبين الخلق، فيجب اختصار القول، وأن تقول واحداً، وكفى.

* قال الشيخ: يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَتَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، والتقوى منك وعندما تتطهر من نفسك تصل إلى الله، ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأَنْعَام: ١٢٦]، هذا طريقي، وغيره كله ضلال، وهذا الطريق لا يكون للصوام ولا للقوام ولا للعباد ولا للساجد والراكع، وإنما يكون للذي يتقى نفسه ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾، هذا هو طريقي إذا أردته.

* قال الشيخ: «التصوف اسم واقع فإذا تم فيه فهو الله».

وقف درويش أمام الشيخ يوماً في احترام كما يقف في الصلاة، فقال له الشيخ: إنك تقف بخشوع كما يقف الناس للصلاة، ولكن الأفضل من هذا أن لا تكون كذلك.

* قال الشيخ: إن الحجاب بين العبد والله ليس السماء والأرض، وليس العرش والكرسي؛ وإنما هو ظنك وأنانيتك، فانترعهما لتصل إلى الله.

* قال الشيخ: هناك أربعة أقوال مختارة من كتب الله تعالى الأربعة لسلامة العمل؛ فمن التوراة: «من قنع شبع». ومن الإنجيل «من اعتزل سلم». ومن الزبور «من صمت نجا». ومن القرآن ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

* قال الشيخ: لقد حرر الرجال الجسد، ولزموا مكاناً واحداً، واستسلموا للقدر سنين طويلة أماً في نفحة من هذا الحديث.

* سئل الشيخ: أين نضع اليد في الصلاة؟ فقال: توضع اليد على القلب، والقلب على الحق جل جلاله.

* قال الشيخ: لقد وصل جميع السالكين إلى محلة بايزيد وسحبوا العنان وقالوا: أين بايزيد ليرى العنان قوياً.

* سئل الشيخ: متى يتحرر العبد من رغباته؟ فقال: عندما يحرره الله. وهذا لا يتأتى بجهد العبد، وإنما يتأتى بفضل الله ورحمته، وبصنعه وتوفيقه؛ ففي أول الأمر يظهر الله في نفسه الرغبة في تحقيق هذا الأمر، ثم يفتح له باب التوبة. ثم يلقي به في المجاهدة ليجتهد. وأحياناً يتعنت العبد في مجاهداته ويتوهم أنه يأتي من مكان أو يعمل عملاً، ثم يعجز عن ذلك ولا يجد الراحة، لأن عمله غير خالص وملوث. وعندئذ يعرف أنه قام بهذه الطاعات بالوهم، فيتوب، ويتبين أنها أعمال تمت بتوفيق الله. وعندما يعلم هذا، يدخل طريق الحق قلبه ومن ثم يفتح في وجهه باب اليقين، فيسير مدة، ويأخذ كل شيء من كل شخص، ويتحمل الإهانات، ويعلم يقيناً فتوح من هذا، وعندئذ يزول الشك من قلبه. ثم يفتحون عليه باب المحبة ليدو مدة في تلك المحبة. وفي تلك المحبة تظهر الأنية من الناس، وفي تلك الأنية يتقبل الملامات.

والملامة هي أن يتقبل كل شيء يعرض في محبة الله، ولا يخشى الملامة. ويظهر فيه وهم يقول أنا أحب، ويمضي في ذلك مدة أيضاً ولا يستريح ولا يستقر، ويعرف أنه يحب الله، ولله معه فضل، وكل هذا بمحبته وفضله لا بجهدنا؛ فإذا ما رأى هذا كله استراح؛ وعندئذ يفتح عليه باب التوحيد حتى يعرف ويرى. وهم يصيرونه عارفاً حتى يعرف أن الأمور لله جل جلاله «إنما الأشياء برحمته»، وهنا يعرف أن الكل هو والكل به والكل منه، وأن هذا كله هو الوهم الذي وضعه في الخلق لا بتلائهم وبلائهم، والغلط الذي ساقه عليهم بجبروته لأن له صفة الجبروت -ولا يخرج العبد بصفاته- ويعرف أنه هو الله، وما يكون خبراً يصبح عياناً ويراها معانية، وينظر في فعل الله وعندئذ يعرف تماماً أنه لا ينبغي له أن يقول: أنا، أو: مني. وهنا في هذا المقام يظهر للعبد عجز، وتسقط عنه الحاجات فيصير العبد حرّاً ومستريحاً، وعندئذ يريد العبد ما سوف يريده هو، لقد ذهب العبد ووصل إلى الراحة؛ فالكل هو، وأنت لست شيئاً، والآن تقول: أنا لست شيئاً. ولكن

إذا تقدم قيد شعرة يصاح به: توقف.

ويلزم العمل أولاً، ثم المعرفة، لتعرف أنك لا تعرف شيئاً، وأنت لست شيئاً. ولا يمكن معرفة هذا بسهولة، وهو لا يتأتى بالتعليم والتلقين، ولا يمكن خياطته بإبرة ولا رتقه بخيط، هذا عطاء الله يعطيه من يشاء، ويذيق هذا الذوق من يشاء. يلزم تعليم الحق: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيَ﴾ [يوسف: ٣٧]. ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١-٢].

* قال الشيخ: «جذب جذبة من الخلق إلى معاينة الذات فحينئذ صار العلم عيناً، والعين كشفاً، والكشف شهوداً، والشهود وجوداً، وصار الكلام خرساً، والحياة موتاً، وانقطعت العبارات، وانمحت الإشارات، وانمحقت الخصومات، وتم الفناء، وصح البقاء، وزال التعب والعناء، وطاح الماء والطين، وبقي من لم يزل، كما لم يزل، حين لا حين ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

* قال الشيخ: يتعب الخلق لأنهم يطلبون الأمور في غير أوقاتها.

* قال الشيخ: إن الله تعالى يحول حقه في كل مكان تبعاً لحقوق الخلق. ويعفو بكرمه وفضله عن التقصير في حقه ويصفح عنه، ولا يقبل هذا في حقوق الخلق، لأن الرحمة صفة الحق، والعجز صفة الخلق. ثم قال هذا البيت:

حقاً إن الكرماء يفعلون كما فعل الملك

فقد نظر إلى عبده بعين العظمة

* التفت الشيخ يوماً أثناء حديثه إلى واحد من القوم وقال له: إن الوحشة من النفس فإذا لم تقتلها، قتلتك. وإذا لم تقهرها، قهرتك وتغلبت عليك.

* قال شيخنا يوماً على المنبر: إن سألكم سائل بعدي ماذا كان أصل شيخكم، فقولوا أربعة أصول: حكم الوقت، وإشارة السر، وفتوح الغيب، وسلطان الحق.

* سئل الشيخ يوماً: يا شيخ، ما الصدق؟ وكيف السبيل إلى الله؟ فقال الشيخ: الصدق وديعة الله في عباده ليس للنفس فيه سبيل، لأن الصدق سبيل إلى الحق وأبى الله أن يكون

لصاحب النفس إليه سبيل.

* قال الشيخ: إذا وصل شخص إلى الدرجة العليا في المقامات، واطلع على الغيب، ولم يكن له شيخ أو أستاذ، فإنه لا يرجى منه خير. وتكون كل حال من مجاهداته خالية، ضررها أكثر من نفعها.

* قال الشيخ يوماً أثناء المجلس: إن هذا التصوف عز في ذل، وغنى في فقر، وسيادة في عبودية، وشيع في جوع، ولبس في عري، وحرية في عبودية، وحياة في موت، وحلاوة في مرارة. وكل من يسير في هذا الطريق، ولا يسير على هذه الصفة، يزداد حيرة كل يوم.

* قال الشيخ: يجب أن يشتغل الرجل بعملين هما: أن يرفع من أمامه كل ما يشغله عن الله، وأن يسعى لراحة الدراويش. فإذا سار على هذا النحو، وصل إلى مقصوده.

* سئل شيخنا: ما عدد الطرق من الخلق إلى الحق؟ فقال: -في رواية- أكثر من ألف طريق. وقال -في رواية أخرى-: الطريق إلى الحق بعدد ذرات الموجودات، ولكن ليس هناك طريق أقرب وأفضل وأسرع من العمل على راحة شخص. وقد سرت في هذا الطريق، وإنني أوصي الجميع به.

* سأل درويش شيخنا: أين أجد الله؟ فقال له الشيخ: وأين بحثت عنه ولم تجده؟ إنك إذا خطوت خطوة صادقة في طلبه، تراه في كل ما تنظر إليه.

* قال الشيخ: يرى الشخص الذي يساق إلى الجحيم نوراً من بعيد، فيسأل: ما هذا النور؟ فيقال له إنه نور الشيخ فلان. فيقول: لقد كنت أحب ذلك الشيخ في الدنيا. ويحمل الريح ذلك الكلام إلى أذن الشيخ، فيشفع ذلك العزيز من أجل ذلك العاصي في حضرة الحق سبحانه وتعالى، فيطلقه الله تعالى بشفاعته ذلك العزيز.

* سئل الشيخ: ما الذي يظهره الله لبعض أحبائه، ويخفيه عن البعض؟ فقال الشيخ: الشيء الذي يحب الحق تعالى أن يخفيه، والشيء الذي يحب الحق سبحانه وتعالى أن يظهره.

* سئل الشيخ: من هو الصوفي؟ فأجاب: الصوفي هو الذي يرضى بكل ما يفعله الحق، حتى يرضى الحق بكل ما يفعل.

* قال الشيخ: إن المنعمين في الدنيا ينعمون بالدنيا. أما المنعمون في الآخرة فينعمون بالآلام.

* قال الشيخ: قال شيوخ ما وراء النهر: للشرك منزل هو البطر، وللإيمان منزل هو الحزن.

* قال الشيخ: الألم قلعة تحمي العبد من البلايا بحماية الحق.

* قال الشيخ: أهل الدنيا صيد لإبليس بشباك الشهوات. وأهل الآخرة صيد للحق بشباك الهموم. قال الله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يحب كل قلب حزين».

* قال الشيخ: عندما تعترض شخص مشكلة يفكر في أن يقولها للحق تعالى، وعندئذ يجب عليه أن يقول كل ما يطرأ على خاطره من الغيب، ولا يهتم بما يقوله هو نفسه.

* قال الشيخ لأحد الدراويش: كل ما يلزم قوله قله حتى لا يبقى ما لا يقال، وكل ما يجب عمله اعمله حتى لا يبقى ما لا يعمل.

* رأيت بخط الشيد الشيخ أبي البركات مكتوباً جاء فيه: سمعت عن الشيخ أبي بكر الدروني أنه قال: سمعت عن الشيخ أبي الحسن الفاروزي أنه قال: سمعت هذا الخبر من الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير: قال رسول الله ﷺ: «من أحب قوماً على أعمالهم حشر في زمرة، وحوسب بحسابهم، وإن لم يعمل بأعمالهم».

* قال الشيخ: «الغنى تعب محبوب، والفقر راحة مكروهة». وقد اتفق جميع الفضلاء والشيوخ على أنه لم يقل شخص في هذا المعنى قولاً أفضل وأكثر إيجازاً من هذا القول. * روي أنهم كانوا يحضرون إلى الشيخ كل ابن أو حفيد عند ولادته، ليؤذن في أذنه. وكان الشيخ يضع فمه على أذنه ويقول له بدلاً من الأذان: يجب أن تكون لهذا الطريق.

* قال الشيخ: «من نظر إلى الخلق بعين الخلق طالت خصومته معهم؛ ومن نظر إليهم بعين الحق استراح منهم».

* قال الشيخ، قال رسول الله ﷺ: «إن أول من يقرع أبواب الجنة من أمتي فقراؤها، وأكثر أهل الجنة من أمتي ضعفاؤها، وشرار أمتي من يساق إلى النار الأقماع». قيل: يا رسول الله ومن الأقماع؟ قال ﷺ: «الذين إذا أكلوا لم يشبعوا، وإذا جمعوا لم يستغنوا».

* قال الشيخ: «من لم يتأدب بأستاذ فهو بطل. وكل حال ووقت لا يكون من العلم، وعن نتيجة المجاهدة وإن حلّ فضرره أكثر من نفعه. ولو أن رجلاً بلغ أعلى المراتب والمقامات حتى ينكشف له من الغيب أشياء، ولا يكون له مقدم وأستاذ، فلا يجيء البتة منه شيء».

* سئل الشيخ في المجلس: ما التصوف؟ فقال الشيخ: «التصوف الصبر تحت الأمر والنهي، والرضا والتسليم في مجاري الأقدار». ثم قال: «لم يظهر على أحد حالة شريفة منيفة إلا وأصلها الصبر تحت الأمر والنهي والرضا والتسليم بقضاء الله وأحكامه عز وجل».

* قال الشيخ: كل قلب لا يكون فيه سر من الحق، وليس له سر مع الخلق وسماع من كلام الحق فإن سبب ذلك أن هذا القلب خال من الإخلاص. وكل من لا إخلاص له لا خلاص له على أي وجه من الوجوه. ثم روى خبراً عن الرسول ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة جيء بالإخلاص والشرك كحيوان بين يدي الرب تعالى فيقول الرب تعالى، للإخلاص انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك انطلق أنت ومن معك إلى النار. ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُتِبَتْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٩ - ٩٠].

ثم قال الشيخ: اطلبوا الإخلاص؛ فإن الإخلاص خلاص في الدنيا والآخرة، كذا قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ أخلص دينك يكفيك القليل من العمل».

* قال الشيخ: العالم هو المخلص، فمن لا إخلاص له في قبله فلا علم له في دينه

وشرعه. فقال واحد: يا شيخ، ما الإخلاص؟ فقال: لقد قال رسول الله ﷺ إن الإخلاص سر من أسرار الله في قلب العبد وروحه يظهر مسلكه به، ومدد ذلك السر يأتي من عناية الله سبحانه وتعالى، وهذا المدد رقيب على ذلك السر، والموحد يكون موحدًا بهذا السر. فقال رجل: أيها الشيخ، ما السر؟ فأجاب الشيخ: السر لطيفة من ألطاف الحق على نحو ما يقول: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩]. وتلك اللطيفة تظهر بفضل الله تعالى ورحمته لا بكسب العبد وعمله. ففي البداية يشعل في قلب العبد الحاجة والحزن والرغبة. ثم ينظر إليه بتلك الحاجة وذلك الحزن فيضع بفضلله ورحمته في قلبه لطفًا «لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل». ويقال لذلك اللطف سر الله، وهذا هو الإخلاص. وقد قال الله تعالى للرسول الله ﷺ أن يقوله للناس فقال له: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

* قال الشيخ: من كانت حياته بنفسه فحياته إلى ذهاب روحه. ومن كانت حياته بالإخلاص والصدق؛ فهو حي بقلبه، ينتقل من دار إلى دار. ثم قال: الإخلاص الذي لا يكتبه الملكان، ولا يطلع عليه إنسان.

* قال الشيخ: كل شخص يحيا بالنفس يموت بالموت. وكل من يحيا بالإخلاص والصدق؛ لا يموت أبدًا وينتقل من قصر إلى قصر، ثم قال الشيخ:

«شعر»:

يا عز أقسم بالذي أنا عبده	وله الحجيح وما حوت عرفات
لا أبتغي بدلًا سواك خليفة	فثقي بقولي والكرام ثقات
ولو ان فوق تربة ودعوتني	لأجبت صوتك والعظام رفات
وإذا ذكرتك يا خلوب تقطعت	كبدي عليك وزادت الحسرات

وتملكك الشيخ حال من السرور وقال هذه الرباعية:

إذا مت ومرت علي عشرون سنة

لا تظن قبري خاليًا من العشق

فإذا ما وضعت يدك على قبري سائلًا من هنا؟

لانبعث صوتي قائلاً: كيف حال معشوقي؟

ثم قال الشيخ: إن ذلك السر الطاهر هو معشوق الموحدين. وذلك السر قائم بنظر الحق وللحق، وهو من نصيب الخلق الطاهرين، ووديعة في هذا الجسد. وكل من يملك هذا السر إنسان، وكل من لا يملكه حيوان.

* قال الشيخ على المنبر يوماً: ألا من عاش بالله لا يموت أبداً.

* قال الشيخ: «إذا أردت أن يصير الحق في قلبك موجوداً؛ فظهر قلبك عن غيره، فإن الملك لا يدخل بيتاً فيه الخرافات والأقمشة؛ وإنما يدخل بيتاً فارغاً ليس فيه إلا هو، ولا تكون أنت معه كما قيل»: أخرج منه، فالبیت مسکني.

* قال الشيخ: إن فضلي عليكم أنكم تقولون لي، وأنا أقول لله. وأنتم تسمعون مني، وأنا أسمع منه. وأنتم معي، وأنا معه.

* قال الشيخ: «حقيقة العبودية شيان: حسن الافتقار إلى الله، وهذا من باطن الأحوال. وحسن القدوة برسول الله ﷺ، وهذا ليس للنفس فيه نصيب ولا راحة».

وقال: «طوبى لمن كان له في عمره نفس واحد»، ما أسعد ذلك الذي يتنفس نفساً واحداً صافياً طيلة عمره ويكون ذلك النفس ضد نفسه. وحيثما تقهر النفس وتغلب، يغلب نور الإسلام، وعندئذ تصعد من الجسد أنفاس صافية وافية مثل نسيم الصبا الذي يهب على الروضة. وكل مريض يصل إليه ذلك النسيم، يجد الراحة العاجلة، ويكون سبباً لشفائه.

* قال الشيخ: «التصوف إرادة الحق في الخلق بلا خلق». ثم قال: وهذا التغير والتلون والبلبلّة والاضطراب كله من النفس. وحيثما ينكشف أثر من أنوار الحقيقة لا تكون هناك ولولة ولا دمدمة ولا تغير ولا تلون. «ليس مع الله وحشة، ولا مع النفس راحة»، ثم قال:

«لييت»

يلزم رجل يضحك وهو محترق الكبد،

وليس مثل هذا الرجل كثير الوجود.

* سئل الشيخ: ما الفتوة؟ فأجاب الشيخ: «قال النبي ﷺ: أن ترضى لأخيك ما ترضى لنفسك». ثم قال: «حقيقة الفتوة أن تعذر الخلق فيما هم فيه. ومن صحب الفتیان من غير فتوة يفتضح سريعاً».

* قال الشيخ: «إن لله تعالى في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة إلى قلب عبده، ينظر هل ينظر إليه قلب العبد، فإن وجده ناظرًا إليه، ألحقه المزيد، وأكرمه بالزيادات والأنوار، وجذب قلبه إليه. وما لم يكن له جذبة من فوق؛ لا ينتظم أمره، ولا يصلح شأنه، كما قال الشيخ: جذبة من الحق توازي عمل الثقلين جميعاً».

* ثم قال: التحمل أفضل من الاجتهاد، وما لم يوجد التحمل، لا يكون الاجتهاد، وما لم يوجد الاجتهاد، لا تكون البصيرة.

* ثم قال: «من طلبه بالعبودية لا يجده، ومن طلبه به يوشك أن يجده».

* ثم قال: «لو بسط بساط المجد والفضل لدخل ذنوب الأولين والآخرين في حاشية من حواشيه، ولو بدت عين من عيون الجود ألحق المسمي بالمحسن».

* ثم قال: ليس الدراويش أولئك الذين لو لم يكونوا هم هم، لما كانوا دراويش، اسمهم صفتهم. وكل من يطلب الطريق إلى الحق ينبغي أن يمر عليهم لأنهم فيه.

* قال شيخنا: «انقطع عن الكل حتى يكون لك الكل». ثم قال:

(شعر)

الذكر يمنعي والجواد يطعمني والحق يمنع عن هذا وعن ذاكا

فلا وجود ولا ذكر أسير به حتى فؤادي إذا ناديت إياكا

* سئل شيخنا: يا شيخ، كيف الطريق؟ فقال الشيخ: «الصدق والرفق»، الصدق مع

الحق، والرفق مع الخلق. وقد اتفق جميع المشايخ على أن المروءة احتمال زلل الإخوان. ولا يسود الرجل حتى يكون فيه خصلتان: اليأس عما في أيدي الناس، والتغافل عما يكون منهم.

* قال الشيخ لمريد: لا كان اليوم الذي تصل فيه إلى مرادك، لأن كل من أنالوه مراده طردوه. وكف اليد عن كل ما يلزمك وما لا يلزمك لأنه صار بلاء لك وللخلق. ثم قال: لكل إنسان حاجة، وحاجتنا ألا تكون لنا حاجة. ثم قال: كنت يوماً عند الشيخ أبي العباس القصاب، وكان يتحدث، فقال في أثناء حديثه هذه الكلمة: كل شخص له ما يلزمه، وأبو العباس يلزمه ألا يكون له ما يلزمه.

* سألت درويش شيخنا قائلاً: ما هذا النار التي في القلوب؟ فأجاب الشيخ: يسمونها نار الحاجة. وقد خلق الله تعالى نارين: إحداهما نار حية، والأخرى نار ميتة. والنار الحية هي نار الحاجة التي وضعت في صدور العباد لتحترق نفوسهم، وهي نار نورانية، وعندما تحترق النفس تتحول نار الحاجة هذه إلى نار الشوق، ونار الشوق هذه لا تخمد أبداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهذه هي النار التي قال عنها الرسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيراً قذف في قلبه نوراً». قيل: يا رسول الله ما علامة ذلك النور؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت». قال ذلك السائل: يا شيخ، عندما تكون نار الشوق وتحقق الرؤية الطاهرة، هل تهدأ نار الشوق؟ فقال الشيخ: لا يمكن الاقتناع بنصيب من رؤية القمر، فهذه الرؤية تزيد الظماً ولا تحدث الشبع. وكما أنها اليوم غيب فإنها سوف تكون في الغد عندما يريدون الرؤية غيباً أيضاً. وليس من الصواب الطواف حول صفاته وكل شخص يرى يراه على قدر إيمانه. ويكون نور الإيمان هو النور الذي يأتي من القلوب إلى العيون حتى ترى بنور الإيمان هذا جلاله وجماله على حد ذاته.

والنار الميتة هي نار الجحيم ونار الظلمة والوحشة. وكل من لا يحترق بالنار الحية يحترق بتلك الميتة سواء في الدنيا أو الآخرة. ثم قال هذا الشعر:

لم تحرق نار النمرود إبراهيم بن آذر،
لقد صار ابن آذر مثل الرماد قبل هذه النار.
وما لم تحترق بهذه النار فلست صافيًا يقينًا،
سواء سميت هذا عبثًا أو سميته جنونًا.

* قال الشيخ: لقد تحدث سبعمئة شيخ من الشيوخ في الطريقة فقال أولهم ما قاله
آخرهم. ومهما اختلفت العبارات إلا أن الغني واحد وهو: «التصوف ترك التكلف»،
وليس هناك تكلف أكثر من اهتمامك بنفسك، لأنك عندما تشغل نفسك تعجز عن الله.
* قال شيخنا: لقد قيل إن التصوف شيان: النظر في ناحية واحدة، والحياة على وتيرة
واحدة.

* سئل الشيخ: إذا أراد رجل أن يسلك الطريق دون شيخ فهل يستطيع؟ فقال الشيخ:
لا يستطيع، لأنه يلزمه شخص يكون قد سار في هذا الطريق حتى يستطيع أن يرشده إليه،
ويحدثه عن عيوبه ومحاسنه؛ ويعرفه بكل منزل ويقول له يلزم البقاء هنا أكثر. وعندما
يكون هناك موضع يؤدي إلى التهلكة يقول له ينبغي الحذر. ويشجعه برفق حتى يقطع
ذلك الطريق بقلب قوي، فيصل إلى مقصوده. والشخص الذي يسلك الطريق بمفرده،
يكون كشیطان يتخبط في وسط صحراء، لا يعرف من أين يكون الطريق على نحو ما
يقول الله عز وجل: ﴿كَأَلَيْكَ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١]. وأصل هذا
الطريق هو إطاعة الشيخ «فإن تطيعوا تهتدوا»، وعندما يطيع المريد الشيخ فإنه أيضًا يطيع
الله ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، «والشيخ في قومه كالنبي في أمته».
* قال الشيخ: «إياك وصحبة الأشرار، ولا تنقطع عن الله بصحبة الأخيار».

* قال الشيخ: للصحبة شروط. وأحسن لباس يلبسه العبد هو لباس التواضع. وليس
لعبد حية أحسن من حلية التواضع، ولا يعز العبد إلا التواضع «ومن تواضع لله رفعه».
والتواضع هو الخضوع والتسليم في هذا الطريق حينما لا تتضح الأمور أمامه. وليس

هناك آفة للعبد في هذا الطريق أسوأ من التكبر. والتكبر هو التعاضم والغرور كما قال إبليس «أنا خير منه». ففقد طاعة ألف عام بغروره مرة واحدة. ويقال إن إبليس يطوف في الأسواق، ويقول للناس: تنبهوا ولا تغتروا ولا تقولوا أنا وتأملوا ماذا حدث لي من الغرور والأنية. والتكبر والتعاضم صفة الله، وكل من ينازعه فيه ويساوي نفسه به، فإن الله يقهره. * قال الشيخ: «التصوف بالتلقين كالبناء على السرقين»، ثم قال: «هذا الأمر لا يخاط على أحد بالإبرة، ولا يشد عليه بالخيط»، وهذا أمر لا يتحقق بالكلام، فما لم تسلك طريقه لا تسرى دماؤه فيك، وهذا أمر يتحقق بشعورك بالحاجة، فتلزم الحاجة.

* قال الشيخ: كل من يوافقني في هذا الأمر يصبح قريباً لي، ولو كان بينه وبينني مراحل كثيرة. وكل من لا يؤيدني في هذا الأمر لا علاقة لي به، ولو كان من أقربائي. فأنت تكون معي وبيننا منازل كثيرة، ثم قال: لقد حل قحط الله!

وفي كل وقت كان يرى فيه قافلة كان يقول لهم: ألم يكن بينكم شخص من زملائنا يلبس ملابس ممزقة؟ ثم يقول لمريديه: إن زملاءنا قليلون ولا شأن لهم بالدنيا والآخرة. * قال الشيخ: الحكم للوقت، والأمر للغيب. ثم قال:

«بيت»

إن طرتك سوداء، وقد صرت منجماً للمسك،
ولكثرة ما بحثت عن المسك أصبحت أنت المسك.

* قال الشيخ: من السهل على الخلق جميعاً أن تكون لهم علاقة بالرحمن الرحيم، ومن الأصعب علينا أن تكون لنا علاقة بالجبار والقهار.

«بيت»

لقد كانت الحيرة للمقربين كثيراً،
لأنهم يعرفون القهر السلطاني.

* قال الشيخ: مهما فعلنا يا إلهي، لا نستطيع بذلك أن نرفع طرف عمائمنا.

* قال الشيخ: يلزم في كل أمر صديق، ويلزم أصدقاء في هذا الطريق؛ بحيث يرشدونك إلى الحق، وعندما تعجز يعاونونك.

* قال الشيخ: إننا ننظر من الشرق إلى الغرب، مثلما تنظرون أنتم إلى طبق وترون كل ما يكون فيه. وإننا ننظر لنرى هل أخذ أحد بهذا الأمر، نحن نرى أنه قد ختم، وختم هنا. وإذا وجد في الدنيا جميعها شخص أو قوم أخذوا به، فإنه ينبغي عليهم أن يزحفوا إلينا.

* قال شيخنا: «قال النبي عليه السلام: ستفترق أمتي نيفاً وسبعين فرقة، الناجي منهم واحدة والباقيون في النار». قال الشيخ: أي في نار أنفسهم.

* قال المقرئ عبد الرحمن مقرئ الشيخ: إن الشيخ اعترته يوماً حال أثناء السماع، فأخذ يصيح ويرقص في حلقة الجماعة. ولما جلس وهداً، وكان الصمت قد استولى علينا، قال: لقد تحدث سبعمائة شيخ في ماهية التصوف، وأتم هذه الأقوال وأفضلها هو هذا القول: «استعمال الوقت بما هو أولى به».

* قال شيخنا: «كان التصوف ألماً، فصار قلماً».

* قال الشيخ: «أهل الرسوم في حياتهم أموات، وأهل الحقائق في مماتهم أحياء».

* قال شيخنا: «مطالعة الآثار من الخلق غلط، وما الخلق إلا سقط يلي سقطاً».

* قال الشيخ: لقد كنت أتجول طويلاً في مواضع كثيرة، وكان هذا الأمر يقتني أثري. وكنت أبحث عن الله في الجبال والصحاري، فأجده تارة، ولا أجده أخرى. والآن لقد صرت بحيث لا أرى نفسي، لأنني فنيت فيه، وتلك صفته، ولم أكن أنا، وسوف يكون هو، ولن أكون أنا. والآن لا أستطيع أن أتنفس نفساً بنفسي. ولست أدعي المشاهدة والتصوف والزهد، فالشخص الذي ليس له اسم؛ هل يمكن أن يطلق عليه اسم؟ هذا محال وليس بجائز.

* قال الشيخ: كل من يلزم له أن يأتي إلى هنا، يجب عليه أن يأتي ليستمع إلى نفحة منه. فالمجالس الأخرى مجالس علم، أما هذا فهو مجلس الحق. وهم في تلك المجالس

يبحثون عن السلطة والجاه والعز، أما هنا فهم يعدون عن أنفسهم السلطة والعز والجاه، فالعز لله ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] والله يقول في كلامه: لم يزل العز كله لي.

* قال الشيخ: كل قراء ينكر سماع الدراويش فهو بطلال الطريقة.

* كان الشيخ يتحدث في مجلس «ميهنة»، فمرت قافلة بذلك المكان، فقال الشيخ: ما أسعد هذه القافلة. ثم مر كلب على ذلك الموضع فقال الشيخ: ما أسعد هذا الكلب. غداً في يوم القيامة سوف يكون له الشرف على كلب أصحاب الكهف؛ لأنه سمع هذا الكلام.

* سئل الشيخ في «نيسابور»: هل توجد علامة في الدنيا على أن الله راضٍ عن العبد؟ فأجاب الشيخ: أجل، ينبغي أن يتبين العبد هل هو راضٍ بما منحه الحق سبحانه وتعالى في الدنيا أم لا؟ فإذا كان راضياً كان الله تعالى أيضاً راضياً عنه.

* قال الشيخ: حيثما ذكر أبو سعيد تسعد القلوب؛ لأنه لم يبق لأبي سعيد من أبي سعيد شيء.

* سئل الشيخ: كيف يمكن رؤية الحق ولا يمكن رؤية الدرويش؟ فقال: لأن الحق تعالى باق، والباقي يمكن رؤيته، أما الدرويش فهو فان، والفاني لا يمكن رؤيته.

* قال الشيخ: أيها المسلمون، اعلّموا أنهم لن يدعوكم تمرون دون عبء، فإذا كنتم تحملون عبء الحقيقة فإنكم سوف تتراحون الآن، وتحصلون على الراحة غداً. وإلا فسوف يضعون الباطل على أعناقكم، فلا تستريحون في الدنيا ولا في الآخرة.

* سئل الشيخ عن معنى هذه الآية: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فقال: معناها أن ذكر الله لعبده أكبر؛ لأن العبد لا يستطيع أن يذكر الله ما لم يذكره الله أولاً. وإنه لأكبر أن يذكر الله العبد ويمنحه التوفيق لكي يذكره أيضاً. وإذا تأملت جيداً تجده يذكر نفسه، لأن العبد ليس شيئاً. والعبد يسعى كثيراً، ويطوف بالدنيا، ويظن أنه حصل على الراحة، ولا راحة في مكان يخلو منه. وأينما توجهت لن تجد الراحة ما دام هو ليس موجوداً. إنه في كل مكان، وأنت تراه هنا أيضاً.

«رباعية»

سعت كثيراً حتى كلت قدمي
وفي النهاية لم أحصل على فائدة دونك
ولما بسطت يدي مبيعاً لك بالوفاء
قبعت في داري مستريحاً

* قرأ مقرأ هذه الآية أمام الشيخ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨]. فقال الشيخ:

«بيت»

ماذا ينال خالي الوفاض من رؤية
الحسان، غير الحسرة والألم!؟

وقرأ مقرأ: ﴿قُلْ لَّيْسَ إِلَهُكَ إِلَّا اللَّهُ سَبَّحْتَ لَهُمُ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، فقال الشيخ:

«بيت»

أنقودني إلى حافة البئر وتدفعني،
وتحوّل وتضرب كفاً بكف؟

* قال الشيخ: لن يأتي أعز من سليمان، ولم يكن هناك ملك أعظم منه. ومع هذا فلم يكن في قبضته سوى الريح ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ [سبأ: ١٢] وعندما أراد الله أن يريه قدر ملكه، أنزله عن العرش، وأجلس «صخر» الجني مكانه، ليسوس نفس الملك الذي كان يسوسه، ثم أطلع سليمان عليه ثانية، وقال له: إن هذا الملك الذي تتطلع إليه لا يهتم أحد بامتلاكه، ولا يستحق أن تقول: ﴿وَهَبْ لِي مَلِكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥].

* سئل الشيخ: ما الدولة؟ فقال الشيخ: قيلت في هذا المعنى أقوال كثيرة، وأنا أقول: «الدولة اتفاق حسن»، وعندما تظهر تكون العناية الأزلية «سبقت العناية في

البداية فظهرت الولاية في النهاية». والناس في الدنيا على ألوان شتى. وقد صبغ الله القلوب منذ الأزل على نحو ما يقول ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَكِيدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

(شعر)

وهواك أول ما عرفت من الهوى والقلب لا ينسى الحبيب الأول
وهذه الولاية ليست من تلك المجموعة حتى يمكن حياكتها بالإبرة، أو ربطها بالخيط،
أو وزنها بالميزان؛ فهي عندما لا تكون لا تكون.

(بيت)

جاءت الدنيا لمن جاء،

فاعتبر ما جاء كأن لم يجر.

* نهض رجل في مجلس الشيخ وسأله: أيها الشيخ، أي تدبير لنا؟ فقال الشيخ:
«التدبير في العقل تدمير. والتدبير في العشق تزوير». ولا يوجد خطأ أسوأ منه لأنك تدبر
مع عدوك في حق صديقك وربك. والتدبير صفة النفس والنفس عدو. وإذا كنت تريد أن
تدبر، فيجب عليك أن تدبر مع شخص ماهر. ولم يوجد ولن يوجد منذ العهد الأول حتى
منقرض العالم شخص أمهر من المصطفى الله ﷺ، فدبر معه، وانظر ماذا قال وسر عليه،
وابتعد عما نهى عنه.

«بيت»

يجب اختصار القول،

والحذر من صديق السوء.

وصديق السوء هو نفسك ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]. وطالما أنت
تهتم بنفسك فلن تجد الراحة قط «نفسك سجنك إن خرجت منها وقعت في راحة الأبد».
* في وقت من الأوقات سأل درويش الشيخ: أيها الشيخ، ما العقل؟ فقال الشيخ:

«العقل آلة العبودية» ولا يمكن إدراك أسرار الربوبية بالعقل؛ لأنه محدث، وليس للمحدث طريق إلى القديم.

* قال درويش للشيخ: أيها الشيخ، ادع لي، فقال شيخنا: لا جعلك الله لائقاً لأي عمل؛ لأنك إذا لقت لعمل، بقيت في قيده، وأصبح ذلك حجاباً لك عن ربك. وأساس العبودية الفناء، فإذا بقيت في صفاتك ذرة من إثبات؛ فقد دام عليك هذا الحجاب، فإثبات الصفات لله، ونفي الصفات للعبد. قال موسى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ [الشعراء: ١٣] وموسى هنا لم يهرب من النبوة، ولكنه تذوق النفي فكان يقول «دعنا في هذا الفناء فقد شعبنا من وجودنا، وتحملنا كثيراً من البلى».

وقد قيل: لا بد للنبوة من نفي البشرية، فقد قال الرسول الله ﷺ في الغار: دعنا هكذا في عجزنا. وكان جبريل يقول له: اقرأ، فكان يقول: ما أنا بقارئ، هنا الكبراء والعظماء، فماذا تريد من أجبر خديجة، ويقيم أبي طالب.

«لييت»

الجلوس في البيت لا يجديك،

فاربط ذيلك بذيلي.

* قال الشيخ، إن الملوك لا يبيعون العبد، فاجتهدوا أن تكونوا عبيداً لله، فعندما قبلكم عبيداً له، وناداكم «يا عبادي» تجاوز أمركم القياس والتصرف.

* قال رجل: يا شيخ، هل يخرج الإثم العبد من العبودية؟ فأجاب الشيخ: ما دام عبداً فلا، ولما كان آدم عبداً؛ فإن الذنب لم يبعده عن الله. فكن عبده حيثما شئت «ذنب مع الافتقار خير من طاعة مع الافتخار». ولقد شعر آدم بالافتقار وشعر إبليس بالافتخار، «لولا العصاة لضاعت رحمة الله».

* كان الشيخ يتحدث يوماً فقال: حركوا رؤوسكم استحساناً لهذا الحديث حتى إذا سئلتهم يوم القيامة من أنتم؟ قلتم: نحن المستحسنون لحديث رجالك، فيرفع القيد عنكم

سريعاً.

* سئل الشيخ عن هذه الآية ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [الفصل: ٦٨]، فقال الشيخ: إن الاختيار لله. والذي يختاره الله يجب أن يكون لائقاً حسناً. أما ما يختاره العبد فلا فائدة منه. ونحن لا نستطيع أن نتنفس نفساً دونه. والشيء الذي لا يردده الله لا يحدث، وأفضل لنا ألا نكون. وإذا ما عرض للعبد فتح، فإنه يزدان بهذا الفتح، وبصير هذا الفتح حلية له، فيصبح جديراً بالبصيرة. وإذا ما صار بصيراً أصبح سميعاً، وعلى هذا فالله يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. والله يقول لي هو خير يا ابن أبي الخير، وأنا أقول لكم: هو خير يا آل أبي الخير. وكل شخص يتيه بشيء، بعضهم يتيه بالدنيا وبعضهم بالعقبى، ويفخر بعضهم بالدرجات وبعضهم بالحسنات، وأنا أقول لكم إن هذا كله لم يكن موجوداً وكان هو موجوداً، ولا يزال، وسيظل دائماً.

وقد كان الشيخ أبو القاسم بشر ياسين يعلم العجائز في «ميهنة» هذا الذكر: يا أنت، يا من أنت كل شيء، يا من كل شيء لك وحدك لا شريك لك. وهذا كله لأن الحق تعالى يقول: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾. أيها المسلمون، لقد أصبح غريباً ذلك الشخص الذي يشم نفحة منه، أو الشخص الذي شبع من نفسه. والفيض يأتي الشخص الذي يتعلق بالله فيصير محتاجاً لله. تلزم الحاجة، فالحاجة مغناطيس يجذب أسرار الحقيقة.

قال الشيخ: قبل أن يخلق الله تعالى الأجساد بأربعين ألف سنة، خلق الأرواح واحتفظ بها في محل القرب، ثم نثر عليها نوراً، وكان يعرف نصيب كل روح من ذلك النور، ويهددها على قدر ذلك النصيب حتى هدأت وسكنت في ذلك النور وتربت فيه. والأشخاص الذين يأنس أحدهم إلى الآخر في الدنيا، كانوا يأنسون أحدهم إلى الآخر هناك، في ذلك القرب. وهم يحبون أحدهم الآخر هنا، ويعرفون بأحباب الله لأنهم يحبون أحدهم الآخر من أجل الله. وكل من يطلب الله منهم يحمل بذلك الطلب نفحة إلى الآخر، كما تشام الخيل. ولو أن أحدهم كان بالمغرب والآخر بالشرق فإنهم يجدون

الأنس والتسلي بحديث أحدهم إلى الآخر. وإذا كان أحدهم في القرن الأول والآخر في القرن الخامس، فإن ذلك الآخر لا يجد الفائدة والتسلي إلا بكلام الأول.

وهؤلاء القوم يتحلون بفضل الحق تعالى، ولا يتغيرون بشيء من الله: لا بالبلاء ولا بالنعماء ولا بالكرامات ولا بالمقامات. وكل من ينزل إلى شيء من هذه المعاني لا يكون إلا كاذباً، لأن الكرامات والمقامات والدرجات كلها ليست إلهية: هي كلها نصيب العبد، وكل من نزل إلى هذا صار عبد النصيب.

* قال الشيخ: أيها المسلمون، حتام لا تخجلون من أنيتكم؟ لا تقولوا في الدنيا الشيء الذي لا تستطيعون قوله يوم القيامة؛ لأنه يكون وبالاً عليكم. إن هذه الأنية تجلب الدمار للخلق، هذه الأنية شجرة اللعنة. وأول شخص قال «أنا» كان إبليس، وشجرة لعنته كانت ملكاً لكلمة «أنا»، وكل من يقول «أنا» يقطع ثمرة من تلك الشجرة، ويبتعد كل يوم عن الله أكثر.

طرق جابر بن عبد الله باب حجرة الرسول عليه السلام، فقال الرسول عليه السلام: من الطارق؟ فقال جابر: «أنا»، فنهض الرسول عليه السلام وأخذ يقول وهو يسير إلى الباب: «أنا، أنا، أما أنا فلا أقول أنا». وعندما تخلص من أنيته، وصح واستقام في ذلك، قيل له: قل هذا بإذن منا ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا﴾ [يوسف: ١٠٨].

* قال الشيخ: «لا تكرهوا النفس، فإن فيها خسر المنافقين».

* سئل الشيخ في تفسير هذا الخبر «تفكر ساعة خير من عبادة سنة». فقال: إن تفكر ساعة وأنت فان عن نفسك، خير من أن تقوم بالعبادة سنة وأنت تفكر في وجودك.

* سئل الشيخ عن السماع فقال: «يلزم للسماع قلب حي ونفس ميت».

* قال الشيخ: نحن نعظ دون علم، ونقيم الولايم دون نقود.

* قال الشيخ: ظللت أبحث عن الحق مدة طويلة، وكنت أجده تارة ولا أجده أخرى، والآن أبحث عن نفسي فلا أجدها، لقد فنيته لأن الكل هو.

لبثت في كيف ولماذا سنين طويلة،
أقول كيف هذا ولم ذلك.
وعندما استيقظ النائم من غفلته،
أصبح الغم أسهل عليه في اليقظة.

* قال الشيخ: تلزم جميع الأشياء للرجل حتى لا يلزمه شيء. وقد فسر أحد كبار الصوفية هذا القول فقال: يلزم للرجل أن يصل إلى كل شيء، ويجرب كل شيء، حتى لا يهفو قلبه لشيء.

* قال الشيخ: كل من يظن في نفسه ظناً طيباً لا يعرف نفسه. وكل من يظن في الله ظناً سيئاً لا يعرف الله.

* قال الشيخ: «لولا أن العفو أحب الأشياء إلى الله تعالى؛ لما ابتلى بالذنب أحب الخلق إليه، يعني آدم».

* سئل الشيخ عن معنى القول: «من عرف الله كلَّ لسانه». فقال شيخنا: يعني كل لسانه عن خصومة الخلق، فإن الرسول الله ﷺ كان أعز الخلق ولم يكل لسانه».

* سئل الشيخ عن معنى «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، فأجاب الشيخ: «من عرف نفسه بالعدم، عرف ربه بالوجود».

* قال شيخنا: «من فضل الفقير على الغنى أن كل أحد يتمنى عند الموت وفي القيامة أنه كان فقيراً، وذلك في حالة الصدق، ولا يتمنى أحد في ذلك الوقت الغنى».

* سئل الشيخ عن معنى «نصر عزيز» فقال الشيخ: العدو اثنان، أحدهما داخل القميص، والثاني خارج القميص، وذلك الذي في خارج القميص عندما تتغلب عليه يقال لذلك الفتح ظفر، أما ذلك الذي من داخل القميص فهو الذي عندما تتغلب عليه يسمون ذلك نصراً عزيزاً. هذا هو تفسير «نصر عزيز».

- * قال شيخنا: كل ما يليق للخلق لا يليق لله، وكل ما يليق لله لا يليق للخلق.
- * قال شيخنا: أصل الزلة هو أن المصطفى عليه السلام أحضر لنا زلة من هناك، من عند الحبيب، والآن ينبغي أخذ الزلة من بيت الأحياء لا من بيت الغرباء.
- * قال شيخنا: يمكنك أن تزيد في الجهد والتعب، ولكن لا يمكنك أن تزيد في الرزق، لأنه يكون بالمنح لا بالكفاح.
- * قال الشيخ: أن تسحب جبلاً بشعرة أسهل من أن تخرج بنفسك من نفسك.
- * قال الشيخ: يقول الناس إننا سعداء نشعر بالراحة ولو أنهم رأوا ما تحملنا، لتألموا كثيراً وهربوا.
- * قال الشيخ: ليس الشيطان هو الذي يقول «لا حول الله» وإنما هو الخاسر الهارب.
- * سئل شيخنا: «ما الشر؟. وشر الشر؟»، فقال الشيخ: الشر أنت، وشر الشر هو أنت وأنت لا تعلم.
- * قال الشيخ: إن الله تعالى لا يخشى أن يجعل مائة ألف صاحب نفس فداء لصاحب قلب.
- * قال الشيخ: بعد أكثر من سبعين عاماً عرفت معنى هذا البيت:
- أواه أيها الناس... لقد انعدم العدل في الدنيا!
- فالحبيب يرتكب الذنب وعلي أنا أن أعتذر.
- * قال الشيخ: قال سليمان ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ فمنحه الله ذلك الملك. ولما رأى آفة ذلك الملك، وأدرك أنه بسبب البعد لا القرب، قال لحضرة الله تعالى: ﴿لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾.
- * قال الشيخ: عندما يصل الرجل إلى طريق التجرد لا يهتم بملك سليمان، وإذا لم يصل إلى التجرد يعرف ما يزيد عن الكم. ولهذا السبب قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في السوق: اقطعوا ما زاد عن الكم.

* قال الشيخ: «ينبغي أن يكون لك وارد ولا يرد».

* قال الشيخ: «كل ما كان من قبل الهوى والباطل فهو نفس، وما كان فيه راحة من الخلق فهو نفس».

* سئل الشيخ عن معنى ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] فقال: الليل ليل الاستتار والنهار نهار التجلي.

* قال الشيخ: «لما خلق الله تعالى العقل وقفه بين يديه، فقال من أنا؟ فتحير فكحله بنور وحدانيته فقال: من أنا؟ فقال: أنت الله لا إله إلا أنت. فلم يكن للعقل طريق إلى معرفته إلا به».

* سئل الشيخ عن المعرفة فقال: المعرفة هي ما نقوله لأطفالنا، نظف أنفك ثم تحدث عنا.

* قال الشيخ: «القرب على ثلاثة أوجه: قرب من حيث المسافة، وهو محال. وقرب من حيث العلم والقدرة، وهو واجب. وقرب من حيث الفضل والرحمة، وهو جائز».

* قال الشيخ: وقتك هو نفسك بين نفسيين: أحدهما مضى والآخر لم يأت بعد. وقد سبق شرح هذا القول.

* قال شيخنا: يغسل الغاسل الثوب الأسبوع، ولكنه لا يكون جيداً. وإذا كان الغاسل سيغسله بعناية يقول (الثوب): أنا لا أخونك، ولا أستهين بعملك. فإذا ما كان يلزم أن أكون جيداً فانتظر حتى أذهب إلى الماء مرة أخرى. ولكنه يصير لأسبوعين وعندئذ يخرج كرباساً كل من ينظر إليه يقول: مرحى للأستاذ، مرحى للأستاذ.

* قال شيخنا يوماً أثناء حديثه: «إن الذين يكثرون الصلاة والذكر ويعدون ما لهم عند الله، فلو عدوا ما لله عندهم لاستراحوا». ثم قال: «قال رسول الله ﷺ: إياكم ومجالسة الموتى، قيل يا رسول الله، من الموتى؟ قال أهل الدنيا الذين ولدوا في التمتع. ثم قال ﷺ: يا معاذ إياك والتنعيم فإن عباد الله ليسوا بمتنعمين».

* قال الشيخ أثناء المجلس: الحياة بالعلم؛ والراحة في معرفة الذوق في الذكر، وثواب التوحيد النظر إلى الله تعالى في الجنة. وثواب أداء الأمر الجنة؛ وثواب اجتناب النهي الخلاص من النار. ثم قرأ الشيخ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٥ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٦].

* قال الشيخ: «لما خلق الله تعالى الأرواح خاطبهم بلا واسطة، وأسمعهم كلامه كفاحًا، وقال: خلقتكم لتساروني، وأساركم، فإن لم تفعلوا، فتناجونني، وأناجيكم. فإن لم تفعلوا، فكلّموني وحدثوني. فإن لم تفعلوا، فاسمعوا مني. ثم قرأ الشيخ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. ثم قال: «إن كلام الله صفة قديمة مختصة بذاته، ليس بحرف ولا صوت، ولا مسموع في ذاته، فإذا أسمع عبده من غير واسطة حرف ولا صوت، يسمى مكالمة ومخاطبة. وإذا اعتبره عليه، بأن يخلق في المحل ما يدل عليه من العبارات والحروف أو غير ذلك من الأدلة؛ فيسمى مسارة. وإذا خلق في قلبه معاني كلامه؛ فيسمى مناجاة. ومن شرط هذا القسم الأخير أن يتعقبه علم ضروري بأن هذا من كلام الله. فما ورد من ألفاظ المسارة والمناجاة والمخاطبة فمحمول على هذه المعاني. وأما الوحي والإيجاد فإذا الكلام في النفس بواسطة رسول من رسله».

* قال الشيخ أثناء الحديث: «سيروا إلى الله سيرًا جميلًا، وسيروا إلى الله بالهمم لا بالقدم».

* قال الشيخ: «من عرف الله بلا واسطة، عبده بلا عوض. ومن عرفه بواسطة، عبده على العوض».

* قال الشيخ: «الزم بابًا يفتح لك الأبواب، وأخدم سيدًا واحدًا يخضع لك الرقاب». ثم قال الشيخ: «تأن تنل، فإن هذا رب ليس العجلة من شأنه».

* سئل الشيخ عن معنى هذا الخبر: (إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى

أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم). فأجاب: قيمة كل امرئ قلبه، لأن الصور هو الصدف، والقلب هو الجوهر. والملوك لا ينظرون إلى الصدف، بل ينظرون إلى الجوهر. والجواهر مختلفة. وقيمة كل امرئ قلبه، وعاقبة كل امرئ قلبه. والقلب ناظر بالفضل والرحمة، كذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الجمعة: ٤] ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

* قال الشيخ: «الدنيا صوركم، والآخرة صوركم، وجميع ما في الكونين صوركم والأمر والاسم والصور. فالمقامات حركات الظواهر، والأحوال حركات السرائر، والتوحيد والمعرفة وراء الظواهر والسرائر. ولا يصل العبد بروح التوحيد وصفاء المعرفة إلا بكفاية ورعاية وعناية من الحق تعالى وتقدس».

* قال الشيخ: «السماع يحتاج إلى إيمان قوي لأن الله تعالى قال: ﴿إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ [النمل: ٨١]، فالسماع غذاء الأرواح وشفاء الأشباح. والسماع لسالك الطريق. ومن لم يسلك الطريق لا يكون له سماع بالتحقيق».

* قال الشيخ: «إن أردت أن تجده فاطلبه في رجوعك عما دونه».

* قال الشيخ: «السلامة في التسليم، والبلاء في التدبير».

* قال الشيخ: «من أحب الدنيا، حرم عليه طريق الآخرة؛ لأن النبي ﷺ قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

* قال الشيخ: «من سكن إلى شيء دون الله تعالى فهلاكه فيه».

* وقال: «من حدث في نفسه، غاب عن مولاه، وردّه الله إلى نفسه، لأن أول جنائية الصديقين حديثهم مع أنفسهم».

* قال الشيخ: «لا يجد السلامة أحد حتى يكون في التدبير كأهل القبور؛ لأن الله تعالى خلق الخلق مضطرين لا حيلة لهم. وأسعد الناس من أراه الله قلبه حيلته».

* سئل الشيخ: «يا شيخ، ما الشريعة وما الطريقة وما الحقيقة؟ فقال: الشريعة أفعال

في أفعال، والطريقة أخلاق في أخلاق، والحقيقة أحوال في أحوال. فمن لا أفعال له بالمجاهدة ومتابعة السنة، فلا أخلاق له بالهداية والطريقة. ومن لا أخلاق له بالهداية والطريقة، فلا أحوال له بالحقيقة والاستقامة والسياسة».

* قال شيخنا: «من حياته بنفسه، فحياته إلى ذهاب روحه. ومن كان حياته بالإجابة والصدق فهو حي ينقل من دار إلى دار. أما سمعتم قول رسول الله ﷺ «يا أهل الخلود والبقاء، خلقتم للبقاء لا للفناء، ولكنكم تنقلون من دار إلى دار».

* قال الشيخ: «أوحى الله تعالى إلى نبي من أنبيائه: تزعم أنك تحبني، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك، فإن حبها وحبي لا يجتمعان». ثم قال الشيخ: «ما ترك عبد في الله شيئاً إلا عوضه الله خيراً منه. ومن لم يكن عيشه بالله ولله، فلا عدة لموته».

ثم سأل سائل: «يا شيخ، ففيم الراحة؟ فقال: الراحة في تجريد الفؤاد عن كل المراد، لأن الله تعالى قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] أي فضلناهم بأن بصرناهم بعيوب أنفسهم، وكذا قال رسول الله: «إذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه». كذا قال ﷺ: «من زهد في الدنيا أسكن الله الحكمة قلبه، ونطق بها لسانه، وبصره عيوب الدنيا، وصار داؤها دواءها. ومن قال لا إله إلا الله فقد بايع الله، ولا يحل له إذا بايعه أن يعصيه. ومن لم يتنعم بذكره وأمره في الدنيا، لم يتنعم برؤية وجنته في العقبى».

* قال الشيخ: ليس هناك كلام أحسن مما أقول، ولكن إذا كان لا ينبغي قول هذا فإنه يكون أحسن.

* في وقت من الأوقات كان جماعة من العظماء عند الشيخ فقال أحدهم: إننا نفعل كل ما نقول. فقال شيخنا: إنني على خلاف هذا فأنا أفعل كل ما أفكر فيه.

* قال شيخنا:

«بيت»

أيها الحبيب، إنك عندما فנית بقيت،

فلا جرم أنك تطهرت عندما صرت ترابًا.

* سئل الشيخ عن العشق فقال: «العشق شبكة الحق».

* قال الشيخ: أنت لا تعرف، ولا تعرف أنك لا تعرف، ولا تريد أن تعرف أنك لا تعرف.

* قال الشيخ كثيرًا ما يقول: يا إلهي... إنني أستغفرك عما قصرته في حقك، وأحمدك على ما أنعمت علينا به.

* في كل وقت كان الشيخ يقرأ فيه القرآن، كان يقول عندما يصل إلى آية من آيات القسم: يا إلهي... إلى متى نعجز عن إدراك كنهك؟!

* قال الشيخ: كل قلب يكون فيه حب الدنيا يتشتت، والقلب المشتت لا يصلح لشيء. كان الحسن البصري من أعزة التابعين، وقد سأله شخص يومًا: كيف أنت، وكيف حالك؟ فقال حسن: يا أخي، لقد أغلقت باب النفس منذ ثلاثين عامًا وجلست أنتظر الأمر.

* وفي ذلك الوقت قال الشيخ: إن تشتت القلب سببه حب الدنيا. والقلب لا يطمئن طالما كان فيه حب الدنيا، لأن الرسول الله ﷺ قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» فإذا كان رأس كل خطيئة قد استقر في القلب، فهل يدع الطريق لشيء آخر يصل إليه؟ وقال الشيخ: كان أبو القاسم بشر ياسين يقول هذه الرباعية كثيرًا.

«رباعية»

سوف أحل ضيفًا عليك أيها الحبيب

وأحضر متواربًا ومتخفيًا عن الحساد

فاخل البيت، وتعال خلف الضيف

ولا تدع أحداً يجلس معنا

* وعندئذ قال الشيخ: إن تتمه هذا القول قول الرسول الله ﷺ: «طوبى لعبد جعل الله همومه همًّا واحدًا، ومن تشعبت به الهموم لا يبالي الله في أي وادٍ أهلكه».

* وقال أيضًا: «كل ما شغلك عن الله فهو شؤم عليك». كل ما شغلك فهو دنياك وإن يكن كله إبرة. وكل ما هو دنياك فهو آفة وتشيت لك. وفي كل تشيت تعويق لك عن هذا المعنى في الدنيا والآخرة.

* وقال الشيخ أيضًا في ذلك الوقت: كان الشيخ أبو القاسم بشر ياسين من عظماء «ميهنة»، وكثيرًا ما كان يقول هذا الشعر:

«شعر»

لقد صار حيًّا به من مات به،

ولن تحظى بالحياة منه حتى تنقطع عن غيره.

أتريد مقام الصفوة وقدمك ملوثة؟

أخشى أيها الخسيس ألا تليق به!

* سئل الشيخ: أيها الشيخ، إننا مهما فكرنا لا نصل إلى هذا المعنى. فقال الشيخ: «التدبير تدمير»، والتدبير عمل الجاهلاء، وليست هناك آفة أكبر من التدبير ولقد قيل: «اطلبوا الله بترككم التدبير، فإن التدبير في هذا الطريق تزوير».

* وحينئذ قال الشيخ: إن أغبى الناس هو الذي يتحالف مع العدو ضد الصديق، وهذا التحالف من قلة المعرفة. وقد كان هناك شيخ يقول هذا الدعاء كثيرًا:

«اللهم إني أشكو إليك قلة معرفتي بك».

* ثم قال: لقد كانت سعيدة الصوفية من ناسكات هذا الطريق، وقد ذكرها الشيخ أبو عبد الرحمن في طبقات الناسكات. وقد ذهب جمع من هذه الطائفة إلى باب حجرتها لتحيتها أملًا في الحصول على البركة، وقالوا لها ادعي لنا. فقالت تلك الموفقة: «قطع

الله عنكم كل قاطع يقطعكم عنه».

* وقال الشيخ: «المتكلف محجوب بتدبيره، مقطوع بدعواه في جميع أموره».

* قال الشيخ في أواخر عهده: رأيت أبا الفضل حسن في النوم وقلت له: إننا نحفظ عهد الأصدقاء. فقال: ما أحسنكم أيها الأصدقاء لأنكم تحفظون ما يجب أن يحفظ، والأفضل أن تكفوا الآن عن ذلك.

* قال الشيخ: «إغباب الزيارة مع حضور القلب، خير من دوامها مع نفور القلب».

* ثم قال: أنت عبد ما تكون في قيده.

* وعندئذ قال: طالما يرى العبد صفاء المعاملة يقول أنت وأنا. وعندما ينظر إلى فضل الله ورحمته يقول بجميع جوارحه «أنت» وعندئذ تصبح عبوديته حقيقية.

* قال الشيخ: «من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد بطلت صدقته».

* سئل الشيخ عن الشريعة والطريقة فقال شيخنا: هذه أسماء منازل، وهي منازل للبشرية. والشريعة كلها نفي وإثبات على القالب والهيكل، والطريقة كلها محو، والحقيقة كلها حيرة. وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يقول: «يا هادي الطريق حرْتُ»، فكان يصرخ من حيرة الحقيقة. وهذه الأقوال برهان، والبرهان بلا دليل كفر.

* قال الشيخ: لا تفعل هذا الشيء حتى لا تجعل قلبك بعيداً عن الحقيقة. وكان ينشد هذه الرباعية أثناء حديثه:

«رباعية»

لقد صرت هكذا بحيث لا يمكن رؤيتي

ما لم يجلسوني أمامك أيها الحبيب

فأنت شمس وهم يعتبرونني مثل الذرة

ومن هنا يطلقون على الذرة العالقة بالشمس

* قال الشيخ: ينبغي أن يجرد العمل من الطمع إذا أردت أن يكون العمل سهلاً عليك،
لأنه يجب أن يخلو العمل من الطمع. ثم قال هذا الشعر:

«شعر»

كمال المحبة ما يأتي من الحبيب بلا طمع،
وأي قيمة لما يقدر بالثمن.
يقيناً أن المعطي خير لك من العطاء،
وما يكون العطاء حين تكون عين الكيمياء.

* سئل الشيخ: يا شيخ، الفقر أتم أم الغنى؟ فقال الشيخ:

«بيت»

ما أعجبك من حبيب أيها الحبيب الخراساني،
إنني عبد لخراسان ذات العجائب.

ثم قال: الأتم والأكمل والأفضل في الشريعة هو أنه حينما يقع نظره السبحاني على
شخص يصير فقره غنى وغناه فقراً؛ فالبشرية مرآة الربوبية، والله لم ينظر بذلك النظر إلى
أي من خلفه سوى الآدمي، فقد قال: «إن الله تعالى لم ينظر إلى الدنيا منذ خلقها بغضاً
لها» ولما وصل إلى الآدمي قال: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم
ولكن ينظر إلى قلوبكم». وكان يكفي لخلق العالم كله أمر فقال: كن، فكان. فلما انتهى
إلى الآدمي تعدى الأمر وقال: «خلقت بيدي»، فكان هذا القلب. ولما وصل إلى الأرواح
قال «ونفخت فيه من روحي».

* قال الشيخ: إذا كانوا قد أرسلوا من السماء فدية لإسماعيل؛ فإنهم سيرسلون في
يوم القيامة فدية عن أراذل أمة محمد. «يجاء بالكافر ويقال للمسلم هذا فداؤك من النار».
* قال الشيخ: كل من يستطيع أن يجلس مع كل إنسان، وأن يسمع كلاماً من كل

إنسان، وأن يأكل طعامًا مع كل إنسان، ويستطيع النوم، فلا تأمل فيه خيرًا، لأنه قد أسلم نفسه للشيطان.

* سألوا الشيخ: أيها الشيخ، ما أصل الإرادة؟ فقال الشيخ: ما يصير قيامه رغبة. وفرق بين الرغبة والقيام، ففي الرغبة يكون التردد: إن يشأ يفعل، وإن يشأ لا يفعل. وفي القيام لا يكون طريق لشعرة؛ فالرغبة جزئية والقيام كلي: يأتي حديث، فيسطع برق، فيظهر جذب، ثم يظهر الاجتهاد، فتظهر الرؤية، ثم يكون الحرُّ مملكة.

* سأل درويش الشيخ: أيها الشيخ، ما العبودية؟ فقال: «خلقك الله حرًّا فكم كما خلقك». فقال: يا شيخ، إن السؤال عن العبودية. فقال الشيخ: ألا تعلم أنك لن تصير عبدًا ما لم تتحرر من الكونين؟ ثم قال هذا الشعر:

لما لم تستقم الحرية والعشق معًا،

صرت عبدًا، وزايلتني طبيعتي.

وإذا ما اتخذت حبيبًا بعد ذلك، فجائز،

لأن الجدل والخصومة زالا من بيننا

* سأل درويش الشيخ: ما الفتوة؟ قال: يجب أن يوجد صاحب همة حتى يمكن التحدث معه في حديث الفتوة، لأنه لا يمكن إثارة حديث الفتوة مع شخص يهتم بنفسه «زلة صاحب الهمة طاعة، وطاعة صاحب المنية زلة» فالفتوة الشجاعة واللطافة والظرافة تنبت في بستان الهمة، وفي بستان الهمة تكون الصلوات الطويلة والصوم والجوع وقيام الليل والصدقة الكثيرة، وكل من يثبت الهمة يمحو الهمة.

* قال الشيخ يومًا: «رأى النبي ﷺ ليلة المعراج قومًا من الملائكة كلهم نور، من بين يديهم ومن خلفهم نور، وفوقهم نور، وتحتهم نور، قال قلت يا جبريل من هؤلاء؟ قال هؤلاء قوم لم يعرفوا سوى الله».

* قال الشيخ يومًا: بلغنا أن السيد الصادق جعفر بن محمد قال: «ما رأيت أحسن

من تواضع الأغنياء للفقراء. وأحسن من ذلك إعراض الفقير عن الغني استغنى بالله عز وجل»، ثم قرأ المقرئ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

* قال شيخنا يوماً: غاية عزنا الافتقار إلى الله تعالى، والتذلل بين يديه؛ لأن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً دله على ذل نفسه».

* سئل شيخنا: هل الفقر أتم أم الغنى؟ فقال الشيخ: «الغنى عن الكل». ثم قال:

«شعر»

إذا نحن أدلجنا وأنت أماننا

كفى لمطايانا بذكرك هادياً

* قال الشيخ: «كيف يدرك الخالق بالمحدث، أم كيف يدرك ذو مدى من لا مدى له».

* قال الشيخ يوماً أثناء المجلس: «سمعت أن السيد الصادق جعفر بن محمد يقول الغني بالله لا يريد به بدلاً، ولا ينبغي عنه حولاً. ومن قال لا إله إلا الله، فقد بايع الله؛ ولا يحل له إذا بايعه أن يعصيه».

* قال الشيخ: الشخص الذي يسلك طريق الحق أول اسم يطلقونه عليه اسم «مريد». وقد روي آلاف الأشياء التي تجب على المريد كي يطلق عليه اسم مريد، أولها أنه إذا تجرد ينبغي عليه أن يكون كل شيء له خلافاً للخلق؛ فلا يكون قوله مثل قول الخلق، ولا مسلكه مثل مسلك الخلق، وأن يخشى كثرة التكلم.

* سألوا الشيخ: من الشيخ المحقق؟ ومن المريد المصدق؟ فقال: علامة الشيخ المحقق أن تكون فيه هذه الخصال العشر حتى يكون صادقاً في المشيخة:

الأولى: أن يكون مراداً حتى يستطيع أن يحتفظ بالمريد.

الثانية: أن يكون قد سلك الطريق؛ حتى يستطيع أن يوضح الطريق.

الثالثة: أن يكون قد تأدب وتهذب؛ حتى يستطيع أن يكون مؤدباً.

الرابعة: أن يكون سخيّاً في غير إسراف؛ حتى يستطيع أن يجعل المال فداء للمريد.

الخامسة: أن يتنزه عن الطمع في مال المريد؛ حتى لا يتقيد بأمر في طريقه.

السادسة: إذا كان قادرًا على إسداء النصيح بالإشارة، فلا يسديه بالعبرة.

السابعة: إذا كان قادرًا على التأديب بالرفق، لا يفعله بالعنف والغضب.

الثامنة: أن يكون قد نفذ هو أولاً كل ما يأمر به.

التاسعة: يكون قد امتنع هو أولاً عن كل شيء ينهاه عنه.

العاشرة: إذا قبل مريدًا لله، فلا يرده للخلق.

وإذا كان الأمر كذلك، وكان الشيخ يتحلى بهذه الأخلاق، فإن المريد لن يكون إلا مصداقًا وسالكًا. وكل صفة تظهر على المريد، تكون صفة للشيخ، ظهرت على المريد منه. أما المريد الصادق فإن أقل الأشياء التي يجب أن تتوفر فيه حتى يكون لائقًا لأن يكون مريدًا، عشرة أشياء هي:

أولاً: أن يكون ذكيًا؛ حتى يستطيع أن يفهم إشارة الشيخ.

ثانيًا: أن يكون مطيعًا؛ حتى ينفذ أمر الشيخ.

ثالثًا: أن يكون حاد السمع؛ حتى يفهم كلام الشيخ.

رابعًا: أن يكون نير القلب؛ حتى يدرك عظمة الشيخ.

خامسًا: أن يكون صادق القول؛ حتى يكون كل خبر ينقله صحيحًا.

سادسًا: أن يكون صادق العهد؛ حتى يفي بكل ما يريد.

سابعًا: أن يكون حرًا؛ حتى يستطيع أن يتخلى عن كل ما يملك.

ثامنًا: أن يكون كتمًا للسر؛ حتى يستطيع أن يحفظ سر الشيخ.

تاسعًا: أن يكون متقبلًا للنصيحة؛ حتى يتقبل نصيحة الشيخ.

عاشرًا: أن يكون فدائيًا؛ حتى يستطيع أن يضحي بروحه العزيزة في هذا الطريق.

وينبغي على المريد أن يتحلى بهذه الأخلاق؛ حتى يسهل عليه سلوك الطريق، ويتحقق

هدف الشيخ في الطريقة منه سريعاً إن شاء الله تعالى.

* قال الشيخ يوماً يتحدث حديث الرسميين فقال: من الرسمي أن يفعل الإنسان ما يفعل بالتكليف كما يفعل بالعادة، وحينئذ تصير العادة طبيعة، ثم تصير الطبيعة حقيقة، ثم قال للشيخ أبي بكر المؤدب: انهض وأحضر دواة وورقة حتى أُملي عليك فصلاً عن عادات ورسوم أهل الخانقاه، فلما أحضرها، قال: اكتب: اعلم أن عادات ورسوم أهل الخانقاه عشر، وهي فريضة على كل مقيم في الخانقاه، على سنة أصحاب الصفة رضي الله عنهم وعن أهل الخانقاه. فالصوفي سمي صوفيّاً لأنه يكون صافياً مقتدياً بأفعال أهل الصفة.

أما الأشياء العشرة التي يعتبرونها فريضة عليهم، والتي تتفق مع كتاب الله تعالى وسنة المصطفى عليه السلام فهي:

أولاً: أن يكون ثوبه طاهراً لأن الله تعالى قال ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدرثر: ٤]. ويكونوا أطهاراً دائماً لأنه تعالى قال: ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ثانياً: أن يجلس في مسجد أو بقعة من بقاع الخير، على نحو ما قال سبحانه وتعالى ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

ثالثاً: أن يؤدي الصلاة في أوقاتها جماعة كما قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩].

رابعاً: أن يصلي في الليل كثيراً كما قال: ﴿وَمَنْ أَيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

خامساً: أن يكثر في وقت السحر من الاستغفار والدعاء على نحو ما قال: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

سادساً: أن يقرأ كل ما يستطيع قراءته من القرآن في وقت الفجر. وألا يتحدث بحديث

آخر حتى طلوع الشمس. كما قال: ﴿إِنْ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَتْ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

سابعاً: أن يشتغل في الفترة ما بين صلاة العشاء والنوم بورد أو ذكر كما قال: ﴿وَمِنْ أَلِيلٍ فَسَبِّحْهُ وَادْبِرَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

ثامناً: أن يقبل المحتاجين والضعفاء وذوي القربى ولا يطردهم كما قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

تاسعاً: ألا يأكل شيئاً دون إذن كما قال: ﴿وَالْمُؤْفُوكَ يَعْهَدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

عاشراً: ألا يذهبوا دون أن يستأذن بعضهم بعضاً كما قال: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢].

وفضلاً عن ذلك فإنهم ينبغي أن يشغلوا أوقات فراغهم إما بتعلم العلم، أو بقراءة الورد، أو بفعل خير لإنسان، أو توصيل شيء إلى محتاج. إذن فكل من يحب هذه الطائفة ينبغي أن يساعدها بكل ما يستطيع، وأن يكون شريكاً لأصحابها في الفضل والثواب لأنه قال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفٍّ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال الرسول ﷺ: «من أحب قوماً فهو منهم». وفي حق هؤلاء قال المصطفى: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن عازب». وقال رب العالم في حقهم أيضاً: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨] وصلى الله على محمد وآله أجمعين.

* قال الشيخ: كل من رآنا وسعى في حق أبنائنا وأسرتنا سيكون غداً تحت ظل شفاعتنا، ولن يحرم منها.

* قال الشيخ: سألنا الله أن نكون جيراناً لليمين واليسار والخلف والأمام، وقد جعلها الله تعالى تحت اختيارنا. ثم قال: فجهاطنا «بلخ» و«مرو» و«نيسابور» و«هراة».

* وقال شيخنا أيضاً: لا يجوز أن يقال شيء لمن في كنفنا؛ لأن من يركب حملاً ويمر على محلتنا وخانقاهنا، أو ينزل فيها، أو يكون قد أضاء له نور شمعنا يمن الله تعالى عليه بكرامة الرحمة.



«الدُّعِيَّةُ»

* قال شيخنا السيد أبو طاهر: إن السيد أبا منصور الورقاني جاء يوماً لزيارة الشيخ. وقال له: أيها الشيخ. دلني على طريق، فقال الشيخ: أسلك الطريق الذي أمر الله تعالى به. فقال: أي طريق هو؟ قال الشيخ: هو الطريق الذي قال الله عنه ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] ولم يقل «واتبع سبيل من خاب». فقال: يا شيخ، بأي زاد أسلك هذا الطريق؟ فقال: قل دائماً: «يا رجاء الراجين، ويا أمل الآملين، لا تخيب رجائي، ولا تقطع أمني يا أرحم الراحمين. توفي مسلماً، وألحقني بالصالحين».

* وأيضاً قال شيخنا السيد أبو طاهر: قال الشيخ يوماً: أرسل السلطان طغرل رجلاً يدعو وزيره أبا منصور الورقاني، فقال له: إنني لم أصل العشاء بعد، ولا أستطيع الحضور. وعندما سمع الرجل هذا الكلام أبلغه إلى السلطان فلم يقل شيئاً.

ولما فرغ أبو منصور من الأوراد جاء إلى السلطان فقال له السلطان: أيها السيد، كلما دعوتك لعمل قيل لي إنك تقرأ القرآن أو تصلي فيتعطل العمل. فقال أبو منصور: إن الأمر كما يقول السلطان، وأعلم أنني عبد الله وخادمك. فما لم أؤد أوامر الله، فلن أقوم بخدمتك أيضاً، فإذا وجدت وزيراً يمكن أن يكون خادماً لك دون أن يكون عبداً لله فسأعود إلى منزلي، فقال السلطان: لن أجد ذلك الذي لا يكون عبداً لله، وليس لنا عليك أكثر من ذلك، فقم بكل ما تستطيع من العبادة ثم عد إلي، فرجع أبو منصور إلى المنزل.

وانتهى الخبر إلى الشيخ أبي سعيد، وكان حينئذ بنيسابور، فلما سمعه أمر بإعداد الجواد ليذهب لتهنئة أبي منصور، وحين خرج من الخانقاه أرسل حسن بن المؤدب درويشاً ليخبر أبا منصور بمقدم الشيخ. ولما وصل الشيخ إلى باب القصر، قال البواب لحسن بن المؤدب: ادخل سريعاً فمند بلغ السيد خبر قدوم الشيخ وهو واقف في وسط القصر، وكلما أشار أحد عليه بالجلوس قال: ليس من اللائق أن يسير مثل ذلك العظيم على قدميه لتحيتي وأنا جالس. وعندما دخل الشيخ القصر وجده واقفاً في وسطه. فسأله: ما سبب وقوفك هكذا؟ فقال: عندما سمعت بخبر مقدم الشيخ وقفتُ، فلا ينبغي أن أجلس والشيخ يسير إلي. فقال له الشيخ: أيها السيد، لن أقبل أن أيضاً في يوم القيامة أن تقف أنت وأنا جالس، فلن أجلس ما لم أجلسك. فقال السيد: لقد أقبلت عليّ الدنيا والآخرة. ولما جلس الشيخ وهنأه، قال الوزير: أيها الشيخ، إنني أخاف لأن السلطان تركي، ولا ينبغي أن يتهور الإنسان، فيعمل عملاً بتهوره. فقال له الشيخ: حين تذهب إليه، اقرأ دعاء يوم الأحزاب، فقد صدق عن الرسول الله ﷺ أنه قال: كل من يذهب إلى السلطان ويقرأ دعاء الأحزاب، لا يصاب بأذى، ويرجع مقضي الحاجة. وهذا الدعاء هو: «اللهم إنا نعوذ بنور قدسك، وعظمة طهارتك، وبركة جلالك، من كل سوء وعاهة، ومن طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير منك يا رحمن، اللهم أنت غياثنا فبك نغوث، وأنت ملاذنا فبك نلوذ يا من ذلت له رقاب الجبابرة، وخضعت له أعناق الفراعنة. ونعوذ بك من خزيك، وكشف سترك، ونسيان ذكرك، والانصراف عن شكرك. ذكرك شعارنا، وثناؤك دثارنا في نومنا وقرارنا وظعننا وأسفارنا وليلنا ونهارنا. اضرب علينا سرادقات حفظك، وأدخلنا جميعاً في خفض عنايتك، وجد علينا بخير منك يا رحمن يا رحيم، يا لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، نستغفرك ونتوب إليك».

* قال السيد أبو طاهر: عندما أرسلني الشيخ إلى «نسا»، علمني هذا الدعاء، وقال لي: لا تغفل عنه: «يا حنان، يا منان، يا ديان، يا برهان، يا سبحان، يا رحمن، يا مستعان، يا عزيز الشأن، يا دائم السلطان، يا كثير الخير والإحسان، نعوذ بك من الحرمان والخذلان».

* كان الشيخ يقرأ هذا الدعاء بين أورد الفجر: «بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله ما شاء الله، لا يأتي بالخير إلا الله، بسم الله ما شاء الله، وما بنا من نعمة فمن الله. ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. بسم الله لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم. بسم الله الشافي، بسم الله الكافي، بسم الله المعافي، بسم الله ذي الشأن، الشديد السلطان، العظيم. ما شاء الله كان، أعوذ بالله من الشيطان، ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، فتحصنا بالحي الذي لا يموت، ورمينا من أرادنا بسوء، بلا إله إلا أنت، وتمسكنا ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].»

* وفي رواية صادقة أيضاً عن شيخنا قدس الله روحه العزيز أنه كان يقرأ هذا الدعاء أيضاً كل يوم بعد صلاة الفجر: «الحمد لله رب العالمين. حمداً كثيراً طيباً مباركاً كما يحبه ربنا ويرضى، كما ينبغي لكرم وجهه عز وجلاله، والحمد لله حمداً لا انقضاء لعدده، ولا انتهاء لمدده. والحمد لله الذي حللنا ليوم عاقبته، وأقالنا بعمل عافيته، والحمد لله حمداً بعدد إحسانه وفضله علينا وعلى جميع خلقه، والحمد لله حمداً بعدد حسنات خلقه وسيئاتهم؛ إذ فضلنا على كثير من خلقه. اللهم لك الحمد بجميع محامدك كلها على جميع نعمائك كلها علينا وعلى جميع خلقك كلهم. وصلوات الله وملائكته ورسله وجميع خلقه على نبينا محمد وعلى آله عليهم السلام ورحمة الله وبركاته. مرحباً مرحباً بالحافظين، وحياءكم الله من كاتبين ملكين رفيقين شاهدين عدلين، جزاكم الله عني من جليسين كريمين خيراً كتباً، رحماً الله ورضي عنكما. بسم الله وبالله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. أصبحت عبداً مملوكاً لا أقدر أن أسوق إلى نفسي خير ما أرجو، ولا أن أصرف عن نفسي شر ما أخطر، أصبحت على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا ﷺ، وعلى ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، وولاية وليهما، والبراءة من عدوهما. اللهم إني أصبحت في عافيتك ونعمتك فأتمم عليّ عافيتك ونعمتك، اللهم بك أصبحت، وبك أمسيت، وبك أحيأ،

وبك أموت، وعليك أتوكل، وإليك النشور، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». * نقل عن شيخنا أيضًا في رواية صادقة أنه كان يقول كل يوم في الفجر بعد تأدية الفريضة، هذا الدعاء عشرين مرة: «اللهم بارك لي في الموت، وفيما بعده، وأجرني من النار».

* رأيت بخط السيد أبي البركات بن الشيخ مكتوبًا جاء فيه: سمعت عن السيد إسماعيل بن عباس أنه قال: سمعت عن محمد العارف النوقاني أنه قال: سمعت عن الشيخ أبي سعيد قدس الله روحه العزيز أنه قال: ورد في الخبر عن الرسول الله ﷺ أنه كان يصلي عشر ركعات في يوم الجمعة بين صلاتي العشاء وصلاة الفجر بخمس تسليمات، وفي كل ركعة يقرأ «الفاتحة» مرة، و «قل هو الله» إحدى عشرة مرة. وعندما يفرغ يقول مائة مرة: «سبحان الله، والحمد لله، وأستغفر الله، وأتوب إليه».

* أعلم أنه كان من عادة شيخنا أبي سعيد قدس الله روحه العزيز أن يقول دعاء المائدة بعد أن يفرغ من تناول الطعام. وهذا الدعاء هو: «اللهم بارك لنا فيما رزقتنا، وارزقنا خيرًا منه وأفضل، وأعطنا جميع ما سألناك من الخير، وما لم نسأل، وزدنا من فضلك الواسع، وإنا إليك راغبون».



رسائل

«شيخنا قدس الله روحه العزيز نورد بعضها على سبيل البركة»

كان السلطان جفري قد كتب رسالة إلى الشيخ بيد السيد حمويه رئيس «ميهنة»، وأحد مريدي الشيخ، وطلب من شيخنا شيئاً، وأرسل السيد حمويه لتلك المهمة. فكتب له شيخنا هذا الخطاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم

حفظ الله عز وجل الأمير الجليل، الملك المظفر، بعنايته. ولا تركه لنفسه وللناس، ومنحه ما فيه رضاه. وحفظه بفضله ورحمته مما يكون عاقبته الندم.

لقد وصلت رسالة الأمير الجليل، الملك المظفر وفقه الله للخيرات، على يد السيد حمويه، سدده الله. وقد قرئت الرسالة، وعُرف مضمونها، وقد وضحت الأعدار العارضة، فأحيط بها تماماً. وأنا بدوري أبسط أعذارى وأوضحها، وآمل أن تقبل. وأسأل الله عز اسمه أن يقبل أعذار الأمير الجليل، الملك المظفر بفضله، وأن يبعد عنه بلايا الدارين، وأن يوفقه دائماً لكل ما فيه صلاحه ونجاته في الدنيا والآخرة، والحمد لله وحده لا شريك له.

* عندما كان شيخنا قدس الله روحه العزيز في «نيسابور» جاء إليه درويش وقال له: أنا ذاهب إلى «ميهنة»، فطلب الشيخ الدواة وورقة وقال: انتظر لحظة حتى أكتب كلمة لأبي طاهر. وكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم

سلام الله اللطيف الخبير، على الكبير والصغير، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير.
والسلام».

وأعطى الورقة للدرويش ليحملها إليه.

* قال درویش للشيخ: أيها الشيخ، إنني ذاهب إلى «مرو الرود» فهل من حاجة؟ فقال
له شيخنا: انتظر حتى أكتب شيئاً للقاضي حسين. وكتب له:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«شعر»

ألا حظها فتعلم ما بقلبي

وتلحظني فأعلم ما تريدُ

والسلام.

* وكتب الشيخ إلى أحد العظماء بشأن خطيب عزيز:

«بسم الله الرحمن الرحيم

سلام الله تعالى على الشيخ العالم ورحمة الله وبركاته. وهذا الخطيب الأفضل أدام
الله فضله من أهل بيت العلم والفضل. وقد قصد ساحته وطلب مجاورته والتفقيُّ ببركته.
ونرجو أن ينزله منازل أمثاله بإظهار شفقتة عليه. ويشمله بكرمه وأفضاله والسلام.

* كتب خطيب قرية «أزجاه» شيئاً إلى شيخنا، فكتب إليه هذا الخطاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم

وصل أدام الله فضله كتاب الخطيب الأفضل الأديب، وفقه الله على جميع ما يقربه
إليه ديناً ودنياً وآخرة، وكشف لي عن جميع ما يضمه من صحة الاعتقاد، ومحض الوداد.
ولا غرو أن يكون كذا؛ إذ القلوب مشاهدة، والضمائر بنور الحق ملاحظة. والله يقيه،
ومن الأسواء يقيه. وأما حديث المتوفاة نور الله قبرها، وبشر بلقياء صدرها، وأنشد على

فراقها قصيرة عن طويلة:

ولو كان النساء كمن فقدنا

لفضلت النساء على الرجال

والسلام.

* توفي السيد الأستاذ الإمام محمد بن عبد الله بن يوسف الجويني في «نيسابور»،

فكتب شيخنا رسالة من «ميهنة» إلى عظماء «نيسابور» للعزاء فيه قال فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

سلام الله تعالى على الأجلة السادة ورحمته وبركاته فيقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

ثم «إنا لله وإنا إليه راجعون» رضاء بقضائه، وتسليمًا لحكمه، وصمودًا تحت قهره».

* عندما كان شيخنا قدس الله روحه في «نيسابور» تقدم إليه درويش وقد انتعل حذاءه

وقال: إنني ذاهب إلى «ميهنة»، فهل من خدمة؟ فقال له الشيخ: انتظر حتى أكتب شيئًا

لأبنائي، وكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«بيت»

لا يستطيع فنان مهما أخرج من الروائع مائة عام،

أن يبدع ما أبدعه مطر واحد.

وجه نضر، وجبين منبسط، ولا مناص من الضيف.

والسلام.

* كتب شيخنا هذه الرسالة من «ميهنة» إلى أبي بكر الخطيب في «مرو»:

«بسم الله الرحمن الرحيم

إننا نذكر دائمًا العالم الأوحى، الأفضل، أدام الله قوته ونصرته واستقامته على طاعته،

بالفكر والدعاء، ولا نغفل في وقت من الأوقات عنه وعن أبنائه، وأسأل الله عز اسمه أن يحفظه وإياهم جميعاً بفضله، وألا يتركه بفضله لنفسه وللناس، إنه خير مسئول.

وقد كانت أفضال العالم الأفضل الأوحى، أدام الله توفيقه، تصل دائماً، فتكون فيها السعادة. ونرجو أن تتحقق الرؤية بعد ذلك قريباً. سلامنا وتحيتنا لك ولأبنائك وأصدقائك جميعاً، الصغير والكبير إن شاء الله تعالى. والحسن المؤدب نخصه، أدام الله عزه، بالسلام الجزيل، والحمد لله، والسلام على محمد وآله.



الأشعار

التي جرت على لسان شيخنا قدس الله روحه العزيز

«رباعية»

يا حبيبي! لا توجد بأرض خاوران شوكة
ليس لها شأن معي ومع حالي
ومع لطفك ورقة جمال
لا عاد علي في بذل مائة ألف روح

«بيت»

لي رسل ينبئونني عنك حيث تكون،
فإما أن تكون لي جملة أو نقضت عهدي.

«رباعية»

إن لنا دنيا أخرى غير هذه الدنيا
ولنا مكان آخر غير الجحيم والفردوس
والتشرد والعشق هما رأس مالنا
أما القراء والزاهد فلهما عالم آخر

«رباعية»

نحن واللبن المخيض واللفت وإدام الفقراء
المطبوخ اليوم، وقد يكون من مخلفات الأمس
إن عز السلطنة لا يستأهل ذل العزل
وإن يكن لك نور الحجيج إلى المدينة

«قطعة»

ما أكثر ما بحثت لعلمي أجد أثرًا للحبيب،
حتى ضاع الظن في اليقين واليقين في الظن.
فلم يأت إلى خيالي، لا ولا إلى يقيني،
ولم تصدق أي إشارة للدلالة عليه.
لقد مارست العشق أوقاتًا طويلة، وظننت
أني أصبحت مشهورًا بأني هكذا وأنه كذلك.
ولما نظرت في الحقيقة لم أجد أيضًا خيالًا منه فيها،
تأمل هذه القصة؛ فقد كنت أنا العاشق والمعشوق!

«قطعة»

كل قلب تنظر يا سيدي إليه،
يصبح عظيمًا مهما كان حقيرًا أو تافهًا.
والنبته والغصن إذا نظرت إليهما،
صار كل منها سرورًا غنفيًا باسقًا.
وكل قلب اختفى في الأرض السابعة،
إذا ما نظرت إليه علا شأنه وارتفع على العرش.

«رباعية»

ليس في طريق التوحيد كفر ولا دين
فاخرج عن نفسك خطوة واحدة وتبين الطريق
ويا حبيب الدنيا اختر طريق الإسلام
وجالس الحية السوداء ولا تجالس نفسك

* نظر شيخنا يوماً إلى الشجرة التي على باب روضته المقدسة، فرأى أوراقها قد
اصفرت، فقال هذا البيت:

أنا وأنت سواء في اصفرار الوجوه،
بيد أن وجهك مصفر من الخريف ووجهي من عشق القمر.

* وفي وقت من الأوقات أنشد القوال هذا البيت أمام الشيخ:

أصبحت سمرًا لمعشوقة ملائكية الوجه،
تليق بالنبوة، ولا ترتكب حماقة.

فقال الشيخ: معاذ الله. لا يجوز قول هذا، بل ينبغي قول:

أصبحت سمرًا لمعشوقة ملائكية الوجه،
تليق بفنائك، ولا ترتكب حماقة.

* وفي يوم آخر كان قوال ينشد هذا البيت أمام الشيخ:

لست رفيقي، فخذ طريقك وامض،
وليمنحك الله السلامة، وليمنحنا الشقاء.

فقال الشيخ: لا ينبغي أن يقال هكذا، بل يجب أن يقال:

وليمنحك الله السلامة، ولنا راحة البال.

* قال الشيخ: لقد قرأ إبراهيم في تلك الليلة:

«مصرع»

لقد كنت أنا وهو، وهو وأنا، وهذه هي السعادة
قال: لقد كان هؤلاء بضعة أشخاص، وكان ينبغي أن يقال هكذا:
لقد كنت أنا وهو، وهو وهو، وهذه هي السعادة.

«رباعية»

إذا كنت تريد أن تكون رجلاً فاقتصد في عبادة نفسك
ودون أن تشرب شراب الوصال، أقلل من السكر
وكف اليد عن العبث بجداول الحسان
وأي ذنب لهن؟ أقلل أنت من عبادة الأصنام

«رباعية»

منذ أصبحت طرتك ملكاً وخذك عرشاً
استسلم قلبي أمام عرشك
وسوف تراني يوماً صريع حظي التعس
وقد تعلق عنقي في حلقة ذؤابتك

«قطعة»

سوف أمسك بجداولك السوداء العنبرية،
وأمطر وجهك الناصع بالقبلات.
وكل أرض تطؤها قدمك مرة،
أسجد لترابها ألف سجدة.
والثم صفحة رسالتك ألف مرة،

إذا رأيتهـا موقعة بخاتمك.
ومهما قطعوا يدي بسيف مهند،
فسأمسك بأكمامك يومًا.
ولو أصابني صمت الموت وحق قول الشعر،
لرده لسانني مثنيًا عليك.

«رباعية»

يا شمع طراز! منذ رأيت وجهك الجميل
عجزت عن كل شيء فلا أصوم ولا أصلي
وعندما أكون معك يكون مجازي كله صلاة
وعندما أكون دونك تكون صلاتي كلها مجازًا

«شعر عربي»

تقنع بالكفاف تعش رحاء
ولا تبغ الفضول مع الكفاف
ففي خبز القفار بغير آدم
وفي ماء القراح غنى وكاف
وكل تزئين بالمرء زين
وأزينه التجميل بالعفاف

«شعر عربي»

وأحببت أولاد اليهود بأسرهم
لأجلك حتى كدت أن أتهودا

أصلي فأزوي قبلتي متعمداً
لقبلتكم فاشهد صلاتي لشهدا
وإني لأهدي في صلاتي بحبكم
بتوراة موسى ثم فرقان أحمدا
ولولا مقال الكاشحين وبغضهم
لعبدت يوم السبت فيمن تعبدا
وكان دخول النار في الحب هيناً
إذا كان من تهواه في الحب مسعداً

* قال الإمام إسماعيل الساوي: كتبت رقعة إلى الشيخ أقول له فيها: لقد اغتابك
شخص فاصفح عنه. فقال الشيخ: لقد صفحت عنه. وكتب بخطه المبارك على ظهر
الرقعة:

«شعر عربي»

نقش غيم الجهد عن قمر الحب
وأشرق نور الصباح في ظلمة الغيب
وجاء نسيم الاعتذار مخففاً
فصادفه حسن القبول من القلب

«بيت»

الأسد من ناحية والسيف من الأخرى،
مسكين قلبي بين السيف والأسد!

«قطعة»

لقد استقامت أحوال الجميع كما ينبغي،
وحالك سرور فيجب أن تكون مسرورًا
لماذا تطيل الهموم والأحزان،
وحظك يعمل لك ما ينبغي.
وأن تفيدك مشورة الوزراء،
فحظك السعيد مشير بكل ما هو صواب.
ولن يأتي الفلك بمثل لك بين الخلائق،
وحتى التي ولدتك فلن تلد نظيرك.
ولا يغلق الله بابًا عليك قط،
إلا وفتح أمامك مائة أخرى أفضل منه.

«رباعية»

المكان الذي يجب أن تظهر فيه، لا تكون فيه
وحيثما لا ينبغي أن تكون، تنبت من الأرض
أنت تعشق وتبحث عن مراد العاشقين
لأن هذه هي السعادة واللفظ والحسن

«بيتان من الشعر»

أيها الساقى، أحضر لي (كأسًا) من أصل السرور،
من تلك الخمر التي تضيء مثل تاج قباد.
من تلك الخمر التي لها ريح الورد ولون العقيق،
والتي هي قفل باب الحزن ومفتاح باب السرور.

«بيتان من الشعر»

يسر حبيبي عندما أكون حزينًا،
ويليق لي الحزن لأنه يسره.
وحين يراني أبكي يضحك فرحًا،
وكلما رأيته ناقصًا زاد في الدلال.

«بيت»

لقد اتخذ كل شخص من الشمس والحجر والخشب محرابًا،
أما أنا فقد جعلت من وجهه هذه الحسناء محرابي.

«قطعة»

عندما ترفع النقاب عن وجهك في الليل الحالك،
يرتد إلى الأعمى بصره ويجد طريقه.
ولست أطيق الصبر خمسين يومًا لأراك،
آه يا حبيبي يا مليكي قلل من هذه الخمسين
إنني أريدك الآن، ولا تلزمني خمسة وخمسين لأراك،
فأنا أعجمي أجهل كل شيء عن الحساب.

«رباعية»

أينما تكون لا يوجد أثر للحزن
وحيثما لا تكون لا يجد القلب السعادة
والذي لا يفارقك لحظة
سروره لا يقل عن سعة الأرض والسماء

* كان الشيخ قد كتب هذين البيتين بخطه:

لئن كانت الأيام فرقن بيننا
فإننا بقرب القلب مجتمعان
تصورت في قلبي لفرط صبابتي
فشخصك لي نصب بكل مكان

«رباعية»

لقد صرت لك بكلي أيها الحبيب
وليس في هذا الكلام رياء ولا خداع
ولو أنك تجردت من وجودك
فربما أكون مكانك أيها الحبيب

«رباعية»

طالما كان في حي سلمة استقبال ووداع
وطالما كانت الأشجار تثمر ثمارها الناضجة
وطالما كانت النجوم مستقرة في هذا الفلك
سيكون مني التحية والسلام للحبيب

مصراع:

الطليق شيء، والمقيد شيء آخر.

«بيت»

لا تكن محزوناً ولا ضيق الصدر،
فلا نصيب للمحزونين لدينا.

«قطعة»

يؤسفني تسمية اسمين جزافاً،
اسمان عظيمان إطلاقهما جزافاً سذاجة.
الأول: أن تسمى الحسان جميعاً جميلات،
والثاني: أن يسمى العشاق جميعاً عشاقاً.
يؤسفني (هذا) حين يسمونك جميلاً،
ويؤسفني حين يسمونني (أنا عبدك) عاشقاً!
* قرئ هذا البيت أمام شيخنا في وقت من الأوقات:

بالوفاق والطبع اللطيف وقلة الغضب،
يبقى العهد بيننا محكمًا!

«رباعية»

أتعب الناس حب الغني والتفوق
والراحة والأمن في الفقر
فاختر من هذه الدنيا واحداً وكفى
إذا كنت من ذوي العقل والعلم



الباب الثالث

في انتهاء حال الشيخ، وهو ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في وصاياه عند وفاته.

الفصل الثاني: في حالة وفاته وكيفيتها.

الفصل الثالث: في كراماته التي جرى بعضها على لسانه المبارك أثناء حياته، وظهرت بعد وفاته، وبعضها مما أشار إليه ورآه الناس بعد وفاته على سبيل الكرامة.

الفصل الأول

في وصاياه عند وفاته

* في أواخر العهد الذي اقتربت فيه وفاة الشيخ قدس الله روحه العزيز، قال: لقد أنبأني الله أن الناس يأتون لهذا المكان ليروك، والآن نتزعك من بينهم حتى يرانا الناس الذين يأتون إلى هنا. وسيظل هذا الأمر ينبع منا، ويبقى إلى يوم القيامة، سواء كنا أو لم نكن.

* قال الشيخ في أواخر عهده: تظهر خائقاتها كثيرة، ويكثر المتصوفة، ولكنهم يكونون مستورين عن الناس، حتى ينظر الخلق، ويروا أن الكل واحد، ويعدوه واحداً، بينما تظل هذه الجماعة مخفية عن أعين الخلق.

* قال جدي شيخ الإسلام السيد أبو سعيد: إن شيخنا قدس الله روحه العزيز ظل لمدة عام في أواخر عهده، يقول أثناء حديثه في كل يوم يعقد فيه مجلساً: أيها المسلمون، لقد حل قحط الله.

* وفي آخر مجلس تحدث فيه، وهو مجلس الوداع، التفت إلى الناس وقال لهم: إذا سئلتهم غداً من أنتم؟ فماذا تقولون؟ قالوا: بم يأمر الشيخ؟ فقال الشيخ: لا تقولوا نحن مؤمنون، ولا تقولوا نحن صوفية، ولا تقولوا نحن مسلمون، لأنهم سوف يطلبون منكم الدليل على ما تقولون فتعجزون. قولوا نحن الصغار، وكبارنا في المقدمة، فقودونا إلى

كبارنا؛ لأن على الكبار أن يجيئوا عن الصغار. واجتهدوا في أن تجدوا كباركم؛ لأنكم إذا مضيتم بأنفسكم، فما أكثر الفضائح التي سوف تظهر منكم.

* جاء السيد أبو منصور الورقاني وزير السلطان طغرل إلى شيخنا يوماً، وقال له: أيها الشيخ، أوصني بوصية. فقال الشيخ: «أول مقامات العبد مراعاة قدر الله، وآخر مقامات النبوة مراعاة حق المؤمنين، وعملك اليوم هو أداء حقوق الخلق، فتنبه دائماً لهذا الأمر، لأنه سيكون عوناً لك في الغد. فقد قال الرسول ﷺ: «لا يدخل الجنة أحدكم حتى يرحم العامة كما يرحم أحدكم الخاصة». فهؤلاء الناس جميعاً أبناء دولتك فانظر إليهم على أنهم أبنائك، ولا يخدعك حطام الدنيا ومشقة الخلق، لأن الناس عبيد لحاجاتهم، فإذا قضيت حاجاتهم قبلوك، ولو كانت فيك عيوب كثيرة. وإذا لم تقض حاجاتهم، فإنهم لا يهتمون بك ولو كانت فيك أفضال كثيرة.

* التفت الشيخ في أواخر عهده إلى الجمع وأوصاهم قائلاً: يجب أن تعملوا على خدمة الدراويش، وأن تعقدوا العزم على خدمتهم، فلا ينبغي أن يلعب الصغار، ولا أن يزهو الشبان، ولا أن يرائي الشيوخ. وقد قيل: إن علم الدنيا والآخرة في هذه الكلمات «إنا لله وإنا إليه راجعون»، لقد جاء قحط الله! جاء قحط الله! لقد كان هناك قحط الخبز والماء قبل هذا، والآن جاء قحط الله. انظروا إليّ فقد ختم بي هذا الأمر. ثم مسح وجهه بيده وأنهى حديثه.

* قال الشيخ في مجلس الوداع: كنت في طفولتي أتعلم القرآن عند أبي محمد العنازي، ولما أتممته قيل لي يجب أن تذهب إلى أديب، فقلت لأستاذي: أعفني. فقال: أعفيناك، واحفظ عني هذا القول: «لأن ترد همتك إلى الله طرفة عين خير لك مما طلعت عليه الشمس». وأنا أوصيكم بهذه الوصية نفسها. فلا تغيّبوا عن الحق. ثم قال لحسن ابن المؤدب: انهض، فنهض حسن. وقال الشيخ: اعلموا أنني لم أدعوكم إلى أنفسكم، بل دعوتكم إلى فنائكم، وقلت يكفي وجوده. لقد خلقتم للفناء فإذا أطاع أحدكم طاعة الثقلين، فإنه لا يقع في مقابل أن يريح شخصاً. وقد قال رسول الله ﷺ في وصيته لأصحابه:

«تخلقوا بأخلاق الله» وأنا أقول لكم هذا نفسه. فسيروا في طريق الله، وانظروا إلى الجميع بالله، انظروا إلى الخلق بالله؛ فمن نظر إلى الخلق بعين الخلق طالت خصومته معهم، ومن نظر إلى الخلق بعين الحق استراح منهم.

* التفت الشيخ قدس الله روحه العزيز إلى السيد حمويه في مجلس الوداع وقال: يا سيد إنهم يسمونك حمويه لأنه تحمي الخلق، فأصغ إلى خلق الله، وأصغ إلينا، فسوف يحضروننا هنا يوم الجمعة، ويكون هذا اليوم يوم سوقنا، وسوف يكون هناك ازدحام كبير، سواء من الجماعة الذين يُروْنَ، أو الجماعة الذين لا يرون، فحافظ على إيمانك، واجتهد في أن توصلنا من المنزل إلى القبر دفعة واحدة، لأن عقبة العظيم سوف يكون في المقدمة. فقال السيد النجار: أيها الشيخ، من هم الجماعة الذين لا يرون؟ فقال الشيخ: يا أحمد، اعلم أن ثلاثة من خلفاء الرسول ﷺ كانوا قد نصبوا خلفاء على الجن، وهم: عمرو وبحر وعقبة. وقد صاحبنا عقبة، وسوف يقيم على قبرنا بعد وفاتنا حتى وفاته. ولن يغيب سوى يوم عرفة، ويوم عيد الأضحى. وقد ارتاحت جماعة كثيرة من الجن إلى أقوالنا سواء في «نيسابور» أو هنا، وأنست إلى هذه الأنفاس، ووقفت بين أيدينا أثناء السماع. وطالما أقمت أنت والدراويش السماع على قبري فسوف يأتون للخدمة، فاحفظ حقهم بطهر واحرق البخور كل ليلة في قصورك، فإن الجن الكفرة يفرون من رائحة البخور. وأمر بأن ينظفوا المكان عند صلاة العصر ويطهرونه. وإذا سمعت صياحاً عند وفاتي ولم تر أحداً فاعلم أنه هم.

واعلم أننا ذهبنا وورثناك أربعة أشياء: الكنس والغسل والبحث والقول. وطالما أنتم على هذه الأشياء الأربعة يجري ماء نهركم، وتخضر زراعة دينكم، وتكونون قبله أنظار الخلق. واجتهدوا ألا يفوتكم شيء من هذه الأصول الأربعة، لأنه لم يبق شيء في آخر العهد، وكل ما كان قد بقي ذهب أيضاً، فلقد ختم هذا الأمر بنا، وقد تم لنا ألف شهر، وليس هناك عدد بعد الألف ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

* وقال الشيخ في هذا المجلس أيضاً: أحضروا ورقة ودواة، فأحضروهما، فأشار إلى

كاتبه أبي الحسن الأعرج قائلًا: اكتب، فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

* أبو طاهر سعيد بن فضل الله، طهره الله وأسعده بفضلله ومنه وعونه ونصرته ولا قوة إلا بالله.

* أبو المظفر بن فضل الله، ظفره الله وأيده وسدده وخيره ومهده ولا قوة إلا بالله.

* أبو العلا ناصر بن فضل الله، نصره الله وظفره وأيده وخيره ونصره ولا قوة إلا بالله.

* أبو علي المطهر بن فضل الله، أعلاه الله وطهره وجمله ونصره وأدبه وخيره ولا قوة إلا بالله.

* أبو البقاء المفضل بن فضل الله، أبقاه الله وفصله على كثير من خلقه تفضيلاً ولا قوة إلا بالله.

* أولاد أبي طاهر: أبو الفتح طاهر بن سعيد، فتح الله له وبه ومنه وبجماعته ولا قوة إلا بالله.

* أبو سعد أسعد بن سعيد، أسعده الله وأيده وأكرمه وسدده ولا قوة إلا بالله.

* أبو العز الموفق بن سعيد، وفقه الله، ونصره وأيده وخيره وأدبه وسدده ولا قوة إلا بالله.

* أبو الفرج الفضل بن أحمد العامري، فرج الله عنه وبه ولا قوة إلا بالله.

* أبو الفتوح مسعود بن الفضل، أسعده الله وفصله وفتح له وبجله ولا قوة إلا بالله.

ثم قال: إن هؤلاء هم العشرة أشخاص الذين طالما بقي واحد منهم بعدنا، بقيت آثارنا، واستمر الطريق والطلب، وعندما يموتون جميعاً يختفي هذا الأمر من بين الناس.

ثم قال: فإنما نحن به وله.

* عندما قال الشيخ هذه الكلمات في هذا المجلس، أحنى رأسه إلى الإمام برهة، ثم رفعها، وجرى الدمع من عينيه، وبكى الجميع. وقال الشيخ: لقد سأل داعينا الحق: كم

يبقى هذا الأمر؟ فجاء الجواب أن نفحات هذا الأمر ستظل بين الناس مائة عام أخرى، وبعد ذلك لن تبقى الرائحة ولا الأثر. وإذا وجد معنى في مكان، فإنه يندثر بالتدريج وينقطع الطلب.

وقد شاهدنا هذا الأمر فإنه عندما تمت المائة عام التي أشار إليها الشيخ، ظهرت بوادر الفتنة والاضطراب في الشهر التالي، إلى حد أنه لم يستطع أي شخص جاء لزيارة ضريح الشيخ أن يدخل «ميهنة»، وكانوا يكتفون بالزيارة في موضع يقال له «سر كله» على بعد فرسخ خلف الجبل، ثم يعودون، على النحو الذي جرى به لفظ الشيخ المبارك في مجلس من المجالس بخصوص هذا الأمر؛ فقد قال: يأتي وقت لا يستطيع فيه شخص أن يحضر لزيارتنا في «ميهنة»، فيزوروننا متخفين في «سر كله» ثم يعودون.

وفي خلال هذه المائة عام التي ذكر الشيخ أنه سيكون خادمنا فيها، ولم يتخل عن الجماعة قط في الصلوات الخمس، ولم تخل المائدة من الطعام في الصباح أو المساء. وكان يقام ذكر على قبره كل يوم عند الفجر، ويضاء القبر حتى الصباح ويرتب المقرئون في الفجر والليل. وقد أقام على قبره أكثر من مائة شخص من الصوفية من أبنائه ومريديه. ولم يتطرق فتور أو خلل إلى الطريق، بل كان يظهر في كل يوم فتوح جديدة ونعم كثيرة.

وكان عظماء الصوفية يأتون من جميع أنحاء العالم إلى تلك الحاضرة كل عام، ويديمون السماع وتمزيق الخرق. وكل من اعترضه إشكال في الطريقة كان يحله بواسطة أبناء الشيخ. ولم ير أحد في أي مكان تلك المهابة والرفاهية التي كانت لأبنائه، ولأهل «ميهنة» خلال هذه المائة عام.

ثم حدث ما ذكره بلفظه المبارك من أنه سوف يأتي وقت يصبح فيه ما يزن درهماً يعادل سيراً، وما يزن سيراً يعادل مناً، وكل ما يزن مناً يعادل حملاً، وما يزن حملاً يعادل مخزناً، أي أن ولايتنا تصير هكذا بحيث لا يبقى من هذا الأمر نفحة، أي من الفقر، وعندئذ يحدث ما يحدث.

وقد حدث هذا في الوقت الذي تمت فيه المائة عام، بحيث لم يبق في الشهر التالي شيء من هذا كله، ولم يبق على قبره إلا نفر قليل من أبنائه ومريديه، واستشهد الباقي جميعهم على يد الغز، واغترب بعضهم في أنحاء الدنيا، وانتقلوا جميعاً إلى رحمة الحق سبحانه وتعالى في غربتهم.

وقد مضت الآن أربعة وثلاثون عاماً لم يظهر خلالها أي ترتيب -من الترتيبات التي مر ذكرها- على قبره المقدس. وإنما لنأمل في شيئين: أولهما - أن الشيخ قال بلفظه المبارك: يظهر من بعدنا بأكثر من مائة عام شخص منا، وليس مثلنا أحد، فيبعث هذا الأمر على يديه. والثاني - أنه روي عن والدي نور الدين المنور رحمة الله عليه أنه قال: سمعت من السيد الشيخ أبي الفتح أن الشيخ قال: سنكون في خدمتكم مائة عام، ويظل أبنائنا في خدمتكم مائة عام، وتبقى تعاليمنا ألف عام.

وقد روي عن السيد عبد الكريم خادم الشيخ أنه قال: قال الشيخ: إلى أن تأتي القيامة ما زال أملنا في شيئين، هما الإشارة والبشارة. وربما ندرك هذه السعادة في آخر العمر، فنقضي بضعة أيام على قبره المقدس، ونشعر بالراحة.

* وفي هذا المجلس أيضاً التفت شيخنا قدس الله روحه العزيز إلى السيد عبد الكريم وقال: إن هذا الصبي يريد أن يسلك الطريق، ولكن حيثما تصل بابني ثبت قدمك، ولا تطلب الزيادة لأنك لن تجدها. ثم التفت إلى ابنه الأكبر وقال: انهض يا أبا طاهر. ولما نهض، أمسك الشيخ بثوبه، وسحبه بنفسه وقال: لقد وقفتك أنت وأبناءك على خدمة الدراويش، وقال: «شعر»

إذا كنت تريد الاستمرار في طريق العشق إلى النهاية،
فعليك أن تستحسن كثيراً مما لا تستحسن.
وعليك أن ترى القبيح وتخليه حسناً،

وأن تتجرع السم وتتخلله قنّداً.

ثم سأله: هل قبلت؟ فأجاب: نعم، فقال الشيخ: فليبلغ الحاضرون الغائبين أن السيد أبا طاهر قطب، فانظروا إليه نظرتكم إلى العظماء.

وقد كان للصوفية سيدان: أحدهما السيد علي حسن في «كرمان»، وثانيهما السيد علي الخباز في «مرو». وكان ثالث سادة الصوفية أبو طاهر، ولم يكن للصوفية سيد بعده، والسلام.



الفصل الثاني

في كيفية وفاة شيخنا أبي سعيد قدس الله روحه العزيز

كان شيخنا يتحدث في المجلس يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة أربعين وأربعمائة، وفي نهاية المجلس اختتم حديثه بهذا البيت:

لقد وجب الرحيل واأسفاه،

ووجب طيّ مفرش العشق.

ثم أمر السيد «عليك»، وكان من أهل «نيسابور» ومريداً للشيخ، بالنهوض، فنهض عليك. وقال له الشيخ: ينبغي أن تذهب الآن إلى «نيسابور»، فتذهب في ثلاثة أيام، وتعود في ثلاثة أيام، وتظل هناك نصف يوم؛ بحيث تعود إلى هنا يوم الخميس عند صلاة الظهر. وهناك تبلغ سلامي إلى -فلان- النحاس، وتطلب منه أن يهيئ الكفن الذي أعده لنا.

ونفذ عليك ما أمر به، واتجه إلى الطريق في الحال. وعم الاضطراب الصوفية. وحتى فجر يوم الإثنين الأول من شهر شعبان والشيخ يوصي بوصاياه في المجلس، والتفت في المجلس إلى السيد عبد الكريم وقال له: لقد كنت تعني بتطهيري في حياتي، وينبغي عليك أن تعني بهذا أيضاً عند وفاتي، ولا تقصر في غسلي، وعاون حسن في هذا الأمر، وتنبه حتى لا يقع خطأ. وقم بجميع الفرائض والسنن لأننا محفوظون، وإذا تركت سنة أظهرناها.

وعندما أتم الشيخ وصاياه، وأنهى المجلس، نزل عن المنبر، وقال لحسن بن المؤدب: أعد الجواد. وركبه وأخذ يطوف حول «ميهنة»، ويودع كل مكان كان قد اختلى فيه.

قال حسن بن المؤدب: كنت أسير في ركاب الشيخ وأنا أفكر في نفسي كيف أقوم بمهمتي هذه بعد وفاة الشيخ، وماذا أصنع؟ وكان قلبي مشغولاً جداً بالدين واستغرقت في هذا التفكير، فسحب الشيخ عنان جواده، والتفت إلي وقال:

«بيت»

هل أنت ماهر معنا كما أنت في الشطرنج الأهوازي؟

فحينما تجيء إلينا (لعبة) الشهمات تكون قد أنهيت اللعبة!

فاستولى علي الدهول. وقال الشيخ: يا حسن، لا تقلق فسوف يأتي أبو سعد دادا بعد وفاتي ويقضي الدين. وقد تحقق هذان القولان على النحو الذي ذكره الشيخ. فبعد وفاة الشيخ لم يستطع السيد حسن بن المؤدب أن يؤدي خدمة للدراويش، وقام بخدمتهم السيد أبو طاهر وأبناؤه وفق ما أشار به الشيخ. ووصل أبو سعد دادا من «غزنین» بعد وفاة الشيخ بثلاثة أيام ووفى الدين.

ثم عاد الشيخ إلى منزله وألم به مرض يسير، وكان يريدوه وأبناؤه يقومون بخدمته. وقد سألوا الشيخ عن الآية التي يقرأونها أمام جنازته، فقال: هذا أمر عظيم. ولكن ينبغي قراءة هذا الشعر:

«شعر»

أي شيء في الدنيا أطيب من هذا،

فقد ذهب الصديق مع الصديق والحبيب مع الحبيب.

كان ذلك كله غمًا، وهذا كله سرور،

وكان ذلك كله قولاً، وهذا كله عمل.

وفي ذلك اليوم الذي أخرجوا فيه جثمان الشيخ من منزله، قرأ المقرئون هذا الشعر

أمام جنازته وفق ما أشار به.

وسألوا الشيخ أيضًا في هذا اليوم: هل نكتب على قبرك شهادة لا إله إلا الله وآية الكرسي، أم تبارك؟ فقال الشيخ: ذلك أمر عظيم. ينبغي كتابة هذه القطعة:

سألتك بل أوصيك إن مت فاكتبي على لوح قبوري كان هذا مقيمًا
لعل شجياً عارفًا سنن الهوى يمر على قبر الغريب مسلمًا
وأملى هذه القطعة التي يقولها كثير في حق عزة:

يا عزُّ، أقسم بالذي أنا عبده وله الحبيج وما حوت عرفاتُ
لا أبغي بدلًا سواك خليلة فثقي بقولي والكرام ثقاتُ
ولو ان فوقى تربة ودعوتني لأجبت صوتك والعظام رفاتُ
وإذا ذكرتك ما خلوت تقطعت كبدي عليك وزادت الحسراتُ
وبعد وفاة الشيخ كتبت هاتان القطعتان على قبره في ثلاثة أسطر، كل بيتين منهما في سطر.

وقبل وفاة شيخنا بيومين جرى على لفظه المبارك هذا القول عندما جلس إليه أبنائوه ومريدهوه؛ فقد التفت إليهم وقال: «نعمة الله مجهولة ما دامت محسولة، فإذا فقدت عرفت».

وآخر الأقوال التي قالها الشيخ هو: «أنصتوا جيدًا حتى لا تفسدوا الإيمان بعمل الخلق».

قال السيد عبد الكريم: فتح الشيخ عينيه يوم الخميس عند الظهر وسأل السيد أبا طاهر: هل جاء «عليك»؟ فأجاب: كلا. فأغلق الشيخ عينيه. ونهضت إلى الخارج، ووصل «عليك» فدخلت المنزل، وقلت للسيد أبي طاهر: لقد جاء «عليك» وأحضر الكفن. فأبلغ أبو طاهر هذا للشيخ. ففتح الشيخ عينيه وسأل أبا طاهر: ماذا تقول؟ فقال: لقد وصل «عليك». فقال الشيخ: الحمد لله، وانقطعت أنفاسه في الرابع من شعبان سنة

أربعين وأربعمائة. وفي ليلة الجمعة في وقت العشاء انبعث صراخ من منزل الشيخ دوى في جميع أنحاء «ميهنة»، وعرف أنهم الجن كما سبق أن ذكر الشيخ. وفي أثناء هذا الصباح كانوا يسمعون هذه الكلمات: يا أسفا! يا أسفا، إنك ذهبت ومضيت ولم تترك للخلق شيئاً وظل الأمر على هذا النحو حتى منتصف الليل.

وفي الصباح انشغلنا بالغسل. وكان الشيخ قد قال: اجعلوا نصف الكفن مئزراً، ووضعوا النصف الثاني على أكتافي، ولفوني في وطائي، ولا تزيدوا شيئاً.

قال السيد عبد الكريم: عندما وضعنا الشيخ على الكفن، كان السيد أبو طاهر وجميع أبناء الشيخ حاضرين، وكنت أقف عند أقدام الشيخ، ولما نظرت إليه، فتح عينيه، وأشار بسبابة يده اليمنى إلى فخذه، على نحو رآه جميع من كانوا هناك. فنظرت إلى الموضع الذي أشار إليه، فرأيت أنني لم أكن قد سحبت عليه طرف المئزر، وكان فخذ الشيخ من ناحية العورة عارياً، فأصلحته. وهذا ما ذكره من قبل فقد قال: انتبه حتى تقوم بالفرائض والسنن، لأننا محفوظون، وإذا ترك شيء أظهرناه. وقد تركت شيئاً فأظهره.

وعندما أشرقت الشمس أخرجوا جثمان الشيخ، وصلوا عليه، وحملوا النعش ليخرجوه من داره إلى الضريح، وكان النعش قد ظل محمولاً حتى وقت الضحى ومهما حاول الخلق التقدم به لم يكن يتحرك، وظل هكذا حتى سأل السيد النجار السيد حمويه: بم أمرك الشيخ؟ هل حان الوقت أم لا؟ فرفع السيد حمويه عصاه، وفقاً لما أوصاه به الشيخ، وأخذ يبعد الخلق، حتى حملوا النعش داخل الضريح، ودفنوه.

ومن الكرامات التي شوهدت في ذلك الوقت:

أولاً: أنه كانت هناك منصة مرتفعة، كما كان هناك كرسي آخر على شاكلة درجة، وكانوا يضعونه أمام المنصة ليضع الشيخ عليه قدمه ليعتلي المنصة؛ لأن المنصة كانت من الارتفاع بحيث لم يكن الشيخ يستطيع الصعود عليها دون درجة. وكان الشيخ يتحدث على هذه المنصة في «ميهنة»؛ وقد قاموا بغسله فوقها عند وفاة الشيخ في زاوية منزله، في مواجهة الضريح. ولم يحركوا المنصة من ذلك المكان الذي غسلوا فيه الشيخ قط. وفي

كل وقت كانوا يرتبون الزاوية، كانوا يرصفون أرضها ويرصفون تحت المنصة بحيث كانوا إذا ما رفعوا أيديهم كان الرصف يغوص في الأرض في الحال، ويتصاعد تراب ناعم. وكانوا قد قاموا بهذه التجربة عدة مرات. وفي أحد الأيام كانوا قد رصفوا ذلك الموضع رصفاً محكماً بالجص والملاط، وغاص أيضاً في الأرض في الحال وارتفع ذلك التراب الناعم، ولم يستقر أبداً ذلك القدر من الأرض الذي كان ماء غسل الشيخ قد وصل إليه.

وثانياً: حيث توفي الشيخ كانوا قد وضعوا درجة المنصة والكرسي الذي كان الشيخ يتوضأ عليه تحت المنصة. وكان الناس يقومون بزيارتهما، إلى أن حدثت فتنة الغز وخربت «ميهنة»، وحيثما وجد باب وخشب أحرقوه، فاختفت تلك المنصة والكرسيان كلاهما، ولم يخبر أحد قط من الجماعة الذين وقعوا في الأسر عن هذه الثلاثة. وعندما رجع أبناء الشيخ ومريدوه الذين كانوا في الأسر، رأوا المنصة والكرسيين سالمين في هذا المكان، وفي فجر اليوم التالي دخلوا فلم يروا شيئاً.

وقد وقع في هذه الفتنة عدة حوادث غريبة في هذه البقعة نفسها، من بينها أنه عندما تخلص السلطان السعيد سنجر بن ملكشاه، برّد الله مضجعه، من يد الغز، وجاء إلى دار الملك مرو، ذهبت -أي المؤلف- من «سرخس» مع جماعة من الشيوخ، للتهنئة بعودة السلطان، ولأتمس إصلاح مقر الشيخ. ولم يكن معي أحد من أقارب الشيخ وأبنائه؛ فقد تفرق من كان قد بقي منهم، وذهب أكثرهم إلى «العراق». ولما وصلت «مرو»، كان رئيس «ميهنة» قد ذهب إليها منذ بضعة أيام، من أجل مصالح الولايات، ولكنه لم يكن قد رأى السلطان بعد.

ولم يكن أحد في جميع الأوقات السابقة يستطيع أن يتحدث في مصالح الولاية سوى أبناء الشيخ، وإذا حدث وتحدث أحد فلا يستمع إليه. ولم يكن الرئيس والعامل والشحنة وكل من له عمل في تلك الولاية يستطيع أن يفعل شيئاً إلا بإشارة أبناء الشيخ. وإذا ظلم رجل آخر في هذه الولاية فإنه بمجرد أن كان كبير أبناء الشيخ يكتب: إنه لا ينبغي بقاء

فلان في «خابران»، ويحمل درويش تلك الورقة إلى البلاط، فإنها كانت تعرض على السلطان في الحال ويكتبون أمر استبعاد ذلك الشخص.

وقصارى القول: إنه عندما علم رئيس «ميهنة» بقدومي، جاء إلي، وأظهر سروره بلاقائي وقال: لقد انتظرت عدة أيام حتى يصل أحدكم لتشاور في الأمر. ويجب أن نرى السلطان في الغد، وفي اليوم التالي ذهبنا معاً لرؤية السلطان. وعندما رأيته، أحسن استقبالي، ولما جلسنا، دعوت له، فقال السلطان سنجر: إن «ميهنة» بقعة مباركة، وقبر الشيخ مكان لا يوجد أعز وأعظم منه، وعندما أراد أحد أولئك الغز أن يمد يده إليه، ليحصل على الأمتعة المدفونة فيه ويأخذها، ييست يده في الحال. وقد أحضره أقاربه إلى المعسكر ورأيتهم - ولم أسمع هذه الحكاية إلا من لفظ السلطان والعهد عليه - ثم أمر السلطان بألف حمل من الغلة لزراعة «خاوران»، ومائة حمل من أجل مطالب الضريح.

وطلب رئيس «ميهنة» زوجاً من الثيران، فقال له السلطان: لقد تخربت «خراسان»، والخزانة خاوية، فينبغي أن تتدارك الأمر بهذه الأشياء. وأرسل مائة دينار نقداً من أجل ضريح الشيخ. ورجع رئيس «ميهنة»، وبعث إلى جميع الأطراف في طلب كل من تبقى من أبناء الشيخ ومريديه، فاجتمع خمسون شخصاً، ومدت المائدة، وأقيمت الصلوات الخمس والخاتمة على قبر الشيخ، وأضيئت الشموع، وحضر المقرئون، وابتهج الجميع، وعمت البركة، وتمت الترتيبات وكنت قد وقفت كل ممتلكاتي للخدمة، وتوجه الصوفية والغرباء من جميع الأطراف إلى تلك الحضرة، وظهر الاستقرار والراحة.

وفي تلك الأثناء توفي السلطان سنجر رحمة الله عليه، وجلس السلطان محمود على العرش، وحدثت موقعة داندانقان مع الغزو في «مرو»، وانهزم جيش السلطان مرة أخرى، واستولى الغز. وفي هذه المرة أفلت من أيدينا أمر تلك البقعة دفعة واحدة، وبلغ ما بلغ. حقق الله تعالى بلطفه لخراسان، ولجميع العالم الأمن والعدل والعمران، يوماً بمَنه وفضله.

الفصل الثالث

في كرامات الشيخ التي جرى بعضها على لسانه المبارك أثناء حياته
وظهرت بعد وفاته ، وبعض ما أشار إليه ورآه الناس بعد وفاته
على سبيل الكرامات

حكاية :

في بداية حال شيخنا أبي سعيد قدس الله روحه، كانت توجد في منزل الشيخ سيدة عجوز، تقوم بالطبخ، وكانوا يسمونها «دادا الطاهية»، وكان لها ابن يسمى «أبو سعد»، وعندما كانت أمه تأمره بعمل، كانت تقول له: هيا يا حبيب دادا اعمل كذا.

وذات يوم كان الشيخ قد نام في صومعته في وقت القيلولة، ونام الصوفية جميعاً في المسجد، وقد اشتد الحر لدرجة كبيرة، فأعطت إبريقاً لأبي سعد، وقالت له: هيا يا حبيب دادا، أحضر إبريق ماء حتى أصنع منه شيئاً للشيخ والصوفية. فأخذ أبو سعد الإبريق وذهب لإحضار الماء، وكان عاري القدمين، والأرض ساخنة، فكانت تحرق أقدامه. وأخذت الدموع تجري من عينيه، وقد أمسك بالإبريق على ظهره وراح يحضر الماء، ولما دخل من باب منزل الشيخ، صاح الشيخ من صومعته: لقد منحنا «بغداد» لأبي سعد حبيب دادا وأبنائه بهذا الإبريق من الماء. وأخذ الناس بعد هذا يسمونه «أبو سعد حبيب دادا» تبركاً بلفظ الشيخ.

وشب أبو سعد بعد ذلك في خدمة الشيخ، ووصل إلى درجة أنه أصبح من أصحابه العشرة. وقد كان هناك عشرة أفراد من مريدي شيخنا سموا بالأصحاب العشرة؛ لأن الرسول ﷺ كان له عشرة أصدقاء يسمون بالأصحاب العشرة، وقد منحنا الحق جل وعلا عشرة مريدين متابعة لسنة المصطفى صلوات الله عليه. وقد عين شيخنا لكل واحد منهم ولاية يذهب إليها بعد وفاته، وصاروا هم وأبنائهم من مشاهير تلك الولاية أو أصبحوا زعماء هذه الطائفة في تلك الولاية. وقد تمت أمور كثيرة على يد هؤلاء، ووجدوا كثيرًا من السعادة.

وفي أواخر أيام الشيخ استدعى أبا سعد حبيب دادا يومًا وقال له: إنني لا أستطيع الرحيل عن هذا العالم، فقد اقترض حسن بن المؤدب قروضًا من أجل الصوفية، قدرها ثلاثة آلاف دينار، فينبغي عليك أن تذهب إلى مدينة «غزني»، عند السلطان، وتبلغه سلامي، وتقول له إنني اقترضت ثلاثة آلاف دينار، وينبغي عليه أن يريح قلبي من ناحية هذا القرض، لأنني لا أستطيع الرحيل عن الدنيا لهذا السبب.

قال أبو سعد: عندما قال الشيخ هذا الكلام اضطربت قليلًا، إذ كيف أستطيع أن أقول هذا الكلام للسلطان، وكيف يعرفني السلطان، وكيف أقص على سماعه هذه الحكاية؟ ولما طافت هذه الأفكار بمخيلتي قال الشيخ: اطمئن يا أبا سعد فقد قلت له هذا الكلام وقبله. قال أبو سعد: فلبست حذائي سريعًا، وجئت إلى الشيخ. فقال لي: يا أبا سعد، ودعني لأنك لن تراني عندما تعود، وتنبه إلى أنك عندما تعود إلى «ميهنة»، لا تبقى بها أكثر من ثلاثة أيام، ثم تذهب إلى «بغداد»، فلقد أقطعتك إياها أنت وأولادك. وحذار أن تقيم في أي مكان إلا في «بغداد»، فسوف تنال هذه الطائفة على يدك هناك كثيرًا من الراحة والفتوح.

قال أبو سعد: فبكيت كثيرًا، وقبلت أقدام الشيخ ويديه، وودعته، وذهبت إلى «غزني». وعندما بلغت أبواب المدينة، استولى علي التفكير والتردد، إذ كيف أرى السلطان، وكيف أستطيع أن أقول هذا الكلام؟ وفكرت في نفسي أنه ينبغي علي أن أبحث عن مسجد قريب

من قصر السلطان، وأنزل به. وإذا ما جاء أحد من خواص السلطان للصلاة في المسجد، أقول له هذا الكلام، ليبلغه إلى مسامع السلطان. وجئت إلى المدينة وقد استقر رأيي على هذا.

وأخذت أسير دون وعي، وأنا لا أعرف إلى أين أذهب. وعندما قطعت مرحلة طيبة من الطريق وصلت إلى محلة واسعة، فتوجهت إليها. ولما سرت قليلاً، ظهر أمامي باب قصر كبير فخم، يليق لسكنى الملوك والسلاطين، وقد اصطف على بابه أناس كثيرون، وأيديهم على أوساطهم. وعندما ظهرت من بعيد، أفسحوا لي الطريق. ورأيت خادماً حسن الوجه يجلس هناك، وعندما رأيته نهض، وتقدم إلي، وعانقني قائلاً: اجلس هنا أيها الشيخ حتى أعود إليك. فجلست. ودخل هو إلى القصر، ثم خرج سريعاً وسألني: أنت الشيخ أبو سعد حبيب دادا مريد الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير الميهني؟ قلت: نعم. فقال: انهض وادخل. فنهضت باكياً ودخلت قصر السلطان وأنا أتعجب كيف عرفوني؟ ومن سمعوا اسمي؟ وماذا يريد السلطان مني؟ وأدخلني الخادم، وقادني إلى حجرة دخلت إليها، فرأيت السلطان جالساً فيها، وقد استند على أربع وسائل. فسلمت عليه، ورد سلامي، وسألني: أنت الشيخ أبو سعد حبيب دادا؟ قلت: نعم. فقال السلطان: لقد مضت أربعون يوماً منذ رأيت الشيخ أبا سعيد في النوم. وقد أجلس هذا الخادم على باب القصر في انتظار وصولك. وقد حدثني الشيخ بقصة القرض، ووافقت على أدائه. والآن أسأل الله أن يجزيك عن ذلك، فقد رحل الشيخ عن الدنيا. ولما سمعت هذا، استولت علي الدهشة، وصرخت وبكيت كثيراً، وبكى السلطان كثيراً أيضاً، وأمر الخادم قائلاً: قده إلى حيث يستريح ويخلع حذاءه. فقادني إلى حجرة في قصر السلطان، مزينة كحجرات الملوك. وجاء الخدم وخلعوا حذائي، وأعدوا لي من المعدات ما يليق بقصور الملوك، وبعثوا بي في ذلك اليوم إلى الحمام، وأرسلوا إلي ملابس صوفية جيدة، واستضافوني ثلاثة أيام لا يمكن أن يكون هناك أفضل منها.

وفي فجر اليوم الرابع جاء الخادم وقال لي: إن السلطان يدعوك. فنهضت وذهبت

إليه، وكانوا قد وزنوا ثلاثة آلاف دينار ذهبي فسلموها إلي، وقال السلطان: هذه من أجل قرض الشيخ. وأعطاني ألفاً أخرى وقال: وهذه من أجل عرس الشيخ لتوزعوها على قبره. ثم أعطاني ألفاً غيرها وقال: وهذه لك لتعد لنفسك حذاءً فقد جئت من طريق بعيد. ثم قال للخادم: أوصله إلى قافلة «خراسان» فهم ذاهبون إليها غداً، واكثر له دابة ليذهب بها إلى هناك، وهبى له معدات الطريق، واعهد به إلى رؤساء القافلة وقل لهم إنه وديعتنا لديهم ليقوموا بتوصيله إلى «خراسان» سالمًا، وليساعده في الطريق. وشملني السلطان بإعزازه، وعانقني، وجاء الخادم معي، وعهد بي إلى قافلة «خراسان» وهباً لي معدات الطريق، واستأجر لي بغلاً حتى «خراسان»، ثم ودعني ورجع وأخذت أسير حتى بلغت «خراسان»، ولم أعان مشقة في الطريق. وتوجهت إلى «ميهنة» متألمًا باكيًا لوفاة الشيخ، وعندما بلغت مشارف «ميهنة»، استقبلني جميع أبناء الشيخ والمريدون والصوفية وفق ما أشار به الشيخ؛ فقد قال لحسن بن المؤدب: سيصل أبو سعد حبيب دادا من «غزنین» بعد وفاتي بثلاثة أيام ويريحكم من ناحية القرض. فلما رأوني، صرخوا، وجددوا مأتم الشيخ، وظهرت أحوال كثيرة.

وذهبت مع الدراويش إلى قبر الشيخ، وزرته، وسردت قصتي أمام الجميع، ووضعت أمام أبي طاهر ثلاثة آلاف دينار لقضاء قرض الشيخ وقلت: هذه للوفاء بدين الشيخ. وسلمته الألف دينار التي أعطيت لي من أجل عرس الشيخ. كما وضعت أمامه أيضًا الألف دينار التي أعطيت لي وقلت له: هذه مني لتقيموا بها عرسًا للشيخ، ولم آخذ لنفسني شيئًا. ورد الدين في ذلك اليوم، وأعدت معدات العرس. وفي اليوم التالي أقيم عرس للشيخ من أجلي، ومزقوا خرقة الشيخ، وخرق الصوفية.

وفي اليوم الرابع عزمت على الذهاب إلى «بغداد» وفق إشارة الشيخ، وودعت مريديه، ورحلت قاصدًا «بغداد». وعندما وصلت إليها، كان هناك نهر في ذلك الوقت في مكان العمران، ونزلت في أحد المساجد، وبعد أن استرحت بضعة أيام، أفضيت بهذه القصة إلى صديق، وقلت له: ينبغي علي أن أقيم مقرًا للصوفية، وأتوفر على خدمتهم. فقال لي

ذلك الصديق: إن جميع المساجد موكلة إلي، فاذهب إلى المسجد الذي تريده، وباشر الخدمة فيه، وإذا كنت تريد أن تقيم خانقاه بجوار هذا النهر، فلن يتيسر لك ذلك؛ لأن الناس هنا ينكرون الصوفية، وليس معك نقود أو معدات، والمصلحة تقتضي أن تكتب إلى الخليفة، وتطلب منه أرضاً بجوار النهر، بالقدر الذي تريده لتقيم عليها الخانقاه.

وكتبتُ رقعة إلى أمير المؤمنين، ذكرت فيها أنني أرغب في إقامة خانقاه للصوفية في هذا المكان، وأوضحته له أنني خراساني من مريدي الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير، وقد جئت من «مبينة» لأقوم بخدمة الصوفية هنا. فأمر لي الخليفة بمكان بجوار النهر لأقيم عليه خانقاه لهذه الطائفة. وكتب الخليفة بخط يده: له أن يأخذ من جانب النهر بقدر ما يريد، وهو مسلم له. فجئت، وانتقيت ناحية اخترت فيها مكاناً طيباً، وأخذت أسير وأنا أصب التبن حتى حددت قرابة ألفي ذراع من الأرض، واستوليت عليها.

وبعد ذلك كنت آخذ سلة، وأذهب بها ليلاً ونهاراً إلى خرائب بغداد، وأجمع قطع الأحجار الجافة، وأحضرها على ظهري إلى ذلك المكان، وأضعها في وسط التبن الذي حددته. وظللت أفعل هذا حتى جاءني الأخبار يوماً، بأن هناك قافلة قادمة من «خراسان»، فذهبت إلى النهر وانزلت سلة. وعندما رأوني احتفوا بي وقربوني؛ فقد رأني أكثرهم في خدمة الشيخ، وكانوا يعرفون قرابتي له، كما كان بعضهم أيضاً من مريدي الشيخ. وقلت لهم: إنني أنوي إقامة خانقاه للصوفية في هذا المكان، وينبغي عليكم الآن أن تنزلوا به، وتقيموا عندي، لأن مسافركم سيقدمون على غيرهم.

وكان في القافلة جماعة من الصوفية والتجار وأناس كثيرون. فوافقوا جميعاً، ونزلوا في ذلك المكان، وضربوا خيامهم به. ونهضت، وأخذت سلة ذهبت بها للسؤال. وكنت أقوم بإعداد المائدة كل يوم في الصباح والمساء، وأؤذن في أوقات الصلوات الخمس، وأؤمهم للصلاة. وكنا نقرأ القرآن كل في دوره عند الفجر، وظهرت أنوار كثيرة خلال المدة التي أقاموا فيها بذلك المكان. ولما هموا بالرحيل، وكانوا قد اطلعوا على حياتي واستحسنوا خدماتي، أعطاني كل منهم بعض المال، حتى توفر لي شيء طيب. وعندما

رحلت القافلة، اتجهت إلى العمارة، وأقامت جدران الخانقاه الأربعة، وشيدت صفة كبيرة جيدة، وداراً حسنة للصوفية، ومطبخاً، ودورة للمياه، وأقامت مسجداً كبيراً وصنعت أبواباً لها جميعاً. ووضعت أساس الأبنية والحجر الأخرى، بحيث أصبحت معالم جميع الأماكن تدل على ما ستكون عليه.

وعندما وصل مقدم الحجاج وأخبرني بعودة القافلة، ذهبت إلى الفرات لاستقبالها. وقلت لهؤلاء الجمع: عند قيامكم بسفركم المبارك نزلتم في خانقاهي ترضية لي ولله، وفي وقت رحيلكم بذلت لي الشيء المشير، والآن ينبغي أن تأتوا معي لتروا نتيجة بذلكم، وأن الترتيبات التي أشرت بها قد تمت. فأجابوني إلى طلبي، ووافقوا على النزول في الخانقاه. ولما رأوا تلك الأبنية الكثيرة الجيدة، تعجبوا كثيراً؛ إذ كيف صنعت هذا العدد الكبير من الأبنية في تلك المدة القصيرة، وتضاعف اعتقادهم. وأخذت على نحو ما مضى، أذهب للسؤال وأهيب المائدة، وأؤذن للصلاة، وأؤمهم فيها. وكنت أزيد في العناية بهم كل يوم؛ حتى لقد أعطوني عند رحيلهم الشيء الكثير، بحيث توفر لي مبلغ كبير.

ولما رحلت القافلة اتجهت إلى العمل، واشتغلت بالبناء، حتى أتممت خانقاه جيدة جداً، بجميع مرافقها من الحجرات والحمام وقاعة الجماعة وغير ذلك. وأعددت المفروشات المناسبة، ومعدات المطبخ، وجميع ما يلزم لذلك من الأدوات. وأقامت على باب الخانقاه سوقاً به بعض الحوانيت، ورباطاً للقوافل، وغير ذلك. وتوفرت علي الخدمة الجيدة، وتوجه الصوفية من أنحاء العالم إلى هذه الخانقاه، وانتشر الخبر في الدنيا أن أبا سعد أسس في بغداد خانقاه لم يقم أحد مثلها في هذا العهد من أجل الصوفية، وهو يقوم على خدمتهم، كما لم يفعل أحد في هذا العهد.

وأصبح أكثر أهل بغداد من المريدين لي. وكانوا يحملون الأخبار إلى مسامع الخليفة دائماً، حتى أنه حدث ذات ليلة أن كنا نؤدي صلاة العشاء، فدخل شخص باب الخانقاه، فتقدمت وفتحت الباب، فكان أمير المؤمنين ومعه بضعة أفراد من خواصه، مثل أستاذ

دار الخلافة، والحاجب، وصاحب المخزن وأمثالهم، وكانوا قد جاءوا لزيارتي ورؤية الخانقاه. فرحبت بهم، ودخل الخليفة الخانقاه، وعندما تفرس في البناء، ودخل مقر الدراويش، رأى جمعاً كبيراً يزيد على خمسين شخصاً من الشيوخ والصوفية، وقد جلسوا على سجادة. فحياهم، وجلس بينهم، وجلست بين يديه، وقصصت، بقدر ما سمح به الوقت، بعض الحكايات عن كرامات الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير. فسر الخليفة، وبكى كثيراً، وأصبح من مريدي هذه الطائفة. وفي أثناء جلوسه أمر أستاذ القصر قائلاً: في كل وقت يأتي فيه أبو سعد إلى القصر لا ينبغي له طلب الإذن ما دمت موجوداً، ويجب إحضاره إلى الحرم سريعاً دون إخباري بذلك. ثم قال: يا أبا سعد، لقد وضعت مصالح المسلمين في عنقك، ويجب أن تعرض عليّ كل ما تعرف لنتمه وفق إشارتك.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى دار الخلافة لتحية الخليفة، فقادوني إلى الحرم في الحال دون توقف فتقدمت إلى الخليفة، ودعوت له، واعتذرت عن تقصيري في الليلة الماضية. وشملني أمير المؤمنين بإعازاه الكثير، وأكرمني، وأعاد على مسامعي ما كان قد ذكره من قبل، ووضع عهدة الخلق في عنقي. وخرجت من عنده وقد استولت الدهشة على الجميع. واتجه الناس إلي دفعة واحدة، ورفعوا حاجاتهم إليّ، وكنت أعرضها لى الخليفة، فكان يجيبها.

ورغب كثير من الناس في مجاورتي، وشيدوا منازل بجوار الخانقاه، بحيث امتلأ ذلك المكان. وأخذت مكائتي عند الخليفة ترتفع كل يوم، ويزداد اعتقاده في، حتى أنه قال يوماً: سأجعل أنا أيضاً عمارة دار الخلافة على شاطئ النهر تماشياً مع الشيخ أبي سعد حبيب دادا. وجعل الماء يغمر نصف البناء. واحتذى الناس حذوه، فانتقلت المدينة كلها إلى هذا المكان، وخربت الناحية الأخرى. وأصبحت شيخ شيوخ بغداد، ولم تكن مكائتي فيها تقل عن مكانة الخليفة، ببركة نظر الشيخ المبارك.

وأبناء -أبي سعد- الآن يتولون منصب شيخ شيوخ بغداد، وفي أيديهم الحل والعقد، وأصبح الخليفة رمزاً؛ بحيث إن كل خليفة يرشح لعرش الخلافة يمسك أكبر أبناء الشيخ

أبي سعد به، ويجلسه على العرش، ويقوم بمبايعته أولاً، ثم يتبعه في ذلك أبناء الخليفة، ومن بعدهم الخواص، ثم العوام، حتى تتم له بيعة جميع الخلق، وتكون مقاليد الأمور في يد أبناء الشيخ أبي سعيد.

حكاية:

سمعت أشرف بن أبي اليمان يقول نقلاً عن الشيخ محمد بن أبي إسحاق: سمعت من والدي أن الشيخ كان يملك جواداً سريعاً، لا يستطيع أحد أن يركبه، لما كان عليه من السرعة. وعندما كان الشيخ يريد أن يركبه، كان يسند كتفه على الدكان، حتى يستطيع الشيخ أن يفعل. وعندما توفي الشيخ، رأوا الجواد مقطوع العنان، وكانت الدموع تجري من عينيه. وامتنع عن الأكل والشراب، وظل هكذا سبعة أيام وليال.

وفي اليوم السابع قالوا: لقد نحل الحصان، وامتنع عن الأكل والشراب، وأشرف على الهلاك، فماذا نصنع؟ وأبلغوا هذا إلى السيد أبي طاهر فقال: ينبغي أن نذبحه ليأكل الدراويش منه شيئاً، ويعطى الباقي للناس، ثم ذبحوه وتبركوا به.

حكاية:

سمعت عن زين الطائفة الشيخ عمر الشوكاني أنه قال: في يوم من الأيام كان السيد أبو الفتح، ابن الشيخ من أخت الشوكاني، قد جلس مع والدي في الخانقاه، وأخذ السيد الإمام أبو الفتح يحكي قصة وفاة الشيخ فقال: قبل وفاة الشيخ بثلاثة أيام، التفت إلي وقال: سوف أموت يوم الخميس، وسوف يكون هناك ازدحام كبير في يوم الجمعة، بحيث لا تستطيعون أن تقتربوا من نعشي. ثم أمر بأن يحضروا غطاء، وأمسكوا به من أطرافه الأربعة، وشدوه في الهواء، وقال لنا اخرجوا من تحت هذا الغطاء، وتخليوه نعشي. ففعل أبناء الشيخ كلما أمرهم. وبعد ذلك بثلاثة أيام، حدث ما أشار إليه الشيخ، فعندما أخرجوا النعش كان التزاحم شديداً، بحيث لم نستطع نحن أبناء الشيخ أن نقرب منه. وكان يقص هذه الحكاية، ويبكي كلاهما.

حكاية:

كان الشيخ أبو القاسم الروباهي مريدًا للشيخ، ومقدمًا لعشرة من الصوفية المعروفين، مثل أبي نصر الحرصي، وأحمد العدني، وأمثالهم. وقد قال: عندما بلغ خبر وفاة الشيخ «نيسابور»، كان الأستاذ الإمام أبو القاسم القشيري بها، فقال: لقد ذهب شخص لم يكن خلفًا لأحد، ولن يخلفه أحد. وقام وجاء إلى خانقاه محلة «عدني كوبان»، وجلس في المآثم، وتولى أمره. وفي ذلك اليوم قال في المآثم: عندما رأينا الشيخ أبا سعيد لم نكن صوفية، ولم نر صوفية، ولو لم نره؛ لقرأنا التصوف في الكتب. ولما فرغنا من العزاء، أقام الأستاذ الإمام حفل الشيخ.

وفي اليوم السابع أرسل الأستاذ الإمام إلينا عليًا المحتسب وكيله، وكنا عشرة أشخاص، فقال لنا: إذا كان هدفكم هو الشيخ فقد مات. وقد كنتم أنتم العشرة من مريدي، ولما جاء الشيخ ذهبتم إليه. والآن ينبغي عليكم أن تعودوا إليّ، فقالت الجماعة: أعطنا مهلة لنفكر. وفي اليوم التالي جاء شخص وقال: إن الأستاذ الإمام يقول لكم هل فكرتم؟ فصمتوا. ونفد صبري فقلت: لماذا لا تجيبون؟ فقالوا: وماذا نقول؟ فقلت: هل تأذنون لي بالإجابة عنكم؟ قالوا: أجل. فقلت له: بلغ ولاءنا للأستاذ الإمام، وقل له إن الشيخ أبا سعيد كان من عادته عندما تكون هناك وليمة، أن يعطيني طبقًا من الطعام وقطعة من اللحم وبعض الحلوى التي أمامه. وكنت آخذ طبق الطعام وقطعة الحلوى التي أعطيت لي من المطبخ. وذات يوم كانت هناك وليمة فأخذتُ صحيفة الطعام واللحم والحلوى التي أعطيت لي من المطبخ ووضعتها في كم، ووضعت الطعام واللحم والحلوى التي أعطاها الشيخ من أمامه في الكم الآخر، وكان الوقت قيلولة وقد نام الشيخ في زاويته، ونام الجميع وأخلدوا إلى الراحة. وخرجت أنا على هذه الصورة من الخانقاه، ولما خطوت أول خطوة خارجها، فك رباط الإزار عن قدمي، ووقعت في مأزق. وخرج صوت الشيخ من زاويته يقول: أدر كوا أبا القاسم. وفي الحال رأيت صوفيًا يهرع إليّ، ويقول لي: ماذا حدث لك؟ فأخبرته بما حدث لي، وعاونني، ولنا الآن شيخ ومشرف على هذا النحو، فإذا كنت

تستطيع أن ترعانا هكذا نجىء إليك. فرجع على المحتسب.

وفي فجر اليوم التالي جاء إلينا الأستاذ الإمام، واعتذر إلينا، ورجانا ألا نقول هذا الكلام لأحد طيلة حياته، فوافقنا. ورجع الأستاذ الإمام، وذهب بعد ذلك لزيارة قبر الشيخ في «ميهنة»، وذهب معه أربعون شخصاً من كبار المتصوفة. وعندما وصلوا إلى رباط «سر كله»، ووقعت عين الأستاذ والجماعة على «ميهنة»، نزل عن الجواد، وأمر المقرئين المرافقين أن ينشدوا شعر الشيخ:

«رباعية»

أيها الحبيب، لا توجد في أرض خاوران شوكة واحدة
ليس لها شأن معي ومعالي
ومع لطفك ورقّة جمالك
لا عار علي في بذل مائة ألف روح

وأخذ المقرئون ينشدون هذا الشعر، وسر الأستاذ، وخلع خرقة، وحذا الجميع حذوه فخلعوا خرقهم. وأبلغوا أبناء الشيخ أن الأستاذ الإمام قادم من «نيسابور» مع جماعة الصوفية، وخرج جميع أبناء الشيخ ومريديه لاستقبالهم. وتقابل الفريقان في الطريق، وكان المقرئون لا يزالون ينشدون وخلع صوفيه «ميهنة» أيضاً خرقهم دفعة واحدة، وأخذوا يسرون على هذا النحو. حتى جاءوا قبر الشيخ، وأخذ المقرئون ينشدون، والدراويش يطوفون حول القبر، ووردت الأحوال، ثم مزقوا الخرق. واستراح الأستاذ الإمام يوماً، ثم طلب منه أبناء الشيخ أن يتحدث في الضريح فلم يقبل. وتحدث بعد إلحاح كبير في المسجد وقال في وسط الحديث: كنا نعترض على الشيخ أبي سعيد في أشياء، وكنا نظلمه؛ لأن من قابل صاحب الحال بالعلم ظلم. وبقي في «ميهنة» عدة أيام، ثم رجع.

حكاية:

في بداية حال الشيخ قدس الله روحه العزيز رأت سيدة من أبناء عظماء «ميهنة» في النوم، أن آدم عليه السلام جاء ومعه جميع الرسل إلى ذلك المكان، حيث يوجد الآن ضريح الشيخ، ووقف بحيث رأت السيدة إبراهيم ويعقوب وموسى وعيسى عليهم السلام وعرفتهم واحداً واحداً. وفي ذلك الوقت كان في موضع الضريح بيت اشتراه الشيخ، وكانوا يأخذون جواد الشيخ إليه. وعمّره الشيخ رشيد الضريح. وكان يجلس فيه، وكان الصوفية يجلسون هناك. وعندما كان الشيخ يشيده، وأطلق عليه اسم المشهد، قال السيد الإمام أبو البدر المشرقي هذا الشعر بين يدي الشيخ:

«شعر»

بنى شيخ الزمان لنا بناء تصاغر فيه ما قد كان قبله
فكعبة قبله للناس طراً وهذا البيت للعشاق قبله

وعندما أشرف الشيخ على الوفاة، أمر بأن يدفنوه في تلك الدار، حيث يوجد قبره الآن. قالت السيدة: لقد اتضح تأويل ذلك الحلم الذي رأيته وانتظرت تأويله أربعين سنة. فعندما دفنوا الشيخ، تبين أن ذلك المكان هو المكان الذي كنت قد رأيت الرسل يقفون فيه. وهكذا ظهر تأويل ذلك الحلم بعد أربعين سنة، فأصبح هذا المكان مرقدًا لعظيم الدين.

حكاية:

سمعت عن أشرف بن أبي اليمان أنه قال: سمعت الشيخ حسن الجاناروي يقول: سمعت السيد أبا الفتح حفيد الشيخ يقول: كان والدي السيد أبو طاهر ابن الشيخ يذهب إلى المدرسة في طفولته، وكان الأستاذ قد ضربه يوماً، بحيث ظهرت آثار الضرب على جسده. ورجع السيد أبو طاهر من المدرسة باكياً، وأظهر الشيخ على آثار العصا، فأرسل الشيخ رسالة إلى الأستاذ يقول له فيها: إنني لن أجعل منه مقرأً أو إماماً، وإنما ينبغي له

أن يعرف كيف يؤدي للصلاة. انتبه فهو من أحبة الله، وقد رباه الحق تبارك وتعالى بلطفه، وخلق له بلطفه، فحاذر ولا تستعمل العنف معه.

وكان أبو طاهر يكره المدرسة جدًا أكثر من جميع الأطفال. وكان يذهب إليها بصعوبة كبيرة، ويبحث دائمًا عن فرصة ليتخلص من الذهاب إليها. وذات يوم قال الشيخ: كل من يخبرني بمقدم الدراويش أحقق له أي أمنية يريدونها. وكانت قد مرت عدة أيام لم يحضر فيها درويش لزيارة الشيخ، وكان يشاقق لرؤية أحدهم، فلما سمع أبو طاهر قول الشيخ، صعد سريعًا إلى السطح، وأخذ يتجسس على مقدم الدراويش، وينتظر وصولهم. وتصادف في ذلك الوقت أن ظهرت جماعة من الدراويش قادمين من ناحية «طوس». فنزل أبو طاهر من السطح مسرورًا وقال للشيخ: يا والدي، إن جماعة من الدراويش قادمون إلينا. فسأله الشيخ: ماذا تريد الآن؟ فأجاب: أريد ألا أذهب إلى المدرسة اليوم. فقال له الشيخ: لك ذلك. فقال: وغداً أيضًا. فقال: لا تذهب. فقال: لن أذهب هذا الأسبوع. فقال الشيخ: لا تذهب. فقال: لن أذهب إلى المدرسة أبدًا. فقال له الشيخ: لا تذهب ولكن تعلم «سورة الفتح» واحفظها، ولا تذهب إلى المدرسة ثانية. فسر أبو طاهر. ومد الشيخ يده وقطع غصنًا من شجرة التوت التي على باب روضته، وربطه على وسط أبي طاهر، وأعطاه مكنسة، وقال له: اكس المسجد.

وأخذ أبو طاهر يكنس المكان. ووصل الدراويش وتقدموا إلى الشيخ، فسألهم: كيف ترون أبا طاهر؟ فقالوا: حسن جدًا. فقال الشيخ: لقد أوقفته الآن هو وأبناءه لخدمتكم. ثم علم الشيخ أبا طاهر سورة الفتح.

وبعد أن انتقل الشيخ إلى رحمة الحق، ومرت عدة سنوات، وأصبح نظام الملك وزيرًا لملكشاه، وأصبحت العاصمة في «أصفهان» - وكان نظام الملك مريدًا للشيخ يرعى جميع المتصوفة من أجله - احتاج أبو طاهر إلى قرض من أجل الصوفية. فذهب مع جميع أبناء الشيخ إلى نظام الملك في «أصفهان»، فأسبغ عليهم من الرعاية ما يجلب عن الوصف. وتصادف أن كان أحد العلويين قد جاءه برسالة من السلطان في «غزني»، وكان

رجلاً فاضلاً من أصحاب الرأي، متعصباً ينكر الصوفية، فأخذ طوال المدة التي مكثها عند نظام الملك يلومه قائلاً: إنك تعطي أموالك لجماعة لا يستطيعون أن يؤدوا سنن الوضوء، ولا يعرفون كيف يصلون ركعتين، ولا مقدار الفرض أو السنة، وليس لهم حظ من علوم الشرع، وهم حفنة من الجهلة وصنائع الشيطان.

وأخذ نظام الملك يقول له: لا تقل هذا فهم أناس متعلمون، ولا يوجد من يعرف في علوم الشرع بقدر ما يعرفون، وزعماءهم علماء الشريعة والطريقة. والهدف من العلم العمل، وهم يعملون.

وقصارى القول أن الحديث طال بينهم في هذا الأمر. وكان رسول «غزنین» قد عرف أن السيد أبا طاهر يجهل القرآن، ولم يكن نظام الملك يعرف ذلك، فقال رسول «غزنین» لنظام الملك: هل توافقني على أن الشيخ أبا سعيد هو زعيم صوفية العالم جميعاً؟ فقال: نعم. فقال: وهل توافقني على أن ابنه أصبح من بعده أفضل من جميع صوفية هذا العصر؟ قال نعم. قال الرسول: وهل توافقني أيضاً على أن الشيخ قال إن أبا طاهر قطب؟ فقال نظام الملك: أجل. فقال رسول «غزنین»: إن أبا طاهر لا يعرف القرآن. فعارضه نظام الملك قائلاً إنه يعرفه، وقال: سأناديه وتختار سورة من القرآن أطلب إليه أن يقرأها.

ونودي أبو طاهر، فأقبل مع جماعة الصوفية وأبناء الشيخ أمام نظام الملك، ولما جلسوا سأل نظام الملك الرسول قائلاً: أي سورة تريد أن يقرأ؟ فأجاب: سورة «الفتح». وأشار نظام الملك إلى أبي طاهر فقرأ سورة الفتح. وبدا السرور على الجميع، وعندما انتهت السورة سر نظام الملك، وخجل رسول «غزنین» لأنه بدا كاذباً أمام كثير من العظماء والحاضرين، ونهض لشدة شعوره بالهزيمة وانصرف.

وسأل نظام الملك أبا طاهر: ماذا كان سب سرورك؟ فأجاب أبو طاهر قائلاً: أعلم أيها الصدر الأعظم أنني لا أعرف القرآن. وقص عليه القصة من البداية إلى النهاية. فازداد اعتقاد نظام الملك في الشيخ وقال: انظر إلى الشخص الذي يرى قبل هذا بسبعين عاماً أنه سوف يعترض معترض على واحد من أبنائه، كيف تكون درجته! وأصبح بعد ذلك مريداً

للشيخ أكثر مما كان من قبل ألف مرة، وبكى كثيراً.

وكان عمر أبي طاهر يقل عن عشر سنوات عندما أمره الشيخ بحفظ سورة الفتح. وقد بلغ الأربعين عند وفاة الشيخ، وعاش بعده أربعين عاماً أخرى. وتوفي سنة ثمانين وأربعمائة.

حكاية:

عندما كان الشيخ مشغولاً بالمجاهدة والرياضة، كان يغيب عن المنزل لمدة شهر أو شهرين، ولا يعثر عليه أحد. وكان السيد أبو طاهر عندئذ طفلاً صغيراً، يحب والده كثيراً، ويشعر بالاضطراب إذا ما تغيب الشيخ، ويأخذ في السؤال عنه كل يوم. وفي وقت من الأوقات مضت عدة أيام تغيب الشيخ فيها، ولم يحضر إلى المنزل خلالها. واضطرب أبو طاهر - وكان الوقت صيفاً والجو حاراً - ونهض في فجر يوم، وأخذ يتجول في صحراء «ميمنة»، وأماكن عبادة الشيخ. وطاف بكل مكان فيه رباط أو مسجد أو مقبرة كان يعرف أنه من الممكن أن يكون الشيخ قد اختلى به. ولم يجد الشيخ في مكان منها، وكان الجو حاراً وقد نال منه الإعياء. وذهب إلى الرباط القديم عند الظهر، وهو رباط يقع في طريق «باورد» ومن الأماكن التي كان الشيخ يتعبد بها والتي سبق ذكر بعضها في بداية هذا الكتاب، ولما بلغ السيد أبو طاهر باب هذا الرباط وجده مغلقاً، فدقه بيده. وتصادف أن كان الشيخ هناك، ففتح الباب، ورأى أبا طاهر على هذه الحال، وقد أثر فيه الحر، وأخذت آلاف القطرات من العرق تسيل من وجهه وشعره وجسده. ولما رأى الشيخ، سقط بين يديه، وغاب عن الوعي. وجرى الدمع من عيني الشيخ وسأله: ماذا حدث يا أبا طاهر، ولماذا جئت؟ فأجاب: أيها الشيخ، أنا في حاجة إليك. فقال له الشيخ: ما دمت في حاجة إليّ، فسوف تكون معي في الدنيا وفي القبر وفي الجنة. ومد يده وأخذ أبا طاهر في أحضانه، وحمله إلى الرباط. وظل أبو طاهر يلازم الشيخ إلى أن توفي الشيخ.

وعند وفاة أبي طاهر كان أبناء الشيخ قد نسوا هذا القول، وأرادوا أن يدفنوا أبا طاهر في المقابر. ولما قاموا بغسله، وأرادوا أن يشيعوه إلى القبر، سقط مطر غزير في الحال.

وانتظروا حتى يتوقف المطر، ولكنه أخذ يتزايد كل لحظة. وظلوا يحتفظون بحثمان أبي طاهر في الضريح ثلاثة أيام، والمطر يزداد كل ساعة. وعندما أسقط في أيديهم، قال واحد من خواص المريدين: ألم يقل الشيخ له إنه سوف يكون معه في القبر؟ ينبغي أن تدفنه في جوار الشيخ، فهذا المطر لم يسقط إلا لقول الشيخ وكراماته. فلما قال المريد هذا، تذكر الجميع كلام الشيخ، وصدقوه.

وكان في محلة الصوفية لحاد يدعى قتيبة بالقرب من ضريح الشيخ، وهو الذي كان قد حفر للشيخ قبره، فطلبوه وأمره بإعداد قبر السيد أبي طاهر، خلف قبر الشيخ. وانشغل قتيبة بالعمل، وعندما تم القبر، وسوى مكان الرأس، دق حجرًا حتى تهبط الأرض فسقط جزء من الحجر وأحدث فجوة بقبر الشيخ، فصرخ قتيبة، وأعاد الحجر مكانه، وفقد الوعي. ونظر الناس في القبر فوجدوه مغشيًا عليه، فأخرجوه وحملوه إلى داره. ودفنوا أبا طاهر، ولم يكادوا يخرجون أيديهم من القبر بعد دفنه حتى توقف المطر، وسطعت الشمس، وتحقق للجميع أن ما حدث كان كرامة من كرامات الشيخ.

وظل قتيبة في غيبوبته أربعين يومًا، لم يفتح خلالها عينيه، أو يتحدث قط. ولم يعرف أحد ماذا كان قد رأى على وجه التحقيق. ولحق برحمة الله بعد هذه الفترة. وتضاربت أقوال الناس بشأن ما رآه من كرامات الشيخ، ولكن قتيبة صاحب هذه الحادثة لم يذكر شيئًا، لأنه لم يكن يستطيع الحديث، ولم يستعد رشده، ثم توفي.

حكاية:

كان الشيخ أبو الفضل الشامي رجلًا عظيمًا جدًّا، من مشاهير شيوخ المتصوفة، وكان قد سافر في شبابه كثيرًا. وفي أواخر عمره، أمضى سنين طويلة مجاورًا في بيت المقدس. وذات ليلة كان قد نام مع جماعة من الصوفية في خانقاه بيت المقدس، فرأى في نومه الشيخ أبا سعيد قدس الله روحه العزيز يدخل إلى الخانقاه وفي يده طبق مملوء بالسكر، وأخذ يسير بين الجمع، ويعطي لكل واحد قدرًا من ذلك السكر. وعندما وصل إلى الشيخ أبي الفضل، وضع في فمه كل ما كان قد تبقى في الطبق، بحيث امتلأ فمه. ونهض من

نومه مسروراً لهذا السبب، ووجد فمه مملوءاً بالسكر. فنادى الخادم في الحال ليحضر ضوءاً. واستيقظ الجميع وجلسوا، فقص عليهم الحلم، وأعطاهم نصيباً من ذلك السكر، ثم نهض وتوضأ وصلى ركعتين، وطلب حذاءه وقال: لقد كانت هذه الصلاة من أجل زيارة قبر الشيخ أبي سعيد. فوافقه الجميع. وجاء من «بيت المقدس» إلى «ميهنة» سيراً على الأقدام، ولم يجلس في الطريق قط، وكانت سنه عندئذ تزيد عن الثمانين عاماً. ولما بلغ «ميهنة» أقام بها عدة أيام، وعند عودته دعا أبناء الشيخ جميعاً وقال لهم: إنني أوصيكم بالمحافظة على حرمة هذه البقعة، وحق هذا القبر العظيم. وودع الجميع، وعاد إلى «بيت المقدس».

حكاية:

بعد وفاة الشيخ بعدة أيام، رأى أحد عظماء الصوفية الشيخ في النوم، جالساً على المنصة، وهو يقول: «من ثبت نبت»، فأطرقوا، وتفكروا حتى لا تخذلوا. ورأى شخص آخر من الصوفية الشيخ في النوم بعد وفاته بمدة مديدة، وكان يقول: كلوا خبز الدراويش ولا تعملوا عملهم.

حكاية:

رُوي عن جدي شيخ الإسلام أبي سعيد رحمة الله أنه قال: في وقت من الأوقات خرجت إلى الطريق مع جمع من الدراويش. وسقط مطر غزير، فلجأنا إلى مكان لبضعة أيام وليال، وبقينا نحن والدواب دون طعام، فقلت لشدة ما أشعر به من الضيق: يا إلهي! ما هذا الذي تفعله؟ ونمت في تلك الليلة، فرأيت الشيخ في نومي وقال لي: يا أبا سعيد، بم يفيد مثل هذا القول؟ قل اللهم اشملنا بعطفك. فاستيقظت، وتبت، وبكيت كثيراً.

حكاية:

كان الشيخ مهد الباوردي صوفياً عظيماً، وموضع اعتقاد، وقد أصبح السلطان سنجر وجميع جيشه من مريديه. وكانت له أحوال طيبة، وكان يلقي قبولاً كبيراً من أهل عصره.

وقد جاء إلى «ميهنة» لزيارة ضريح الشيخ في عهد والدي نور الدين المنور رحمة الله عليه -الذي كان خادماً لضريح الشيخ، وشيخاً وزعيماً لأبناء الشيخ أبي سعيد، ولم يقم أحد بخدمة الدراويش مثله، ولم يدرك أحد ما أدركه في تعمير تلك البقعة المباركة والمحافظة على جمال الدراويش - وعندما قام بالزيارة، وانقضى ذلك اليوم، وجاء الليل، وانتهى الصوفية من تناول الطعام، وصلاة العشاء؛ أوقدوا شموع الضريح كما هي العادة المتبعة في كل ليلة، وقرأ المقرئون القرآن أمام قبر الشيخ، وقام الصوفية والناس بزيارة القبر؛ قال الشيخ مهد: إنني أفكر في أن أقضي الليلة هنا على رأس القبر، وأشتغل بالعبادة. فقال له أبناء الشيخ: هذا ليس متبعاً، ولم يقض أحد الليل هنا بعد وفاة الشيخ، لأن الشيخ قال من قبل: النهار لكم، والليل لجماعة آخرين، أي للجن. وكان من كان ينصت في الليل بعد إغلاق الضريح، ووضع القفل في مكانه، يسمع صوتاً، ويشعر بحركة لجماعة، ويعلم أن ما ذكره الشيخ من أن الليل نوبة الجن يقيمون فيه على قبره، حقيقة. ولهذا السبب لا يستطيع أحد أن يقيم في الضريح أثناء الليل. وتحدثوا إليه كثيراً في هذا الأمر دون جدوى. وقال: سأظل هنا الليلة. ولما ألحوا عليه كثيراً ولم يقبل، خرج الخادم وأخذ الشمع وأغلق باب الضريح من الخارج، ووضع القفل في مكانه وذهب. وصعد الصوفية للنوم على سطح الخانقاه، فقد كان الوقت صيفاً، ولم يكونوا قد ذهبوا في النوم بعد عندما ارتفع صياح الشيخ مهد من الضريح. ونزل الصوفية من السطح، فرأوا الشيخ جالساً على حافة الحوض في مقر الصوفية على شاطئ النهر، وقد وضع قدميه في الماء. فرفعوه وذهبوا به إلى باب الضريح، ونظروا فوجدوا القفل مستقراً في الباب.

وحملوا الشيخ مهد إلى سطح الخانقاه، وسألوه: كيف حدث ذلك؟ فقال الشيخ مهد: عندما أخذوا الشمع، وأغلقوا الباب، انشغلت بالصلاة، وصليت ركعتين، وجلست ووضعت رأسي في جيبي لأفكر ساعة، فوصلت رطوبة الماء إلى قدمي، ففتحت عيني، ورأيت نفسي جالساً في وسط المحلة على شاطئ النهر، وقداي في الماء كما رأيتموني. ونام الشيخ مهد تلك الليلة على السطح، وفي وقت السحر فتح الخادم باب الضريح،

ووضع الشمع فيه، وأخرج نعل الشيخ مهد منه، ووضع أمامه.

وأقام الشيخ مهد عدة أيام في «ميهنة» ثم رجع. وعندما وصل إلى «نسا»، سأله شيوخها: كيف وجدت أبناء الشيخ؟ فقال: لقد رأيت المنور منورًا. قال هذا في حق والدي رحمة الله عليه.

حكاية:

سمعت تاج الإسلام أبا سعد بن محمد السمعاني يقول في مجلس على باب ضريح الشيخ قدس الله روحه العزيز: ذهبت مع والدي للحج، وعندما فرغنا من مناسك الحج قال والدي: تعال لنزور الشيخ عبد الملك الطبري (وكان من عظماء مشايخ عصره وله كرامات مشهورة على نحو ما حكى عنه السيد أبو الفتوح الغضائري إذ قال: سمعت من أحد عظماء المتصوفة أنه كان جالسًا يومًا في المسجد الحرام أمام الشيخ عبد الملك الطبري، فدخل شخص من باب المسجد على شاكلة البشر ولكنه ليس مثلهم وقال للشيخ عبد الملك: «الغد أنمر إلى سالار؟». فقال الشيخ عبد الملك: نعم. وذهب ذلك الشخص. وكان أحد الدراويش حاضراً، فقال له: أيها الشيخ، أستحلفك بحرمته المصطفى ﷺ أن تقول من كان هذا الشخص، وماذا قال؟ فقال الشيخ عبد الملك: لقد كان الخضر عليه السلام، وقال هل تأتي غداً لنذهب إلى المدينة؟ فقلت له نعم. وله كرامات كثيرة مثل هذه). قال تاج الإسلام: فذهبنا معاً إلى خانقاه «مكة» لنبحث عنه: فقبل لنا: لقد أدى الصلاة، وذهب إلى مسجد عائشة رضي الله عنها؛ فهو يمهد طريق الميقات والعمرة؛ لأن هناك أحجاراً غليظة سيئة، وهو يقوم بسحقها حتى لا تجرح أقدام الحجاج. وينبغي أن تبحثوا عنه هناك. فذهبنا إلى ذلك المكان، وتوقفنا بعيداً، ورأيت أنه قد ارتدى مرقعاً، وعقد وسطه، وشمر أكمامه، وجلس على حجر، ووضع حجراً آخر أمامه، وأخذ يكسره إلى أجزاء صغيرة، وعندما أتم كسره التفت إلينا. وحياه والدي، فرد تحيته، وقال: اقتربوا أكثر. فاقتربنا منه، وقال له والدي: نحن من «خراسان»، من مدينة «مرو»، وولد أبي المظفر السمعاني، فقال: إنني أعرفه. ثم سأله: هل جئت للحج؟ فأجاب

والدي: نعم، قال: ألم تذهب إلى ميهنة؟ قال ذهبت. فقال: هل قمت بزيارة الشيخ أبي سعيد؟ قال: فعلت، فقال: ماذا تصنع هنا إذن؟ ولماذا قطعت هذا الطريق الطويل؟ قال هذا وانشغل بعمله. فعظمناه وعدنا. ثم قال تاج الإسلام: منذ سمعت هذا الكلام، فرضت على نفسي عندما يذهب الناس للحج كل عام، أن أحضر إلى هنا لزيارة الشيخ.

حكاية:

وقد سمعت هذه الحكاية نفسها بإسناد آخر من ناصح الدين بن أبي محمد ابن عمي إذ قال: كنت قد ذهبت مع رئيس «ميهنة» إلى «سرخس»، فقال رئيس «ميهنة»: تعال لنذهب لتحية السيد الإمام الكبير البخاري - وكان إماماً أحضر الأمير الأجل من بخارى للتدريس في مدرسته في سرخس - وعندما دخلنا عليه، وعرفه أنني ابن الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير، نهض مرة أخرى، واحتضني، وقربني إليه، وقال: كنت في شبابي في «مرو» عند السيد الإمام محمد السمعاني، أعلم الفقه عليه. وعرض له السفر إلى «مكة»، فعهد بي إلى أحد معيديه. ولما رجع، كان ينبغي أن أقرأ عليه كل ما تعلمته في غيبته. وذات يوم ذهبت إليه، وكان قد جلس أمامه رجلان من كبار أئمة مرو، وكانا يتحدثان معه. وكان السيد الإمام السمعاني يحكي حكاية حجه، ثم قال: وعندما وصلت إلى «مكة» أردت أن أزور عبد الملك الطبري، وقص هذه الحكاية التي كتبت من قبل.

حكاية:

قال الحكيم محمد الأبيوردي: كان لدينا رجل عظيم، زاهد، متعبد، له مجاهدات كثيرة، قال: ظللت أتعبد طيلة عام، وأنا أتضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يرشدني إلى خير أنال به درجة الشيخ أبي سعيد. وبعد أن أتممت عاماً على هذا النحو من العبادة والمجاهدة، استسلمت للنوم ليلة، فرأيت في نومي هاتفاً يقول لي: لقد عمل الشيخ أبو سعيد بحديث من أحاديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، حتى بلغ تلك الدرجة التي رأيتها وسمعت بها. فاستيقظت من نومي، وقمت بكثير من العبادات والمجاهدات عاماً آخر؛ وتضرعت إلى الله أن يطلعني على هذا الحديث، وأن يظهر لي أي حديث

من أحاديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذي عمل به الشيخ. وبعد مضي سنة أخرى في العبادة والمجاهدة، رأيت في نومي هاتفاً يقول لي: ذلك الحديث الذي عمل به الشيخ هو الذي يقول فيه المصطفى: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك!». فاستيقظت، وأدركت أنه ليس لي ولأمثالي أن أطلب مرتبة الشيخ أبي سعيد؛ فقد لزم لي عامان من العبادة والرياضة والمجاهدة، حتى قيل لي أي حديث من أحاديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه هذا الذي قام به، فلا شك أنني لا أستطيع أن أقوم بالعمل الذي قام به.

حكاية:

قال أبو الفتح محمد بن علي الحداد: كان والدي يقوم بخدمة الشيخ سنين طويلة. وعندما توفي الشيخ كان متغيّباً. ولما رجع، أقام بالمنزل، وأخذ يذهب لزيارة الشيخ مرتين كل عام. وكنت أرسل معه أشياء إلى أبناء الشيخ، تقرباً إلى حضرة الشيخ. وكان والدي يحكي لي دائماً حكايات عن الشيخ ويصف لي طبعه، ووجهه، وشعره المبارك. وعندما توفي والدي، خطر لي أن أذهب لزيارة -قبر- الشيخ أبي سعيد. ولما بلغت مشارف «ميهنة»، توقفت حتى أقبل الليل. وذهبت إلى «ميهنة»، وتوضأت وصليت ركعتين على باب ضريح الشيخ، وجلست وأحنيت رأسي. واستولى عليّ النوم، فرأيت الشيخ في نومي على نحو ما وصفه والدي، وقال لي: لا تطف حول أبنائي، وإذا كنت تريد أن تتعلم طريق الله، فاذهب عند بانوفلة في «سرخس»، فاستيقظت، وانتعلت حذائي سريعاً، وذهبت إلى «سرخس» عند بانوفلة - وكان من العظماء ومريدي الشيخ، وعندما أشرف الشيخ على الوفاة، أمره بالذهاب إلى خانقاه الشيخ أبي الفضل حسن رحمة الله عليه في «سرخس»، ففعل هذا. وقد تمت أمور كثيرة على يده هناك، وأصبح له كثير من المريدين، ونالت تلك الطائفة على يديه خيرات كثيرة. والآن يسمون هذه الخانقاه «خانقاه بانوفلة» - وذهبت إلى خدمته، وظهر لي على يديه كثير من النور في طريق الدين. وعندما توفي؛ ذهبت إلى أبي القاسم القشيري، وسألني القشيري: من أين جئت؟ فحدثته بحكاية الحلم الذي

كنت قد رأيته من قبل، فبكى من أجل كرامات الشيخ، وقال لي: لقد حدثت لي حادثة مع بانوفلة؛ فقد ذهبت مرة إلى «سرخس» في مهمة، وعندما وصلت إليها، جاء جميع أئمة المدينة والولاية وعظماء الصوفية لاستقبالي، ما عدا بانوفلة فقد تخلف، وكنت أتوقع أن يأتي للسلام عليّ، فلم يفعل. وغضبت لذلك كثيرًا. وذات ليلة رأيت المصطفى عليه الصلاة والسلام في النوم، وقال لي: لقد وقف بانوفلة خلف الأبواب، وأنت لا تزال تذهب إلى الأبواب! يجب أن تذهب للسلام عليه. فاستيقظت من نومي، وذهبت في اليوم التالي لزيارة بانوفلة وفق إشارة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وقد أصبح محمد الحداد هذا من عظماء هذه الطائفة، بفضل إشارة الشيخ، وإرشاد بانوفلة، رحمهما الله.

حكاية:

سمعت السيد الإمام ظهير الدين أسعد القشيري حفيد الأستاذ الإمام يقول: كنت قد اقترضت سبعمائة دينار نيسابوري من أجل الصوفية في «نيسابور»، وقصدت المعسكر، وكان الجند حينئذ في «مرو». ولما بلغت «ميهنة»، احتجزني أبناء الشيخ أبي سعيد عدة أيام، وأكرموني كثيرًا. وبعد أن أمضيت هناك مدة، أعددت أموري لأذهب إلى مرو. وانتعلت حذائي، وذهبت إلى الضريح. وقد عزمت على هذا.

وعندما وقعت عيني على قبر الشيخ، أحنيت رأسي، وأغمضت عيني، فرأيت الشيخ عيانًا، وكأنما رفعت جميع الحجب عن عيني، وكان يقول لي: هل فعل والدك أو جدك هذا الذي تفعله؟ اذهب، وعد إلى هناك، وانتظر فسوف يتحقق مقصودك. فخرجت وقلت أعيذوا الراية واسترجعوا الأجر، واكثروا دابة إلى «نيسابور». وعدت ومكثت في الخانقاه. وقد شاء الحق سبحانه وتعالى أن أقضي السبعمائة دينار قيمة القرض في ذلك الشهر. وقد تحققت في ذلك العام فتوح كثيرة، فضلًا عن نفقات الخانقاه، وأوقفت عليها أعيان طيبة. ولم يتيسر لي في سنة من السنين حياة بمثل هذا الرغد، ببركة همة الشيخ قدس الله روحه العزيز، وإشارته.

حكاية:

قال السيد الإمام أبو المعالي القشيري: بعد وفاة الشيخ أبي سعيد بعدة سنوات، كانوا قد أقاموا وليمة في خانقاه الشيخ في «نيسابور». وكنت هناك مع والدي وأعمامي الإمام أبي نصر والإمام أبي سعيد. وحضر أيضًا جميع أكابر الأئمة والمتصوفة في المدينة. وكان معنا فخر الإسلام أبو القاسم ابن إمام الحرمين أبي المعالي، وكان متكبرًا متهورًا لا يزال في سن الشباب، فأخذ يقول لوالدي كلامًا كثيرًا. فقال له والدي: لا تتحدث كثيرًا فربما استدعاني الصوفية. فقال فخر الإسلام: اضحك على ذنن جميع الصوفية ولو بلغوا منزلة الجنيد. قال هذا وظل يتحدث.

ودخلت من باب الخانقاه قطرة، وأخذت تسير من ناحية، وتشتم واحدًا واحدًا من أولئك الجمع. ولما وصلت إلى فخر الإسلام، شتمته، وتبولت عليه، وخرجت من باب الخانقاه. فانهار فخر الإسلام، وأدرك السبب في هذه الصفعة، ونهض ليعتذر. فأشاروا جميعًا إلى السيد الإمام أبي سعيد القشيري، على أنه كبير الجماعة ليعتذر إليه عندما علموا بما حدث، قال: ينبغي أن يكون هذا الاعتذار للشيخ أبي سعيد، فهذه كراماته وهذه خانقاه، وهو رغم مرور عدة سنوات على وفاته، إلا أنه لا يزال يشرف على الأحوال، وإذا ما ارتكب واحد من الجمع حماقة تولى عقابه. ووافق الجميع على هذا الرأي، وتوجه فخر الإسلام إلى «ميهنة»، واستغفر، وظهرت الأحوال للصوفية، ومزقوا الخرق، وغمرت النشوة الجميع.

حكاية:

مرض السيد ناصر ابن شيخنا قدس الله روحه العزيز في «ميهنة»، بعد وفاة الشيخ بمدة، فذهب إلى طبيب في «طوس»، وظل هناك عدة أيام. وعندما تحسن قليلًا، توجه لزيارة قبور المشايخ في «سفالقان». ولما رجع ونام في تلك الليلة، رأى الشيخ في النوم يقول له: يا ناصر:

«بيت»

أنت تملك مسك التبت والعنبر الرطب،
فلا تنظر أيها الحبيب إلى العطور الأخرى.
واستيقظ السيد ناصر من النوم، وعزم على الذهاب إلى «ميهنة» في الحال، وغادر
«طوس» في اليوم التالي وجاء إلى «ميهنة». وتوفي في ذلك الشهر.

حكاية:

قال الإمام أبو بكر محمد بن أحمد الواعظ السرخسي: إنه سمع السيد أحمد بن محمد
الصوفي يقول: بعد وفاة شيخنا قدس الله روحه العزيز، رأى درويش من دراويش الخانقاه
في نومه أنه سأل الشيخ: أيها الشيخ، لقد كنت مولعاً بالسماع في الدنيا ولعاً شديداً، فما
حالك الآن مع السماع؟
فقال الشيخ:

«بيت»

لقد أغناني صوت الحبيب،
عن ألحان الموصلي ولحن الأرغول.
فلما قال الشيخ هذا البيت، صرخ الدرويش، واستيقظ من النوم، واعتراه حال. ولما
هدأ، سأله عما حدث، فقص علينا هذه القصة.

حكاية:

عندما هزم كفار الخطا السلطان سنجر في «مرو»، وحلت تلك الكارثة بالسلطان
العظيم، جاء الخوارزمشاه أتيسيز إلى «خراسان»، وذهب إلى «باورد» وقد عقد العزم على
أن يغير على «خاوران». ولما بلغ موضعاً يقال له رباط «سربالا» على بعد فرسخ من
«ميهنة»، توقف جواده. وأخذ يضربه بالسياط، ولكنه امتنع عن السير. فطلب جواداً آخر

وركبه، فتوقف ذلك الجواد أيضًا. وكان في معيته وزيره سيد العراق الصابندي فقال له: أيها الملك العادل، يقال إن بهذه البقعة مكانًا عزيزًا مباركًا؛ فيها قبر شيخ كان فريدًا في العالم، فانزع من رأسك ما أضمرته بشأن هذه البقعة. فقال: لقد صدقت، وسوف أفعل هذا. فسار الجواد في الحال.

واعتقد أئسيز اعتقادًا كبيرًا في الشيخ، وأرسل رسولًا خاصًا إلى شحنة «ميهنة» وقال له: بشر أهل هذه المدينة أنني قد غيرت رأيي، وينبغي ألا تشق عليهم قط، فهذه الولاية تابعة لخزائني. وذكر أنه سيقم في هذه الناحية ثلاثة أيام. وخرج إليه أبناء الشيخ والصوفية، فاحتفى بهم، وأكرمهم كثيرًا.

وكان أبو روح ابن عمي -عم المؤلف- متبحرًا في فنون العلم، فدعا له دعاء طيبًا وحدثه كثيرًا عن حالات الشيخ، وكراماته ورياضاته. وأعاد -أئسيز- الجميع، واحتجز لديه جمال الدين -أبا روح- وذهب معه بعد العشاء لزيارة قبر الشيخ، ثم صرفه بعد أن تم الاتفاق بينهما على أن يذهب إليه خلال هذه الأيام الثلاثة عند الفجر، ويظل في خدمته طوال اليوم.

ولما رجع -أئسيز- إلى معسكره، واطمأن أهل «ميهنة»، ظهرت نار من ناحية القبلة، وأخذت تزداد كل لحظة. وكان شعاعها ينعكس على صفحة السماء، فتبدو محمرة وكأنما النيران قد اندلعت فيها. وأخذت الرياح تهب في عنف، وأمسكت النار بجميع جبال «ميهنة»، حتى بلغت ما يقرب من فرسخين. وكانت تبدو وكأنما اتجهت إلى المدينة، وأوشكت أن تصل إليها. وكثر القيل والقال، وعم الصخب المعسكر، واستيقظ الخوارزمشاه أئسيز من نومه وشاهد تلك الحال، ورأى خوف الجنود وفزعهم، فغادر المكان قائلاً: لقد أشعل الشيخ النار فينا. وسار جيشه من خلفه.

وعندما وصل أهل «ميهنة» إلى المعسكر، كان الجيش جميعه قد رحل. ولم يعرف أحد شيئاً مما حدث، إلا أنهم كانوا يرون النار تندلع من ناحية القبلة والجبل، ويشاهدون احمرار السماء وهولها. ولما حل فجر اليوم التالي، لم يكن قد بقي في صحراء «ميهنة»

من ذلك الحشم الكثير والدواب والجند أحد قط. وتعجب الناس كثيرًا، وتساءلوا كيف رحلوا في الليل ولم يطلع على رحيلهم أحد، أو يسمع شخص صوت تحركاتهم.

وسأل أهل «ميهنة» عن مصدر هذه النار، وعرفوا أن جماعة من المزارعين كانوا قد زرعوا أغلاً في ذلك الجبل القريب من «ميهنة»، وقاموا بحصدها، وجمعوا منها محاصيل كثيرة. وكانوا قد أوقدوا نارًا في الليل، وأمسكت النار ببعض هذه الغلال، وأهاجتها الريح، فأخذت تشتعل ويسقط شعاعها على السماء.

وقد كانت هذه إحدى كرامات الشيخ، قضى بها على فتنة الخوارزمشاه وظلمه.

أما هذه النار التي كانت على هذا القدر من القداحة، حتى أنها كانت تشتعل فيما يقرب من مساحة فرسخين طولًا وعرضًا، وكان بينها الكثير من الناس والحيوانات والغلال، فإنها لم تتلف حبة قط من غلال أحد. وابتعد هذا البلاء عن «ميهنة» و«خاوران» جميعها بحيث لم يصب أحد بضرر.

حكاية:

كان أوحد الطائفة محمد بن عبد السلام أحد أبناء مولى جدي -جد المؤلف- وعندما وقعت فتنة الغز، استشهد فيها كثير من أبناء الشيخ، فقتل بحد السيف في «ميهنة» وحدها خمسة عشر ومائة شخص من صلب شيخنا قدس الله روحه العزيز. وبعد مرور شهرين أو ثلاثة، توفي الكثير من أهل «ميهنة» بسبب المرض والوباء والقحط الذي نتج عن هذه الأحداث. وقد بلغ حالهم من سوء إلى حد جعلهم يجلون عنها تمامًا، وتشتت من كان قد بقي من أهلها.

وظلت «ميهنة» خالية حتى رجع إليها نفر من الدراويش بعد عامين أو ثلاثة، وعمرُوا القلعة التي كانت قد خرجت، وأقاموا بها. وكانت هناك مسافة كبيرة بين تلك القلعة وضريح الشيخ. وقد ظل أوحد الطائفة محمد بن عبد السلام هذا مجاورًا في ضريح الشيخ المقدس خلال هذه المدة؛ لأنه كان مصابًا بعرج شديد يجعله يتحرك بصعوبة كبيرة. ولما لم يكن في «ميهنة»، عند هجرة أهلها دواب، وكان الناس أثناء فرارهم يسوقون أمامهم

نساءهم وأولادهم، ويسير الجميع على أقدامهم وأطفالهم على أعناقهم؛ فقد اضطر إلى البقاء في المدينة، ولجأ إلى ضريح الشيخ، ولجأ معه بضعة أفراد من المكفوفين والضعفاء. وعندما رحل أهل «ميهنة» ظلوا فيها بمفردهم.

وفتح الحق سبحانه وتعالى بكمال فضله أبواب الرزق والنعم على أولئك الضعفاء، واتجهت الخيرات إلى ذلك المكان، بينما أغار المفسدون على غيره من الأماكن. وكانت أنواع الإحسان تصل إليهم، حتى لقد ذكر أنه لم ير في حياته أحسن من هاتين السنتين. ولما عاد الناس واستقروا بالقلعة، ظل يقوم بالخدمة في ضريح الشيخ، وبقي على هذه الحال عشرين عامًا، يؤدي حقوق الزيارة والخدمة في هذه البقعة المباركة، وكان إذا ما جاء درويش قام على خدمته، وأرسل السيدات إلى القلعة. وكان يقيم على باب الضريح. وبعد مرور مدة طويلة ذهبت -أي المؤلف- إلى ذلك المكان وسألته: ماذا رأيت من كرامات الشيخ خلال المدة التي أقمت فيها بروضته المباركة؟ فقال: لم يمض يوم دون أن تظهر لي كرامة من كرامات الشيخ، بحيث يتعذر علي إحصاؤها. ولكنني سأقص عليك قصة كرامتين حدثتا لي، ورأيتهما، وحدثت الناس بهما، فلم تكن لدي القدرة على إخفائهما. ولم أر مثلهما بعد ذلك، وأدركت أنني لو كنت قد احتفظت بهذا السر، لرأيت الكثير من هذه الكرامات. وندمت، ولكن دون جدوى.

الأولى: هي أنني اعتدت ألا أذهب إلى القلعة خلال فصل الصيف، وكنت أنام طوال هذا الفصل على باب الضريح. وذات ليلة كنت نائمًا، وكانت هذه الليلة من ليالي الأيام البيض حيث تم القمر، فأغلقت باب الضريح جريًا على عادتي، وتهيأت للنوم. وفي بداية نومي، وصل رجل من أهل «ميهنة» قادمًا من الصحراء، فلما رآني نائمًا على باب الضريح، نام -إلى جوارى- على الأرض. واستيقظت في منتصف الليل، وكان هناك صوت ينبعث من الضريح يتلو القرآن. وأنصت جيدًا، فسمعت شخصًا يقرأ سورة الفتح بصوت جميل. وتعجبت لذلك، فقد أغلقت أبواب الضريح قبل نومي، فكيف فتحها شخص ودخل إليه؟ ونهضت، فرأيت باب الضريح مغلقًا كما هو، وكان القمر قد توسط السماء، وتبين

لي أن هذا لا يمكن أن يكون إلا صوت الشيخ، وأن هذه القراءة له. وتملكني حال، ومهما حاولت كثيرًا أن أمنع نفسي من الإفضاء بهذا الأمر لم أستطع. وأيقظت الرجل النائم إلى جوارِي قلت له: تأمل كيف يمكن سماع صوته جيدًا بعد مضي أكثر من مائة عام على وفاته!! وعندما استيقظ الرجل، احتجب الصوت فلم أسمع، لا أنا ولا هو.

والثانية: كان من عادتي صباح كل يوم من أيام الشتاء، عندما أذهب من القلعة إلى الضريح، أن أحضر معي ما تيسر لطعام الضحى لأن المسافة إلى الضريح كانت بعيدة جدًا، والذهاب متعذر علي. وذات يوم لم أكن قد أكلت شيئًا، وانتابني حمى، وتقيأت بسبب ذلك. وفي صباح اليوم التالي غلبني الجوع، فلم أكن قد تناولت طعامًا ليوم وليلة، فأخذت كسرة من الخبز وبيضضة، وذهبت لأتناول طعامي على باب الضريح. ولما وصلت إليه رأيت درويشًا وقد ارتدى مرقعًا، وجلس على باب الضريح، وأحنى رأسه ووضع عصا وإبريقًا على كتفه. ولما وقعت عيني عليه، لم يبق لي من بشرتي شيء، وشعرت بروح وروح بحيث غبت عن نفسي.

وتقدمت إلى الضريح في بطن، وفتحت الباب، وعندما سمع صرير الباب، رفع رأسه، فألقيت عليه التحية، فنهض لتحيتي، وعانقني. وجلست إليه، وسألته عن حاله. وبرغم أنه لم يقل شيئًا، فقد أدركت أنه وصل عند صلاة العشاء، ولم يكن هناك من يعتني به، وبقي في ذلك المكان مستيقظًا طوال الليل. فوضعت الخبز والبيضضة أمامه في الحال، وأثرته على نفسي، وكنت أكل معه قليلًا على سبيل المجاملة وأخدمه. وبعد أن فرغ من الطعام. غسل يديه وجدد وضوءه، وصلى ركعتين، ولبس نعله، وودعني وذهب. وأمضيت اليوم دون طعام أيضًا، ولكنني لم أشعر بالجوع بسبب ما بعثته صحبة ذلك الدرويش في نفسي من الراحة.

ولما عدت إلى القلعة عند صلاة العشاء، كانوا قد أعدوا طعامًا لا يناسبني، فلم أستطع أكله، وكانوا قد اعتمدوا على أنني أكلت شيئًا، ونمت جائعًا في تلك الليلة. وفي صباح اليوم التالي، ذهبت كعادتي إلى الضريح بعد الصلاة، وفتحت الباب، ودخلت، وقمت

بواجبي. ورأيت في المكان الذي يخلع فيه الناس أحذيتهم في مواجهة قاعدة قبر الشيخ جرة جديدة، زرقاء اللون، مملوءة بالماء، وقد وضع فوقها رغيفان من الخبز الأبيض الساخن، وكانت يدي تحس حرارة ذلك الخبز، فرفعتهما، وغلبنى البكاء، وأدركت أن هذه ليست إلا محض كرامة من كرامات الشيخ، فلم يكن في القرية أحد ليكون ذلك الخبز قد خبز في تلك الساعة، وجلست وأكلت الخبز، ولم أتناول قط طيلة عمري طعاماً أطيب منه، ولم أشرب ماء أبرد وأطيب وأعذب من ذلك الماء.

وكرامة أخرى هي أنني كنت جائعاً لمدة يومين وليلتين، وقد شبعت بهذين الرغيفين بحيث لم أشته طعاماً آخر ليومين آخرين.

وحين ذهبت إلى القلعة وقت صلاة العشاء، واجتمع الناس، لم أستطع الاحتفاظ بهذا السر، ومهما بذلت من الجهد لم أكن أستطيع أن أمتنع نفسي، وقلت: أيها الناس، أنتم لا تعرفون ماذا تملكون، ولا ترعون حق هذا القبر العظيم، ولذلك تعانون كل هذه البلايا والمحن. وحكيت هذه الحكاية وبكى الحاضرون. ولكنني بعد ذلك لم أر من هذا الجنس شيئاً آخر لأنني أظهرت خسة، وأدركت أنه لو لم أظهر هذه الكرامة لظهرت لي أشياء كثيرة، فندمت ولكن دون فائدة.

أما عن كرامات الشيخ التي ظهرت للآخرين في وجودي، فهي كثيرة جداً بحيث يتعذر علي إحصاؤها. ولقد قال الشيخ قدس الله روحه العزيز: ما أسعد من رآنا، وما أسعد من رأى من رآنا، وعد سبعة أشخاص على هذا النحو، وقال: ما أسعد الذي رأى سابع شخص رأى من رآنا.

حكاية:

اعلم أن الكرامات التي ظهرت بعد وفاة الشيخ أكثر من أن يستطيع القلم أن يسطرها. ومنها هذه الكرامة التي قص قصتها ابن خالي أبو الفرج بن المفضل وابن أخي المنور بن أبي سعيد؛ فقد ذكرا أنه أثناء غارة الغز، كانت «ميمنة» قد تخربت، بحيث لم يعد هناك من يستوطنها. وكان نفر القليل الذي بقي من أهلها يسكنون القلعة، وكانوا يحضرون

إلى القرية من أجل حطب التوت الذي كانوا يطحرونه في النواحي. وقد جئنا مع التلاميذ إلى محلة الصوفية، وكسرنا شجرة قريبة من الضريح. وكان الجو حاراً في ذلك اليوم، ولم يكن بالمحلة أحد سوانا. وكنا، كما هي عادة الصغار من سوء الأدب، نحدث شغباً. وأخذ التلاميذ يضربون بالفأس، وكان صوت ضجيجنا يملأ المحلة. وسمعنا صوتاً من باب الضريح يقول: ما هذا الذي تفعلون؟ فنظرنا، ورأينا شيخاً واقفاً على باب الضريح، وكانت لحيته تصل إلى سرتة كما وصف شيخنا، ووجهه أيضاً مشرب بالحمرة وصاح فينا قائلاً: ألن يأتي وقت نتخلص فيه من سوء أدبكم؟ وعندما وقعت أعيننا عليه، هربنا وتركنا الآلات هناك، حتى إذا ما جاء أحد بعد هذا إلى المحلة عند العصر، ذهبنا معه، وأخذناها هي والملابس. ولم نفعل بعد هذا شيئاً مجافياً للأدب في هذه المحلة.

وهناك حوادث كثيرة من هذا النوع يصعب حصرها، وإذا ذكرناها كلها يطول الكتاب. والأمر كذلك فيما يختص بفوائد أنفاس الشيخ وحكاياته وكراماته وأمثلة هذا، فإن عشرين مجلداً في وصف حال الشيخ أشبه بقطرة من بحر، على نحو ما ذكر السيد الإمام أبو الحسن المالكي؛ فقد قال: لقد سمعت لعدد من الشيوخ الكبار يقولون إن الناس يتعجبون لكثرة كرامات الشيخ أبي سعيد، وإشرافه على خواطر عباد الله وأحوالهم.

وقال الشيخ أبو سعيد: ليس لصاحب الكرامات منزلة كبيرة في هذه الحضرة؛ لأنه يكون بمثابة الجاسوس، وواضح أي منزلة تكون للجاسوس في حضرة الملك. وليس لصاحب الإشراف في الولاية خطر كبير ونصيب إلا بمثل دائق عن كل دينار. فاجتهد أن تكون صاحب ولاية حتى تكون كل شيء، ويكون لك ملك كل شيء.

ويعرف من أقوال الشيخ أبي سعيد أن هذه الكرامات والإشراف على الخواطر ليست شيئاً بالقياس إلى الحال التي كانت للشيخ. أما عوام الخلق فإن تلك الحالة تبدو لهم عجيبة، وإن كانت هي نفسها ليست شيئاً بالقياس إلى منزلة الشيخ؛ لأن الرجل ما لم يصل إلى المقام الأرفع فإنه لا يحتقر ما عرف. وهذا، بالنسبة لما كان للشيخ وما كان فيه، لا يعد شيئاً، ولكنه يبدو لنا عظيمًا بسبب أنه لا علم لنا بتلك الحقيقة ولا نرى من الأمور غير

الظاهر، وهذا أيضًا ليس كاملاً. نسأل الحق سبحانه وتعالى أن يكرمنا بالرؤية قبل الموت؛ لأن الخلق جميعاً سوف يحيون غداً بهذه الكلمات المباركة.

وإنني لأرجو من كرم العظماء الذين يطالعون هذا الكتاب ويجدون لذة في قراءة حالات شيخنا قدس الله روحه العزيز، أو تبدو لهم حال ووقت ألا ينسوا هذا الضعيف والداعي في تلك الحال والوقت، وأن يذكروا هذا الأثم العاصي بالدعاء. وإذا بدت لشخص هداية من هذه الأقوال المباركة والحالات الشريفة، أو حصل لسالك في طريق الطريقة والحقيقة من هذه الأنفاس العزيزة فتح، ألا يغفل عن هذا المسكين بالدعاء والهمة، وأن يذكره بخاطره المبارك في الأوقات والخلوات، ولا ينساه إن شاء الله تعالى.

أسأل الحق تعالى ألا يقطع بركات ملك الدين هذا، وسلطان أهل اليقين وإمام أهل الطريقة وقدوة أهل الحقيقة عنا وعن كافة أهل الإسلام في أي حال، وأن يحشرنا في الدنيا والآخرة في زمرة خدم تلك الحضرة المباركة وغلمانها المقدسين، وأن يسعدنا يوم القيامة بخدمته، على نحو ما ذكر من أن جواب الصغير على الكبير، وأن يكون شفيع أخطائنا وزلاتنا، وأن يوقف قلوبنا على محبته وأجسادنا على خدمة أحبائه، وألا يتركنا لأنفسنا ولا للخلق طرفة عين أو أقل من ذلك، وأن يمن علينا بما لا بد لنا منه في الدين والدنيا والآخرة، ونحن في خدمته وحضرته ومحبته بحق محمد وآله أجمعين، والحمد لله رب العالمين، والصلاة على رسوله محمد ﷺ.



ثبت بأسماء الأعلام

أسماء الرجال:

(أ)

آدم الصفي: ١٩، ٢٠

آل أبي الخير: ٢٨٩

آل سلجوق: ١٥٦، ١٥٧

آل محمد: ١٩٧، ١٩٨

إبراهيم (النبي): ٢٣٧، ١٧٨، ٢٨٢، ٣٠٩، ٣٥١

إبراهيم (القوّال): ٣١٧

إبراهيم ينال: ١٢٢، ٢٢٢، ٢٢٣

إبليس: ٢٤١، ٢٦١، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٨، ٢٩٠

ابن سريج: ٣٥

أبو أحمد (الأستاذ): ٧٢

أبو أحمد (الشيخ): ٨٩

أبو إسحاق الإسفراييني: ٢٤٣

- أبو البدر (الإمام): ٣٥١
- أبو البركات (السيد): ١١٢، ٢٧٦، ٣١٠
- أبو البقاء المفضل بن فضل الله: ٣٣٠
- أبو بكر (الأستاذ): ١٥٠، ١٨٦
- أبو بكر الجوزقي: ٢٤١
- أبو بكر الحيري (القاضي): ٢٠٥
- أبو بكر الخطيب: ١٠١، ١٠٢
- أبو بكر الدروني: ٢٧٦
- أبو بكر الشبلي (انظر الشبلي): ٢٢٣
- أبو بكر الشوكانى: ١٢٣
- أبو بكر الصابونى (السيد الإمام): ١٩٢
- أبو بكر (الصدىق): ٢٩٩
- أبو بكر بن عبد الله (الدراوردي): ١٧٦
- أبو بكر القفال المروزي: ١٥، ٣٨
- أبو بكر الكتانى: ٢٣٧
- أبو بكر الكرامى (إسحاق): ٨٣، ٨٤، ٢٠٦
- أبو بكر بن أحمد الواعظ السرخسى: ٣٦٣
- أبو بكر المؤدب (السيد): ٨٩، ١٥٢، ١٦٧، ٢٦٠
- أبو بكر النوقانى (الأستاذ): ١٨١
- أبو بكر الواسطى: ١٩٤، ٢٤٧
- أبو جعفر: ١٠٤، ١٠٥

أبو جعفر القايني: ٢٣٥

أبو جهل: ١٠٩

أبو حامد الدوستانى: ٢٤٥

أبو الحسن (الخادم): ١٦٨، ١٦٩

أبو الحسن (الأعرج) الأبيوردي: ٣٣٠

أبو الحسن البوشنجي: ٢٣١

أبو الحسن الخرقاني: ١٨، ٥٨، ٦٠، ٦٢، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٧، ٢١١، ٢٤٣

أبو الحسن الرواقي (الإمام): ١٨٦

أبو الحسن السنجاري (الشيخ): ١٣٢، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤،

١٤٥، ١٤٦، ١٤٧

أبو الحسن النوري: ٢٢٩، ٢٤٦

أبو الحسن علي بن المثنى: ٢٤٨

أبو الحسن الفاروزي: ٢٧٦

أبو الحسين التوني: ١٠٢

أبو الحسن المالكي: ٣٦٩

أبو حفص الحداد: ٢٤٢

أبو حمزة النوري: ٢٤٦

أبو حنيفة الكوفي: ٣٦

أبو الخير (والد الشيخ أبي سعيد): ٣١

أبو الدراوردي: ٣٧

أبو الدرداء: ١٩٤

- أبو روح (انظر جمال الدين أبو روح): ٣٣٦
- أبو سعد (سعيد) أسعد بن سعيد (شيخ الإسلام): ٣٣٠
- أبو سعد دادا: ٣٣٦
- أبو سعد بن محمد السمعاني: ١٥٨، ٣٥٩
- أبو سعيد سعيد بن أبي الخير (انظر أبو سعيد فضل الله)
- أبو سعيد الحداد (الإمام): ٢١٦
- أبو سعيد الخشاب (الخادم): ٩٩
- أبو سعيد العياري (السيد الإمام): ٣٤
- أبو سعيد القشيري: ٣٦٢
- أبو سعيد فضل الله بن أبي الخير الميهني: ٧، ١٠، ٢١، ٣٤٣
- أبو سهل الصعلوكي (المقري): ٢٤٣
- أبو صالح الدنداني (الشيخ): ١٢٠
- أبو طالب الجعفري (السيد): ١٦٣
- أبو طاهر الخاتوني: ١٣٨
- أبو طاهر سعيد بن فضل الله (السيد): ٣٣٠
- أبو عاصم العياضي (الإمام): ١٨٣
- أبو العباس الريكاني: ٢١٨
- أبو العباس الشقاني: ٢٠٨
- أبو العباس القصاب: ١٦، ٥٧، ٥٨، ٦٢، ٦٣، ١٩٥، ٢٤٩، ٢٦٦، ١٨٢
- أبو العباس المغربي: ٢٤٧
- أبو عبد الرحمن السلمي (عبد الرحمن السلمي): ١٦، ٤٧، ٥٥، ١٣٢، ٢٠٠، ٢٤٣

أبو عبد الله باكو (عبد الله باكو): ٩٥، ٩٦، ٢٠٠، ٢٠١

أبو عبد الله الخضري (الإمام): ٣٥، ٣٨

أبو عبد الله الداستاني: ٦٣

أبو عبد الله الرازي: ٢٣١

أبو عبد الله الكرام: ١٠٢، ١٣٠

أبو عثمان الحيري (عثمان الحيري): ٥٥، ١١٢، ١١٣

أبو العز الموفق بن سعيد: ٣٣٠

أبو العلا ناصر بن فضل الله: ٣٣٠

أبو علي (الشيخ):

أبو علي الترشيدي: ٩٤

أبو علي الدقاق: ٥٣، ٦٤، ٩٢، ٢٤٠، ٢٥٠، ٢٦٤

أبو علي زاهر بن أحمد (انظر أبو علي الفقيه، الإمام أبو علي):

أبو علي سياه (الشيخ): ١٦٥، ١٦٦، ٢٢٦

أبو علي بن سينا (السيد): ١٨٨

أبو علي شبوبي (الشيخ): ١٥٨، ١٥٩، ٢٣٧، ٢٣٨

أبو علي الطوسي (انظر: أبو علي الفارمدي).

أبو علي العثماني (السيد الإمام): ٢٢٣

أبو علي الفارمدي: ١٢٥، ١٧٥، ١٧٨

أبو علي الفقيه: ٣٨

أبو علي المطهر بن فضل الله: ٢٣٨

أبو عمرو (صهر أبي القاسم القشيري): ٨٩

- أبو عمرو الفراهي: ٣٨
- أبو عمرو البشخواني: ٣٧، ١٥٣
- أبو عمرو بن نجيد السلمي: ٢٤٣
- أبو عمرو خشكويه (حسكو): ١٦٧، ١٦٨
- أبو الفتح بن طاهر بن سعيد (السيد الشيخ): ٣٣٠
- أبو الفتح بن عباس (السيد الإمام): ١٠٠
- أبو الفتح محمد بن سام: ٨، ٢٥
- أبو الفتح محمد بن علي الحداد (محمد الحداد): ٣٦٠، ٣٦١
- أبو الفتوح العياضي: ١٣١
- أبو الفتوح الغضائري: ٩١، ٩٢، ٣٥٨
- أبو الفتوح مسعود بن فضل الله: ٣٣٠
- أبو الفرج بن المفضل: ٣٦٨
- أبو الفرج الفضل بن أحمد العامري: ٣٣٠
- أبو الفضل الشامي: ٣٥٥
- أبو الفضل الفراتي: ٢٢٠
- أبو الفضل محمد بن أحمد النوقاني: ١٥٠
- أبو القاسم بشر ياسين: ٣٣، ٣٤، ٣٥، ١٩٦، ٢٨٩، ٢٩٧، ٢٩٨
- أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادي (انظر: الجنيد)
- أبو القاسم الجنيد بن علي الشرمقاني: ٤٣
- أبو القاسم الجويني (فخر الإسلام): ٩٧، ٢٠٦، ٢١٧، ٣٦٢
- أبو القاسم الحكيم: ١٦٤

أبو القاسم الروباهي: ١١٢، ٣٤٩

أبو القاسم الزراد: ١٥٥

أبو القاسم القشيري (الأستاذ الإمام): ٧٥، ٨٧، ٩١، ٩٢، ١١٢، ١٢١، ١٢٤، ١٩٥،

٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٧، ٢٢٤، ٢٤٣، ٢٥٦، ٢٦٤، ٢٦٥، ٣٤٩، ٣٦٠

أبو القاسم الجرجاني: ٧٤، ١٢٥، ١٧٦

أبو القاسم النصر آبادي: ٤٧

أبو القاسم الهاشمي: ٧٣

أبو القسمك (الحاجب): ٨٣، ٨٤

أبو لبابة الميهني: ٣٨

أبو لهب: ١٠٩

أبو محمد الجريري: ٦٢

أبو محمد الجويني (السيد الإمام): ٣٨، ١٢٦، ١٣٥، ١٤٨، ١٩٥، ٢٠٤، ٢٠٦،

٢١٠، ٢١٧، ٢٥٦، ٢٥٧

أبو محمد العنازي: ٣٢، ٣٢٨

أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش: ٤١

أبو مسلم الفارسي: ١٣٢

أبو المظفر بن فضل الله: ٣٣٠

أبو المعالي الجويني (إمام الحرمين): ٩٧، ٢١٧

أبو المعالي القشيري (الإمام): ٣٦٢

أبو منصور الوراقاني: ١٢١، ٣٠٧، ٣٢٨

أبو نصر (الشيخ): ٩٣

- أبو نصر الحرصي: ٨٧، ٣٤٩
- أبو نصر السراج: ٤١، ٧٢
- أبو نصر الشيرواني: ١٣٦، ١٣٧
- أبو نصر العياضي السرخسي: ١٢٦، ١٣١، ١٨٣
- أبو هريرة: ٢٣٧
- أبو يزيد (انظر: بايزيد)
- أبو يعقوب النهرجوري: ٢٤٦
- أبو يوسف (القاضي): ٢٣٦
- أتسيز الخوارزمشاه: ٣٦٣، ٣٦٤
- أحمد (ابن أبي الحسن الخرقاني): ٢١١
- أحمد بانوفلة: ٣٦٠، ٣٦١
- أحمد حمويه: (انظر: حمويه)
- أحمد الدهستاني: ٩٩، ١٠٠
- أحمد الطابراني: ٢٦٣
- أحمد بن مالك الشوكاني (الإمام) (انظر عمر الشوكاني)
- أحمد النجار: ٥٢
- أحمد أبو شره: ٢٠٩، ٢١٠
- أحمد بن أبي الليث: ٢٦٤
- أحمد العدني: (انظر محمد بن عليان)
- أحمد (ابن الصوفي): ٢٤١
- أحمد بن نصر (الشيخ): ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٢٦٥

إدريس (النبي): ٤٣

إسماعيل بن إبراهيم: ٣٠٠

إسماعيل الساوي (الشيخ): ٣٢٠

إسماعيل الصابوني: ١٢٧، ١٣٣، ١٤٨، ١٩٥، ٢٠٦، ٢١٧، ٢٥٦

إسماعيل بن عباس: ١١٢، ٣١٠

إسماعيل بن مكرم: ١٢٨

إسماعيل (ابن أبي علي الدقاق) (انظر أبي علي الدقاق)

أشرف بن أبي اليمان: ١٧٩، ٣٤٨، ٣٥١

أصحاب الصفة: ٣٠٤

أصحاب الكهف: ٢٨٥

أميرة (انظر: ميرة)

الأنصاري (انظر: عبد الله الأنصاري)

أيشي نيلي: ٨٥، ٨٧

(ب)

بابا حسن (إمام الشيخ في الصلاة) ١٩٧

بابو بو الخير (والد الشيخ أبي سعيد أنظر أبو الخير) ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٥

بانوفلة: ٣٦٠، ٣٦١

بايزيد البسطامي: ١٨، ٣٦، ١٤١، ٢٣٠

بحر (الجني): ٣٢٩

البخاري: ٢٣٨

البخاري (الإمام الكبير): ٣٥٩

بشر الحافي: ٣٧

بغراخان: ١٠٠

بلال الحبشي: ١٠٧

بني إسرائيل: ٩٨، ٢٤٧

(ت)

تاج الإسلام (انظر: أبو سعد بن محمد السمعاني) ٣٥٨، ٣٥٩
التركمانى:

(ث)

ثابت: ٢٤٩

(ج)

جابر بن عبد الله: ٢٩٠

جعفر بن محمد (الصادق): ٣٠١، ٣٠٢

جفري بيك (السلطان): ١٥٦، ١٥٧، ٣١١

جمال الدين أبو روح لطف الله ابن أبي سعيد: ٢٣

جمشيد: ٢٠١

الجنيد بن محمد البغدادي: ٤١، ٤٣، ٤٧، ٦٢، ٢٢٣، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٧،

٢٣٩، ٣٦٢

(ح)

حبيب العجمي: ٤١، ٦٢

حسن (أنظر: نظام الملك)

حسن (السيد الأجل): ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٤

الحسن البصري: ٢٩٧، ٦٢

حسن الجاناروي (الشيخ): ٣٥١

حسن السمرقندي (السيد الإمام): ١٨٠

حسن بن المؤدب: ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٩٢، ٩٣، ٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤،

١٠٥، ١١١، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٣٦، ١٣٨، ١٤١، ١٥٢، ١٤٥،

١٥٣، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٦، ١٨١، ١٨٥، ١٨٩، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٥٢، ٢٥٥،

٢٥٦، ٣٠٨، ٣٣٦، ٣٤٢، ٣٤٤

الحسين (أمير المؤمنين): ٤٧

حسين (القاضي): ٢٢٦، ٣١٢

حسين بن عباد الويشي: ١٣١

حسين بن منصور (الحلاج): ٨٥،

حمدان (الإمام): ٥٧

حمزة (السيد): ١٩٩، ٢٠٠

حمزة التراب: ١٩٦

حمزة السكان: ١٨٢، ٢١٤، ٢١٥

حمويه (السيد): ١٥٣، ١٥٨، ١٥٩، ١٨٠، ١٨١، ٢١٢، ٣١١، ٣٢٩، ٣٣٨

حميدر محويه: ٣٨

حواء: ١٨

(خ)

خديجة: ٢٨٨

الخنضر: ٤٣، ٢٣٧، ٢٥٨، ٢٦٦، ٣٥٨

الخضري: ١٥، ٣٥، ٣٦، ٣٨،

خطيب الكوفي: ٢٥٣،

(د)

دادا: ٢٢٨، ٣٣٦، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٧

داود (النبي): ٢٣٧، ٢٤٩

داود الطائي: ٤١، ٦٢، ٢٤٩

(ذ)

ذو النون المصري: ٢٣١

(ر)

رابعة: ٢٤٩

راحة:

(ز)

زكريا: ٦٣، ٢٤٢

(س)

سرى السقطي: ٣٣، ٥٠، ٦٨، ٢٨٢، ٢٨٤

سعيدة الصوفية: ٢٩٨

سفيان الثوري: ٢٣٩

سليمان (النبي): ٢٦، ٢٤٢، ٢٨٦، ٢٩٢

سنجر بن ملكشاه (السلطان):

السكناني (السيد): ٢٠٩

سوري: ١٢٩، ١٥٧

سهل بن عبد الله: ٢٣٥، ١٩٥

سياري: ٢٤٥

سيد بن محمد (الأمير): ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥

سيف (القاضي): ١٦٩، ١٧٠

(ش)

الشافعي المطلبي: ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٦٠، ٢٠٥، ٢٠٦

الشبلي (أبو بكر): ٤٧، ٢٢٣، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٦٦

شوبوي: ١٥٨، ١٥٩، ٢٣٧، ٢٣٨

(ص)

الصابندي (سيد العراق): ٣٦٤

صاعد (القاضي): ٨١، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ١١٠، ٢٠٦

صاينة: ٢٦٢، ٢٦٣

(ط)

طغرل (طغرليك السلطان): ١٢١، ١٢٢، ١٥٦، ١٥٧، ٢٢٢، ٢٢٣، ٣٠٧، ٣٢٨

(ظ)

ظهير الدين أسعد القشيري: ٣٦١

(ع)

عائشة الصديقة: ٢٥٠، ٣٥٨

عبد الجليل (رشيد الطائفة): ١٢٨

عبد الرحمن (المقرئ): ١٠٩، ٢٤٨، ٢٦٥

عبد الرحمن الصنعاني: ٢٩٨

- عبد الرحيم (الإمام): ٢٢٣
- عبد الرازق الصنعاني: ٢٣٧
- عبد الصمد بن الحسين الصوفي السرخسي: ٤٦، ١١٣، ١١٤، ١٧٧
- عبد الكريم (الخادم): ١٨١، ١٨٢، ١٩٨، ٢٠٢، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨
- عبد الكريم الإزجائي: ٢٢٣
- عبد الملك بن شادان: ١٧١
- عبد الملك الطبري: ٣٥٨، ٣٥٩
- عبد الله الأنصاري (أبو عبد الله الأنصاري - الشيخ): ٢١٩
- عبد الله بن عمر: ٢٤٨
- عبد الله بن الفرغ العابد: ٢٣٥
- عبد الله بن مبارك: ٢٤٣
- عز الدين محمود الإيلبشي الطوسي: ٧٢
- عزة: ٣٣٧
- عقبة (الجنبي): ٣٢٩
- عقبة بن عامر: ١٩٧
- علي حسن (السيد): ١٢١، ٣٣٣
- علي الخباز (السيد): ١٥٦، ١٦٦، ٢٦٥
- علي الصندلي: ٢٠٦، ٢٥٦
- على الطرسوسي: ٢٠٨، ٢٥٣
- علي (المحتسب): ٣٤٩، ٣٥٠
- علي بن أبي طالب (أمير المؤمنين): ٤٧، ١٥٢، ٢٤٩

علي (زين العابدين): ٤٧

عليك (السيد): ١٢١، ١٦٢

عماد الدين محمد بن عباس: ١٨٠، ١٨١

عمارة: ٢٥٣

عمر بن الخطاب: ٢٣٠، ٢٩٢

عمر الشوكاني: ٧٧، ٩٢، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ٣٤٨

عمران (الخادم): ١٦٠، ١٦١

عمرو (الجني): ٣٢٩

عيسى بن مريم: ٦٣، ١٠٣

(غ)

الغز: ٧، ٨، ٩، ٢٢، ٥٦، ١٩٥، ٣٣٢، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٦٥، ٣٦٨

(ف)

فاطمة (ابنة أبي علي الدقاق): ٩٢

فاطمة (ابنة السيد أبي طاهر): ٢٠٢، ٢٠٣

فاطمة الزهراء: ٢٥٤

فرعون: ٢٠١

فضل الله بن أبي الخير (أنظر: أبو سعيد فضل الله)

(ق)

قتيبة: ٣٥٥

(ك)

كعب الأحبار: ٢٣٠

كلب الروم: ٢٤٥

كمال الدين بن أبي سعيد: ٧٢

(ج)

لقمان السرخسي: ٣٩، ٤٢، ٢٥٠

(هـ)

مالك الشوكاني: ١٧٠

مالك بن أنس (ملك بن أنس): ٣٧

ماهك: ١٨٠

محمد المصطفى (رسول الله، النبي، الرسول): ٢٠، ٢١، ٢٦، ٢٧، ٣٧، ٥٩، ٦٦،
٦٧، ٩٥، ١٠٣، ١٠٧، ١٠٩، ١١٢، ١١٣، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٩، ١٦١، ١٦٩، ١٨٣،
١٩٣، ١٩٧، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٦١، ٢٦٢،
٢٦٩، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٥،
٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٧٠

محمد (الحاجب، عميد خراسان): ٩٨، ٩٩، ١٠٠

محمد (انظر: سيد بن محمد)

محمد (العالم): ١٢٣

محمد الجويني (انظر: أبو محمد الجويني)

محمد السمعاني: ٣٥٨، ٣٥٩

محمد الشوكاني (السيد): ٧٧

محمد العارف النوقاني: ٢٦٣، ٣١٠

محمد العنازي (انظر: أبو محمد العنازي) ٣٢

محمد القايني: ٢١٦

محمد بن كوهيان: ١٣٢

محمد بن أبي إسحاق (الشيخ): ٣٤٨

محمد بن أبي نصر الختني: ١٠١، ١٠٢

محمد الباقر: ٤٧

محمد بن حسام: ٢٣٥

محمد بن عبد السلام (أوحد الطائفة): ٣٦٥

محمد بن عبد الله الطبري: ٦٢

محمد بن عبد الله بن يوسف الجويني: ٣٨، ١٢٦، ١٣٥، ١٤٨، ١٩٥، ٢٠٤، ٢٠٦،

٢١٠، ٢١٧، ٢٥٦، ٢٥٧

محمد بن علي القصاب: ٢٤٧

محمد بن المنور: ٧، ٢١

محمد بن عليان النسوي (أحمد بن علي): ٥٥

محمد بن الفضل: ٥٢

محمود (السيد): ٧٥

محمود (السلطان السلجوقي): ٨١، ٢٤١

محمود بن سبكتكين (السلطان): ٣٤٠

مريم: ٦٣، ١٠٣

المزني: ٣٥

مسعود (الأمير): ١٧٦، ١٧٧

مسعود (السلطان الغزنوي): ١٥٦، ١٥٧

- مسلمة بن عبد الملك: ٢٤٨
- مصعد النوقاني (السيد): ٢٦٣
- المطهر (ابن الشيخ): ٣٣٠
- المظفر بن حمدان النوقاني (السيد الإمام): ١٢١، ١٨٦، ٢٦٢، ٢٦٣
- المظفر السمعاني: ٣٥٨
- معاذ: ٢٣٤، ٢٢٧، ٢٤٦، ٢٩٣
- معاوية بن أبي سفيان: ٢٣٢
- معروف الكرخي: ٤١، ٤٧، ٦٢
- المعشوق الطوسي: ١٢٤
- المعمر الأزهري: ٢٣٧
- المفضل (ابن الشيخ): ١٩٣، ٣٣٠، ٣٦٨
- ملكشاه (السلطان): ٩، ٣٣٩، ٣٦٢
- المنور بن أبي سعيد (نور الدين): ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٨
- موسى (النبي): ٢٤٧، ٢٨٨، ٣٢٠، ٣٥١
- موسى (الشيخ): ١٢٧
- مهد (مهدي) البارودي (الشيخ): ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨
- ميرة: ١٦٣
- الميكاليين: ٢٦٢

(ن)

- ناصر الدين أبو محمد: ٣٥٩
- ناصر المروزي (الشيخ): ٣٨

التجار (السيد): ٢٠٢، ٣٢٩، ٣٣٨

نظام الملك (حسن): ٧٢، ١٠٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ٣٥٢، ٣٥٣،

نمرود: ٢٠١، ٢٨٢

(و)

الوليد: ٢٤٨

(هـ)

هامان: ٢٠١

هارون:

(ي)

يحيى (التركي): ١٦٤، ١٦٥

يحيى (ما وراء النهر): ١٥٢، ١٥٣

يحيى بن زكريا: ٦٣

يحيى بن معاذ الرازي: ٢٣٤، ٢٤٦

يعقوب (النبي): ٣٥١

يوسف بن الحسين: ٢٣١



أسماء الأماكن والبلاد

أبيورد (انظر: باورد)

أرزيان: ١٤٣

أزجاه: ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٨٢، ٢١٤، ٢٤٥، ٣١٢

استراباد: ٢٤٨

أستو: ٣٨

أصفهان: ١٠٠، ١٧٣، ٣٥٢

آمل: ١٦، ٥٢، ٥٧، ٦٢، ٧٦، ٢٤٩، ٢٦٦، ٣٠٧، ٣١١

أندرزن: ١٨٨

أندerman: ٥٣

باب السرة: ٢١٩

باب الحبيب: ١٨٧

باب بني شيبه: ٢٣٧

بادنة: ١٥٦، ١٥٧، ١٦١

باز: ٧١

باورد (أبيورد): ٥٠، ٥٢، ١٥٦، ١٨٢، ١٨٢، ٢١١، ٢٦٥، ٣٥٤، ٣٦٣

بخارى: ٧٧، ٨٠، ١٥٦، ٢٦٦، ٣٥٩

بسطام: ١٤١، ١٤٣، ١٤٤

بستقان: ٢٥٣

بشخوان: ١٥٤، ١٥٥

بشولة: ١١٧

بغداد: ٣٦، ٤١، ٥٠، ٢٣٨، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٩، ٢٦٦، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٥،

٣٤٦، ٣٤٧

بغشور: ٢٢٥، ٢٢٦

بلخ: ١٦٧، ١٦٨، ٣٠٥

بلغار: ١١٦

بوابة الحيرة: ١٩٠

بوابة رودبار: ١٢٥، ١٩٩

بوابة شوخنان: ١٤٨

بوابة نوبهار: ٢٠٦

بوشنج: ١٥٣

بوشنج هراة: ١٥٣

بيت المقدس: ٢٦٦، ٣٥٥، ٣٥٦

تركستان: ٢٢٨

تياران: ٤٣

جبل اللكام: ٢٣٨

جاجرم: ١٤٥، ١٤٦

جناشك: ١٤٥

الحجاز: ٩٤، ١٣٨، ١٥٥، ٢٠٩

حرو (نهر): ٤٣

حي الحرب: ٢١١

حي المسيحيين: ٧٢

حسين آباد: ٢٠٢

(خاوران): ١٥، ١٦، ٣٨، ١٩٦، ٣١٥، ٣٤٠، ٣٥٠، ٣٦٣، ٣٦٥

خانقاه سرواي: ٥٣، ٥٤

خانقاه عدني كويان (محلة): ٧٥، ٨٠، ٨٢، ٩١، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٩٩

الختن: ٢١١، ٢٦٦

خداشاد: ١٤٦

خراسان: ٨، ١٥، ٢٢، ٣٣، ٥٠، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٣٢، ١٤٢، ١٥٣،

١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، ٢٠٦، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٤١، ٢٥٢، ٣٠٠، ٣٤٠، ٣٤٤، ٣٤٥،

٣٦٣، ٣٥٨

خرقان: ١٣٨، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧

خوجان: ٣٨

دامغان: ١٤١

داندانقان: ٣٤٠

دريند: ١٤٦

دره كز: (وادي الكز): ٥٢

دستجرد: ٢١٥

دندانقان:

دو برادران: ٧١

رباط بورجا: ٢١٥

رباط زعقل: ٤٣، ١٧٧

رباط سربالا: ٣٦٣

رباط سر كله: ٤٣، ٣٣١، ٣٥٠

رباط عبد الله المبارك: ٢٢٧

الرباط القديم: ٤٣، ٣٥٤

رباط المقابر: ٤٤

ردان: ٥٣

رودبار: ١٢٥، ١٩٩

الروم: ٢٦١

ريكا: ٢١٨

رفيقان: ١٥٠، ١٧١، ١٧٢

زردك: ١٦٧

زعقل: (انظر: رباط زعقل)

سبزوار: ١٤٣

سراجان (مدرسة): ١٢٤

سرخس: ١٥، ١٦، ٣٨، ٣٩، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥٢، ٥٦، ٦٥، ٧٢، ٧٧، ١٣١، ١٣٣،

١٥٧، ١٦٤، ١٦٨، ١٦٩، ١٩٢، ٢١٢، ٢١٥، ٢٤٨، ٣٣٩، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١

سرداوه: ١٧١

سفالقان: ٣٦٢

سمرقند: ٢٤٠

سوق الكرمانيين: ٨٣، ٨٤، ١٨٩، ١٩٠

الشام: ٥٤

شامينة: ٥٢

شاه ميهنة: ٥٢

شيروان: ١٣٧

شوكان: ١٧٠

شهر ستانة: ٣٨

صلوة: ١٤٢

صومعة إدريس: ٤٣

الطائف: ١٩

طبرستان: ١٨١، ١٩٥

طرق: ٢٢٨

طوس: ٤١، ٤٣، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ١٠٤، ١٠٨، ١٢٤، ١٢٥، ١٥٠، ١٥٤،

١٦٣، ١٦٤، ١٧١، ١٧٨، ١٨٦، ١٩٣، ١٩٩، ٢٠٦، ٢١١، ٢٢٣، ٣٥٢، ٣٦٢، ٣٦٣

العراق: ١٢٢، ١٢٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٦١، ١٩٨، ٢٠٤، ٣٣٩، ٣٦٤

عرفات: ١٤١، ٢٧٨، ٣٣٧

عقبة رشك: ١٥٠

غار إبراهيم: ١٨٨

غزنيين: ٨١، ١٦١، ١٦٢، ١٦٨، ٣٣٦، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٥٢، ٣٥٣

الفرات: ٣٤٦

فراوة: ٣٨

قايين: ٢١٦

كرمان: ٣٣٣

الكعبة: ٩٤، ١٠٤، ١٤٠، ١٤١، ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٥١

كلف: ١٤٦

كوروني: ١٤٦

الكوفة: ١٥٥، ٢٣٦

ما وراء النهر: ١٠٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٩، ٢٢٤، ٢٥٩، ٢٧٦

مرو: ٨، ٩، ١٥، ٣٥، ٣٨، ٤٣، ٧٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١١٥، ١١٦، ١٥٧، ١٦٥،

١٦٦، ١٧٤، ١٧٧، ١٩٢، ٢٢٦، ٢٢٦، ٢٣٧، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٤، ٢٦٥، ٣٠٥، ٣١٢،

٣١٣، ٣٣٣، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٣

مرو الرود: ٣١٢

مكة: ١٩، ٦٣، ١٤٠، ١٤٣، ١٥٣، ٢٣٠، ٢٣٧، ٢٦٦، ٣٥٨، ٣٥٩

ملقباد: ١١٣

ميهنة (مهنة): ٧، ٨، ١٥، ١٦، ١٧، ٢٢، ٢٣، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤،

٤٦، ٤٧، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٦٢، ٦٧، ٧١، ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨١، ١٢١، ١٢٤، ١٢٦، ١٣٢،

١٣٧، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩،

١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦،

١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٩٥، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٥،

٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٨٥، ٢٨٩، ٢٩٨،

٣١١، ٣١٣، ٣٣١، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٤،

٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٨

ناوسار: ٢٤٥

نسا: ٣٣، ٣٨، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ١٥٤، ٢١١، ٣٠٨، ٣٥٨

نيسابور: ١٦، ١٧، ٧١، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٩٢، ٩٣،
٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠،
١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦،
١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٥،
١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٧، ١٦٩، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩،
١٩٠، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩،
٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٥١، ٢٥٣،
٢٥٤، ٢٥٥، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٨٥، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٣، ٣٢٩، ٣٣٥،
٣٤٩، ٣٥٠، ٣٦١، ٣٦٢

نور بخارى: ١٥٦

نوقان: ١٢١، ١٦٤، ١٨٦، ٢٦٣،

نهاوند: ١٧٥

نهر واله: ١١٦

النهر وان: ٣٤٥

هراة: ١١٥، ١١٦، ١٥٣، ١٦٢، ٢١٨، ٢١٩، ٣٠٥

همدان: ١٢٢

اليمن: ٢٦٧

ييسمة: ٥٣، ٥٥

الفهرس

٥	مقدمة الطبعة الثانية
٧	تقديم: كتاب «أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد»
١٩	مقدمة المؤلف
٢٩	الباب الأول: في بداية حال شيخنا أبي سعيد بن أبي الخير
	الباب الثاني: في أواسط حال شيخنا قدس الله روحه العزيز
٦٩	وهو ثلاثة فصول
	الفصل الأول: في الحكايات المشهورة عن كرامات شيخنا
٧١	قدس الله روحه العزيز وثبتت صحتها
	الفصل الثاني: في الحكايات التي تتأني منها فائدة، وبعض حكايات
١٨٥	الشيخ التي جرت على لفظ الشيخ المبارك من أجل الفائدة
٢٣٠	حكايات وفوائد
	الفصل الثالث : في بعض فوائد أنفاس الشيخ قدس الله روحه العزيز،
	وبعض الرسائل والأشعار التي جرت على لفظه العزيز بالقدر الذي
٢٦٩	تحقق لنا صدقه
٣٠٧	«الأدعية»
٣٩٧	

رسائل

- ٣١١ «شيخنا قدس الله روحه العزيز نورد بعضها على سبيل البركة»
- ٣١٥ الأشعار التي جرت على لسان شيخنا قدس الله روحه العزيز
- الباب الثالث: في انتهاء حال الشيخ، وهو ثلاثة فصول:
- الفصل الأول: في وصاياه عند وفاته.
- الفصل الثاني: في حالة وفاته وكيفيتها.
- الفصل الثالث: في كراماته التي جرى بعضها على لسانه المبارك أثناء حياته، وظهرت بعد وفاته، وبعضها مما أشار إليه ورآه الناس بعد وفاته على سبيل الكرامة.
- ٣٢٥
- ٣٢٧ الفصل الأول: في وصاياه عند وفاته
- ٣٣٥ الفصل الثاني: في كيفية وفاة شيخنا أبي سعيد قدس الله روحه العزيز
- الفصل الثالث: في كرامات الشيخ التي جرى بعضها على لسانه المبارك أثناء حياته وظهرت بعد وفاته، وبعض ما أشار إليه ورآه الناس بعد وفاته
- ٣٤١ على سبيل الكرامات
- ٣٧١ ثبت بأسماء الأعلام
- ٣٩٠ أسماء الأماكن والبلاد

«ننن و»